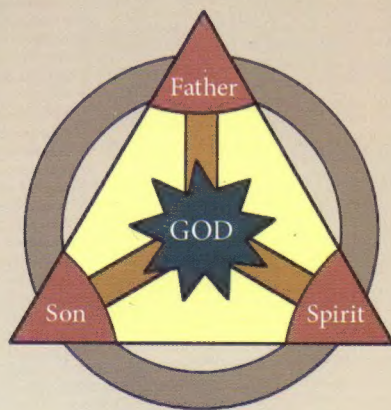


نموذج لعلم العقيدة والكلام عند مالكية الغرب الإسلامي

الإمام المحدث
أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي



دراسة وتحقيق وتقديم
د. يوسف الكلام د. نادية الشرقاوي

تثليث الوجدانية في معرفة الله نقض كتاب

ليست الرغبة في تحقيق هذا الكتاب وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى عقد من الزمان، عندما أسسنا «جمعية الإمام ابن حزم للطلبة الباحثين في مقارنة الأديان»، وكان من أهدافنا إعداد فهرسة لكتب المقارنة بين الأديان، وتكلفتنا نحن بفهرسة الخزانة الملكية.

وأثناء القيام بهذا العمل أثار انتباهنا مخطوطة لمؤلف مجهول تحمل عنوان: «نقض تثليث الوجدانية»، فقمنا بطلبها، فتبين أن المخطوطة هي لكتاب الإعلام بما في دين النصراني من الفساد والأوهام للقرطبي، فقمنا باقتناء الكتاب وقررنا إعادة تحقيقه. ولا ندعي أن ما قمنا به تحقيق تام، فلا زال ينقصه الشيء الكثير ولكن لما رأينا جهداً مهماً قد بُذل في هذا العمل، لم نشأ أن نتركه يضيع، ونحرم الباحثين في هذا المجال من الإطلاع على هذه المخطوطة التي لم تعتمد في التحقيقات السابقة، ونكفيهم مشاق التنقل إلى الخزانة الملكية وطلبها للقراءة، فقررنا نشر هذا العمل حسب ما وصلنا إليه، آمليين أن نعيد نشره مرة أخرى في طبعة منقحة مفيدة بحول الله تعالى.

المحققان



ISBN 978-993340289-1



جميع كتبنا متوفرة لدى
نيلا وفورات.كوم
www.neelwafurat.com

صفحات
للدراسات والشرح
www.darsafahat.com



نقض كتاب

تثليث الوجدانية في معرفة الله

نحو فكر حضاري متجدد

الكتاب: نقض كتاب تثليث الوجودانية في معرفة الله

تحقيق وتقديم: يوسف الكلام-نادية الشرقاوي

عدد النسخ: 1000/ عدد الصفحات: 388

الإصدار الأول 2012م



لدار

صفحات للدراسات والنشر

سورية - دمشق - ص.ب: 3397

هاتف: 00963 11 22 13 095

تلفاكس: 00963 11 22 33 013

www.darsafahat.com

info@darsafahat.com

ISBN الترميم الدولي

978-9933-402-89-1

تصميم الغلاف: جمال الأبطح

الإشراف العام: يزن يعقوب / جوال 00963 933 418 181

الإخراج الفني: فؤاد يعقوب / جوال 00963 933 902 764

نقض كتاب تفسير الوعدانية في معرفة الله

نموذج لعلم العقيدة والكلام
عند مالكية الغرب الإسلامي

الإمام المحدث
أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي



تحقيق وتقديم
د. يوسف الكلام د. نادية الشرقاوي



المحتوى

5.....	المحتوى
7.....	تقديم
7.....	من مصادر علماء الإسلام في مجادلة أهل الكتاب.
9.....	المصدر الأول: القرآن الكريم:
23.....	المصدر الثاني: الكتب والنصوص الدينية المقدسة:
39.....	المقدمة
55.....	مقدمة المؤلف
61.....	صدر الكتاب
69.....	الباب الأول: في بيان مذاهبهم في الأقانيم وإبطال قولهم فيها
71.....	الفصل الأول: الأقانيم أسماء أفعال في حكاية كلام السائل والجواب عنه.
77.....	الفصل الثاني: أقانيم القدرة والعلم والحياة.....
85.....	الفصل الثالث: تحليل التثليث في حكاية كلامه أيضا
91.....	الفصل الرابع: دليل التثليث في حكاية كلامه أيضا
95.....	الفصل الخامس: في بيان اختلافهم في الأقانيم
105.....	الباب الثاني: في بيان مذاهبهم في الاتحاد والحلول وإبطال قولهم فيها
107.....	الفصل الأول: اتحاد الكلمة في حكاية كلام هذا السائل
113.....	الفصل الثاني: معنى الاتحاد
121.....	الفصل الثالث: الواسطة بين الله وبين موسى
131.....	الفصل الرابع: تجسد الواسطة
145.....	الفصل الخامس: في حكاية كلام المتقدمين [منهم في الاتحاد وبيان اختلافهم فيه]
161.....	الفصل السادس: في حكاية مذهب أغشنتين إذ هو زعيم القسيسين
177.....	الباب الثالث: في النبوات وذكر كلامهم [فيها]
179.....	القسم الأول:
	الفصل الأول: [احتجاج أصحاب الملل] في حكاية كلامه قال ابتداء احتجاج الثلاث ملل بعون
179.....	الله:
195.....	الفصل الثاني: [المسيح المنتظرا]
199.....	الفصل الثالث: [المسيح عيسى ابن مريم]
225.....	فصل في بيان أن الإنجيل ليس بمتواتر وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل
237.....	الفصل الرابع: [هاجر أم إسماعيل الذبيح]

القسم الثاني: في النبوات وإثبات نبوة محمد[عليه من رينا أفضل الصلوات وفيه مقدمتان	
وفصول]	261
المقدمة الأولى	261
وأما المقدمة الثانية	265
الباب الرابع: في بيان أن النصرارى متحكمون في أديانهم وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم إلا	
محض أغراضهم وأهوائهم	283
الفصل الأول: ليست النصرارى على شيء	285
الفصل الثاني: خروج النصرارى على تعاليم التوراة والإنجيل	289
الفن الأول: شعائر الدين النصراني وطقوسه	295
مسألة في المعمودية	296
مسألة في الصلوية وقولهم فيها .	303
مسألة في تركهم الختان	312
مسألة في صيامهم	314
مسألة في أعيادهم المصانة	316
مسألة في قريانهم	319
مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالملح	322
مسألة في تصلبهم على وجوههم في صلاتهم	323
مسألة في قولهم في النعيم والعذاب الأخراوين	324
الفن الثاني: محاسن دين الإسلام	329
تمهيد	329
الفصل الأول: اعتقاد المسلمين	331
الفصل الثاني: [دفاع عن الإسلام]	339
ملحق 1: نص كتاب "تثليث الوجدانية في معرفة الله"	351
ابتداء احتجاج الثلاث ملل بعون الله:	358
ملحق 2: كلام صاحب الحروف	371
ملحق 3: كلام صاحب المسائل	373
ملحق 4: كلام أغشتين	375
لائحة المصادر والمراجع	381

تقديم

من مصادر علماء الإسلام في مجادلة أهل الكتاب.

اهتم المسلمون في ظل الحضارة الإسلامية بعلوم شتى تنوعت مشاربها ومنابعها، فبرزوا في العلوم الشرعية ونبغوا في العلوم الكونية والإنسانية. ولقد دفعهم إلى ذلك دعوة القرآن إلى العلم والتعلم وحثه عليهما، وساعدتهم عليه ليونة الدين الإسلامي، وسعة صدره في احتواء كل الفعاليات الفكرية، واستيعابه لكل الطاقات البشرية بغض النظر عن نزعاتها العرقية، وقد ساهم في إغناء المعارف الإسلامية اعتراف القرآن الكريم بمختلف العقائد الدينية، وفتحه لباب الحوار معهم تحت مبدأ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾¹، فتمكن العديد من غير المسلمين من العمل في ظل الحكم الإسلامي، ومارسوا نشاطاتهم الدينية بكل حرية دون أن تكون معتقداتهم المخالفة للإسلام عائقا يمنعهم من بلوغ المناصب الكبرى التي يرغبون في الظفر بها، بل على العكس، تمكن كثير منهم بفضل مكانتهم العلمية، خصوصا في الطب والترجمة، أن يحتلوا مكانة مرموقة ومناصب هامة في قصر الخلافة الإسلامية في المشرق أو المغرب.

وكان لابد في ظل هذا التنوع العقائدي والاختلاف الفكري، من ظهور ونشأة علم من أبرز العلوم التي عرفتها الحضارة الإسلامية، وهو علم مقارنة الأديان. وإذا كان التعريف الذي يعطيه الغرب اليوم لهذا العلم هو: "اتخاذ الأديان بعامة -كتابية أو وضعية - والعقائد الدينية أو الملل والنحل موضوعا للدراسة العلمية بمناهج موضوعية لها أصولها وخصائصها وضوابطها التي اصطلاح عليها أهل هذا الحقل".² فذلك بالضبط هو ما أقامه علماء مقارنة الأديان المسلمين ممثلا في كتاباتهم، وقد سلكوا في ذلك مناهج عديدة نذكر منها:

1. المنهج التاريخي الوصفي: أي الاختصار على ذكر نشأة كل ديانة، والتعريف بأعلامها، وعقائدها، وكتبها، وفرقها، وبرز في هذا المنهج البيروني والشهرستاني.

1-سورة البقرة آية 256.

2-بحوث في مقارنة الأديان، محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دار الفكر العربي 1410هـ/ 2000م، ص: 32.

2. المنهج التحليلي والمقارن: ويعتمد على تحليل كل ديانة ومقارنتها بأخرى، على مستويات عدة، ويعد أبو الحسن العامري رائدا في هذا المنهج.

3. المنهج النقدي: ويعتمد فيه صاحبه على نقد الديانة موضوع الدرس ببيان ما تتضمنه من عقائد وكتب، وأشهر من عرف من المسلمين في هذا المجال، علي بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي القرطبي.

4. المنهج التناظري الكلامي: وتميزت به المجالس والمناظرات التي كان يعقدها المسلمون مع المخالفين لهم في العقيدة، وأشهر هذه المجالس مجالس إلیا المطران ومحاورة المهدي للجاثليق.

والباعث الذي دفعنا لكتابة هذا التقديم قبل التعرض لكتاب أبي العباس القرطبي موضوع هذا العمل الذي نقدمه للباحثين المسلمين، هو سؤال كثيرا ما أرقنا ونحن نبحت في هذا العلم علم الأديان المقارنة وهو: ما هي المصادر التي اعتمدها علماء مقارنة الأديان المسلمين عند تأليفهم لهذه الكتب العظيمة التي لازلنا ندهش لدقة وموضوعية كثير منها إلى اليوم؟ وبعد بحث طويل وتقصى استطعنا حصر مصدرين مهمين هما:

1. القرآن الكريم.

2. الكتب المقدسة للديانات المخالفة.

وهذا لا يعني عدم وجود مصادر أخرى اعتمدها علماء المسلمين في مجادلة أهل الكتاب، بل هناك مصادر كثيرة استعان بها هؤلاء في كتاباتهم الجدلية نذكر منها اعتمادهم على:

1. المؤلفات الفقهية لأصحاب الملل والعقائد المخالفة.

2. كتب التاريخ التي وضعها أصحاب الملل والعقائد المخالفة للتأريخ لدياناتهم كتاريخ يوسيفوس اليهودي، وتاريخ الجامع الكنسية وغيرها.

3. المناظرات الكتابية والشفهية بين المسلمين ومخالفهم.. إلخ

ولكننا سنكتفي في هذا التقديم الذي أحببنا أن نضعه لكتاب أبي العباس القرطبي على ذكر المصدرين الأولين فقط حتى لا نطيل كثيرا، على أن نقوم بنشر باقي المصادر في بحث مستقل بحول الله، وهدفنا من ذلك تنبيه القارئ على أن المسلمين لم يخوضوا في هذا العلم إلا بعدما أحاطوا بمصدرهم الأول وبمصادر مخالفهم المعتمدة.

المصدر الأول: القرآن الكريم:

يحتل القرآن الكريم المرتبة الأولى في الإسلام في كل جوانب المعرفة، فهو المصدر الأول لمعرفة أصول العقيدة واستنباط أحكام الشريعة، كما يعد المصدر الأساس الذي عرف من خلاله علماء مقارنة الأديان المسلمين عقائد الأمم السالفة والحضارات الغابرة. فمبدأ الحوار وطريقة الحجة والمناظرة اللذان اتبعهما القرآن الكريم لإثبات ما يدعيه من عقائد جديدة، جعله قبل الرفض والطعن في أي من تلك التي كانت تعج بها جزيرة العرب، وعلى الخصوص مكة المركز التجاري والديني الذي كان يستقطب مختلف الأجناس إما للتجارة أو العبادة في موسم الحج، أن يواجههم أولاً بما يقولون ويأخذ منهم إقراراً بكل ما يدعون، وذلك حتى لا تتسبب إليه تهمة الفرية، فكان يبدأ بعرض أقوالهم العقيدية، ثم يأتي على تنفيذها بالحجة والبرهان، وبيان مواطن الخلل وأماكن الزيغ والزلل فيها، وكان لا يتردد في ذكر حتى تلك التي تمس مبدأ التوحيد الذي كان يدعو إليه، أو تلك التي تصف الذات الإلهية بالنقص، أو تمس جلال الله وعزته، ثم يدحضها بالحجة والدليل. وأهم العقائد التي تعرض إليها القرآن بالنقض بعد أن ذكر مقالات أصحابها بأمانة هي:

عقيدة المشركين والدهريين: كان المشركون أول من واجه القرآن الكريم في دعوته وذلك لغالبيتهم العظمى في المجتمع العربي عموماً والقرشي خصوصاً، وكعاداته، ذكر القرآن عقائدهم سواء تلك القائلة بوجود آلهة مع الله، أو تلك التي تعتقد أن الملائكة بنات الله.. وليبيان بطلان كل هذه العقائد، كان خطاب القرآن للمشركين على مستويات كثيرة منها:

- ذكره لأقوالهم في الشرك، وذكر السبب الذي لأجله ينسبون الشريك لله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ¹ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ²﴾.

- بيان أن شركهم بالله لا يقوم على العلم ولا يستند لدليلاً وإنما هو اتباع للظن: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِنَّ يَسْعَوْنَ إِلَّا الْظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ³﴾.

1-سورة الزمر الآية: 3.

2-سورة يونس آية: 66.

- بيان حقيقة شركائهم وما يتصفون به من العجز: ﴿إِشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٥﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَبِيعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٧﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ١.

- تبرؤ الشركاء من المشركين يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ ٢ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ ٣.

- دعاؤه لهم للتخلي عن العناد والرجوع للحق الذي يعرفونه حق المعرفة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ٣.

- بيان استحالة الشرك في العقول السليمة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٤﴾، ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٥﴾، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءِاهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَنْفَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٦.

- بيان خطورة الشرك وعاقبة المشركين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ٧ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ٧.

1- سورة الأعراف الآيات: 191-195.

2- سورة يونس آية: 28.

3- سورة الأنعام، الآية: 40-41.

4- سورة الأنبياء، الآية: 22.

5- سورة المؤمنون، الآية: 91.

6- سورة الإسراء الآية: 42.

7- سورة النساء الآية: 116.

أما الدهريون فقد ذكر القرآن قولهم الذي لا يستند إلى العلم، فقال عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.¹

وقد استفاد علماء مقارنة الأديان المسلمين من هذه الآيات البينات في الرد على المشركين والدهريين، فهذا أبو بكر الباقلااني في كتابه التمهيد يستوحي دليله في إثبات أن الصانع للعالم واحد من قوله عز وجل: ﴿إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ حيث يقول: "وليس يجوز أن يكون صانع العالم اثنين ولا أكثر من ذلك، والدليل على ذلك أن الاثنين يصح أن يختلفا ويوجد أحدهما ضد مراد الآخر فلو اختلفا وأراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته لوجب أن يلحقهما العجز"²، وكما يظهر فهو استدلال مستوحي أيضا من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبَتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

واستعمل ابن حزم نصوص القرآن في البراهين التي قدمها لإثبات حدوث العالم، فبعد أن قدم البرهانين الأولين ختمهما بقوله: "وهذان الدليلان قد نبه الله تعالى عليهما وحصرهما بحجته البالغة إذ يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾"³⁻⁴، وختم برهانه الثالث أيضا بقوله: "وقد نبه الله تعالى إلى هذا الدليل وحصره في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ﴾"⁵⁻⁶، وعزز برهانيه الرابع والخامس قائلا: "وقد نبه الله تعالى على هذا الدليل وعلى الذي قبله وحصرهما في قوله: ﴿وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾"⁷⁻⁸.

1- سورة الجاثية الآية: 24.

2- القاضي أبو بكر الباقلااني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة 1414هـ/1993م بيروت لبنان ص: 45.

3- سورة الرعد، آية: 8.

4- أبو محمد علي بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت لبنان الطبعة الثانية 1416هـ/1996م، الجزء الأول ص: 59.

5- سورة فاطر، الآية: 1.

6- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص: 62.

7- سورة الجن، الآية: 28.

8- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص: 63.

هكذا نرى كيف كان علماء الإسلام يستحضرون آيات الذكر الحكيم وهم يردون وينتقدون كل من خالف الدين الحنيف. وبالقُرآن مرة أخرى رد كل من الباقلاني وابن حزم على النصارى والمجوس لتعدادهما لهما من المشركين لقولهم بالتثليث والتشوية، وسيأتي الحديث عن ذلك في موضعه.

عقيدة المنكرين للبعث: اتبع القرآن مع المنكرين للبعث منهجا دقيقا، فهذه العقيدة ليست من الأمور السهل تقبلها عقلا، فكيف يصدق الإنسان أنه بعد أن يصبح رميما أن هناك حياة أخرى تنتظره، حياة خالدة قد تكون سعيدة أو شقية. ونظرا للصعوبة في تقبل هذه العقيدة ذكر الله أقوال المنكرين لها، حتى تبقى خالدة مسطرة في كتابه يقرأها كل من يأتي بعد ذلك في كل زمان ومكان. ويعد أن ذكر الله عز وجل الآيات الدالة على الخلق في الكون والحيوان والأنفس وأمر بالتفكر فيها حيث قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾¹. فهذا الخلق المتنوع دليل صريح على قدرة الخالق على البعث.

ولم يتردد كتاب الله من سرد تساؤلات هؤلاء واستغرابهم واستبعادهم لما يدعيه القرآن بخصوص البعث، ثم رد عليهم بالحجة الدالة على حدوثه فقال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۚ﴾ * ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾²، وقال تعالى أيضا على لسان هؤلاء المنكرين: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۚ﴾ * ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۚ﴾ * ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ۚ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾³، وبين تعالى في آخر سورة يس أن قدرة الله تغير من طبيعة

1- سورة آل عمران، الآية: 190-191.

2- سورة الإسراء، الآيات: 98-99.

3- سورة الإسراء، الآيات: 49-51.

الأشياء إلى نقيضها، وبالتالي فالبعث ليس بالعزیز على الله المقتدر: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۚ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ ۚ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝¹،
فأالله بقدرته التي جعلت من الشجر الأخضر نارا باستخراج زيت يوقدون منها - والعادة أن النار تحتاج الشجر اليابس للاشتعال - قادر على أن يحيي العظام وهي رميم. وبين في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ ﴾² أن الصعوبة والاستغراب الحقيقيين هما في الخلق الأول وليس في إعادة الخلق.

إن هذا المنهج الاستدلالي في إثبات الحقائق التي جاء بها الإسلام كان الصراط الذي سار عليه علماء مقارنة الأديان، والسراج الذي أضاء لهم الطريق للوصول وإيصال الحق.

عقيدة المنكرين للنبوة: لم يترك القرآن قذفا ولا تهمة رمى المنكرون بها نبي الإسلام عليه السلام، أو اتهموه بها إلا وأوردها ثم ردها وأدحض حججهم فيها، فرد عنه تهمة الساحر والمجنون والكاهن والشاعر، وبين أن كل هذه الادعاءات مردها عدم تمييز هؤلاء لمفهوم النبوة التي يدعيها محمد عليه السلام عما كان سائدا عندهم من مفاهيم، حيث كانوا يعتقدون أن لابد لهذا الذي يدعي النبوة أن يكون ملكا أو تربطه بالله صلة غير كونه عبدا بشرا فقال: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ۚ ﴾³، وقال: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۚ ﴾⁴ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْمٍ لِّمِ يَنْسِفُ فَيُفْجِرَ الْآثَنَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ ﴾⁵ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ ﴾⁶ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

1- سورة يس، الآيات: 78-81.

2- سورة الروم، الآية: 27.

3- سورة الذاريات، الآية: 52.

لِرُقِيكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ¹ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٢٠﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٢١﴾¹

و لم يهمل المسلمون في ذكرهم للعقائد والمثل هذه العقيدة، بل نجدهم فصلوا فيها وميزوا بين المنكرين للنبوّة مطلقا وهم البراهمة، والمنكرين لبعضها وهم الصابئة والمجوس واليهود والنصارى، وفي هذا الباب يقول ابن حزم: "ذهبت البراهمة وهم قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند ويقولون أنهم من ولد برهمى ملك من ملوكهم قديم... وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبوات"²، ويخصوص المنكرين لبعض النبوات يقول: "إن أهل هذه الملة يعني اليهود وأهل هذه النحلة يعني من أنكر التثليث من النصارى موافقون لنا في الإقرار بالتوحيد ثم النبوة وآيات الأنبياء عليهم السلام وينزل الكتب من عند الله عز وجل إلا أنهم فارقونا في بعض الأنبياء عليهم السلام دون بعض وكذلك وافقتنا الصابئة والمجوس على الإقرار ببعض الأنبياء دون بعض"³.

أما الباقلاني فقد خصص بابا للكلام على المجوس وآخر للكلام على البراهمة، فيقول: "وقد افترقت البراهمة على قولين: فمنهم من جحد الرسل وزعم أنه لا يجوز في حكمة الله سبحانه وصفته أن يبعث رسولا إلى خلقه وأنه لا وجه من ناحيته يصح تلقي الرسالة على الخالق سبحانه، وقال الفريق الآخر إن الله تعالى ما أرسل رسولا سوى آدم عليه السلام وكذبوا كل مدع، وقال قوم منهم بل ما بعث الله تعالى غير إبراهيم وحده وأنكروا نبوة من سواه"⁴.

وتعرض القاضي عبد الجبار للفرق المجوسية خاصة، وسيأتي الحديث عن ذلك، وألف البيروني كتابا جمع فيه عقائد البراهمة كلها وذكر كتبهم العقديّة والتشريعية وترجم اثنين منهما حيث يقول: "وكنّ نقلت إلى العربي كتابين أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات واسمه "سانك" والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف بـ"باتجل"

1- سورة الإسراء 90-94

2- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول ص: 137.

3- نفسه ص: 177.

4- تهديد الأوائل.. ص: 126-127.

وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم، وأرجو أن هذا ينوب عنهما وعن غيرهما ويؤدي إلى الإحاطة بالمطلوب بمشيئة الله¹.

عقيدة أهل الكتاب: أما أهل الكتاب فقد ذكر القرآن كثيرا من عقائدهم وشرائعهم وقصص حكايتهم مع أنبيائهم، وتعرض للفساد والتحريف الذي عرفتته عقيدتهم نتيجة لغلوهم في الدين، وبين كتاب الله الكريم أن رفض أهل الكتاب للإسلام ورسوله هو من باب العناد والتعصب، فقال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾².

عقيدة اليهود في القرآن: تحدث القرآن عن كثير من العقائد والممارسات اليهودية، وإذا كان كتاب الله قد اعترف باليهودية كديانة سماوية، واعترف بأن التوراة كتاب الله المنزل على كليمه موسى عليه السلام، فقد أنكر على اليهود ما هم عليه وبين أنه مخالف لما جاء به موسى عليه السلام، فخطأهم فيما يتصورون بخصوص الذات الإلهية وما يصفون به الله عز وجل من نقص كوصفهم له بالفقر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾³، وهولهم إن يده مغلوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾⁴ وادعائهم أن عزيرا ابن الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾⁵. وأما عن ما ألحقوه بكتبهم من تحريف فقد وردت عدة آيات في ذلك، منها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

1- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ت440هـ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، صبح عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الدكن الهند 1377هـ/1958م السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية 11، ص:6.

2- سورة البقرة: الآية: 120.

3- سورة آل عمران، الآية: 181.

4- سورة المائدة، الآية: 64.

5- سورة التوبة، الآية: 30.

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرْقًا يَلُونُ أَلَسْتَهُمْ بِالْكَتَبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ¹، وقوله: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا² قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتَسِبُونَ³﴾²، وقال أيضا: ﴿تُخْرِفُونَ أَلَكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ³﴾.

واستفاد المسلمون من نصوص القرآن في معرفة العقائد اليهودية واعتبروها نصوصا داعية إلى كشف حقيقة اليهود كما صرح بذلك الجاحظ في قوله: "ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا عزيز بن الله ويد الله مغلولة وأن الله فقير ونحن أغنياء وحكى عن النصارى أنهم قالوا المسيح بن الله وقال "قالت النصارى المسيح بن الله" وقال "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة" لكنت لأن آخر من السماء أحب إلي من أن ألفظ بحرف مما يقولون ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائحهم إلا بالإخبار عنهم والحكاية منهم"⁴، ولا بن حزم قول مثل ذلك حيث يقول: "ولو ما وصفه الله تعالى من كفرهم وقولهم يد الله مغلولة وأن الله فقير ونحن أغنياء ما انطلق لسان بشيء مما أوردنا ولكن سهل علينا حكاية كفرهم ما ذكره الله تعالى لنا من ذلك"⁵.

وعمل علماء المقارنة المسلمين على إثبات وجود التحريف والتناقض في كتب العهد القديم المنصوص عليه في القرآن وجعلوا منطلقهم قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ⁶ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ⁶﴾، فما عفا عنه النبي عليه السلام،

1- سورة آل عمران، الآية: 77-78.

2- سورة البقرة، الآية: 79.

3- سورة النساء، الآية: 46.

4- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المختار في الرد على النصارى، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي دار الجيل بيروت لبنان مكتبة الزهراء القاهرة الطبعة الأولى 1411هـ/1991م ص: 75.

5- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول ص: 327.

6- سورة المائدة، الآية: 15.

عملوا جاهدين على بيانه وكشفه. من أجل ذلك خصص معظمهم فصولا في إثبات التناقض في التوراة وكتب العهد القديم. فقدم ابن حزم سبعة وخمسين فصلا في كتابه الفصل لهذا الغرض، وذكر السموال بن يحيى المغربي فصلا أعرب فيه عن بعض فضائح اليهود¹، وآخر يبين فيه الافتراءات المنصوص عليها في التوراة في حق الأنبياء.² ودفع قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾³ بعلماء الإسلام إلى استخراج هذه النبوات بخصوص النبي عليه السلام في كتب العهد القديم وقد برز بشكل كبير في هذا الباب المهتدون إلى الإسلام يهودا ونصاري، وقد ذكر علي بن رين الطبري في كتابه الدين والدولة نبوات أنبياء العهد القديم بمحمد عليه السلام⁴، وذكر السموال النصوص المشيرة إلى اسمه في التوراة وكشف الحجاب عنها⁵، وقدم القرطبي بدوره فصلا في إثبات نبوته عليه السلام بإخبار الأنبياء قبله ووصفهم له في كتبهم⁶؛ وزاد السموال فصلا تحدث فيه عن النسخ الذي تنكره اليهود في التوراة راجيا من ذلك إلزام اليهود بنبوة محمد عليه السلام وشريعته باعتبارها ناسخة لكل الشرائع السماوية التي سبقتها⁷، كما نص على ذلك قوله عز وجل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁸، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾⁹.

1- السموال بن يحيى المغربي، بذل المجهود في إفحام اليهود قدم له وخرج نصوصه وعلق عليه عبد الوهاب طويلة، دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت الطبعة الأولى 1410هـ/1989م ص: 179.

2- نفسه ص: 169-171.

3- سورة الأعراف، الآية: 157.

4- علي بن رين الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ تحقيق وتقديم عادل نويهض منشورات دار الآفاق الجديدة الطبعة الرابعة 1402هـ/1982م ص: 137-179، حيث ذكر نبوات إشعيا وميخا وحقوق وصفنيا وزكريا وإرميا وحزقيال ودانيال.

5- السموال، بذل المجهود في إفحام اليهود، ص: 86-91.

6- القرطبي، الإعلام بما في دين النصاري من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ص: 263-280.

7- السموال، بذل المجهود في إفحام اليهود، ص: 19-52.

8- سورة البقرة آية 105.

9- سورة المائدة آية 48.

عقائد النصراني في القرآن: أما النصراني فقد ركز القرآن عند ذكره لهم بالدرجة الأولى على عقيدة التثليث التي يقولون بها، فرفض ادعاء القائلين إن الله هو المسيح بن مريم، وادعاء القائلين إنه تعالى ثالث ثلاثة، فهما مقالتان مخالفتان لمبدأ التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام ومن قبله من الأنبياء، فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾¹ وقال أيضا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾². وانكر القرآن على لسان المسيح أن يكون هذا الأخير قد دعا الناس إلى عبادته وبراه من هذه الفرية التي نسبت إليه حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَنعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخْتِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿٣١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾³. وبين الباري تعالى أن المسيح بشر كسائر البشر لما قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾⁴، وصفة الأكل والشرب وما يترتب عنهما ليستا من صفات الألوهية.

وحرص القرآن على أن يبين أن أول ما تلفظ به المسيح وهو في المهد اعترافه بالعبودية لله عندما قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾⁵، أما ولادته المعجزة فقد بين القرآن أنها أمر ليس بالعزيز على الجبار المقتدر في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾⁶ فأمر ولادته وخلق الله ﷻ كخلق آدم بل أيسر، فأدم خلق

1- سورة المائدة آية 72.

2- سورة المائدة آية 73.

3- سورة المائدة آية 116-117.

4- سورة المائدة آية 75.

5- سورة مريم، الآية: 30.

6- سورة آل عمران، الآية: 58.

من غير أب ولا أم. كل هذه الآيات الاستدلالية نجد لها الوقع والأثر البليغ في كتابات علماء مقارنة الأديان المسلمين، وقد سبق قول الجاحظ، أما ابن حزم فلم يستطع بدوره إلا الاستفادة مما ورد من آيات في الموضوع وهو يرد على النصارى في كتابه الفصل حيث يقول: "ولولا أن الله وصف قولهم في كتابه إذ يقول تعالى لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وإذ يقول تعالى حاكيا عنهم إن الله ثالث ثلاثة وإذ يقول أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول الشنيع السمج السخيف¹."

ولإثبات التحريف في الأناجيل وأسفار العهد الجديد خصص ابن حزم سبعين فصلا في ذكر التناقضات الموجودة في الأناجيل وحدها، كما ذكر تلك الموجودة في باقي كتب النصارى²، كل ذلك لإثبات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾³. ولإثبات بشرية المسيح التي نص عليها القرآن في قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾⁴، والتدليل على نبوته ونفي بُنوته لله اجتهد علي بن رين الطبري في كتابه الرد على النصارى لاستخراج تلك النصوص الدالة على ذلك بذكره لسبع مسائل كلها من نص الإنجيل، فيقول في المسألة الثانية: "إنا نسألهم عن ما وصف به المسيح نفسه هل يكون محقا في بعض ومبطلا في بعض، فإن قالوا إنه محق في بعض ذلك ومبطل في بعضه كفروا به وكذبوا بأخباره، وإن قالوا إنه محق في جميع ذلك فقد أقروا بأنه مبعوث وأنه مريوب وأن الله واحد فرد... لأن المسيح قال عن نفسه ما حكاه عنه يوحنا في آخر إنجيله أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم... وقال يوحنا التلميذ في الفصل الخامس من إنجيله إنني لم آتي لأعمل بمشية نفسي بل بمشية من أرسلني ومشيته أن لا أضيع شيئا مما وهبه لي فهذا الإقرار بأنه موهوب مبعوث وليس بجحود⁵، وسلك كل من الغزالي وابن تيمية¹ والقرطبي المسلك نفسه.

1- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، الجزء الأول ص: 111-112.

2- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، الجزء الثاني، ص: 27 إلى ص: 210.

3- سورة النساء، الآية: 82.

4- سورة المائدة، الآية: 75.

5-AR-RDD'ALA-N-NASARA AT TABARI, édité par IA KHLIF, S.J et W. KUTSH, S.J mélange de l'université St Joseph tome XXXVI 1959 page: 122 (10)-123 (11).

هكذا نلاحظ أن لا أحد من علماء الإسلام حاد عن المنهج الذي رسمه القرآن، سواء في إثباته للتحريف الموجود في التوراة والإنجيل، أو لإثبات نبوة محمد عليه السلام واستخلاص النصوص الدالة على نبوته فيهما .

عقيدة المجوس: لم يأت ذكر المجوس في القرآن إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ وَالنَّصِرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ ﴾²، وتعرض كتاب الله تعالى لقولهم بالثنوية في قوله ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ۖ ﴾³.

ويقول المجوس والثنوية بوجود إلهين اثنين إله للخير وآخر للشر، أو إله للنور وآخر للظلمة واستغرب القرآن من عقول هؤلاء، حيث إذا أصابهم الشر الذي ينسبونه لغير الله دعوا الله أن يدفعه عنهم، والأولى بهم -وهم يؤمنون بإلهين اثنين- أن يدعوا إله الشر فهو من أصابهم بما يكرهون، وهو ما عبر عنه تعالى بقوله: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾⁴ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِحْتُمْ بِرَبِّكُمْ يُشْرِكُونَ⁴.

وإذا كان القرآن مقلا في ذكره لعقائد المجوس عكس ما فعل مع أهل الكتاب، فالمسلمون تعرضوا لهم بالنقض وصنفوهم مع أهل الكتاب، وقد دفع الحضور الكبير للمجوس في المجتمع الإسلامي، خصوصا في عهد الدولة العباسية بالعلماء المسلمين إلى نقض عقائد هؤلاء نظرا للمكانة الكبيرة التي احتلوها في الدولة الإسلامية، وهم من عرفوا في الفكر الإسلامي بالزنداقة⁵، أضف إلى مكانتهم الوظيفية، فقد كانت لهم

1- أبو حامد الغزالي، الرد الجميل على الهية عيسى بصريح الإنجيل ضبط نصه وعلق عليه أبو عبد الله السلفي الداني بن منير أزهوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر الدار النموذجية المطبعة العصرية الطبعة الأولى 1420هـ/1999م. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح مطبعة مدني القاهرة، 1379 هـ/ 1959 م.

2- سورة الحج، الآية: 17.

3- سورة النحل، الآية: 51.

4- سورة النحل، الآية: 53-54.

5- يمكن الرجوع للفهرست لابن النديم، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له يوسف علي طويل وضبط فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م. لمعرفة التواجد الهام لفئة المجوس في الدولة العباسية، فقد خصص المؤلف فصلا سماه: "أسماء وذكر رؤساء المنايا في دولة بني العباس"، ص: 522. وذكر أيضا عقائدهم وأعيادهم ومذاهبهم وفرقهم وتاريخهم، في المقالة التاسعة ص: 495-540.

مجالسهم التي يدرسون فيها كتبهم ومؤلفاتهم ويدرسونها، يقول القاضي عبد الجبار فيهم: "ومن الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة كالحداد وأبي عيسى الوراق وابن الروندي والحصري وآمالهم في الطعن في الربوبية وشتم الأنبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه وملوكه أكثر مما كانوا إذ ذاك وأشد ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز".¹، ولوجود هذه المجالس التعليمية التي كانت لهم والتي تسببت في افتتان بعض المسلمين بهم انتقدهم القاضي عبد الجبار حيث قال: "والمنانية تزعم أن الفلاسفة عنها أخذت هذه المذاهب وإنما ذكرت ذلك بهذا المكان لتعرف مقدار عقول الزنادقة والملحدة ولولا فتنة قوم من الرؤساء والكتاب والوزراء بهم ما ذكرناهم"²، وبالإضافة إلى القاضي عبد الجبار فقد تعرض كل من ابن حزم والباقلاني لمختلف عقائد الفرق المجوسية الديصانية، والمزدكية، والخرمية والمنانية...

لقد أثر القرآن بشكل كبير على علماء مقارنة الأديان المسلمين حتى في طريقة تصنيفاتهم وتبويب كتبهم، فنجد أن أهم الأديان التي تعرضوا لها لا تخرج عما ذكر القرآن إلا في بعض التفاصيل، ويظهر ذلك جليا في كتاب أبي الحسن العامري الإعلام بمناقب الإسلام حيث جعل منطلقه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِغِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾³ فقارن بين الأديان الستة على كل المستويات عقديا وتشريعا ونصا، ورغم تقسيم ابن حزم في مقدمة كتابه الفصل للفرق المخالفة للإسلام إلى ست⁴، الأمر الذي قد يبدو غريبا، إلا أن قراءة الكتاب تظهر أن كل ما تطرق له ابن حزم من الأديان داخل في ما نص عنه القرآن، فقد تعرض للدهريين في الفرقة القائلة بأن العالم لم يزل وأنه لا مدبر له، وأدخل النصارى والمجوس مع المشركين في الفرقة القائلة بأن العالم محدث وله أكثر من مدبر، وأدخل البراهمة في الفرقة المنكرة للنبوة مطلقا، واليهود

1- القاضي عبد الجبار الهمداني، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان الجزء الأول دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان د ت، ص: 129.

2- نفس المصدر السابق ص: 80.

3- سورة الحج، الآية: 17.

4- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول ص: 36-37.

والنصارى والمجوس مرة أخرى في الفرقة المنكرة لبعض النبوات، فيكون بذلك تعرض لما سبق وأن ذكره القرآن عن الأديان المخالفة للإسلام.

وقبل أن أختتم الحديث عن هذا المصدر تجدر الإشارة إلى مسألة هامة بخصوص تعرض المسلمين للأديان، وهي أن علماء المقارنة المسلمين فصلوا في بعض الأديان مع أن القرآن كان مقلا في ذكرها وبالأخص عقيدة الدهريين وعقيدة المجوس، فعن الدهريين لم يرد في كتاب الله إلا قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُلْكَئُنَا إِلَّا الْآدَهُ﴾¹ وعن المجوس لم يرد سوى الآيتين السالف ذكرهما، في حين نجد ابن حزم يخصص فصلا طويلا في إثبات حدوث العالم وتقديم البراهين على ذلك لإفحام الدهريين، ولعل ذلك راجع لوجود الإلحاد في مجتمعه يدل على ذلك حديثه عن مناظرات عديدة له مع الملحدين حيث يقول: "وقد أخبرني بعض أصدقائنا وهو محمد بن عبد الرحمان بن عقبة رحمه الله تعالى أنه عارض بهذا البرهان بعض الملحدين وهو عبد الله بن عبد الله بن شنيف فعارضه بقوله بخلود الجنة والنار"² وقال أيضا: "وقد قال بعض أهل الإلحاد"³، وقال في مكان آخر: "وانما هو رأي قلدوا فيه بعض قدماء الملحدين..."⁴، ونفس الأمر قام به الباقلاني حيث قدم بابا للكلام في إثبات حدوث العالم⁵، وفصل القاضي عبد الجبار في كتابه تثبیت دلائل النبوة القول عن المجوس، ولعل هذا الأمر راجع كما قلنا للحضور الكبير للمجوس في الدولة العباسية، وقد سبقت الإشارة إلى القسط الكبير الذي خصصه بن النديم في الفهرست للحديث عنهم مما يدل على كثرتهم وانتشار أفكارهم.

وفي الوقت نفسه نلاحظ أن القرآن خصص مجالا واسعا في مناظراته مع المنكرين للبعث، في حين لم يتعرض المسلمون لهذه العقيدة بشكل مستقل وإنما أدخلوها في حديثهم عن الملحدين بما أن المنكر لوجود الله منكر بالضرورة لوجود البعث، ومن ثم الحساب والعقاب والثواب.

1- سورة الجاثية، الآية: 24.

2- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والتعل، الجزء الأول، ص: 19.

3- نفسه ص: 19.

4- نفسه ص: 32.

5- الباقلاني، تمهيد الأوائل.. ص: 41.

2. المصدر الثاني: الكتب والنصوص الدينية المقدسة:

بيننا أننا أن القرآن هو المصدر الأساس الذي اعتمد عليه المسلمون في معرفة العقائد المخالفة لدين الإسلام، لكننا عندما نقرأ القرآن نجد أنه لم يذكر عن عقائد المجوس إلا قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ولم يذكر لهم نبيا ولا كتابا ولم يرد فيه ذكر للبراهمة ولا لكتبيهم، وعن أهل الكتاب لم يذكر من كتب اليهود سوى التوراة والألواح والزيور، ومن كتب النصارى سوى الإنجيل، وعن عقائد اليهود لم يتطرق إلا لما عرفته هذه الأخيرة من تقلب وانحراف عن أصل التوحيد، وبعض الأوصاف التي وُصف بها الله مما لا يليق وجلاله، وعن النصارى لم يذكر من عقيدتهم غير قولهم أن الله هو المسيح بن مريم أو أن الله ثالث ثلاثة، أو أن المسيح بن الله أو أنه وأمه إلهان من دون الله.

في حين لما نقرأ ما وصل إلينا من كتب المسلمين ومؤلفاتهم في هذا العلم، نجد أنها تعرضت لكتب مقدسة لأصحاب ملل وأديان لم يرد لها ذكر في القرآن، ولعقائد غير تلك المنصوص عنها في كتاب الله تعالى، فنجدها تتحدث عن المانوية ورسولها ماني، والزرادشتية ورسولها زرادشت وعن كتبهما المقدسة، وعن البراهمة ورسولها براهمي وكتبه الدينية. أما أهل الكتاب فنجد المسلمين تعرضوا لأشياء لم يتحدث عنها القرآن فيذكرون العهدين القديم والجديد وكتب الأنبياء وأسمائهم أمثال إشعيا وميخا وحبقوق... وعن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى والتي يقول عنها اليهود أنها التوراة، كما جاء بخصوص النصارى ذكر الأناجيل الأربعة عوض الإنجيل مع ذكر أسماء من تنسب إليهم وهم متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وذكرت رسائل بولس وياقي أسفار العهد الجديد.

أما عن العقائد فتعرضوا لعقائد للمجوس ولأهل الكتاب لم يشر إليها القرآن كتجسيم الله وتشبيهه ووصفه بصفات بشرية ككونه يأكل ويشرب ويندم، وتناولت مؤلفات المسلمين عقيدة التثليث على نحو ما يقول به المسيحيون ممثلا في الآب والابن والروح القدس، وعقيدة الصلب والفداء والخلاص، وذكروا الأمانة الكبرى بألفاظها وفضلوا في مختلف الفرق المجوسية والبراهمية واليهودية والنصرانية.

فكيف تعرف المسلمون على هذه النصوص التي استشهدوا بها في مؤلفاتهم؟

لاشك أن المسلمين اطلعوا منذ زمن مبكر على الكتب الدينية التي تؤمن بها الملل المخالفة للإسلام خاصة كتب أهل الكتاب، فمنذ العصر النبوي كان المسلمون على اطلاع

واسع بكتب اليهود المتداولة بين يهود المدينة. ولقد روى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية فقال رسول الله عليه السلام: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد".¹، أضف إلى ذلك ما عرفه القرن الأول من تسرب روايات أهل الكتاب إلى كتب التفسير وهو ما عرف بالإسرائيليات، حيث بحث بعض المفسرين عن تفاصيل القصص القرآني عند أهل الكتاب. وبعد القرن الأول بدأ المسلمون يتعرفون على كتب الملل الأخرى بشكل كبير ويقومون بدراساتها وتمحيصها لبيان ما لحق التوراة من التحريف والتبديل المنصوص عليهما في القرآن، وأيضاً بهدف بيان صدق نبوة محمد عليه السلام وكشف النصوص المبشرة بقدمه عليه السلام، واهتموا بدراسة كتب المجوس والبراهمة لبيان فضل الإسلام وتمييزه عن كل الأديان باعتباره الدين الحق الذي ارتضاه الله لخلقه: ﴿آلَيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾².

ويظهر لنا تمكن المسلمين من دراسة الكتب المقدسة في مؤلفاتهم، فالهاشمي عبد الله بن إسماعيل يقول في رسالته التي وجهها إلى الكندي: وأنت تعلم أنني رجل أنت عليّ سنون كثيرة وقد تبهرت في عامة الأديان وامتحنتها، وقرأت كثيراً من كتب أهلها وخاصة كتبكم معشر النصارى، فإني عُنيت بقراءة الكتب العتيقة والحديثة التي أنزلها الله على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام. فأما الكتب العتيقة التي هي التوراة، وكتاب يشوع بن نون، وسفر القضاة، وسفر صموئيل النبي، وسفر الملوك، وزبور داود النبي، وحكمة سليمان بن داود، وكتاب أيوب الصديق، وكتاب إشعياء النبي، وكتاب الإثني عشر نبياً، وكتاب إرميا النبي، وكتاب حزقيال النبي، وكتاب دانيال النبي فهذه هي الكتب العتيقة.

فأما الكتب الحديثة فأولها الإنجيل وهو أربعة أجزاء، الأول منها بشارة متى العشار، والثاني بشارة مرقس ابن أخت سمعان المعروف بالصفاء، والثالث بشارة لوقا المططب،

1- صحيح البخاري، مراجعة وضبط وفهرسة محمد علي قطب وهشام البخاري المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الخامسة 1420هـ/1999م أخرجه في كتاب الشهادات الباب 29 الجزء 2 ص: 814، وكتاب التفسير في تفسير سورة البقرة الباب 11 الجزء 3 ص: 1354-1355، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة الباب 25 الجزء 4 ص: 2295-2296.

2- سورة المائدة، الآية: 3.

والرابع بشارة يوحنا بن زبدي. فهذه أربعة أجزاء، منها بشارة رجلين من الحواريين الإثني عشر الذين كانوا ملازمين المسيح، هما متى ويوحنا، وبشارة رجلين من الحواريين السبعين الذين كانوا للمسيح، ويعتبرهم إلى الأمم دُعاةً له وهما مرقس ولوقا. ثم كتاب قصص الحواريين وأحاديثهم وأخبارهم من بعد ارتفاع المسيح إلى السماء الذي كتبه لوقا، ورسائل بولس الأربع عشرة.¹ وهذا تصريح من الهاشمي على أنه مطلع على سائر كتب العهدين.

أما الجاحظ فيقول: "إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس اثنان منهم من الحواريين بزعمهم: يوحنا ومتى، واثنان من المستجيبة وهما: مرقس ولوقس".² أما نقله عن التوراة والإنجيل فتأيدت عنه، حيث يقول وهو يبرهن على أن نبوة المسيح هي من باب التبني والتربية لا نبوة حقيقية: "إن الله قال لإسرائيل بكري أي هو أول من تبنيته من خلقي وأنه قال لإسرائيل بكري وبنوه أولادي وأنه قال لداود سيولد لك غلام يسمى لي ابنا وأسمى له أبا وأن المسيح قال في الإنجيل أنا ذاهب إلى أبي وأبكم وإلهي والهكم"³، كما نجده نقل نصوصا من الوصايا العشر والمزامير فيقول: "ولكنهم يخبرون أن الله تبارك وتعالى قال في العشر الآيات التي كتبها أصابع الله: إني أنا الله الشديد وإني أنا الله الثقف وأنا النار التي أكل النيران أخذ الأبناء بحوب الآباء القرن الأول والثاني والثالث إلى السابع... وإن داود أخبر أيضا في مكان آخر عن الله تعالى فقال: وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر".⁴ ونقل نصوصا أخرى من سفر الخروج وسفر إشعيا وسفر التثنية.⁵

ونقل أبو الحسن العامري بدوره نصوصا من التوراة والإنجيل لبيان أن نبوة محمد عليه السلام واردة فيها فتجده يقول: "على أنا لا نصدق بهذا القول إلا أن تأتي بشهادة الألفاظ المسطرة في كتبهم خصوصا الكتابان اللذان أشار إليهما القرآن بقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾"⁶؛

1- dialogue islamo-chrétien sous le calife ALMA'MUN (813-843) les épîtres d'ALHACHIMI et d'ALKINDI thèse de doctorat de Sème cycle présenté par Georges TARTAR pasteur professeur d'arabe 1977 université des sciences humaine de Strasbourg faculté de théologie protestante pp. 8-9

2- المختار في الرد على النصارى للجاحظ ص: 71.

3- نفسه ص: 72-73.

4- نفسه ص: 76.

5- نفسه ص: 76-77.

6- سورة الأعراف آية: 157.

فتحن إذا جدراء بأن نصرف السعي إليه ونحل الشبهة بذكره فنقول: إنا وجدنا في السفر الخامس في التوراة في الفصل الحادي عشر منه قول الله تعالى لموسى: إني أقيم لكم نبيا في أنفسكم ومن إخوتكم وأيما رجل لم يسمع لما يؤديه ذلك النبي انتقمت منه، ثم في هذا الفصل بعينه: إن الرب إلهك مقيم من بنيك ومن نفس إخوتهم نبيا مثلك فاسمعوا له وأطيعوا، ثم في هذا السفر في الفصل العشرين منه إن الرب جاء من طور سيناء وطلع من ساعير وظهر من جبال فاران وعن يمينه ربوات من القديسين فمنحهم القوة ودعا لجميع قديسيه بالبركة. ثم وجدنا في الإنجيل المنسوب إلى يوحنا في الفصل الخامس عشر منه إن فارقليط روح الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء. فهذه هي ألفاظ البشارة من هذين الكتابين ولقد نقلت إلى اللسان العربي من اللسان السرياني وليس يجدها أحد من أهل المعرفة بالكتابين¹؛ وعن معرفته بكتب أهل الكتاب يقول: "فأما الأناجيل الأربعة التي كتبها تلامذة المسيح أعني متى ولوقا ومرقس ويوحنا فهي تشتمل على أخبار المسيح عليه السلام وما جرت عليه أحواله من لدن مولده إلى آخر أيامه مقرونا بذكر ما سمعوه من مواعظه وأمثاله وثنائه على الله - تعالى جده - وتسابعه ثم لا يزيد عليه. ولقد صنف شمعون الصفا بعد كتابا يعرف ببراكسيس غير أنه لم يودعه إلا أخبار تلاميذ المسيح وما تصرفت عليه أحوالهم، ثم تلاه في التصنيف بولس وسماه السليخ وهو مشتمل على ما يخالف الإنجيل من الأنباء مخالفة ظاهرة وكل ما عدا هذين الكتابين من كتب النصراني فليس يزيد على الأناجيل الأربعة شيئا"².

ونقل القاضي عبد الجبار من التوراة في كتابيه، "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، "تثبت دلائل النبوة" حيث يقول: " فقد ذكر أهل العلم أن التوراة التي في أيديهم مختلفة فيما تتضمنه وتشتمل عليه من ذكر أحكام وتواريخ واستدل بذلك على النقل فيه غير مستمر لأنه لو كان كذلك لما تغير حال ألفاظه حتى يكون في تورا اليهود ما ليس في تورا فرقة يقال لها السامرة من الزيادات والذي بأيده النصراني فيها أيضا زيادات ونقصان.. على أنه قيل إن في التوراة ما يدل على أنه ليس من كلام الله تعالى ولا من كلام موسى لأن فيها الإخبار عن موت موسى عليه السلام وعن أحوال بني إسرائيل بعده كما أن فيها الإخبار

1- أبو الحسن العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق ودراسة أحمد غرابي، الرياض، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م، ص: 202-204.

2- نفسه ص: 207-208.

عن أنبياء كانوا بعد موسى كل ذلك يبين أنه من كلام من جاء بعد موسى¹. ويقول عن البشارة بمحمد في التوراة: فأما اشتمال التوراة والإنجيل على البشارة بمحمد عليه السلام فمما عرفناه بالقرآن وقد ذكر في ذلك ألفاظا كثيرة دالة على البشارة بنبي يعظم حاله ولزوم شرعه، وذكر أن في السفر الأول من التوراة أنه تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: فأما إسماعيل فقد استجبت دعاك وعظمت ذكرك به جدا جدا واذخرته لأمة عظيمة. وفي السفر الخامس منها انه تعالى قال لموسى عليه السلام: في بني إسرائيل: إني سأقيم لهم من إخوانهم نبيا مثلك وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل ما أوصيه به. والذي يكون من إخوة بني إسرائيل لا يكون إلا محمدا عليه السلام لأنه من ولد إسماعيل، وبنو إسرائيل من ولد إسحاق².

وان كان كما يظهر من هذا النص أن القاضي عبد الجبار لم يطلع مباشرة على نصوص التوراة وإنما أخذ عن غيره بدليل قوله "فقد ذكر بعض أهل العلم" وقوله "على أنه قد قيل"، فما ذكره في كتابه تثبیت دلائل النبوة يؤكد أنه مطلع حيث يقول: "وقد قال في التوراة إن إسرائيل ابني ويكري وأولاده أبنائني. وعلى دعوى النصارى تجب لهم الألوهية وقد قال إشعيا النبي عليه السلام: في كتابه: إن الله أبو جميع العالم. وأنتم معشر النصارى تذكرون أن متى حكي في إنجيله أن المسيح قال: طوبى لكم معشر المصلحين بين الناس فإنكم تسمون أبناء الله. وقال متى في إنجيله إن المسيح قال للناس إن أباكم السماوي واحد فرد"³؛ وفي كتابه هذا فصول في إثبات نبوة محمد عليه السلام بإخباره عن النصرانية في أزبد من مائة وأربعين صفحة كلها تدل على أنه مطلع على كتب النصارى إذ تضمنت العديد من النصوص التوراتية والإنجيلية.

وان كان البيروني قد ألف كتابه: "تحقيق ما للهند من مقولة..." فهذا لا ينفي أنه اطلع على كتب أهل الكتاب، ففي مقدمة كتابه يذكر الأسباب التي دفعته للتأليف والمتمثلة في فقدان الموضوعية في الكتب التي ألقت لنفس الغرض يقول: "فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحد قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مDAHنة سوى أبي العباس

1- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل قوم نصوصه على نسختين خطيتين أمين الخولي بإشراف طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإدارة العامة للثقافة الطبعة الأولى 1360/1960م القاهرة مطبعة دار الكتب الشركة العربية للطباعة والنشر، الجزء 16، ص: 136.

2- نفسه ص: 137.

3- القاضي عبد الجبار، تثبیت دلائل النبوة ص: 120.

الإيرانشهيري إن لم يكن من جميع الأديان في شئ بل منفردا بمخترع له يدعو إليه ولقد أحسن في حكاية ما عليه اليهود والنصارى وما تتضمنه التوراة والإنجيل ويالغ في ذكر المانوية وما في كتبهم من خبر الملل المنقرضة وحين بلغ الهند والسمنية صاف سهمه عن الهدف وطاش في آخره لكتاب زرقان ونقل ما فيه إلى كتابه¹، وحكمه على كتاب أبي العباس الإيرانشهيري وشاؤه عليه، دليل على أن له اطلاعا على كتب اليهود والنصارى والمانوية والا كيف استطاع أن يقيم هذا الكتاب ويثني عليه بخصوص هاته العقائد وفي الوقت نفسه يقول عن صاحبه لما تحدث عن الهند والسمنية أن سهمه صاف عن الهدف وطاش، مما دفعه لتأليف كتابه في مقولة الهند، ويكفي أن نقرأ قوله: "وإذا تأملنا: لفظ الرب في العبرية والسريانية اللتين بهما الكتب المنزلة قبل القرآن وجدنا الرب في التوراة وما بعدها من كتب الأنبياء المعدودة في جملتها موازيا لله في العربي... فقد ذكر فيها أن بني أولوهيم نزلوا إلى بنات الناس قبل الطوفان وخالطوهم وذكر في كتاب أيوب الصديق أن الشيطان دخل مع بني أولوهيم إلى مجمعهم وفي توراة موسى قول الرب له إني جعلتك إلها لفرعون وفي المزمور الثاني والثمانين من زيور داود أن الله قام في جماعة الآلهة يعني الملائكة وسمى في التوراة الأصنام آلهة غريباء ولولا أن التوراة حظرت عبادة كل ما دون الله والسجود بل وذكرها أصلا وخطرها على البال لقد كان يتصور من هذه اللفظة أن المأمور به هو رفض الآلهة الغريباء دون التي ليست بعبودية والأمم الذين كانوا حول أرض فلسطين هم الذين كانوا على دين اليونانيين في عبادة الأصنام ولم تزل بنو إسرائيل كانوا يعصون الله لعبادة صنم "بعلا" وصنم "استروت" للزهرة².

أما اطلاعه على كتب النصارى فيظهر في قوله: "وهكذا اسم الأبوة والبنوة في الإسلام لا يسمح بهما إذ الولد والابن في العربية متقاربا المعنى ... وما عدا لغة العرب يسع لذلك جدا حتى تكون المخاطبة فيها بالأب قريبة من المخاطبة بالسيد وقد علم ما عليه النصارى من ذلك حتى أن من لا يقول بالأب والابن فهو خارج عن جملة ملتهم والابن يرجع إلى عيسى بمعنى الاختصاص والأثرة وليس يقصر عليه بل يعدوه إلى غيره فهو الذي يأمر تلاميذه في الدعاء بأن يقولوا يا أبانا الذي في السماء ويخبرهم في نفي نفسه إليهم بأنه ذاهب إلى أبيه وأبيهم ويفسر ذلك بقوله في أكثر كلامه عن نفسه أنه ابن البشر

1- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص: 4-5.

2- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص: 27-28.

وليس النصرارى على هذا وحدها ولكن اليهود تشركها فإن في سفر الملوك أن الله تعالى عزى داود على ابنه المولود له من زوجة أوريا ووعده منها ابنا يتبناه فإذا جاز التبني بالعبري أن يكون سليمان ابنا جاز أن يكون المتبني أبا¹.

واطلاعه على كتب المنانية ثابت أيضا حيث يقول: "المنانية تشابه النصرارى من أهل الكتاب وصاحبهم ماني يقول في هذا المعنى في كتاب كنز الأحياء أن الجنود النيرين يسمون أبكارا وعذارى وآباء وأمّهات وأبناء وأخوة وأخوات لما جرى به الرسم في كتب الرسل².

أما اطلاعه على كتب البراهمة فلا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ويكفي الاطلاع على الكتاب ليظهر ذلك جليا لأول وهلة، فقد خصص فصلا يذكر فيه كتبهم المليّة فيقول في باب "ذكر بيد والبرانات وكتبهم المليّة": "بيد تفسيره العلم لما ليس بمعلوم، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم "براهم" ويتلوه البراهمة تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذ بعضهم من بعض ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم ... وأما البرانات وتفسير بران الأول القديم فإنها ثمانية عشر وأكثرها مسماة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتغالها على أخبارهم أو بسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل إليها وهي من عمل القوم المسمين رشين والذي كان عندي منها مأخوذا عن الأفواه بالسمع ... وما رأيت منها غير قطع ... ثم قرأت علي من بشن بران على هيئة أخرى فأثبتها أيضا³.

ويقول أيضا: "وأما كتاب سمريت فهو مستخرج من بيد في الأوامر والنواهي عمله أبناء براهم العشرون⁴، ويضيف في الباب نفسه قائلا: "ولهم كتب في فقه ملتهم وفي الكلام وفي الزهد والتأله وطلب الخلاص من الدنيا، مثل كتاب عمله "كور" الزاهد عرف باسمه⁵ ويكفي أن البيروني ترجم اثنين من كتب الهند كما سبق ذكره ليثبت أنه كان على علم بكتب الهند ولغتهم.

1- نفسه ص: 28-29.

2- نفسه ص: 29.

3- نفسه ص: 96-101.

4- نفسه ص: 101.

5- نفسه ص: 102.

أما ابن حزم فيقول في وصفه للتوراة: "فما ظنكم بمثل هذا العدد من الكذب والمناقضة في مقدار توراتهم وإنما هي مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرا إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانقساخ أقرب يكون في السطر بضعة عشرة كلمة"¹، ويقول في حديثهم عن كذبهم على الله: "وكم عرض لنا هذا مع علمائهم في مناظراتنا قبل أن نقف على نصوص التوراة"²، وهذا قول صريح يدل على أنه وقف فيما بعد على نصوص التوراة كما يؤكد ذلك قوله: "وقد كنا نعجب من أطباق النصارى... إلى أن وقفنا على ما بأيدي اليهود فرأينا أن سبيلهم وسبيل النصارى واحد"³، ومما يدل أيضا على الأمر نفسه ما أورده من تاريخهم وتاريخ ملوكهم وكله منصوص عليه في سفرى الملوك وسفرى الأخبار الأيام. وفي نقده لباقي أسفار العهد القديم يقول: "ونذكر إن شاء الله تعالى طرفا مما في سائر الكتب التي عندهم التي يضيفونها إلى الأنبياء عليهم السلام من الفساد كالذي ذكرنا في توراتهم"⁴، ثم يردف القول: "أما كتاب يوشع فإن فيه براهين قاطعة بأنه أيضا تاريخ ألفه لهم بعض متأخريهم..."⁵، ويقول عن الزبور: "وأما الكتاب الذي يسمونه الزبور ففي المزمور الأول منه..."⁶ ثم يتعرض بعد ذلك بالنقد لكل من المزمور: 61، 88، 81، 77، 86، 107، 44،⁷ وينتقل بعد ذلك إلى كتب سليمان قائلا: "وأما الكتب التي يضيفنها إلى سليمان عليه السلام فهي ثلاثة"⁸ ومثل ذلك كله فعله معه كتاب حزقيا وإشعيا...⁹.

أما عن الأناجيل فيقول ابن حزم في وصفها: "وأما النصارى فقد كفونا هذه المؤونة كلها لأنهم لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله تعالى على المسيح... بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمنة مختلفة، فأولها تاريخ ألفه متى اللاواني تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح عليه السلام وكتبه

1- ابن حزم، الفصل: ج 1 ص: 285.

2- نفسه ج: 1 ص: 316.

3- نفسه ج 1 ص: 201.

4- نفسه ج 1 ص: 306.

5- نفسه ج 1 ص: 306.

6- نفسه ج 1 ص: 307.

7- نفسه ج 1 ص: 307-308-309.

8- نفسه ج 1 ص: 310.

9- نفسه ج 1 ص: 311.

بالعبرانية ... يكون نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط...والآخر تاريخ ألفه مارقش الهاروني ..بعد اثنين وعشرين عاما من رفع المسيح وكتبه باليونانية... يكون أربعة عشرة ورقة بخط متوسط ... والثالث تاريخ ألفه لوقا... كتبه باليونانية ...يكون من قدر إنجيل متى والرابع ألفه يوحنا ..بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة كتبه باليونانية يكون أربعة وعشرين ورقة بخط متوسط¹، وهذا الوصف الدقيق يدل على وجود الأناجيل الأربعة بين يدي ابن حزم وقت وصفه لها، بل أكثر من ذلك فقد توفر على كتب العهد الجديد حيث يصفها بنفس الطريقة قائلا: "ثم ليس للنصارى كتاب قديم يعظمونه بعد الأناجيل إلا الإفركسيس...وكتاب الوحي والإعلان.. والرسائل القانونية وهي سبع رسائل فقط منها ثلاثة رسائل ليوحنا ..ورسالتان لباطره شمعون.. ورسالة واحدة ليعقوب وأخرى لأخيه يهوذا...تكون كل رسالة من ورقة إلى ورقتين...ورسائل بولس...وهي خمسة عشرة تكون كلها نحو أربعين ورقة".²

ولم يكتف ابن حزم بمطالعة كتب أهل الكتاب المقدسة فقط، بل اطلع على تلك التي لا تقل مكانة في القدسية عنها فعند اليهود اطلع على التلمود حيث نجده يذكره في قوله: "وفي كتاب آخر من التلمود يقال له ساندرا ناشيم ومعناه تفسير أحكام الحيض"³، وعنه أيضا يقول: "وفي كتاب لهم يسمى شعر توما من كتاب التلمود والتلمود هو معولهم وعمدتهم في فقههم وأحكام دينهم وشريعتهم وهو من أقوال علمائهم..."⁴، كما كان يكتفي في بعض الأحيان بقوله عنه: "وعن بعض كتبهم المعظمة..."⁵، وأحيانا بقوله: "وفي بعض كتبهم..."⁶.

أما عن الكتب المعظمة عند النصارى غير كتب العهدين فيقول: "ثم كتاب لهم بعد ذلك بلا خلاف بينهم أنه من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطاركتهم كمجامع البطارقة والأساقفة الكبار الستة وسائر مجامعهم الصغار وفقههم في أحكامهم الذي عمله لهم دكريد الملك وبه يعمل نصارى الأندلس ثم لسائر النصارى أحكام أخرى"⁷.

1- الفصل ج 2 ص: 13-14.

2- نفسه ج 2 ص: 14-15.

3- نفسه ج 1 ص: 325.

4- نفسه ج 1، ص: 324.

5- نفسه ج 1 ص: 323-324.

6- نفسه ج 1 ص: 322.

7- نفسه ج 2 ص: 15.

كل هذه أقوال دالة على أن ابن حزم كان مطلعاً على الكتب المقدسة للنصارى وعلى قرارات مجامعهم الكنسية خاصة مجمع نيقية الذي تقررت فيه ألوهية المسيح بدليل ذكره للفرقة الأريوسية وحديثه عن أريوس¹ وذكره للأمانة الكبرى بلفظها² وهي أمانة قررها مجمع نيقية.

وإذا برع ابن حزم بنقده لعقائد اليهود والنصارى وكتبهم فقد كان أيضاً مطلعاً على كتب المجوس أيضاً خاصة كتب المانوية وأقوال رسولها ماني فهاهو يقول: "وقال المتكلمون إن ديسان كان تلميذ ماني وهذا خطأ بل كان أقدم من ماني لأن ماني يذكره في كتبه ورد عليه"³، وقال في موضع آخر في رده على أقوال المتكلمين دائماً بخصوص المجوس: "فإن المتكلمين ذكروا عنهم أنهم يقولون أن الباري عز وجل لما طالت وحدته استوحش فلما استوحش فكر فكرة سوء فتجسمت فاستحالت ظلمة فحدث منها "هرمن" وهو إبليس.. قال أبو محمد رضي الله عنه هذا أمر لا تعرفه المجوس بل قولهم الظاهر هو أن الباري تعالى وهو "أورمن" وإبليس وهو "هورمن" و"عام" وهو الزمان و"حام" وهو المكان وهو الخلاء أيضاً و"توم" وهو الجوهر وهو أيضاً الهيولي وهو أيضاً الطينة والخميرة خمسة لم تزل"⁴؛ ولا يتسنى لابن حزم أن يحكم على أقوال المتكلمين ويخطئها إلا إذا كان مطلعاً على أصول المجوس.

وقبل أن نختم هذا الحديث عن هذا المصدر الثاني من مصادر علماء المسلمين في مقارنة الأديان هناك سؤال يطرح نفسه بإلحاح وهو بأي لغة اطلع هؤلاء العلماء على هذه الكتب هل بالعربية أم بلغاتها الأصلية؟ وهو سؤال طالما شغلنا ونحن طلبة في وحدة المناظرات الدينية في الفكر الإسلامي خاصة عند ابن حزم الذي كان موضوعاً من مواضيع الدرس في سنتي الدبلوم وسأحاول هنا إبداء الرأي فيه.

لا شك أن المسلمين اطلعوا على الكتب المقدسة لمختلف هذه الأديان تارة باللغة العربية وأخرى بلغتها الأصلية. أما عن اللغة العربية فلقد عرفت الحضارة الإسلامية عصراً عرف بعصر الترجمة تم فيه نقل العديد من الكتب اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية وكان أكثر هؤلاء المترجمين نصارى وفرس ولقد تحدث ابن النديم عن عصر

1- نفسه ج 1 ص: 109.

2- نفسه ج 1 ص: 118.

3- نفسه ج 1 ص: 91.

4- نفسه ج 1 ص: 86-87.

الترجمة وذكر السبب الذي دعا المأمون إلى القيام بهذا العمل¹. أما في الأندلس فقد ذكر لنا صاحب "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام" وجود ترجمتين معتمدتين في الأندلس لدى النصارى وهما ترجمة "يرنوم" و"حفص بن بر" وكان نقله عن هذه الأخيرة في كل النصوص التي أوردها في كتابه حيث يقول في رده على من احتج عليه بنصوص التوراة والإنجيل بلفتهما الأصلية: "وأما قولك فأثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي فلتعلم أن لولا كره منا أن نتكلم برطانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شئ يلتزم ولكننا إن شاء الله تعالى نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم مثل يرنوم وحفص بن بر"²، كما أن هناك ترجمة أخرى للعهد الجديد خاصة حيث "تشير المصادر النصرانية إلى يوحنا خوان الإشبيلي الذي عاش في القرن التاسع الميلادي ويعزو إليه رودريجو حمينيت بعد عدة قرون أنه وضع تعليقات عربية على الكتاب المقدس، ودعاه العرب سعيد مطران على أنه من المؤكد أنه وجدت ترجمة عربية للعهد الجديد في مدينة قرطبة تعود إلى سنة 908م وهي من عمل إسحاق بن بلشك velasco ونجد التأثير العربي واضحا فيها فيبدأ كل الجمل بالبسملة الإسلامية ويبدو أنه كان متمكنا من العربية"³. والملاحظ أن كتب أهل الكتاب حظيت بعناية كبرى من طرف المترجمين خاصة أن كثيرا من هؤلاء كانوا كما سبق ذكره فرسا أو نصارى أو سريان⁴، وأول خبر عن التوراة والكتب الدينية لأهل الكتاب⁵ نقله لنا ابن قتيبة 276هـ حيث يقول في كتابه "تأويل مشكل القرآن": "وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر

1- ذكر ابن النديم أن من هذه الأسباب أن المأمون رأى ارسطوطاليس في منامه يقول له: "من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد، فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ص397 وذكر أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي وأسماء النقلة من الفارسي إلى العربي ص398-400.

2- القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، ص: 220.

3- عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية المدنية، الطبعة الأولى 1993/ص: 124-125.

4- من أشهر هؤلاء النقلة أبو زيد حنين بن إسحاق الطبيب النسطوري السرياني 810م-877م، وثابت بن قرة الصابئي الطبيب الفيلسوف الرياضي الوثني السرياني 826م-901م، وقسطا بن لوقا البعلبكي المولد النصراني المعتد اليوناني الأصل 820م-912م، ويحيى بن حميد بن زكريا بن عدي السرياني اليعقوبي الملقب بالمنطقي 893-973. دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها دار صادر بيروت الطبعة الخامسة 1399هـ 1979م ص: 159-169.

5- للمزيد من المعلومات حول ترجمات الكتاب المقدس يمكن الرجوع إلى مقال الأنسة ملك هنانو "من التوراة" مجلة المجمع العربي المجلد التاسع والثلاثون الجزء الثاني أبريل 1964 ص: 313-327.

أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزيور وسائر كتب الله تعالى بالعربية.¹، ويذكر المسعودي 346هـ في كتابه "التتبيه": "بظلموس الكصندر وهو الذي نقلت له التوراة نقلها له اثنان وسبعون حبرا بالإسكندرية من بلاد مصر من اللغة العبرانية إلى اليونانية وقد ترجم من هذه النسخة إلى العربي عدة ممن تقدم وتأخر منهم حنين بن إسحاق وهي أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس فأما الإسرائيليون من الإسمعت وهم الحشر والجمهور الأعظم والعنانية وهم ممن يذهب إلى العدل والتوحيد فيعتمدون في تفسير الكتب العبرانية التوراة والأنبياء والزيور وهي أربعة وعشرون كتابا وترجمتها إلى العربية على عدة من الإسرائيليين المحمودين عندهم قد شاهدنا أكثرهم، منهم أبو عشرين يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني اشمعني المذهب وكانت وفاته في حدود العشرين والثلاثمائة ومنهم سعيد بن يعقوب الفيومي اشمعني المذهب أيضا وكان قد قرأ على ابن كثير وقد يفضل تفسيره كثير منهم".² أما ابن النديم فنقل إلينا الدقة التي تمت بها ترجمة أحمد بن عبد الله بن سلام للتوراة وحرصه الشديد على ألا يزيد فيها أو ينقص فيقول: "قال أحمد بن عبد الله بن سلام ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلامذة باللغة العبرانية واليونانية والصابية وهي لغة أهل الكتاب إلى اللغة العربية حرفا حرفا ولم أبتغ في ذلك تحسين اللفظ ولا تزيينه مخافة التحريف ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته ولم أنقص إلا أن يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب فلا يستقيم لفظه في النقل إلى العربية وهو مثل أن يقول ات مايم تان- ترجمته بالعربية ماء هات فأخرت الماء وقدمت هات".³، وأما الترجمة الوحيدة التي يقول ابن النديم أنها وصلت فهي ترجمة سعديا الفيومي حيث يقول عنه: "ومن أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية ويزعم اليهود أنها لم تر مثل الفيومي واسمه سعيد ويقال سعديا... وله من الكتب كتاب تفسير إشعيا، كتاب تفسير التوراة، نسقا بلا شرح".⁴.

1- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرح وتحقيق أحمد صقر دار إحياء الكتب العربية ص: 16.

2- كتاب التتبيه والإشراف لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة 1893م ص: 112-113.

3- الفهرست لابن النديم ص: 35-36.

4- نفسه ص: 37.

أما عن كتب البراهمة فيكفي ما ذكرناه عن كتاب البيروني "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة" ففيه شفاء.

أما عن قراءة هذه الكتب الدينية بلغتها الأصلية فثابت أيضا، فهو أمر مسلم به عند المهتدين إلى الإسلام من أهل الكتاب ونذكر منهم علي بن ربن الطبري الذي نقل من التوراة باللغة العبرية في كتابه "الرد على النصارى" حيث يقول: "قال الله تعالى لموسى عليه السلام في التوراة وكل النصارى يشهدون بها أنني أنا الله "أهيا أسرأهيا"¹.

أما السموأل بن يحيى المغربي فقد أورد نصوصا كثيرة بالعبرية في كتاب "بذل المجهود في إفحام اليهود"، بل إن هدفه من التأليف كما ورد في مقدمة كتابه هو: "الرد على أهل اللجاج والعناد وأن تظهر ما يعتور كلمتهم من الفساد على أن الأئمة ضوعف ثوابهم قد انتدبوا قبلي لذلك وسلخوا في مناظرة اليهود أنواع المسالك إلا أن أكثر ما نوظروا به يكادون لا يفهمونه أو لا يلتزمونهم وقد جعل إلى إفحامهم طريقا مما يتداولونه في أيديهم من نص تنزيلهم وأعماهم الله عنه عند تبديلهم ليكون حجة عليهم موجودة في أيديهم"² ومن النصوص التوراتية التي ذكر السموأل ما جاء في أول كتابه: "أقول لهم هل كان قبل نزول التوراة شرع أم لا؟ فإن جحدوا كذبوا بما نطق به الجزء الثاني من السفر الأول من التوراة إذ شرع الله على نوح عليه السلام القصاص في القتل ذلك من قوله تعالى: "شوفخ دام ها اذم باذام دامو استافخ كي يصيلم ألوهيم ععاسا ات ها اذام" تفسيره: سافك الدم لإنسان فالحكم بسفك دمه لأن الله خلق آدم بصورة شريفة"³ وفي إشارته إلى اسمه ﷺ في التوراة قال: "قال الله تعالى في الجزء الثالث من السفر الأول مخاطبا إبراهيم الخليل عليه السلام: وأما إسماعيل فقد قبلت دعاءك قد باركت فيه، وأثمره وأكثره جدا جدا ذلك قوله: "وليشما عيل شمعتيخا هفي بيراختي أوثو وهفرتي أثو وهريتي بمادما"⁴.

أما عند باقي المسلمين فاطلاعه على التوراة والإنجيل بلغتهم الأصلية فيدل عليه ما وصلنا من كتبهم، ولعل ما أورده ابن حزم في كتابه الفصل يشير إشارة واضحة أن هذا

1- علي ابن ربن الطبري، الرد على النصارى مصدر سابق ص: 121 (9).

سفر الخروج: 14/3 אֱהִיָּה אֲשֶׁר אֶהְיֶה.

2- السموأل، بذل المجهود في إفحام اليهود، ص: 17-18.

3- نفسه، ص: 19-22، سفر التكوين: 6/9.

4- نفسه، ص: 86-87، سفر التكوين 20/17 וְלִישְׁמַעֵאל، שְׁמַעְתִּיךָ--הִנֵּה בְרַכְתִּי אֶתְּךָ וְהַפְרִיתִי

אֶתְּךָ וְהַפְרִיתִי אֶתְּךָ، בְּמֵאד מְאֹד: שְׁנַיִם-עָשָׂר בְּשִׂימָם יוֹלִיד، וְנִתְּתוּ לְגִזְיָךְ דָּלוּ.

العالم كان على علم بلغة أهل الكتاب حيث نجاه يذكر كتباً بأسمائها العبرية فيقول: "في هذا الفصل خلاف لما في كتب اليهود والتوراة التي هي عندهم في النقل كالتوراة وهما كتاب ملاخيهم وكتاب براهياشيم"¹؛ وتجدر الإشارة إلى التذكير أن لفظ التوراة عند كل علماء الإسلام إلا قليل منهم تطلق على الأسفار الخمسة²، ومن ثم فابن حزم هنا يقصد بالتوراة الكتب الخمسة ويكتب اليهود باقي أسفار العهد القديم، أما التلمود فقد سماه باسمه كما سبق ذكره أو بقوله في كتبهم المعظمة، وهكذا فكتاب ملاخيهم هو سفر الملوك وكتب براهياميم وفي النسخة غير المحققة لكتاب الفصل براهياميم³ هو سفر أخبار الأيام وتسميته لهذين السفرين بأسمائهما العبرية يوحي لنا أنه كان على علم بهذه اللغة، ويتأكد أن المقصود بالكتابين المذكورين هما فعلاً سفر الملوك وأخبار الأيام، سياق كلامه حيث يقول وهو يتحدث عن نسب المسيح في إنجيل متى ومخالفته لما ورد في العهد القديم: "وقال ها هنا أحزيا هو بن يهورام"⁴ وفي كتب اليهود إحزيا بن يورام⁵... وقال ها هنا يوثام بن حزيا هو⁶ وهو في كتب اليهود المذكورة يوثام بن عزريا بن أمصيا بن يواش بن أحزيا⁷ فأسقط ثلاثة آباء مما في كتب اليهود وهذا عظيم جداً"⁸. كما سبق الإشارة إلى قوله: "وفي كتاب آخر من التلمود يقال له سادر ناشيم ومعناه تفسير أحكام الحيض"⁹ فهذا قول لا يمكن أن يصدر إلا من دارٍ باللغة العبرية وإلا كيف يفسر لنا أن سادر ناشيم وهو فصل النساء بأحكام الحيض، وفي مكان آخر يقول: "ولا يصح لهم دليل لا من إنجيلهم ولا من غيره من الكتب أن العلم يسمى ابنا ولا في كتبهم أن علم الله هو ابنه وقد ادعى بعضهم

1- ابن حزم، الفصل ج 2 ص: 28 وهما سفر الملوك: ملخيم מלכים، وسفر أخبار الأيام: دبري هياميم דברי הימים.

2- ملك هنانو، "من التوراة" ص: 314.

3- ابن حزم، الفصل في الملل... وبهامشه الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المجلد الأول دار المعرفة بيروت لبنان ط 3 1395 هـ/ 1975 م ج 2 ص: 11.

4- متى-1: 8؛ ويورام ولد عزيا.

5- الملوك 25: 8؛ ملك أحزيا بن يورام، وأخبار الأيام الثاني 22-1؛ فأقام سكان أورشليم أحزيا بن يورام الأصغر ملكاً.

6- متى-1: 9 وعزيا ولد يوثام.

7- الملوك الثاني 11-2؛ يواش بن أحزيا، وفي الإصحاح 14-1: ملك أمصيا بن يواش، وفي الإصحاح 15-1: ملك عزريا بن أمصيا. ونفس الشيء ورد في سفر أخبار الأيام الثاني على التوالي في الإصحاح 22 عدد 11 والإصحاح 24 عدد 27 والإصحاح 26 عدد 1.

8- الفصل ج 2 ص: 28-29.

9- نفسه ج 1 ص: 325.

أن هذا تقتضيه اللغة اللاتينية من أن علم العالم يقال فيه أنه ابنه قال أبو محمد رضي الله عنه وهذا باطل ظاهر الكذب لأن الإنجيل الذي كان فيه ذكر الآب والابن وروح القدس لا يختلف أحد من الناس من أنه إنما نقل عن اللغة العبرانية إلى السريانية وغيرها معبر عن معاني تلك الألفاظ العبرانية وبها كان فيه الآب والابن والروح القدس وليس في اللغة العبرانية شئ مما ذكر وادعى¹، كيف لابن حزم أن يحكم أن ليس في اللغة العبرانية شئ مما ادعاه النصراني إن لم يكن عالماً بهذه اللغة، وأود أن أشير في هذا الباب إلى أن ابن حزم تحدث في كتابه الأحكام عن اللغات فقال: "إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير لغة واحدة... ومثل هذا كثير فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا... وإذا تيقنا ذلك فإن السريانية أصل للعربية والعبرانية معا"²، وهو كلام لا يمكن أن يصدر إلا عن عارف بهذه اللغات السامية الثلاث أما ما يستدل به المنكرون لمعرفة ابن حزم للغة العبرية والمتمثل في ما ورد عنه في قوله: "ولقد أخبرني بعض أهل البصر بالعبرانية..."³ فيكفي الرجوع إلى سياق النص لمعرفة أن ابن حزم كان في مناظرة مع اليهود حول تسمية يعقوب بإسرائيل وحتى يقنع خصمه استدل بأقوال اليهود أنفسهم حتى يسد على خصمه كل مسلك، كما نستدل نحن اليوم بأقوال الفرنسيين أو الإنجليز ونحن نعرف كلا اللغتين.

وفي حديثه عن الكتب المنسوبة إلى سليمان يقول: "وأما الكتب التي يضيفونها إلى سليمان ~~الكتب~~ فهي ثلاثة واحدها يسمى شارهسير⁴ ومعناه شعر الأشعار... والثاني يسمى مثلاً معناه الأمثال... والثالث يسمى قوهلت⁵ معناه الجوامع"⁶، فلو كان العهد القديم الذي بين يدي ابن حزم بالعربية فكيف يسمي هاته الكتب بالعبرية؟

1- نفسه ج 1 ص: 113.

2- ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، تقديم إحسان عباس منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية 1403هـ/1983م ص: 31-32.

3- الفصل ج 1 ص: 233؛ نفى إحسان عباس أن يكون ابن حزم عارفاً باللغة العبرية في تحقيقه لرسالة الرد على ابن النفريلة ضمن رسائل ابن حزم الناشر دار المروية مطبعة المدني 1360هـ/1960م، ص: 14.

4- وهو سفر نشيد الأناشيد: شیر השירים وسفر الأمثال: משלי.

5- وهو سفر الجامعة: قوهלת.

6- الفصل ج 1 ص: 310.

يجب أن لا نفعل أنه من الصعب الحصول اليوم على نسخة للتلמוד بالعربية ومعظم الترجمات الموجودة باللغات الأخرى إما غير تامة وإما فيها حذف خاصة تلك النصوص التي تمس بالمسيحية أضف إلى أن التلمود يتوفر على أسرار لا يحب اليهود أن يطلع عليها سواهم فكيف يقومون بترجمته سواء فيما مضى أو اليوم؟¹

ولقد استدل الإمام الغزالي بدوره بنصوص عبرية في كتابه "الرد الجميل على الهية عيسى بصريح الإنجيل" حيث يقول: "ولفظ التوراة: وهنا يا ذو مصورا عث كالشولخ وتفسير هذا اللفظ العبراني بالعربية: وهذه يدك برصاء كالثلج".²

ونختم هذا المصدر الثاني بالقول أن الاستدلال بالنصوص التوراتية أو غيرها بالعربية ليس بسبب جهل العلماء المسلمين باللغات الأخرى وإنما هو ناتج عن تعظيمهم للغة العربية، حيث لم يكونوا يحبون التأليف إلا بلغة القرآن، ونستنتج هذا الأمر بكل بدهة من قول القرطبي: "فلتعلم أنه لولا كره منا أن نتكلم برطانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شئ يلتزم"³.

1- لقد تحدث عبد العزيز بن عبد الله في مقال له تحت عنوان: "الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة بن ميمون وتطور التقاليد اليهودية" نشره في مجلة أكاديمية المملكة المغربية الدورة الثانية لسنة 1985م بأكادير أيام 14-16/ربيع الأول، 27-29/نوفمبر 1985م تحدث عن ترجمة كاملة للتلמוד وشرح له إلا أنه لم يشر إلى مصدر أو مرجع حتى يمكن التأكد من قوله غير الموسوعة اليهودية، حيث قال: "إسحاق بن يعقوب الكوهن الملقب بالفاسي الذي ولد في قلعة ابن أحمد قرب فاس وتوفي باليسانة عام 497هـ/1103م وهو صاحب شرح التلمود في عشرين مجلدا بالعربية وجامع ثلاثمائة وعشرين فتوى بالعربية حول التشريع التلمودي" ص: 3-4 وقال في الصفحة 6-7: "فقد اعترفت الموسوعة اليهودية بأن يوسف بن أبي ثور المتوفى بدمشق 403هـ/1012م قام بترجمة كاملة للتلמוד إلى العربية بطلب من الحكم الثاني الخليفة الأموي بالأندلس 340/366هـ-961/976م وهو خريج مدرسة قرطبة".

2- أبو حامد الغزالي، الرد الجميل على الهية عيسى بصريح الإنجيل، ص: 29. الخروج 6: 4:
יְהוָה מַצֵּאתָ לָנוּ יְהוָה.

3- القرطبي الإعلام بما في دين النصاي من الفساد والأوهام.. ص: 220.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، محمد وعلى آل بيته الطاهرين وصحابته أجمعين.

ويعد،

فإن هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ المسلم عموماً، وللمهتمين بعلم الجدل والمناظرة، والردود وعلم الكلام على الخصوص، من الكتب النفيسة والنادرة، التي ثار حولها جدل كبير، منذ عدة سنوات، وكان موضوع الجدل يدور بالأساس على هوية المؤلف من يكون؟

لقد سبق للدكتور أحمد حجازي السقا أن حقق هذا الكتاب¹، وأخرجه سنة 1980م، اعتماداً على نسخة مخطوطة موجودة في "كوبرلي"، ونسب الكتاب إلى القرطبي صاحب التفسير، المتوفي سنة 671هـ. ومع أن أحمد حجازي السقا، أشار إلى احتمال أن يكون مؤلف الكتاب شخصاً غير القرطبي المفسر، معتمداً في ذلك على ما جاء في نهاية المخطوطة التي اعتمدها في التحقيق، والتي تشير إلى أن الكاتب انتهى من رده على صاحب كتاب تليث الوجدانية سنة 684هـ، مما يؤيد في نظره أن المؤلف لا يمكن أن يكون القرطبي المفسر وإنما قرطبي آخر، إلا أنه مع ذلك مال في الأخير إلى رأي بروكلمان والدكتور "القصبي محمود زلط"، الذي ناقش أطروحته في جامعة الأزهر، عن القرطبي ومنهجه في التفسير، وصاحب كتاب هدية العارفين، حيث اتفق الثلاثة على أن الكتاب هو للقرطبي المفسر.

ولعل اللبس الذي وقع فيه الدكتور أحمد حجازي السقا، راجع إلى عدم وقوفه على كل نسخ الكتاب موضوع التحقيق، وهو خطأ يقع فيه الكثير من المحققين، الذي يكتفون بما وجد لديهم من نسخ المخطوطة قيد الدرس. وقد أشار أستاذنا الفاضل الدكتور أحمد شوقي بنين، إلى الخطر الذي قد ينتج عن مثل هذا التسرع، لما أولى أهمية قصوى لعملية التفتيش والبحث عن المخطوطات الموجودة، وإلا ستزيج أبحاثنا ولاشك في متاهة الجراءة الذاتية، البعيدة عن التروّي والبحث الموضوعي. ويضرب لنا مثلاً لإقناعنا بضرورة

1- الإمام القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبينا محمد عليه السلام، تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1980.

التروى، بكتاب سيبويه الذي حققه عبد السلام هارون، اعتمادا على أربع نسخ منه، لتأتي باحثة فرنسية وتعيد تحقيق الكتاب نفسه، اعتمادا على سبع وسبعين نسخة¹.

ولقد وقف ثلة من الباحثين على مخطوطة الخزانة الملكية وهم:

أولا: الباحث محمد إبراهيم الكتاني، حيث كتب في مخطوطة الخزانة الملكية بالمملكة المغربية بالرباط رقم 88، الموسومة بنقض تثليث الوجدانية ما نصه بالحرف: "توجد من هذا الكتاب نسخة في مكتبة كوبريلي بتركيا رقم: 794 مكرر، وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية، نسخة مصورة عنها باسم: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وأظهار محاسن الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. تأليف القرطبي؟

وفي فهرس المخطوطات المصورة، أن مؤلفه فرغ منه سنة 684هـ بالكرك المحروس (ج.أ.ص. 117). ويلاحظ أن بأخر نسخة مكتبة القصر الملكي هذه، أن أحمد بن يوسف السلاسي قرأ الكتاب على مؤلفه سنة 628هـ، وأن أحمد بن عمر قابله على المبيضة سنة 617هـ، فكيف يصح أن المؤلف أتمه سنة 684هـ؟ كما يلاحظ على هذه النسخة ما بآخرها من أنها منقولة عن نسخة كتبت سنة 726هـ. فكيف يصح مع ذلك أن تقابل سنة 617هـ وتقرأ على المؤلف سنة 628هـ، إلا أن تكون هي الأخرى منقولة من نسخة قوبلت وقورنت في التاريخين المذكورين". كتبه محمد إبراهيم الكتاني.

ثانيا: الباحث والمستشرق الهولندي فان كونيغزفيلد (VAN KONING SVELD)، وهو الذي ذكر لنا وجود نسخة من الكتاب بالخزانة الملكية وأعطى رقمها²، كما ذكر النص الموجود بأخر النسخة الذي جاء فيه: "وكان الفراغ منه أواخر يوم الخميس أواخر شهر جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين ومائة وألف بجزيرة جرية. وأما الفراغ من نسخ أصله ضحوة سادس يوم من شعبان سنة ستة وعشرين وسبع مائة بدمشق المحروسة. ووجدت على الأصل المنتسخ منه ما صورته: "قرأته على الإمام العالم الزاهد مصنفه -رضي الله عنه- بتاريخ مفتتح عام ثمانية وعشرين وستماية. وكتب العبد الفقير إلى الله أحمد بن

1- الطوبى المصطفى، مقالات في علم المخطوطات، تقديم شوقي بنين، الرباط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2000 ص: 52.

2- P.S. van Koningsveld, *La apología de Al-kindí en la España del siglo XII. Huellas toledanas de un "animal disputax"*. "Estudios sobre Alfonso VI y la Reconquista de Toledo. Actas del II Congreso Internacional de Estudios Mozárabes", vol. 3, Toledo 1989, pp. 107-129.

يوسف السلاسي: "ووجدت على الأصل أيضا: "بلغت المقابلة بالمبيضة والحمد لله وحده، وذلك على يد الفقير إلى مولاه الفني به أحمد بن عمر في العشر الأول لمحرّم سنة سبعة عشر وستماية والحمد لله حق حمده والصلاة على محمد نبيه".

ثالثا: الباحث سمير قدوري، الذي حقق نسبة المخطوطة إلى صاحبها، معتمدا أدلة علمية مؤكدة، ولم يكتف كما فعل من سبقه بالتشكيك في نسبة الكتاب إلى القرطبي المفسر، واعتمد في تحقيقه للمؤلف على ما أشار إليه المستشرق الهولندي فان كنونزفلد، ونشر مقالا أوليا بجريدة العلم في صفحة الفكر الإسلامي بتاريخ 11 يونيو 1999 وعنوانه ب: "إثبات هوية القرطبي مؤلف الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام الكتاب نسبه المستشرقون إلى غير مؤلفه الحقيقي"، ثم أعقبه بمجموعة من مقالات أكثر دقة وتوضيحا، نُشرت في مجلات عربية وأجنبية¹، بين فيها أن صاحب الكتاب، هو أبو العباس القرطبي أحمد بن عمر ت: 656هـ.

ثم جاء بعد هؤلاء مجموعة من الباحثين الذين أيدوا ما ذهب إليه من سبقوهم من كون المؤلف الحقيقي للكتاب، هو أبو العباس القرطبي، أهم هؤلاء الدكتور أحمد أيت بلعيد، الذي ناقش أطروحته لنيل درجة الدكتوراه، بعد تحقيقه للجزء الثاني من الكتاب المتعلق بالنبوات، ونشره بعنوان: "إثبات نبوة محمد"²، معتمدا في ذلك على النسخة المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط رقم: 83. وقد حقق بما لا يدع مجالا للشك أن مؤلف "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام"، هو أبو العباس القرطبي، واستفاد بشكل كبير مما ذكره سمير القدوري.

وعليه فلن نذكر في هذه المقدمة حياة المؤلف ولا مؤلفاته، فقد قام بهذا العمل أحمد أيت بلعيد وغيره من الباحثين المشار إليهم من قبل.

وما سنذكره في هذه المقدمة هو: لماذا إعادة تحقيق هذه المخطوطة؟ وما أهمية ذلك؟ ومنهجنا في التحقيق.

أولا: لماذا إعادة تحقيق الكتاب وأهمية ذلك؟

ليست الرغبة في تحقيق الكتاب وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى عقد من الزمان، إلى أيام

1- Kaddouri Samir, "Identificacion de al-Qurtubi, autor de al-I'lam bi-ma fi din al-nasara min al-fasad wa-I-awham", al-Qantara, XXI, Madrid, 1(2000), 215-219

2- منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

الدراسة بوحدة المناظرات الدينية في الفكر الإسلامي، وبالتحديد صيف سنة 2000م، حيث أسسنا نحن طلبة الوحدة، جمعية للطلبة الباحثين في علم مقارنة الأديان، أعطيناها اسم: "جمعية الإمام ابن حزم للطلبة الباحثين في مقارنة الأديان"، وكان من أهم الأهداف التي وضعناها في هذه الجمعية: إعداد فهرسة جامعة للمصنفات الإسلامية في موضوع الجدل والمناظرة والمقارنة بين الأديان، فكوناً مجموعات بحثية تكلفت كل مجموعة باللجوء إلى مكتبة معينة، والبحث في فهرسها على الكتب في مقارنة الأديان، وتكلفنا نحن بفهرسة الخزانة الملكية.

وأثناء القيام بهذا العمل في الخزانة الملكية، أثار انتباهنا، ونحن نبحث في فهرسها، مخطوطة لمؤلف مجهول تحمل عنوان: "نقض تثليث الوجدانية"، وحيث إن الكلمات التي جعلناها مفاتيح في البحث كانت من قبيل "اليهود"، "أهل الكتاب"، "أهل الذمة"، "النصارى"، "التوراة"، "الإنجيل"، "المناظرة"، "الرد"، "النقض"، "الصلب"، "الخلاص"... وغيرها من الكلمات ذات الصلة بموضوع الجدل والمناظرة والمقارنة، والتي تدخل في الحقل المعرفي الذي يشغلنا، لم نكن لنفعل عنواناً كهذا.

وبالفعل قمنا بطلب المخطوطة، وألقينا عليها نظرة أولية، وبالفعل وجدناها كما ظننا، كتاباً غنياً من حيث موضوعاته الجدلية والكلامية والعقدية، بالإضافة إلى كونه مصدراً أساساً في كتب مقارنة الأديان، وسهّل علينا العمل مع هذه المخطوطة، إشارة مهمة لمحمد إبراهيم الكتاني، في أول صفحة منها، يقول فيها إن نص المخطوطة طبع من قبل، اعتماداً على مخطوطة أخرى بتحقيق أحمد حجازي السقا، ويعنون آخر هو: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام"، وأن الكتاب ينسب للقرطبي المفسر.

دفعتنا هذه الإشارة إلى اقتناء الكتاب، ومقارنته بالمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية والنظر إذا كانت تختلف عن المطبوع أم لا؟ وكانت المفاجأة كبيرة، حيث وجدناها يختلفان ويكمل أحدهما الآخر، فما سقط في المخطوطة ثبت في المطبوع، وما سقط في المطبوع وجدناه في المخطوطة، بل إن الكثير من الكلمات، وكذا بعض الفقرات وردت في المطبوع غير مفهومة وضعتها المخطوطة وبينتها، كما لاحظنا سقطاً من حوالي ثلاث صفحات في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية.

وعليه قررنا إعادة تحقيق هذا الكتاب، وبدأنا عملنا فعلياً في فاتح شهر غشت من سنة 2000م، فكان أحدنا يقرأ من المطبوع والآخر يتابع في المخطوطة مرة، ثم يقرأ الآخر

من المخطوطة ويتابع الآخر من المطبوع مرة أخرى، إلى أن أتممنا الكتاب والمخطوطة جميعاً. بعد هذه الخطوة الأولى عزمنا على تحقيق الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والأعلام، والأماكن، والأسماء، والفرق، والمذاهب، والأشعار، والنصوص التوراتية والإنجيلية الواردة في الكتاب، ولكن نظراً لانشغالنا ببحثنا للدكتوراه أرجئنا هذا العمل إلى ما بعد مناقشة الدكتوراه، ولكن للأسف مرة أخرى، حتى بعد مناقشتنا للدكتوراه سنة 2006م، لم نتمكن من إتمام العمل لالتزاماتنا المتعددة.

ولما رأينا جهداً مهماً قد بُذل في هذا العمل، لم نشأ أن نتركه يضيع، ونحرم الباحثين في هذا المجال، على الأقل من الوقوف على هذه المخطوطة وقراءتها، ونكفيهم مشاق التنقل إلى الخزنة الملكية وطلبها للقراءة، وقد لا تتوفر لبعضهم الإمكانيات والوقت لذلك، قررنا نشر هذا العمل على حالته التي وصلنا إليها، أملين أن نعيد نشره مرة أخرى في طبعة منقحة مفيدة بحول الله تعالى. كانت هذه قصتنا مع هذا المخطوطة القيمة.

أما عن أهم سبب دعانا إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب هو عدم اعتماد المحققين السابقين للكتاب على المخطوطة المحفوظة في الخزنة الملكية. ونظنه سبب كاف لإعادة تحقيق الكتاب، خاصة والمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية احتوت على معلومات إضافية قيمة، ترفع اللبس عن كثير من الإبهام الوارد في بعض عبارات الكتاب، بالإضافة إلى السقوط الموجودة في النسخة المطبوعة، والتي تقيمها هذه المخطوطة، بالإضافة إلى ذلك، أردنا أن نكمل العمل الذي بدأه أحمد آيت بلعيد الذي اكتمل بنشر قسم من الجزء الثاني والجزء الثالث من الكتاب المتعلق بالنبوات، وهكذا سيكون مجمل الكتاب بين يدي القراء والمهتمين بهذا العلم الإسلامي الأصيل: علم مقارنة الأديان. ولا ندعي أن ما قمنا به تحقيق تام وشاف، فلأزال ينقصه الشيء الكثير ولكن حسبنا أننا قدمنا نص المخطوطة للباحثين والدارسين وقريناهما لهم وكفييناهم مؤونة التنقل للاطلاع عليها، ونرجو من الله تعالى أن تتم هذا العمل في طبعة ثانية منقحة ومحقة.

وكنماذج عن التوضيح ورفع اللبس الذي تقدمه هذه النسخة نورد بعض النماذج في ما يلي:

إزالة الخلط الموجود في الكتاب المطبوع:

مثال ذلك ما جاء في الصفحة 68 منه:

فإن العلم شرط الإيجاد، والشرط متقدم في الذهن [على فعلم ويتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم المشروط بالضرورة وكذلك نقول علم زيد فقدر ولا نقول قدر الفعلي والانفعالي].

من خلال قراءة ما بين المعقوفتين نلاحظ خلطا واضحا وكلاما غير مفهوم، والصواب ما جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية حيث يستقيم الكلام:

فإن العلم شرط الإيجاد، والشرط متقدم في الذهن [على المشروط بالضرورة، ولذلك يقول: (علم زيد فقدر) ولا تقول: (قدر فعلم)] ولتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم الفعلي والانفعالي. ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العلم: أبا والقدرة ابنا، لكان أحق بذلك وأولى.]

إقامة السقط الواقع في الكتاب المطبوع

مثال ذلك ما جاء في الصفحة 46 منه:

وقد استخرت الله في أن أجمل هذا الكتاب على صدر وأربعة أبواب.

وقد بينت المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية وجود سقط بين كلمة "الكتاب" وجملة "على صدر وأربعة أبواب" فأثبتنا السقط لتصبح الفقرة على الشكل التالي:

وقد استخرت الله في أن أجمل هذا الكتاب [غير مقصور على جواب هذا السؤال، بل أضمنه زائدا على ذلك فصولا من عقائدهم، وجملا من أحكامهم، وأنكلم معهم فيها حسب ما أمكن، وأعان الله عليه وبين. ولذلك اشتمل هذا الكتاب] على صدر وأربعة أبواب.

ومثله ما جاء في الصفحة 74 من الكتاب المطبوع:

فحصل من التقسيم، أن الأسماء على أربعة أضرب: أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء سلوب، وأسماء أفعال. وقد يقال عليها المعتبرين، فإن كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأخبار، فتكلم باصطلاحك مع نفسك، ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك.

ويظهر وجود سقط بين قوله: "وقد يقال عليها"، وقوله: "المعتبرين"، وقد بينت المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية هذا السقط:

فحصل من التقسيم، أن الأسماء على أربعة أضرب: أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء سلوب، وأسماء أفعال. وقد يقال عليها [أسماء إضافات، فهكذا ينبغي أن تفهم

اصطلاح المتقدمين والنظار] المعتبرين، فإن كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأخبار، فتكلم باصطلاحك مع نفسك، ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك.

ومثله أيضا ما جاء في الصفحة 131 من الكتاب المطبوع:

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا في الشمع... والمنحفر في الخاتم يعود ناتئا في الشمع وذلك لا يتصور إلا في الأجسام، وإن جاز في غير الأجسام، فيلزم أن يكون كل واحد منهما، أعنى: اللاهوت والناسوت يؤثر في الآخر ويحل فيه فيكون الناسوت حل في اللاهوت، وذلك محال عند كل فريق. والأمر الثاني أن النقش في الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ثم تنطبع مستقيمة...، لانطبع في الشمع منعكسة، فيلزم على مساق هذا المثال أن تنطبع الكلمة في الناسوت. أما الاستقامة أو بالعكس فإن انطبع في بالاستقامة، فأقوم الكلمة في الجوهر بالانعكاس، وإن انطبع فيه بالانعكاس، فلم تبق الكلمة في الناسوت على حقيقتها في اللاهوت، بل هي منعكسة. فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت، بل هي ليس بعلم. وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ومتحكماتهم الباردة.

فهذه الفقرة فيها سقطان أثبتتهما المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية وهو ما كتب بين معقوفتين:

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا في الشمع [فيلزم عليه أمران أحدهما: أن الناتئ من النقش في الخاتم يعود منحفرا في الشمع] والمنحفر في الخاتم يعود ناتئا في الشمع، وذلك لا يتصور إلا في الأجسام. وإن جاز في غير الأجسام، فيلزم أن يكون كل واحد منهما، أعنى: اللاهوت والناسوت يؤثر في الآخر، ويحل فيه. فيكون الناسوت حل في اللاهوت، وذلك محال عند كل فريق. والأمر الثاني: أن النقش في الخاتم يوضع مقلوب الكلمات، ثم تنطبع مستقيمة [في الشمع ولو وضعت في الخاتم مستقيمة]، لانطبع في الشمع منعكسة، فيلزم على مساق هذا المثال، أن تنطبع الكلمة في الناسوت إما بالاستقامة أو بالعكس، فإن انطبع فيه بالاستقامة، فأقوم الكلمة في الجوهر بالانعكاس، وإن انطبع فيه بالانعكاس، فلم تبق الكلمة في الناسوت على حقيقتها في اللاهوت، بل هي منعكسة. فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت، بل هي ليس بعلم. وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ومتحكماتهم الباردة.

ومثله أيضا قوله في الصفحة 193 من الكتاب المطبوع:

ولا يوثق بكتاب نبي، فلا يلزم شيء من ذلك. فإن الخبر إذا تطرقت إليه أمثال... تلك الاحتمالات، فلا يوثق بنقله، ولا يعول عليه لإمكان تلك الآفات.

وهذه الفقرة أيضا فيها سقط لم يتبين إلا بنص المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية جعلناه بين المعقوفتين:

ولا يوثق بكتاب نبي، فلا يلزم شيء من ذلك. فإن الخبر إذا تطرقت إليه أمثال [هذه الاحتمالات، فلا يكون متواترا إذا كان قابلا لها، وأما كتب الأنبياء، فكل كتاب تطرق إليه أمثال] تلك الاحتمالات، فلا يوثق بنقله، ولا يعول عليه لإمكان تلك الآفات.

ثانيا: منهجنا في الكتاب:

اخترنا لهذا الكتاب العنوان الذي وضعه م فهرس الخزانة الملكية وهو: "نقض كتاب تثليث الوجدانية"، ومن خلال دراستنا للمخطوط، تبين لنا أن الأمر يتعلق بكتاب تثليث الوجدانية في معرفة الله، فقمنا بإضافة عبارة "في معرفة الله". وعدلنا عن عنوان الكتاب الأصلي الذي هو: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه السلام"، لأننا لم نخرج الكتاب كله، ذلك أننا لم نخرج الجزء المتعلق بنبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فقد ذكرنا أنه سبق للدكتور أيت بلعيد أن أخرج هذا الجزء. ومادام الأمر كذلك فلو احتفظنا بالعنوان الأصلي للكتاب لن يكون العنوان دالا على المحتوى لحذفنا للجزء المتعلق بإثبات نبوة النبي عليه السلام.

وحيث إن المؤلف يتبع فيه منهج المتكلمين، ويناطر خصمه من منطلق أشعري محض، إلا في بعض الأماكن، نبهنا على واحد منها في متن الكتاب، وحيث إن الشائع لدى عدد مهم من الباحثين، أن بضاعة علماء الغرب الإسلامي في الجدل والمناظرة بضاعة مزجاة. ويعوّل القائلون بهذا الادعاء على ما روي عن ابن حزم، وتفوقه في الجدل على المالكية، وبعض النصوص الواردة في بعض كتب التراجم، نذكر منها ما رواه الحميدي في جذوة المقتبس، في ترجمته لأبي عمر أحمد بن محمد بن سعدي قائلًا: "فسمعت أبا عبد الله محمد بن الفرّج ابن عبد الله الولي الأنصاري يقول: سمعت أبا محمد عبد الله بن أبي زيد، يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدي المالكي، عند وصوله إلى القيروان من ديار

المشرق، وكان أبو عمر دخل ببغداد في حياة أبي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري، فقال له يوما: هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ فقال: بلى، حضرتها مرتين ثم تركت مجالسهم، ولم أعد إليها. فقال له أبو محمد: ولم؟ فقال: أما أول مجلس حضرته، فرأيت مجلساً قد جمع الفرق كلها؛ من المسلمين من أهل السنة والبدعة، والكفار من المجوس، والدهرية، والزنادقة، واليهود، والنصارى، وسائر أجناس الكفر. ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه، ويجادل عنه. فإذا جاء رئيس من أي فرقة كان، قامت الجماعة إليه قياماً على أقدامهم حتى يجلس فيجلسون لجلوسه، فإذا غص المجلس بأهله، ورأوه أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه، قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة فلا يحتج علينا المسلمون بكتائبهم، ولا بقول نبيهم. فإنا لا نصدق بذلك، ولا نقره به، وإنما نتناظر بحجج العقل، وما يحتمله النظر والقياس. فيقولون نعم لك ذلك. قال أبو عمر: فلما سمعت ذلك لم أعد إلى ذلك المجلس. ثم قيل لي: ثم مجلس آخر للكلام. فذهبت إليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم سواء، فقاطعت مجالس أهل الكلام، فلم أعد إليها. فقال أبو محمد بن أبي زيد: ورضي المسلمون بهذا الفعل والقول؟ قال أبو عمر: هذا الذي شاهدت منهم، فجعل أبو محمد يتعجب من ذلك.¹

فأردنا من خلال هذا العنوان شد انتباه القارئ إلى أن لهذه المقولة استثناءات، وربما تكون هذه المقولة هي الاستثناء، وأن الحقيقة عكس ذلك تماماً، خصوصاً والمؤلف لهذا الكتاب محدث وهو صاحب "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"، ما يفند ادعاء أن المحدثين هم أهل رواية وحفظ، وأنهم أبعد علماء الإسلام عن الجدل والمناظرة والنظر.

وقد اعتمدنا بشكل أساس نص المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية تحت رقم: 83، وأشرنا إليه اختصاراً بـ"خ/م"، مع ذكر الاختلاف مع النص المطبوع في الهامش، وأشرنا للنص المطبوع بـ"ط"، وفي الحالات الضرورية كنا نثبت نص المطبوع في المتن، ونشير في الهامش إلى ما ورد في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية؛ وذلك عند وجود تصحيف أو سقط في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية وفي بعض الحالات كنا نستبعد النصين معاً إذا ظننا أنهما خاطئان.

1- الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، تراثا المكتبة الأندلسية 3، ص: 109-110.

وذكر صاحب سير أعلام النبلاء الأمر نفسه في ترجمته للشخص نفسه، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1422هـ / 2001م، الجزء 16، ص: 251-252.

نموذج للحالات التي ورد فيها تصحيف في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية:

ما جاء في الصفحة 43-44 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاوى درجة النُّظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار، ليستزل به الأغبياء الأغما، ويحصل بذلك على مناكلة شُنار.. ولكن حل من عنقه ربة العقول، فهو في كل جهالة يحول، وإليها يدعو وبها يغور.."

فهذه الفقرة اشتملت على كلمات خاطئة هي: الأغما، يحول، ويفور، فغيرناها بما جاء في المطبوع، أي: الأغمار، ويجول، ويقول.

دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاوى درجة النُّظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار، ليستزل به الأغبياء الأغمار، ويحصل بذلك على مناكلة شُنار.. ولكن حل من عنقه ربة العقول، فهو في كل جهالة يجول، وإليها يدعو وبها يقول...

ما جاء في الصفحة 45 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "ولما أعرضوا عنك لجهالتك، تبججت بذلك عند عصابتك."

فقمنا بتصحيح كلمة "تبججت" الواردة في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية بكلمة "تبججت" الواردة في المطبوع.

ولما أعرضوا عنك لجهالتك، تبججت بذلك عند عصابتك.

ما جاء في الصفحة 154 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "أما النقل، فهو أن العاقل، إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد قر بأن الله خص ذلك الصوت وذلك الصورة."

فقد احتفظنا بكلمة "أقر" وتلك بدل "قر" وذلك الواردتين في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية.

"أما النقل فهو أن العاقل إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت وتلك الصورة."

ما جاء في الصفحة 179 من الكتاب المطبوع:

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "أفعبجت هنا بأنكم يحتج بعضهم على بعض".

أثبتنا في هذا المكان أيضا كلمة "بعضكم" الواردة في المطبوع بدل "بعضهم" الواردة في المخطوطة ليستقيم المعنى.

"أفعبجت هنا بأنكم يحتج بعضكم على بعض".

نموذج للحالات التي لم نثبت فيها أي من النصين:

ما جاء في الصفحة 44 من الكتاب المطبوع:

جاء في المطبوع وكذا في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "ومن كلام الحكمة: يزغ الله بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن. فأعرض العقلاء عنهم، واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم، ووكّلوا الناظر فيه، لظهور تناقضه وفساد معانيه".

وردت في الكتاب المطبوع والمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية كلمة "يزغ"، والصحيح يزغ، لذلك غيرناها بالكلمة الصحيحة.

ما جاء في الصفحة 72 من الكتاب المطبوع:

لا بد لكل ناظر ينظر فيها نظرت أنت فيه..

قمنا بتصحيح قوله "فيه"، بكلمة "فيها"، وأضفنا كلمة "كما"، وجعلناها بين عارضتين.

لا بد لكل ناظر ينظر فيها -كما نظرت أنت فيها-

ما جاء في الصفحة 176 من الكتاب المطبوع:

جاء في الكتاب المطبوع والمخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية: "ولكن لا عليك، فإنما هو جنا يديك، فإني لأرجو أن يقف على هذا الكتاب جماعة المطارين، ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين، فيخرجوك من بين القسيسين ويلحقوك بالرياسيين".

في الكتاب المطبوع كما في النسخة الملكية وردت كلمتان هما: "جنا"، و"الرياسيين"، وكلاهما خطأ، والصحيح "جني"، و"الأريوسيين" نسبة لأريوس القائل بالتوحيد.

"ولكن لا عليك، فإنما هو جني يديك، فإني لأرجو أن يقف على هذا الكتاب جماعة المطارين، ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين، فيخرجوك من بين القسيسين ويلحقوك بالأريوسيين."

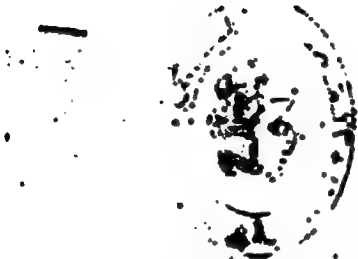
ما جاء في الصفحة 168 من الكتاب المطبوع:

وأهوى بجراك السماوة والغضا ... ولو أن صنيفيه وشاة وعذال

جاء في المخطوطة المحفوظة بالخزانة الملكية كلمتا "بجراك" و"صنيفيه"، وفي الكتاب المطبوع: "لجوان" و"صنيفيه"، وكلاهما خطأ أما الصواب فهو: "لجراك" و"ضيفيه". كما ثبت ذلك في البيت الشعري المنسوب لأبي العلاء المعري، ويقول فيه:

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع وأعجبني من حبك الطلح والضال
وأهوى لجراك السماوة والغضا ولو أن صنيفيه وشاة وعذال
أخيراً، استخرجنا نص كتاب تثليث الوجدانية، وأقوال أغشتين، وأقوال حفص بن بر
وصاحب كتاب الحروف، وصاحب كتاب المسائل، وأثبتنا ذلك في ملحق في آخر البحث.

صورة غلاف المخطوطة
وبه نص محمد إبراهيم الكتاني



تموجدة هذا الكتاب نسخة من مكتبة شوهريلر
بشركيا رقم ٧٩٤ وكبر وفيه عدد الختم
بالجماعة العربية نسخة من مكتبة شوهريلر
بشركيا

الاسكاف

بما في من النصارى من الفساد والارهاق
والاضطراب والاضطراب والاضطراب
بنينا محمد عليه الصلاة والسلام
تأليف

القمي كرمي

وفي فهرس الختم كمان في نسخة ار مؤلف
فهرس منه سنة ٦٨٤ ما ذكر في الفهرس
رجل الله الملك ويلاحظ ان ما في نسخة مكتبة
القمي الملك كمان في نسخة ار مؤلف
قرا في نسخة ار مؤلف سنة ٦٢٨ وارا احمد
عمر بن الله من نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ فليكن
في نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ كمان ما في نسخة
من نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ فليكن
في نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ فليكن
في نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ فليكن
في نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ فليكن
في نسخة ار مؤلف سنة ٦٧٧ فليكن

واشتملت على مقدمة المؤلف

وَمِنْ شَرِّهِمْ وَهُمْ يُنْفِرُونَ

١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١
 ٤٧٢
 ٤٧٣
 ٤٧٤
 ٤٧٥
 ٤٧٦
 ٤٧٧
 ٤٧٨
 ٤٧٩
 ٤٨٠
 ٤٨١
 ٤٨٢
 ٤٨٣
 ٤٨٤
 ٤٨٥
 ٤٨٦
 ٤٨٧
 ٤٨٨
 ٤٨٩
 ٤٩٠
 ٤٩١
 ٤٩٢

انفروپیت

[illegible]

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

[illegible]

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا الله.

الحمد لله الذي منّ على عباده¹ بتوحيده، وجعلنا من أفضل عبيده، الذي جنبنا² الأهواء المذلة، والآراء المضلة، أَرَانَا الحق إذ هدانا لبرهانه ودليله، وأظهر لنا الباطل. وتفضل علينا بالعدول عن سبيله. نحمده بمحامده التي لا تحصى، ونشكره على الآية التي لم تزل تترى، ونسأله الصلاة على نبيه من كافة الورى، أنبيائه ورسله أئمة الهدى، وخصوصا المبعوث إلى الثقلين، المفضل على العالمين، المؤيد بالآيات الصادقة، والبراهين القاطعة، موضح الحق بواضحات الدلائل، ومزهق³ الكفر والباطل، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وعلى جميع النبيين والمرسلين. ورضى الله عن خلفائه الراشدين، وعن صحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد وقفت - وفقك الله - على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية، سماه كتاب "تثليث الوجدانية"، بعث به من "طليطلة"، أعادها الله إلى مدينة "قرطبة" حرسها الله. متعرضا فيه لدين المسلمين، نائلا فيه من عصابة إله⁴ الموحدين، سائلا عما لا يعنيه، ومتكلما بما لا يدره، فأمعنت النظر فيه، فإذا بالمتكلم يسرف⁵ بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ⁶ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾⁶ يلحن إذا كتب، ويعجم متى أعرب:

1- في ط: علينا .

2- في خ/م: جعلنا وهو تصحيف .

3- في ط: مرهق .

4- في خ/م: الحق وهو تصحيف .

5- في ط: يهرف .

6- سورة الفرقان: 44 .

وذي خطل في القول يحسب¹ أنه مصيب، فما يلزم² به فهو قائله. دل بقوله على ضعف عقله، وبمكاتبته على سوء محاولته، تعاطى درجة النظار، وسود بأباطيله ذلك الطومار³، ليستزل به الأغبياء الأعمار⁴، ويحصل بذلك على مناكلة⁵ شنار ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾⁶، وليته إذا ادعى النظر سلك طريقه، والتزم شروطه، فاعترف بالبديهيات، ولم ينكر⁷ الضروريات التي هي أصول النظريات، ولكن حل من عنقه ريقة⁸ العقول، فهو في كل جهالة يجول⁹، وإليها يدعو وبها

1- تحسب وهو تصحيف.

2- في خ/م: يلزم وهو تصحيف لأن البيت الشعري هو لزهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه: دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل القائلين، مفاصله وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلزم به فهو قائله على معنفيه ما تغب فواضله وأعرضت عنه، وهو باد مقاتله وقد أورده في قصيدته التي مطلعها:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله

3- الطومار هو الصحيفة جاء في لسان العرب مادة طمر: والطومار واحد المطامير (قوله: «والطومار واحد المطامير» هكذا في الأصل والمناسب أن تقول والمطمار واحد المطامير أو يقول والطومار واحد الطوامير). ابن سيده: الطامور والطومار الصحيفة، قيل: هو دُخِيل، قال: وأراه عربياً محضاً لأن سببويه قد اعتد به في الأبنية فقال: هو ملحقي بفسطاط،

4- في خ/م: الأغما وهو تصحيف، والأعمار جمع غمر، بالضم، وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور؛ قال ابن سيده: ويقفاس من ذلك لكل من لا غناء عنده ولا رأي. ورجل غمر وغمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر ولم تحنكه التجارب؛ وقد روي بيت الشماخ: لا تحسبني، وإن كنت أمراً غمراً، كحبة الماء بين الصنخر والشيد قال ابن سيده: فلا أدري أهو إتياع أم لغة؛ وهم الأعمار. لسان العرب ابن منظور.

5- في ط: مأكلة شنار، جاء في لسان العرب في مادة شنر: الشنار: العيب والعار؛ قال القطامي يمدح الأمراء: ونحن رعية وهم رعاة، ولولا رعيهم شنع الشنار وفي حديث النخعي: كان ذلك شناراً فيه نار؛ الشنار: العيب والعار، وقيل: هو العيب الذي فيه عار، والشنار: أقبح العيب والعار. يقال: عار وشنار.. ورجل شنيئ: شريئ كثير الشر والعيوب. ورجل شنيئ: سيء الخلق.

والشنار الأمر المشهور بالقبح والشنعة.

6- سورة البقرة: 29.

7- في ط: ينظر.

8- في خ/م: ريفة، جاء في لسان العرب مادة ريق: الرقيق الخيط، الواحدة ريقة.. والريق، بالكسر: الحبل والحلقة تشد بها الفم الصغار لئلا ترضع، والجمع أرياق ورياق وريق. وفي الحديث: لكم العهد ما لم تأكلوا الرياق؛ شبه ما يلزم الأعناق من العهد بالرياق واستغفار الأكل لنقض العهد، فإن البهيمة إذا أكلت الرقيق خلصت من الشد. وأخرج ريقة الإسلام من عنقه: فارق الجماعة؛ ويروي عن حذيفة: من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ريقة الإسلام من عنقه.

9- في خ/م: يخول.

يقول¹، فليته لو دفن من عواره ما كان مسطوراً؛ ولكن كان ذلك عليه في الكتاب مسطوراً.

وإن لسان المرء ما لم يكن² له حصاة على عوراته لدليل³

فاستخرت الله تعالى في جوابه على تخليط معانيه، وتثبيج خطابه؛ بعد أن أقول له: اعلم يا هذا، إن البغاث⁴ بأرضنا⁵ لا تستسر⁶، والتميز عندنا بين الفضة والقضة⁷ متيسر، وها أنا إن شاء الله تعالى أجابك على ما كتبت حرفاً حرفاً، وأبين فساد الذي لا يكاد يخفى، على أنهم لو فتح عليهم باباً من السماء ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿٨﴾، كيف⁹ لا، وقد ركبوا من استحالة الاتحاد، والتثليث، والحلول، ما يدرك فساد بضرورة العقول، وقد قالوا في الآب والابن والأقانيم، ما يمجّه بفكه الأول¹⁰ كل ذي فهم مستقيم، ولا يتسع لقبوله قلب ذي عقل سليم.

ومن كان اللعين له لسانا فكل جداله زور ونكر

فكل مقالهم إفك وزيف ونص كتابهم شرك وكفر

ومن أعظم ما ظهر عليهم من العناد¹¹، فصرفوا لذلك عن التوفيق والرشاد، إنكارهم ما يدل على نبوة نبينا من المعجزات، وواضح الدلالات، وقد قاربت الضرورات، حتى أنكروا ما

-
- 1- في خ/م: وبه يغور.
 - 2- في خ/م وكذا في ط: تكن، وهو تصحيف لأن البيت الشعري هو: وإن لسان المرء ما لم يكن له— حصاة على عوراته لدليل. وهو لطرفة بن العبد في قصيدته التي مطلعها: لهند بحزان الشريف طلوع— تلوح وأجنى عهد من محيل.
 - 3- البيت لطرفة بن العبد، انظر ديوان الأمازي الشجرية.
 - 4- في ط: البغاة وهو تصحيف، البغاث والأبغاث من طير الماء، كلون الرماد، طويل العنق؛ والجمع البُغْثُ والأبَاغِثُ؛ لسان العرب، واستتسر البغاث صار نُسراً، وفي الصحاح: صار كالنُسر. وفي المثل: إن البغاث بأرضنا يستسر أي أن الضعيف يصير قوياً.
 - 5- في خ/م: يوجد بمكان كلمة "بأرضنا" بياض.
 - 6- في خ/م: يستتسر، وهو تصحيف.
 - 7- في ط: القصة، وهو تصحيف والصحيح القضة كما جاء في خ/م: والقضة الحصى الصغير، لسان العرب. وجاءت هذه العبارة في مقامة الحريري، المقامة المراغية: "يا هذا إن البغاث في أرضنا لا يستسر والتميز عندنا بين الفضة والقضة متيسر".
 - 8- سورة الحجر، الآيات: 14-15.
 - 9- في ط: فكيف.
 - 10- في ط: تمجّه بفطرته الأولى.
 - 11- في ط: الفساد.

جاء في كتبهم من الإعلام على نبوته، وإيجاب إتباع شريعته، فلقد كانوا يجدونه مكتوباً عندهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وسأذكر إن شاء الله تعالى، ما وقع في أناجيلهم من وصفه، وصحيح نعته، ولما تبين للعقلاء عنادهم، سقط لذلك إرشادهم، ووجب حملهم على السيف وجهادهم، فقد يفعل الله بالسيف والسنان¹، ما لا يفعل بالبرهان. ومن كلام الحكمة²: يزغ الله بالسلطان ما لا يزغ³ بالقرآن. فأعرض العقلاء عنهم، واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم، ووكّلوا الناظر فيه، لظهور تناقضه وفساد معانيه.

وقد كنت عزمت على الإقتداء بالعقلاء في الإعراض، حتى أكثر هذا المتكلم من التعرض والاعتراض، فتعين لذلك الجواب. وأنا أسأل الله التوفيق للصواب، ومجانبة الخطأ، وما يوجب العتاب، إنه ولي التوفيق، وهو بإجابة السائلين حقيق.

لتعلم يا هذا المنتسب لدين المسيح، أني أجابك إن شاء الله تعالى بمنطق عربي فصيح، أسلك فيه مسلك الانصاف، وأترك طريق التعصب والاعتساف، على أن كلامك لا يستحق الإصغاء إليه، ولا الجواب عنه، لكونك⁴ لا تستحق⁵ السؤال، ولا تعرف ترتيب المقال، بل تقول ما لا تفهم، وتكتفي بأنك تتكلم، ولكون كلامك هذا كثير الغلط، ظاهر التناقض والشطط، وأنت مع ذلك لا تعرف مذاهب النصارى المتقدمين، الذين كانوا بنوع نظر متمسكين، وإن كانوا عن مذهب الحق ناكبين، حتى أنهم لو سمعوا كثيراً مما ذكرته، لتبرأوا عنه، ولأنفوا منه، إذ لا ينسب أكثر ذلك إلى من تكايس منهم، ولا يروى بحال عنهم. على أنهم في أصول عقائدهم مختلفون، وفي ورطة الجهل مرتبكون، وسيتبين⁶ لك ذلك كله إن شاء الله تعالى.

ولما تبين ذلك منك، أعرض المسلمون عن جوابك، ونزهوا أنفسهم عن خطابك، إذ الإعراض عن الجاهلين، شرعه⁷ رب العالمين، على لسان سيد المرسلين؛ وأيضاً فمن لم

1- في ط: اللسان.

2- في ط: الحكماء.

3- ورد في ط: وكذا خ/م: يزغ، والقولة المنسوبة لعثمان بن عفان هي: "إن الله يزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن".

4- في ط: لأنك.

5- في ط: لا تحسن.

6- في ط: وسنبين.

7- في ط: شرعة.

يعرف شروط النظر، ولم يسلك مسالك البحث والعبر، فالكلام معه ضرب في حديد بارد، وعمل ليس له جدوى ولا عايد.

ولما أعرضوا عنك لجهاالتك، تبجحت¹ بذلك عند عصابتك، فظننت أن سكوتنا عنك، إنما هو لرهبة منك، حتى لقد أبلغنا² عنك نكرا، وقلت في كتابك هذا فحشا وهجرا، فنحن وإياك كما قال:

سَكْتُ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنُّنِي أَنِّي عَيَّيْتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيَّيْتُ³
فعظم هذا الأمر علي⁴ حين نمت خبره إلي. مع أنه رغب إلي في ذلك جماعة من الإخوان، فصار ذلك علي كأنه من فروض الأعيان، فاغتمتها⁵ فرصة، وسررت بها قصة، لعلمي أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان، أوقع من نكاية السيف والسنان.

والرجا من مالك الدارين، الجمع بين الأمرين، وإحراز أجر العمليين؛ على أنني لا أتعرضهم بقزع السباب، ولا أنزل معهم إلى اعتذار وعتاب، وإنما هو إظهار جهلهم وتناقض مذهبهم وقولهم.

فأذكر كلام هذا السائل كما بلغني، وأبين من خطئه وتناقضه ما شاء الله أن يفهمني، فأناقشه في لفظه وأظهر سوء نقله وحفظه، فتارة أسأله وأخرى أجابه، ليعلم أن الناقد بصير، والباحث خبير، وليتبين عيبه⁶ وجهله للكبير والصغير. ثم من بعد الفراغ من تتبع كلامه، أعطف بالمناظرة على أقسته ورهبانه، فأحكي مذهبهم كما دونوها في كتبهم، وعلى ما تلقفوها من أسافقتهم، ثم أسبرها على محك العرض، وأبين بعض ما فيها من الفساد والنقض. وما توفيقي إلا بالله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وقد استخرت الله⁷ في أن أجمل هذا الكتاب [غير مقصور على جواب هذا السائل، بل أضمنه زائدا على ذلك فصولا من عقائدهم، وجملا من أحكامهم، وأتكلّم معهم فيها حسب

1- في خ/م: تبجحت، وهو تصحيف.

2- في ط: أبلغنا.

3- البيت الشعري أورده الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين، عن عمرو بن علي: إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِبْجَابَتِهِ السُّكُوتُ سَكْتُ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنُّنِي أَنِّي عَيَّيْتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيَّيْتُ.

4- في ط: فعظم هذا الأمر حين نمت خبره إلي.

5- في خ/م: فاغتمتها وهو تصحيف.

6- في ط: عيه.

7- في ط: الله تعالى.

ما أمكن، وأعان الله عليه وبين. ولذلك اشتمل هذا الكتاب¹ على صدر وأربعة أبواب.

الباب الأول في الكلام على الأقسام.

الثاني² في الاتحاد والحلول.

الثالث³ في الكلام على النبوات وإثبات نبوة نبينا عليه السلام⁴.

الرابع⁵ في جمل من فروع أحكامهم، أبين فيها أنهم ليس لهم⁶ في أحكامهم مستند إلا محض الهوى والتحكم واللدن.

وكل باب من هذه الأبواب يتضمن فصولاً، وأنا أسأل الله تعالى أن يطلق ألسنتنا بالحق والحكمة، ويخرسها عن الباطل والفتنة؛ إنه ذو الفضل والنعمة والعفو والرحمة.

1- الكلام بين المعقوفتين ساقك من: ط.

2- في ط: الباب الثاني.

3- في ط: الباب الثالث.

4- في ط: عليه الصلاة والسلام.

5- في ط: الباب الرابع.

6- في ط: أن ليس لهم.

صدر الكتاب

نذكر في هذا الصدر كلام هذا السائل في خطبة كتابه، والجواب عليها إن شاء الله.¹

فصل في حكاية كلام السائل في خطبة كتابه.

قال: "كتاب تثليث الوجدانية في معرفة الله".

ثم قال: "الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها، وأمرنا بحمده، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر والتعظيم للموكلنا، وأهل الرهبة من ذوي السلطان منا، فرضا له شاكرين حامدين، معظمين غير واقفين على ذاته، ولا مدركين لشيء منه، وإنما نقع على أسماء أفعاله في خليقته وتدبيره في ربيوبته".

الجواب عن ترجمته: أما قوله تثليث الوجدانية، فكلام متناقض لفظا وفاسد معنى. بيان ذلك: أن قوله تثليث الوجدانية، كلام مركب من مضاف ومضاف إليه، ولا يفهم المضاف ما لم يفهم المضاف إليه. فأقول لفظ الوجدانية مأخوذ من الوحدة، ومعناها راجع إلى نفي التعدد والكثرة، فهي إذن من أسماء السلوب؛ فإذا وصفنا بها موجودا، فقد نفينا عنه التعدد والكثرة. والتثليث معناه تعدد وكثرة، فإذا أضفنا هذا القائل التثليث للوحدة، فكأنه قال تكثير ما لا يتكرر، وتكثير ما لا يتكرر باطل بالضرورة. فأول كلمة تكلم بها هذا السائل متناقضة وباطلة بالضرورة.

وأما قوله: "في معرفة الله" فقول لم يحظ² بمعناه ولا فهم مسماه، وإلا فما حد المعرفة؟ وكما أقسامها؟ وهل يصح أن تكون مكتسبة لنا؟ وهل يجوز عقلا أن يكلفنا بها الأنبياء؟ وإن جاز ذلك فما طريق تحصيلها؟

ثم هول بهذا اللفظ، وأوهم أنه حصل منها على حظ. فإن كان دليلك يا هذا على معرفة الله تعالى، ما ضمنت³ كتابك، فأبك على ما أصابك،⁴ واقرع أسفا على عقلك⁵، فإن الواقف على معناه، المتفهم¹ لفحواه، يعلم² على القطع والقط، أنك لم تعرف الله³

1- في ط: الله تعالى.

2- في ط: لم يحظ.

3- في ط: ضمنت.

4- في ط: مصابك.

5- في ط: عقل ناك.

تعرف الله³ قط، لأنك لم تذكر فيه دليلاً صحيحاً، نعم؛ ولا قولاً فصيحاً، وإن كان لك دليل آخر على معرفة الله تعالى لم تذكره هنا، فهذه ترجمة بلا معنى، واسم يهول بلا مسمى.

كلامك يا هذا كفارغ⁴ حمص خلى من المعنى ولكن يجعجع
ثم نظم هذه الترجمة على ما أبديناه من التناقض أن يقال: تكثير ما لا يتكرر في معرفة
الله، وأي رابط لهذا⁵ الكلام؟ وهل هذا إلا ضحكة⁶ الخاص والعام، وعار لم يصل إليه
أحد من عقلاء الأنام.

ثم بعد ذلك شرع هذا القائل في الخطابة وصنعة الكتابة، فسحب على "سحبان" ثوب
النسيان، وأنسى "أبان" كل ما أبان، وصير فصيح "وائل" أعيا من "باقل". فقال: "الحمد لله
بالغ القوى التي فطرنا عليها"، فيا للعجب ولضيعة⁷ الدين والأدب.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الجائع العاري⁸
أما قوله: "الحمد لله" فكلام حق، ومقال صدق عند من عرف معناه، وفهم فحواه،
وأما عندك فكلام سمعته وما وعيته، وكيف تعيه، أو تطمع في أنك تدريه؟ وأنت بمعزل
عن اللسان، عرين⁹ عن تحصيل شرائط البرهان. دليل ذلك: أن الحمد لله يتوجه
لأسئلة¹⁰، وأنت لا تهتدي لفهمها، فكيف لحلها؟ منها لفظية ومنها معنوية. فأولها حده،
والى ماذا يرجع؟ وما الفرق بينه وبين الشكر؟ وهل هو في هذا الموضع عام أم لا؟ وهل
يصح أن يطلق على غير الله؟ وإن أطلق فهل بالحقيقة أم بالمجاز؟ وعلى أي وجه يضاف

1- في ط: المقتحم.

2- في ط: علم.

3- في ط: تعالى.

4- في ط: كفارغ.

5- في ط: بهذا.

6- في ط: مضحكة.

7- في ط: ويا لضيعة.

8- البيت المشهور هو للحطيئة ويقول فيه: دع المكارم لا ترحل لبغيتها---واقعد فإنك أنت
الطاعم الكاسي.

9- في ط: عري.

10- في خ/م: لأسئلة. وردت في جل المخطوطة الملكية كلمة أسولة بدل أسئلة.

إلى الله تعالى، أعلى جهة الملك، أو على جهة الاستحقاق، أو غيرهما من أنواع الإضافة؛
ولأي شيء يوضع في أوائل الكتب ولا يكتفي عنه بالتسمية؟

وأما قولك: "بالغ القوى" فكلام مختل، صدر عن من لم يحصل تنزيل مفهومه على
فائدة، إن¹ المتكلم به يجعل² "بالغ" موضع "مبلغ" ثم يذهب³ بمبلغ إلى معنى "خالق"،
والعرب الذين تكلم هذا السائل بكلامهم، وتعاطى مفهوم خطأ بهم، لا يتكلمون ببالح⁴ في
معنى خالق⁵، لتباين اللفظين واختلاف المفهومين، ومعنى "الخلق" المشهور عندهم، اختراع
ما لم يكن، والإبلاغ هو إيصال كائن إلى غاية ما⁶. فإن أنكر هذا المتكلم أن يكون أراد هذا،
فقد شهد على نفسه بالغلط، واعترف بأن كلامه من أرذل⁷ السقط.

ثم أضاف بالغ إلى القوى، والقوى جمع قوة، وهي القدرة والشدة. فإن كنت تريد هذا،
فأي فائدة للفظك، وأي لطيفة لقولك: "التي فطرنا عليها" وفي الشيران والأباعير والحمير
من هو أشد منك وأقوى، فقد فضلها عليك حيث أبلغها من الشدة أكثر مما أبلغك.

ولقد كان ينبغي لك يا هذا أن تذكر من نعم الله عليك، النعمة الخاصة بالإنسان، وهو
المعنى الذي به تميز عن أصناف الحيوان، ثم من عجيب أمر هذا السائل، وأدل دليل على
بلادته وجهله، أن هذه الخطبة التي صدر بها كتابه، على ما هي عليه من تشبيح النظم،
وعدم الفصاحة، إنما نقلها نقلاً⁸ من رسالة عبد الرحمن بن غصن ختن شبيب، التي كان
أساقفة النصارى كتبوا بها إلى الإمام الزاهد أبي مروان بن مسرة⁹، ونسبوا لعبد
الرحمن، وكانوا قد اجتمعوا على كتابتها بطليطلة أعادها الله، فلما كتبوها بعثوا بها

1- في ط: لأن.

2- في ط: عمل.

3- في ط: ذهب.

4- في ط: بالغ.

5- في ط: الخالق.

6- في ط: هو أيضا له كائن.

7- في خ/م: سقطت كلمت أرذل أرذل الثانية.

8- في ط: نقلها.

9- في ط: مسرة، والأمر يتعلق بأبي مروان عبد الملك بن مسرة بن عزيز اليحصبي قاضي الجماعة
بقرطبة (ت 552هـ) صاحب رسالة ميزان الصدق المفرق بين أهل الباطل وأهل الحق، وهي رد هن
كتاب أساقفة النصارى إليه مع قصيدة له نظمها في معنى هذه الرسالة، أبو بكر محمد بن خير بن
عمر بن خليفة الأموي، ت سنة 575 هـ، فهرسة بن خير، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة دار الكتاب
المصري، بيروت دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1989، المكتبة الأندلسية مجلد 9، ص 373).

للقاضي¹ أبي مروان بن مسرة، فبعد أن بذلوا جدهم وأجهدوا جهدهم، كتبوا له رسالة مفتتحها هذه الخطبة في بطاقة صغيرة، عدد أسطورها نحو من ثلاثين²، لحنوا فيها وصحفوا في تسعة وعشرين موضعاً منها، ومع ذلك فأخلوا بالكلام، ولم يتحصل لهم من سؤالهم مطلب ولا مرام، فأجابهم الإمام القاضي رحمه الله وأحسن في الجواب، وأظهر لهم جهلهم وتبلد لهم في ذلك الكتاب.

فلو كان هذا السائل عارفاً بمصالحه، مميّزاً بين محاسنه ومقابحه، لاكتفى بإفحام أساقفته المتقدمة، وعثرته الجاهلة المصمة³، ولكان يستتر ظاهر خطاياهم⁴، وركبك كلامهم، ولكن أراد الله تجديد ما قدم لهم من الفضيحة، بمقالة صائبة⁵ صحيحة. ثم ليته إذ نقل إلى كتابه كلامهم لم يفسد⁶ المعنى ولم يغير اللفظ، بل غيره تغييراً، يدل على عدم الهجاء وقلة الحفظ. فقال: "الحمد لله بالغ القوى" وإنما قال أخياره⁷ في كتابهم المتقدم الذكر، الذي نقل هو منه⁸: "الحمد لله بأبلغ القوى"، وبين مفهوم كلامه وكلامهم ما بين القرن والقدم⁹، وما بين فصاحة العرب وورطانة العجم.

وأما قولك: "وأمرنا بحمده"، فقول لا تعرف حقيقته، ولا تسلك طريقته، حتى تعرف إن كان الله تعالى¹⁰ أمراً أم لا، وإن كان أمراً فما حقيقة أمره؟ وإلى ماذا يرجع؟ وهل هو قديم أو حادث؟ إلى أسئلة¹¹ كثيرة لا تعرف أنك مأمون من جهة الله تعالى حتى تعرفها. فأعد للمسائل جواباً، وللأسئلة خطاباً.

وأما قوله: "فنحن نحمده ونشكره ونعظمه، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر"، فكلام يدور على اللسان ولم يستقر لك شيء منه بالجنان، وكيف يحمد الله من ينتقصه؟ وكيف

1- في ط: إلى القاضي.

2- في ط: نحو ثلاثين.

3- في ط: المضممة.

4- في خ/م: خطايهم، وهو تصحيف.

5- في ط: صائبة.

6- في ط: يفسر.

7- في ط: وهي في كتابهم.

8- في ط: الذي نقل منه.

9- في ط: القدم وهو تصحيف.

10- في ط: الله تعالى.

11- في خ/م: أسئلة.

يشكره من يكفره؟ وهل الحمد والنقصان والشكر والكفران إلا أمران متناقضان.

بيان ذلك أنكم تجعلون لله ما تكرهون لأنفسكم، وتنتقصون به أبناء جنسكم، ها أنتم تكرهون لرهبانكم وأقستكم، اتخاذ الزوجة والولد لئلا يتلخ برذيلة مجرى البول ودم الحيض، أو تتشبه نسبة الزوجة والولد. ثم إنكم بجهالاتكم¹ تزعمون، أن اللاهوت تدرع بناسوت المسيح، وسكن في ظلمة الرحم مدة، ثم خرج على مجرى البول ودم الحيض، وتعلقت نسبة الولد والزوجة، فأنتم² تجعلون لله ما تكرهون، وتصف السنتكم الكذب. لا جرم أن لكم النار وأنكم مفرطون، وكيف يعظمه من يعبد غيره، ويعظم سواء، ويخالفه في أمره، ويرتكب ما نهاه³؟ وها أنتم قد اتخذتم المسيح إلها، أو شطر إله، وعبدتم من دون الله غيره، وعظمتهم سواء، وخالفتم في ذلك قول المسيح عليه السلام، وعصيتهم أمر خالقه ومرسله ذي الجلال والإكرام⁴، وأنتم تقرؤون في كتابكم عن إشعياء عليه السلام أنه قال عن الله مبشرا بالمسيح عليه السلام: "هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت به نفسي"⁵، وكذلك تقرؤون في إنجيل ماركس⁶ أن المسيح قال للعالم الذي سأله عن أول العهد: "إن السيد إلهك واحد"، وذكر كلاما، فقال له العالم: قلت الحق يا معلم، إن الله وحده ولا إله غيره."⁷

فإن الله تعالى يقول عن المسيح: هو غلامي، وأنتم تقولون: هو ولدك، فالمسيح⁸ يقول: لا إله إلا الله، وأنتم تقولون: أنت إله آخر. فتعالى الله عما تقولون، وسبحانه عما تصفون. وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله تعالى، فها أنتم قد خالفتم أمر الله، وعظمتهم سوى الله، وهذا إنجيل لوقا⁹، يشهد عليكم بخلاف ما إليه صرتم، فإن فيه أن المسيح، قال لإبليس حين رام خديعته: قد صار مكتوبا أن تعبد السيد إلهك وتخدمه وحده، وأنتم تعبدون غير الله، وتسجدون لسواء، تتحكمون في ذلك بأهوائكم، وتخالفون قول أنبيائكم.

1- في ط: بجهالتكم.

2- في ط: وأنتم.

3- في ط: ما عصاه.

4- في خ/م: في مكان كلمتي "مرسله ذي الجلال" بياض بيتدا ب "ومر".

5- سفر إشعياء 42: 1.

6- في ط ماركس.

7- متى 10: 4.

8- في ط: والمسيح.

9- في ط: متاؤوش، أي متى، والنص ورد في متى 4: 10، ولوقا 4: 8.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾¹،
وتقول بالعظائم على الله.

وأما قولك: "بمثل تعارفنا في الحمد"، فإن كان وضع تعارف موضع معرفة، فقد أدخل بالمعنى وخالف اللغة، ولو كان يشتم الرائحة² من كلام الفصحاء، لوبخ نفسه على المقالة³ هذه الشنعاء، ولو نزلناه على أنه أراد ما تعارفه⁴ مخاطبوه فيما بينهم في معنى حمد الله، لكان كلامه أيضا متناقضا وفاسدا، وعن الصواب حaida، فإن حمد الله عندهم ذم، وشكرهم له كفر كما تقدم، ومن كان حمده لله ذما، وشكره له كفرا، وكانت⁵ معرفته مثل شكره وحمده، فقد حصل من العلم على ضده، وخرج من الشكر عن حده.

وأما قولك: "والتعظيم للموكنا وأهل الرهبة من ذوي السلطان منا" فقول لا⁶ يدل على زهدك في الدنيا، واقتدائك بورع المسيح عيسى، وبخشية المعمد يحيى، عظمت الملوك للمكهم، طمعا في نيل سحت ملكهم، وأعرضت عن القسيسين ونسكهم، ولو هديت السبيل، لكان الأنبياء والحواريون أحق وأولى بالثناء والتبجيل، لكن استهواك الطمع، واستفرك الجشع، فأثرت الدنيا عن الآخرة، فصفقتك إذا⁷ خاسرة، وتجارتك باثرة.

وأما قوله⁸ "فرضا له شاكرين، حامدين معظمين" فكلام غير منتظم، ليس⁹ له مفهوم ملتئم، ذهب معناه لكثرة لحنه، يمجّه العاقل ببديهة ذهنه، أتلفت معناه رطانة¹⁰ العجم، فكأنه بقي¹¹ في نفس هائلة مكتتم. وأما قولك: "غير واقفين على ذاته، ولا مدركين لشيء منه"، فلعمري لقد صدقت، وبما أنت عليه من الجهل بمعبودك نطقت، فأين هذا من

1- سورة القصص: 50.

2- في ط: رائحة.

3- في ط: القالة.

4- في خ/م: سقطت "ما تعارفه".

5- في ط: كان.

6- في خ/م: سقطت كلمة لا.

7- في ط: إذن.

8- في ط: قولك.

9- في ط: وليس.

10- في ط: رضانة.

11- في ط: تبقى.

قولك "كتاب تثليث الوجدانية في معرفة الله". فقد جعلت هذا الكتاب بزعمك¹ موصلا إلى معرفة الله، ثم لم ترجع النفس حتى شهدت على نفسك بالجهل بالله، فظهر تناقض اعتقادك على لسانك وفي تقييدك، وكذلك يفعل الله بكل جاهل مهذار². وكيف يعرف الله من لم يقف على معرفة ذاته، ولا علم شيئا من صفاته، وهل ذاته تعالى إلا عبارة عن وجوده، فإن الوجود ذات³ الموجود، من غير مزيد، على ما يعرف في موضعه بالبرهان، فمن لم يعرف ذاته تعالى، لم يعرف وجوده، ومن لم يعرف وجوده فأما شك وإما جاهل.

وأما قوله: "وإنما نقع على أسماء أفعاله في خليقته، وتدبيره في ربوبيته"، فكلام لم يورده فصيحاً، ولا فهمه صحيحاً. دليل أنه لم يرده فصيحاً، أنه أراد بقوله: "نقع" "نعرف"، وإلا لم يستقم كلامه، فكأنه قال: وإنما نعرف أسماء أفعاله. وأين "نعرف" من "نقع"؟ [وأي جامع بينهما عند من عقل وسمع، فإن مفهوم وقع وحقيقته، سقط الشيء من أعلى إلى أسفل، وليس لهذا المعنى في كلامه مدخل. وأما أنه لم يفهمه صحيحاً، فيدل عليه أنه لا يجيب إذا سئل عنه، فأصخ يا هذا سمعك، واستعن ملاك جمعك، فإني أسألك، وإياهم عن: حد الاسم وحقيقته؟ وهل هو المسمى أو غيره؟ فإن كان غيره، فما حد الاسم؟ وما حد المسمى؟ وما حد التسمية؟ ثم هل ينقسم الاسم بالإضافة إلى المسمى أم لا ينقسم؟ فإن انقسم، فعلى كم قسم؟ وإنما أوردت عليه هذه الأسئلة، كيلا له بضاعة، وليكون ذلك أبلغ في دفعه وأقطع لنزاعه. ثم إنه أضاف أسماء إلى أفعال الله، ولا يشك عاقل فاهم في أن أفعال الله تعالى، إنما يراد بها مخلوقاته. ومخلوقاته وخليقته واحد في المعنى، فكأنه قال على ما يقتضيه ظاهر كلامه: وإنما نقع على أسماء مخلوقاته في مخلوقاته، فأبدل لفظ مخلوقاته بأفعاله؛ وهذا كلام قليل العائدة بل عديم الفائدة. ثم أسماء أفعاله إنما هي عبارة عن الألفاظ الدالة على أفعاله، وأفعاله -كما قلنا- مخلوقاته كلفظ: السماء والأرض وغير ذلك... فمن عرف الألفاظ الدالة على هذه المخلوقات، أي شيء يحصل له بسببها من معرفة الله تعالى؟ وأي دلالة؟ وأي نسبة بين معرفة اللفظ الذي يدل على السماء في التخاطب مثلاً وبين معرفة الله تعالى؟ وهل قوله هذا إلا هذيان من القول وارتباك في ورطة الجهل؟

وأما قوله "وتدبيره في ربوبيته": فالظاهر من لفظ التدبير السابق منه إلى الفهم أنه

1- في خ/م: يزعمك.

2- في خ/م: مهذار.

3- في ط: الموجودات.

عبارة عن التفكير النفسي والتقدير الذهني، والباري سبحانه متعال عن التدبير -الذي هو التفكير والتقدير- فإنه لا يتصور إلا في حق من جهل شيئاً فأراد أن يستعمل فكرة في تحصيل العلم به، والجهل على الله محال. فالتدبير بمعنى الفكر عليه محال، فإن أراد السائل بكلامه غير هذا فلا بد من بيانه وإيضاح برهانه.

وأما "الربوبية" فلفظ مشتق من لفظ الرب، والرب في مستعمل كلام العرب له معنيان مستعملان: أحدهما السيد والثاني المالك، فإن أراد به المعنى الأول -الذي يرجع إلى السؤدد والشرف- فهو خطأ من حيث أن سؤدده واجب له فلا يحتاج في تحصيله إلى سبب من تدبير ولا مقتضى تفكير، ومقتضى كلامه ومفهومه أنه دبر في ربوبيته وأوجدها عن تدبيره لنفسه، وهذا جهل بواح وكفر صراح. وإن أراد به المعنى الثاني -الذي يرجع معناه إلى الملك- فلا يستقيم أيضاً على ظاهر كلامه، فإنه يكون معنى كلامه أنه دبر في ملكه وأوجده عن التدبير الذي هو روية وتفكير، ويتعالى عن ذلك الخالق القدير المنزه عن خواطر النفس وهواجس الضمير.

ثم لما فرغ هذا السائل من خطبته الغراء البديعة الإنشاء، التي من وقف عليها علم أنه عن المعارف مصروف، وأنه لا يفهم المعاني ولا يحسن كتابة الحروف، شرع في طريقة الجدل وكيفية الاستدلال، فكانه في نظم معقولاته "الطوسي" وفي آداب جدله "البروي"، ولعمر الله لو كان هذا السائل عاقلاً لستر عواره، ولم يبد غارة. ولكنه جهل فقال. وحيث وجب أن يسكن جال. ولقد كان ينبغي لهذا السائل ألا يتكلم في شيء من علوم الاعتقاد حتى يحسن شروط النظر، ويحكم ما يحتاج إليه من المواد والفكر، ولما بادرن إلى الكلام في ذلك من غير تحصيل شيء مما هنالك تشجع عليه كلامه، وصعب عليه مرامه، فريما كان المعنى الذي يقصده قريباً فيبعده، أو مجتمعا فيبيده، وسيتبين ذلك في كلامه.

ولما كان ذلك، رأيت أنني إن تتبعته كلامه كما تتبعته خطبته خرج الأمر عن الاعتدال، وأدى ذلك إلى الكسل والملال، وضياح الزمن في ضروب الهذيان هو غاية الخسران، فرأيت أن أعرض عن آحاد كلماته، وأناقشه في معانيها ومفهوماتها، ثم إنني ربما لا أتكلم معه حتى أحكي مذهبه، وأبين له ما أراده بكلام حسن وجيز ليكون ذلك أبلغ في الفهم، وأمكن في التمييز، وإلى الله عز وجل أرغب، وعليه أتوكل في أن يشرح صدورنا وييسر علينا أمورنا ويستعملنا فيما يقرئنا منه وينفعنا عنده أنه ولي ذلك القادر عليه.

تم الصدر والآن نشرع في الأبواب.

الباب الأول
في بيان مذاهبهم في الأقاليم
وابتال قولهم فيها

الفصل الأول

الأقانيم أسماء أفعال

في حكاية كلام السائل والجواب عنه.

قال السائل: "الآن وجب علي أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق، إن كان خلقهم بقدره وعلم وإرادة، أم خلقهم بغير هذا؟ فإذا اضطرتك المسألة إلى القول بها فإني أسألك: إن كانت أسماء لذاته؟ أو أسماء لأفعاله؟ فإن قلت: هي أسماء لذاته، فقد نقضت، وجعلتها أسماء للذات ووقعت فيما أنكرت من الجسم. وإن قلت: من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم مريد فهو التثليث الذي أمرنا القول به".

الجواب عنه: سألت يا هذا المقدام بعد إعجام واستبهام: هل خلق الله تعالى الخلق بقدره وعلم وإرادة أم بغيرهم؟ وهذا السؤال كان ينبغي لك ألا تسأل عنه حتى تفرغ من معرفة المراتب التي قبله، وذلك أنك لا تصل إلى ما سألت عنه، حتى تعرف معنى الخلق وهل العالم مخلوق، وإن كان مخلوقا فهل يحتاج إلى خالق أم لا؟ فإذا بلغت إلى هنا، وقطعت هذه المفاوز التي لا تقطع بالمنى، ولا يتخلص منها بالهوينى، ولا يكتفي في تحصيل العلم بذلك بالتقليد بل بالنظر¹ السديد² والبرهان العتيد، حينئذ كان ينبغي أن تسأل عما سألت عنه، لكنك يجهلك بطريقة النظر قدمت وأخرت، ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الْتَى فَعَلْتَ﴾³، ولو كنت ممن له في النظر نصيب لضريت فيه بسهم مصيب، ولاقتديت بمعلمكم الأزعم وأسقفكم الأعظم أغشتين فما هو يقول في "مصحف العالم الكائن" في أول ورقة منه: "ينبغي أن يجعل الكلام في النظريات على منازل ودرجات، ليكون من اجتمع معنا في الدرجة الأولى تكلمنا معه في الدرجة الثانية، ومن اجتمع معنا في الدرجة الثانية تكلمنا معه في الثالثة"⁴. ثم نمضي كذلك إلى أقصى نهايات الكلام. فإنما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباؤه من قبل النقص في معرفة هذا الدرج، لأننا متى ناظرنا

1- الكلام.. سقط، بأكمله من المخطوطة الملكية.

2- "في ط: الشديد"، وهو تصحيف.

3- سورة الشعراء، آية: 19.

4- في ط: "في الدرجة الثالثة".

في الدرجة الثانية من لم يجتمع معنا في الأولى، لم يبلغ الكلام غاية ولم يقف على نهاية". وعلى منواله نسج "حفص بن البر" في أقواله. ولقد كان لك فيهما أسوة، لو كنت أهلاً للقودة، فبينك وبين سؤالك¹ هذا ثلاثة أدراج حارت فيها عقول كثير من النظائر، وفنيت لهم فيها أزمان²، ونفدت أعمار، فكلامك يا هذا فاسد هجين بشهادة قسيسكم أغشتين. وأما قولك: "فقد³ اضطررتك المسألة إلى القول بها" فقول غير صحيح، والجهل⁴ على قائله يلوح، وكيف تضطر المسألة مع نظر سقيم، أخذت مقدماته بالتحكم والتسليم. وإنما كان يلزم ذلك لو نزلت في كلامك على شرط السبر والتقسيم، ونهجت منهج النظر القويم، والا فبم تتكر على الدهري⁵ حيث يقول: "لا أسلم أن العالم مخلوق"؟ وبم تتكر على الفلسفي حيث يقول: "أسلم⁶ أنه مخلوق لكن لا أسلم أنه يحتاج⁷ إلى خالق يخترعه⁸ بعد العدم"؟ وبم تتكر على الطبيعي حيث يقول: "لا يحتاج عالم الطبائع إلى خالق ذي قدرة وعلم وإرادة وحياة"؟ ثم لأي شيء تحكمت وقلت: إنها ثلاثة؟ فلعلها أكثر أو أقل، ولا بد لك من معرفة إبطال مذاهب هؤلاء بالبرهان، وحينئذ تحصل على مرتبة الإيقان. وهذا ليس بعشك⁹ فاضطجع على نعشك¹⁰.

خل¹¹ الطريق لمن يبني¹² المنار به واقعد ببرزة حيث اضطررك القدر¹³ وأما قولك: "فإني أسألك إن كانت أسماء لذاته، أو أسماء لأفعاله. فإن قلت هي أسماء

1- في ط: وبين من سؤالك.

2- في ط: وفنيت أزمان.

3- في ط: فإذا اضطررتك.

4- في خ/م: الجهل.

5- في خ/م: "الدهر"، وهو تصحيف.

6- في خ/م: "اسم"، وهو تصحيف.

7- في ط: محتاج.

8- في ط: مخترعه.

9- في ط: بعشك وهو تصحيف.

10- في ط: نمشك وهو تصحيف.

11- في ط: خلي، وهو تصحيف.

12- في خ/م: "يدني" وهو تصحيف.

13- البيت لجريير مع اختلاف طفيف، قال جريير: خل الطريق لمن يبني المنار به---وأبرز ببرزة حيث اضطررك القدر.

لذاته هي أسماء لذاته فقد نقضت، وجعلتها أسماء للذات، ووقعت فيما أنكرت من الجسم" فسؤال لا يستحق أن يسمع، ولا لصاحبه في العقل مطمع، قسمت وسبرت وبقيت عليك أقسام وما شعرت. إذ لقائل أن يقول: ليست هذه الأسماء من أسماء الذات ولا من أسماء الأفعال، بل هي قسم آخر، وهو أسماء الصفات. والتقسيم مهما¹ لم يكن دائرا بين النفي والإثبات، فهو معرض للنقض والآفات، ثم أطرف من العنقاء: شرع² في أول كلامه في المسميات، ثم أخذ يتكلم في الأسماء³، ولم يفرق بين الاسم والمسمى فهو جاهل أعمى.

ثم انظر بله هذا السائل، وعدم حسه، فلقد خرج بجهله عن أبناء جنسه⁴. كيف قال: "فإن قلت هي أسماء لذاته، فقد نقضت وجعلتها اسما للذات" وأي فرق بين قوله لذاته⁵ في المقدم وبين قوله للذات⁶ في التالي؟ وهل هذا إلا بمثابة من يقول: "إن قلت إن⁷ هذا اليوم نهار⁸، فقد نقضت وجعلته نهارا".

فما أعرفك يا هذا بنتيجة الشرطي المتصل وحدوده، وبحد النقيض وشروطه، فلو استرزقت الله عقلا، لكان الأحرى بك من الكلام في المعتقدات والأولى. ثم أعجب من ذلك كله أنك لزمتم من قال: "إن العلم والقدرة والإرادة أسماء للذات" القول بالتجسيم، وهذا نتيجة الجهل الصميم، والفهم السقيم⁹ وهذا من أين يلزم أمن نقيض التالي أو عين المقدم؟ هو الذي خص الأذكيا بالعقول، لقد أريبت في جهلك على كل جهول، وأتيت بما ليس بمفهوم ولا معقول.

وأما قولك: "وإن قلت إنها¹⁰ من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم مرید هو¹¹

1- في ط: "متى".

2- في ط: "شرعه".

3- في ط: "ثم أخذه في الكلام في الأسماء".

4- في خ/م: سقطت "أبناء جنسه".

5- في ط: سقطت "لذاته".

6- في ط: سقطت "للذات".

7- في ط: سقطت "إن".

8- في ط: "نهارا".

9- في ط: "المستقيم" وهو تصحيف.

10- في ط: "وإن قلت من أسماء".

11- في ط: "فهو".

التثليث الذي أمرنا¹ به" فيقضى أن الأقانيم من أسماء الأفعال، وهذا² قول لا يقول به المجانين ولا الأطفال، فإن معنى تسمية الله تعالى بأسماء الأفعال، إنما معناها عند العقلاء أن يخلق الله فعلا يسمى ذلك الفعل باسم، فيشتق لله تعالى من ذلك الفعل اسم. مثال ذلك: خالق ورازق يقالان³ على الله تعالى، باعتبار خلق الخلق ورزق الرزق، فإن أردت هذا المعنى كان ذلك محالا على الصفات العلى، فإن صفاته سبحانه⁴ ليست بمخلوقة، على ما يعرف في موضعه، وأيضا فلو جاز أن يسمى بعلم يخلقه علما، وبإرادة يخلقها مريدا، وبقدرة يخلقها قادرا، جاز أن يسمى بحركة يخلقها متحركا، وبصوت يخلقه⁵ مصوتا، وذلك يجز⁶ إلى جهالات لا يقول بها عاقل. فإن أراد هذا السائل بأسماء الأفعال أمر آخر، فهو إنما اصطلاح مع نفسه فكان ينبغي له أن يفسر ما يقول إذ لم يتكلم بما اصطلاح عليه أرباب العقول.

وأما قولك: "فهذا هو⁷ التثليث الذي أمرنا به⁸" فقول فيه كذبت، وعلى الله ورسوله⁹ افتريت. فإن الرسل عليهم السلام لم تأمر باعتقاد التثليث لأحد من الأنام. بل قالت الأنبياء عليهم السلام ما يعرفه الخاص والعام: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ﴾¹⁰ ولقد حصل للعقلاء بالتواتر، وعلموا بالوراثه أن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۚ﴾¹¹ ثم قولك هذا تريد به أنكم أمرتم باعتقاد آلهة ثلاثة، وأنكم قيل لكم اعتقدوا في الله تعالى أنه آلهة ثلاثة إله واحد وقولوا به، وليس الأمر كذلك عند رهبانكم

1- في ط: "أمرنا بالقول به".

2- في ط: "فهذا".

3- في خ/م: "يقولان".

4- في ط: سبحانه وتعالى.

5- في خ/م: "يخلقها" وهو تصحيف.

6- في ط: "مجري".

7- في ط: "فهو".

8- في ط: "فهو التثليث الذي أمرنا به".

9- في ط: "ورسله".

10- سورة النساء: 171.

11- سورة المائدة: 73.

المتقدمين وأسأفتكم الماضين، هذا أغشتين يقول - بعد أن تكلم في الأقانيم وأثبت¹ أنها صفات على ما يقتضيه كلامه- وذلك² أنه قال: "وهذا قولنا في الأقانيم الثلاثة التي لا يمكن جردها منه ولا وصفه بغيرها" وهذا تصريح منه بأنها صفات، ثم قال -بعد ذلك- : "فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمرنا بالإيمان به" وسيأتي نص كلامه، ولم يقل أمرنا بأن نعتقد أن الله واحد ثلاثة، فإن الواحد لا يكون ثلاثة والثلاثة لا يكون واحداً³، كما قد تبين فساد، بل مفهوم قوله أن الإنجيل وصف أن الله تعالى موصوف بهذه الصفات، وأمرنا بالتصديق بذلك. ولو أزلتم⁴ عن ألسنتكم أمر التثليث، واعتقدتم أن الله تعالى واحد موصوف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، لوفقتم في هذه المسألة للصواب، ولحصلتم منها على الحق بلا ارتياب. ولكن من حُرِمَ التوفيق استدبر الطريق، ونكل عن التحقيق.

على أن ما ذكرته في أمر التثليث لا يستقيم على رأي المتقدمين من أحباركم، هذا صاحب كتاب "المسائل السبع والخمسين" يقول: "فيها لا نقول إن التثليث ممتزج في أقنوم واحد كقول شباليش، ولا إلهية منخزلة⁵، أو متبعضة الذات ككفرية آريش، بل أن أقنوم الآب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير الروح. لكن التثليث المقدس ذات واحدة. فإذا لم تكن ممتزجة، وكان كل أقنوم منها غير الآخر، والأقنوم معناه عندكم الشيء المستغني بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهرية، فكيف يتسع عقل لأن يقول إن هذه الثلاثة المتغايرة التي هي على ما ذكر واحد؟ وهل قائله إلا معتوه أو معاند؟.

1- في ط: "في الأقانيم ما ثبت".

2- في ط: "ذلك".

3- في ط: "لا تكون واحداً".

4- في ط: "أنكم".

5- في ط: "متحدة".

الفصل الثاني

أقانيم القدرة والعلم والحياة¹

في حكاية كلامه أيضا:

قال: "فإن قلت لم لا تقولون بسم القادر العالم² المريد، إذا قلتم باسم الآب والابن والروح القدس³. فيتبين: آب، وابن، وروح القدس⁴، ثالثا.

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين إلى جميع الأجناس، قال لهم: "من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب، والابن، والروح القدس⁵⁻⁶ وإنما خاطبنا بمثل تعاقبنا، فجعل هذه الأسماء باختلاف قضايا تلك الأفعال، ثم واسط، ثم آخر .

فأول القضايا: خلق الله الجميع برياً⁷ سماها: آبا، وأضافها إلى القدرة. وأضاف قضية وعظ المسيح للناس إلى العلم، وسماها: ابنا، لأن العلم لا يوقع عليه، حتى يتولد كلاما . وأضاف قضية فناء الدنيا⁸ ومكافآت جميع أهلها⁹ بأعمالهم إلى الإرادة، وسماها: روح القدس¹⁰، الذي هو قادر عالم مريد، أسماء¹¹ للواحد الذي لا يتكرر.

والجواب عن قوله: اعلم يا هذا، إنك لم تحسن السؤال، ولا حصلت منه على صواب مقال، بل حصل منه في عنقك غل، وفي رجلك¹² عقال، فقلبت¹³ السؤال، ولم تشعر،

1- هذا العنوان غير موجود في خ/م.

2- في ط: "العالم القادر".

3- في ط: "القدس".

4- في ط: "القدس".

5- في خ/م: "القدوس".

6- متى 28: 19.

7- في ط: "بيد".

8- في ط: "فناء جميع الدنيا".

9- في ط: "مكافأة أهلها".

10- في ط: "القدس".

11- في ط: "أسماء".

12- في ط: "رجليك".

13- في ط: "قلبت".

وجهلت من حيث ظننت أنك تستبصر. أردت أن تقول في الاعتراض الذي وجهته على نفسك. لم لا تكتفون باسم القادر العالم المريد، ولا تقولون: باسم الآب والابن والروح¹ القدس؟ فقدمت وأخرت، وبالفعل والمعنى أخللت، ثم أنتجت النتيجة قبل ذكر المقدمات، فصار لذلك كلامك من أرك الترهات، فقلت فيها: "فيتبين آب وابن وروح القدس ثالثاً"، وهذا كلام مختل ناقص، مشوب بالفساد غير خالص. وإنما كان صوابه أن يقول: فيتبين أنه آب وابن. ثم قلت: "ثالثاً" بالنصب، بخطك ضبطته²، مشعرا بأنك أعريته، بل بالاتفاق كتبته، ولم تشعر بأنك قلبته. وأما قولك: "إن المسيح لما بعث الحواريين إلى جميع الأجناس"، فكلام³ نقلته مدعياً أنك رويته، ونحن يجب علينا أن نتوقف في أخباركم، ولا نقطع بتصديقكم، ولا بأكذابكم، بل نقول ما أمرنا به الرسول وبلغنا على السنة النقلة العدول: "آمنا بالله ورسله" فإن صدقتم لم نكذبكم، وإن كذبتم لم نصدقكم، ومع تسليم ذلك⁴ جدلاً، فلا بد أن نباحثكم فيما نقلتم، ونتفقه فيما حكيتم.

فنقول: ظاهر قولك هذا، يفهم منه: أن رسالة عيسى كانت عامة لجميع الأجناس، وليس الأمر كما⁵ زعمتم، وسيأتي الكلام على هذا في باب النبوات، وكذلك⁶ الكلام على المعمودية، وما يلزم عليها يأتي في باب الكلام على أحكامهم إن شاء الله⁷.

وأما استدلالك⁸ على وجوب اعتقاد⁹ الآب والابن والروح القدس¹⁰. وإطلاق القول بذلك بما قاله عيسى للحواريين، فلا حجة لك فيه، إذ ليس بنص قاطع، بل هو مما تقولون أنتم عليه¹¹ متشابه، فإنه يحتمل أن يكون مراده به: عمدوهم على بركة¹² هذا

1- في ط: "روح".

2- في ط: "ضبطه".

3- في ط: "فكلاماً"، وهو خطأ.

4- في ط: "ذلك".

5- في ط: "على ما زعمتم".

6- في ط: "وكذا".

7- في ط: "إن شاء الله تعالى".

8- في ط: "وما استدلالاً لك".

9- في ط: "على اعتقاد وجوب".

10- "والروح القدس" ساقطة من خ/م.

11- في ط: "فيه".

12- في ط: "تركهم".

القول، كما يقول القائل: كل على اسم الله، وامش على اسم الله أي على بركة اسم الله، ثم لم¹ يعين الأب والابن من هما؟ ولا ما المعنى المراد بهما؟ فقلعه أراد بالأب هنا: الملك، الملك² الذي نفخ في أمه مريم³ الروح، إذ نفخه⁴ سبب علوق أمه وحملها⁵ به. وأراد بالابن: نفسه، إذ خلقه الله تعالى⁶ من نفخة الملك فالنفخة له بمثابة النطفة في حق غيره.

ثم لا يبعد أيضا في التأويل - إن صح عن عيسى عليه السلام، أنه كان يطلق على الله لفظ الأب - أن يكون مراده به أنه: ذو حفظ له وذو رحمة وحنان عليه وعلى عباده الصالحين، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم، وهم له في القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار، ويحتمل أن يكون تجوز بإطلاق هذا اللفظ على الله تعالى، لأنه معلمه وهاديه ومرشده، كما يقال: "المعلم أبو المتعلم" ومن هذا قوله تعالى في كتابنا: ﴿مَلَأَ آبَاكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۖ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾⁷ على أحد تأويلاته.

وعلى⁸ هذين التأويلين يصح حمل⁹ ما وقع في أناجيلهم من هذا اللفظ، بل هذان التأويلان ظاهران مسوغان¹⁰ فيها، وسيشهد لذلك¹¹، قول عيسى للحواريين على ما جاء في سورة الوصية، حيث قال لهم: "إذا صليتم فقولوا يا أبانا السماوي تقدس اسمك وقرب ملكك"¹² ثم قال بعد كلام ووصايا: "فإذا كنتم أنتم على شرتكم تعرفون إعطاء الخيرات أولادكم، فكيف أبوكم السماوي"¹³، وكذلك وقع في إنجيل يحيى¹⁴ أن عيسى قال

-
- 1- في ط: "ولم".
 - 2- في ط: ذكرت كلمة "الملك" مرة واحدة.
 - 3- في ط: "مريم أمه".
 - 4- في خ/م: "نفية" وهو تصحيف.
 - 5- في ط: "وحبلها".
 - 6- في ط: تعالى.
 - 7- سورة الحج: 78.
 - 8- في ط: "ومن".
 - 9- في ط: "حل".
 - 10- في ط: "وسائغان".
 - 11- في ط: "ويشهد لهذين التأويلين".
 - 12- متى: 9-10 ولوقا: 11: 2.
 - 13- متى: 7: 11.
 - 14- في ط: "في إنجيل يوحنا (يحيى)".

لليهود: "أنا عالم أنكم من نسل إبراهيم، ولكن تريدون قتلي، لأنكم لا تعلق بكم وصيتي، فأعلمكم بما رأيته عند الآب، وأنتم إنما تعلمون¹ ما رأيتم من آبائكم². فأجابوه وقالوا: إنما أبونا إبراهيم، فقال لهم إن كنتم بني إبراهيم، فاقفوا أثره، ولا تريدوا قتلي. على أني رجل وذنبي³ إليكم: الحق الذي سمعت عن الله ولم يفعل إبراهيم هذا غير⁴، إنكم تقفون آثار أبيكم⁵. فقالوا به لسنا أولاد زنا وإنما نحن بنو الله. فقال لهم: لو كان الله أباكم لحفظتموني لأنني⁶ منه⁷.

ثم نقول⁸: لأنه عليه السلام، وإن كان يطلق هذه الأسماء، فإنما كان يطلقها متمثلاً بها. وهكذا أكثر كلامه الذي يحكون في إنجيلهم.

ثم قد نهى عن إطلاقها في الإنجيل: الحواريين، قال في إنجيل لوقا للحواريين: "ما تقولون أنتم؟ فأجابه سمعون بيطر وقال له: أنت المسيح ابن الله. فنهاهم⁹ وكذلك كان يقول إذا كان يخرج الجنون عن المجانين فكانت تخرج، وهي تقول: "أنت ابن الله"¹⁰ فكان ينتهرهم ويمنعهم من هذا القول.

فهذا يدل دلالة بينة على: أن المسيح كان يطلق لفظ الآب على الله تعالى، بالمعنى الذي يطلق على إبراهيم عليه السلام أنه: أب؛ وذلك بمعنى: المعلم الشفيق. وكذلك جاء¹¹ في كتابنا: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾¹² وبذلك المعنى تقول اليهود والنصارى في

1- في ط: "تعملون".

2- في ط: "أبيكم".

3- في خ/م: "وذني"، وهو تصحيف.

4- في ط: "غير هذا".

5- في ط: "أبيكم".

6- في ط: "لأنني".

7- يوحنا 8: 37-42، النص كما ورد في إنجيل يوحنا: "أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم لكنكم تطلبون أن تقتلوني لأن كلامي لا موضع له فيكم أنا أتكلّم بما رأيته عند أبي وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم أجابوا وقالوا له أبونا هو إبراهيم قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله هذا لم يعمله إبراهيم أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا له إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنكم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله واتييت لأنني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني".

8- في ط: "نقول".

9- لوقا 9: 20-21.

10- لوقا 4: 41.

11- في ط: "وكذلك جاء اللفظ في كتابنا".

12- سورة الحج: 78.

إبراهيم¹] وليس على حقيقة الأبوة، ومع ذلك ف ﴿ مَا كَانَتْ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾².

وكذلك في الإنجيل في غير ما موضع: قال لكم أبوكم، وقلت لأبي، ويلزم على مساق هذا أن لا³ يخص المسيح باسم الابن ولا الله تعالى باسم الأب.

وما بالناس نطول الأنفاس مع هؤلاء الجهال الأوجاس⁴، فإنه إذا احتمل اللفظ عنده⁵ التأويلات، كان من المتشابهات، ولا ينبغي أن يصير إليه في الاحتجاجات وخصوصا في الاعتقادات؛ ثم نقول: لا يخلو المستدل بذلك أو ما يقاربه على المعنى المتقدم: أما أن يريد به حقيقة الأب والابن أو لا يريد ذلك، فإن أراد الحقيقة كان محالا وباطلا، فإن حقيقة الأب عند العقلاء: حيوان ولد من نطفة حيوان هو من نوعه، وبهذه النسبة والصفة تفهم حقيقة الابن، وهذان الوصفان محالان على القدرة والعلم، فإن العلم ليس بحيوان مولود من نطفة حيوان، ولا القدرة حيوان يخرج منها نطفة يتولد منها حيوان، وهذا معلوم البطلان بالضرورة.

وان أراد بذلك المجاز، فلا يصح له حمله على المجاز حتى يجتمع المجاز والحقيقة في أمر ما. فإنك إذا قلت: زيد أسد، إنما تجوزت بلفظ الأسد وأطلقته على زيد لأجل الشجاعة الجامعة بين الأسد وزيد ولولا ذلك لما صح المجاز؛ فإذا لا بد لهذا المتجاوز من جامع بين الحقيقة والمجاز، فما الجامع الذي لأجله تجوز هذا المحتج؟ فإن قال الأمر الجامع: أن القدرة أصل العلم - وقد قال ذلك في داخل كتابه - منعنا ذلك، ولم نسلمه⁶، وقلنا: المفهوم من القدرة والمعقول منها عند العقلاء صفة بها يوجد ما لم يكن موجودا، والمعقول من العلم أنه صفة كاشفة نفسها، ومعلومها يصدر عنها الأحكام والإتقان، وهما في حق الله⁷ أزليان عندنا وعندهم. وإذا كانا كذلك، فلا يتقدم أحدهما على الآخر في

1- هذه الجملة ساقطة من المتن في المخطوطة الملكية ومصححة في الحاشية.

2- سورة آل عمران: 67.

3- في ط: "ألا".

4- في ط: سقطت كلمة "الأوجاس".

5- في ط: "إذا احتمل هذه التأويلات".

6- في ط: "نسأله".

7- في ط: "الله تعالى".

الوجود . وإذا لم يصح ذلك فلا يكون أحدهما أصلا للآخر، فإن أراد هذا القائل: التقدم في الذهن، فالعلم هو المتقدم في الذهن لأنه لا يصح فعل اختياري من غير عالم. فإن العلم شرط الإيجاد، [والشرط متقدم في الذهن على المشروط بالضرورة، ولذلك يقول: (علم زيد فقدر) ولا تقول: (قدر فعلم)] ولتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم الفعلي والانفعالي¹. ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العلم: أبا والقدرة ابنا، لكان أحق بذلك وأولى.

ثم نقول: لأي شيء صرتم إلى أن² الجامع بين الحقيقة والمجاز هو الذي ذكرتم؟ وبم تتكرون على من يزعم أن هنالك وجها آخر لم تطلعوا عليه ثم تحكمتم بتعيين هذا الوجه الذي ذكرتم؟

ثم نقول: أنتم قاطعون بتعيين³ هذا الوجه الذي أبديتم أو غير قاطعين؟ فإن زعموا أنهم قاطعون، فما مستند قطعهم؟ فلا بد من إبدائه، ولا شك في أنهم يجدون في هذا المعنى نصا قاطعا. فإن زعموا أنهم ليسوا بقاطعين، فقد اعترفوا بأنهم شاكون في اعتقادهم وقد كفونا مؤنة الكلام معهم، فإنهم أسندوا اعتقاداتهم إلى الشك وكفى بذلك زورا وإفكا. ثم يلزمهم على تسليم ما ذكروه من الجامع الذي أبدعوه: أن يكون الباري - تعالى وتزه وتقدس⁴ - أبا لكل المخلوقات، ثم⁵ هو أصل كل المحدثات، أي موجدتها ومخترعها.

وأما قولك: "فجعل هذه الأسماء ثلاثا" فيفهم منه أن: هذه الثلاثة الأقانيم - الذي تقدم ذكرها - مجعولة، وأن الله تعالى هو الذي جعلها، وإن كانت بجعل الله فهي بخلقه، وما كان بخلقه فهو محدث. فيلزمك على ظاهر قولك: أن هذه الأقانيم محدثة باختراعه تعالى، وأنتم تقولون أنها أزليات قديمة.

وأما قولك: "التي هي أسماء أفعاله" فقد أبطلناه فيما تقدم حيث بينا حقيقة أسماء الأفعال. ومن وقف على ذلك، تبين بطلانه هنالك. وأما قولك: "مختلفة الأسماء

1- في ط: [والشرط متقدم في الذهن على فعلم ويتحقق هذا المعنى على القطع عند من عرف الفرق بين العلم المشروط بالضرورة وكذلك نقول علم زيد فقدر ولا نقول قدر الفعلي والانفعالي].

2- في ط: إلى الجامع.

3- في ط: بتعين.

4- في خ/م: سقطت الجملة الاعتراضية.

5- في ط: إذ.

كاختلاف قضايا الأفعال¹، ثم واسط، ثم آخر² فكلام لا يروك منظره، ولا يعيد فائدة، مخبره يشهد على قائله بالجنون، ويضحك من عدم فائدته وارتباطه العاقلون، أراد هذا الجاهل أن يتكلم فخرس، وكذلك يفعل الله بكل مبطل إذا نكس، وإنما أراد هذا المبطل - ولم تطاوعه العبارة لما لم يحصل-: أن هذه الأقاليم الثلاثة إنما سميت أبا، وابنا، وروح القدس باعتبار قضايا ثلاث؛ وذلك أن القدرة إنما سميت أبا، باعتبار أنها أصل الموجودات، إذ بها وجدت؛ وإنما سمي العلم ابنا، باعتبار أنه اتحد بالابن الذي هو المسيح وصدر عنه؛ وإنما سميت الإرادة روح القدس، باعتبار مكافأة الخلق في الدار الآخرة بالنعيم.

فإن زعمت أنك لم ترد هذا فكلامك غير معقول، وقولك ليس بمقبول وهذا الذي أبديته في هذا الكلام لم يقل به -فيما علمت- أحد² من عقلاء نصارى الأنام، وكفى بقولك عارا؛ مبين مخالفته لأسقفكم "أغشتين" وها³ هو يقول في "مصحف العالم الكائن": "إنما سمي العلم ابنا بإضافته إلى القدرة إذ القدرة أصله، وكما صار التعارف الأعجمي أن تسمى القدرة - التي هي الأصل والدا، كذلك صار التعارف في ذلك اللسان أن يسمى العلم المنسوب إليها ابنا لها⁴ فقوله هذا مخالف لقولك، ورأيه غير موافق لرأيك، على أنه غلط في قوله أن: "القدرة أصل العلم" ويتبين غلطه عند من وقف على ما قدمته قبل⁵؛ لكنه وإن كان قد غلط، فالأمر عليه أقرب، والخلاف معه أهون، لأنه رجع الخلاف معه إلى إطلاق لفظ وليس وراء ذلك كثير حظ.

وأما قولك: "إن⁶ العلم لا يوقع عليه حتى يتولد كلاما" فكلام حطيط ينبئ عن جهل وتخليط، فإن العلم لا يتولد كلاما، إذ لو جاز ذلك لانقلبت حقيقة العلم، ولو جاز انقلاب حقيقة واحدة لجاز انقلاب كل حقيقة، فيقلب القديم حادثا، والحادث قديما، والجسم عرضا، والسواد بياضا إلى غير ذلك من أنواع انقلاب الحقائق. ثم قولك فاسد وباطل بالضرورة، فإننا نعلم أمورا من غير كلام موصل إلى ذلك كعلمنا⁷ بوجود أنفسنا وبإلهنا ولذاتنا ومحسوساتنا وبديهياتها⁸.

1- في ط: "قضايا تلك الأفعال".

2- في ط: "لم يقل به أحد -فيما علمت-".

3- في ط: "فها هو".

4- في ط: سقطت "لها".

5- في خ/م: "قبيل".

6- في ط: "لأن".

7- في ط: "وردت فقولنا" بدل "كعلمنا".

8- في ط: "ومحسوساتنا: بديهيات".

ثم قد صرحت بلفظ التولد وهو باطل من أصله، فإن المتولدات ممكنات، وكل ممكن مقدور بقدره الله¹، فكل المتولدات² مقدورة بقدره الله³، وإذا⁴ ثبت أنها حدثت بقدره الله تعالى فلا يقال: أنها متولدات.

أقول هذا، والكلام شجون، والعلم فنون على أني أعرف أنك لا تفهم ما أقول وإنما أخاطب أهل الفهم والعقول.

وأما قولك: "الذي هو قادر، عالم، مريد، اسما للواحد الذي لا يتكرر" فقول يدل على تخبطك، وسوء تناولك، نقضت به ما تقدم من قولك، حيث جعلت الأقانيم أسماء أفعال بزعمك، ثم صرحت⁵ ها هنا بأنها أسماء للواحد الذي لا يتكرر ولو حكى مثل هذا الكلام عن المستغرقين النوم، لقليل هذا أضغاث أحلام.

وبعد هذا، فلتعلم أني تجاوزت عنك في هذا الفصل، ولم أؤاخذك بكل ما فيه من خلل القول، خشية طول الكلام، وتبدد المطلب، وبعد المرام. وأول ذلك أنك لحننت وصحفت في ثمانية مواضع تتبين للناشئين بل للمراضع⁶.

1- في ط: "الله تعالى".

2- في ط: "المولدات".

3- في ط: "الله تعالى".

4- في ط: "وإنما".

5- في ط: "قد صرحت".

6- في ط: "المراضع".

الفصل الثالث

تعليل التثليث¹

في حكاية كلامه ايضا

ثم قال: "إن قلت: [إذ قلت]² بالتثليث لأنها أسماء أفعال الله، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة، فقولوا بها كقولكم بالتثليث، لأن عزيز وقوي وغلوب وسميع وقاهر وبصير وغفور وراضي وساخط ومعاقب وغيرها من أسماء أفعاله، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث، قلت لك: هذه التي ذكرناها هي أصول جميع التسمية، ومنها تتبثق، وفيها تندغم، فعزير وقوي وغلوب وقاهر وما أشبهها أصلها القدرة، ومنها تتبثق وفيها تندغم، وغفور ورحيم وراضي وساخط ومعاقب أصلها الإرادة، منها تتبثق وفيها تندغم؛ فإن قلت: فقديم وحي ليست منبثقة منها، ولا مندغمة فيها، فقولوا بالتخميس. قلت لك: إن قديم وحي أسماء ذات لا أسماء³ أفعال، وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحدا لنفي ضده، فقديم لنفي محدث، وحي لنفي ميت، ورب لنفي مريوب، وإله لنفي مألوه، فكل اسم من هذه: القدرة والعلم والإرادة التي هي أسماء أفعال ثلاثة لذات واحدة لا يتكثر، وكما أنا قد فهمنا أن نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، إن نقص منها واحد لم يتم له فعل، وإن زاد فيها رابع لم يتفق، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة، وذلك أن الإنسان لا يقوم له فعل دون الثلاثة؛ وذلك: القدرة والعلم والإرادة⁴ رابع منها، فإن عجزت معها⁵ واحدة لم يتم له بالاثنتين فعل، لأنه إن علم وأراد ولم يقدر فقد عجز، وإن قدر وعلم ولم يريد، فلا يتم له شيء إلا بالإرادة، وإن قدر ولم يعلم، لم يتم له فعل بالجهل. فقرب لنا الكتاب: معرفة الخالق بخلقه لهم، بمثل تعارفنا في أنفسنا، أن القدرة والعلم والإرادة خواص قائمة هي المتممة للفعل منا، وإنها لذات واحدة. وكذلك التثليث في الله واحد."

الجواب عن ما ذكر: اعلم يا هذا أنك اعترضت على نفسك بما يدل على كلال ذهنك،

1- هذا العنوان غير موجود في خ/م.

2- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.

3- في خ/م: "اسم".

4- في ط: "والإرادة لا رابع منها".

5- في ط: "منها".

وعدم حدسك، لأنك أخللت بالسؤال، وتحكمت في الانفصال، أما إخلالك بالسؤال، فأول ذلك: أنك لحنّت في هذا الفصل في ثمانية عشر موضعاً، وذلك بين عند من تأمل مكتوبك، وثانية: أنه كان ينبغي لك أن تقدم قبل هذا السؤال: النظر في حد هذه الأقانيم، وحقيقتها، ثم في الدليل على وجودها؛ فإن النظر في كون الشيء واحداً أو كثيراً إنما يصار إليه بعد معرفة حقيقته ومعرفة وجوده، فإذا فرغت من ذلك نظرت فيها هل وجودها زائد على الذات - أعني ذات الفاعل - أم هو عين الذات؟ فإذا عرفت هذه المطالب كلها، حينئذ كان يمكنك أن تنظر هل هي واحدة أم كثيرة؟ أو هل ترجع إلى شيء أو يرجع إليها شيء؟ لا بد لكل ناظر ينظر فيها - كما نظرت أنت فيها -¹ أن يعرف² قبله ما ذكرته بالبراهين القاطعة، وإلا فكيف تتكلم في فرع لم يثبت عندك أصله، ولو كنت في نظرك من المتفطنين لنظرت على الطريقة التي علمها لكم أغشتين.

وأما تحكّمك في الانفصال: فإنما يتبين إذا حكيت كلامك، وفهمت مرادك، وذلك أنك وجهت على نفسك، كأن قائلًا قال لك: لم جعلت الأقانيم ثلاثة، وأسماء الله تعالى أكثر من ذلك؟ فأنفصلت عن ذلك، وقلت: أسماء الله تعالى، وإن كانت كثيرة فإنما ترجع إلى هذه الثلاثة، فقاهر وقوي وغلوب وما أشبهها راجع إلى القدرة، وغفور ورحيم وما أشبههما راجع إلى الإرادة. هذا مقتضى كلامك بعد التكرار والإكثار، وهذا كله منك تحكم بما لم يقدّم دليل عليه³، ولا يشهد له من كلامك نظر ولا تعليل.

والأفهام الذي يدلك على أن أسماء مختلفة المفهومات والحقائق، راجعة إلى معنى واحد؟ وإن جاز أن ترد الأسماء المختلفة⁴ المفهومات إلى معنى واحد بالتحكم، جاز أن يقضى⁵ بعكس ذلك، وهو أن ترد الأسماء المترادفة على معنى واحد، إلى معان مختلفة، وذلك لا يقوله الفبي الجاهل، بله الكيس الفاضل. تقول على جهة السؤال، وبه يظهر تحكّمك في الانفصال: بم تنكر على من يزعم أن جميع صفات الكمال، مثل القدرة والعلم والإرادة، والسمع والبصر والكلام، والحياة والقدم والبقاء، وغير ذلك من صفات الكمال والاستغناء، هي أقانيم الموجودات وأصولها؟ فإن الممكنات إنما يتبدل عدمها بوجودها

1- الأصل في كل من ط، وخ/م: "نظرت أنت فيه"، لكن الجملة غير مفهومة على هذا الوجه.

2- في ط: "تعرف".

3- في ط: "لك عليه دليل".

4- في ط: "المختلفة".

5- في ط: "تقضي".

بإيجاد موجد متصف بصفات الكمال، ومنزه عن صفات النقص والافتقار، وإن اتصف بصفات النقص والافتقار. كان محتاجا إلى مزيل النقص عنه، ومن كان محتاجا كان ممكنا، وكل ممكن فلا بد أن يستند وجوبه إلى سبب واجب الوجود، فحصل من هذا أن صفات الكمال والاستغناء، كلها لا يصح إيجاد موجود محدث إلا ممن اتصف بمجموعها، وأن من لم يتصف بها فلا يصح منه إيجاد موجود. فإذا¹ هي أصول الموجودات الممكنة، فإذا² هي أقانيم على قولك.

وسياتي مزيد كلام في الأقانيم، ثم نقول: إن قضيت برجع هذه الأسماء بعضها إلى بعض مع تباين مفهوماتها، واختلاف معانيها فلم لا تقضى برجع الإرادة إلى العلم، وبرجع العلم إلى التجرد عن المادة كما زعمت الفلاسفة؟ ولم لا تقضى برجع القدرة إلى الوجود، كما قد ذهب إليه طوائف من النصارى المتقدمين، فقد كان طوائف منهم لا يعدون القدرة أقنوما، وكانوا يردونها إلى الوجود، وكانوا يردون الإرادة للحياة، فالأقانيم عندهم، الوجود والعلم والحياة. وسياتي حكاية مذهبهم إن شاء الله³.

وهذا كله يدل على أنكم في عقائدكم متحكمون، لا ترجعون فيها إلى أصل عليه تمولون.

وأما سؤالك الثاني الذي وجهت على نفسك، فوارد عليك، ولازم لك، ولم تتفصل عنه، على أنك أخلت به، فإن الذي يعترض به عليك أكثر من قديم وحي؛ إذ قد يرد عليك الوجود، فإن أصل الأقانيم السمع والبصر، فإن لا يصح رجوعها بحال إلى العلم، فإن العلم لا ينوب عن الإدراك. فأنا بالضرورة نعلم الفرق بين العلم بالصوت، وسماع الصوت. وبين العلم بالمرئي، ورؤية المرئي. مثال ذلك أنا نعلم معلوما على غاية ما يمكن من العلم، ثم إذا رأيناه حصل لنا بالضرورة، مزيد وضوح ومزيد بينة على العلم به، وكذلك في المسموع، فذلك المزيد وتلك المزيد. أما أن تقول أن الله تعالى⁴ مدرك لها، أو ليس مدركا لها، فإن لم يدركها فقد فاتته بعض المزايا، ولم يحصل له ذلك الوضوح، فيكون من يدركها وحصلت له، أكمل ممن لم تحصل له، فيؤدي إلى أن يكون المخلوق أكمل

1- في ط: "فإن".

2- في ط: "فإن".

3- في ط: "الله تعالى".

4- في ط: "تبارك وتعالى".

من الخالق، والمصنوع أشرف وأتم من الصانع، وذلك محال. وإن كان مدركا لها، فبذلك الإدراك يسمى بصيرا سمعيا، وهو زائد على العلم، فإن العلم لا يغنى عنه كما تقدم، ولسنا نشترط فيها بنية مخصوصة¹، ولا جارحة ولا اتصال أشعة، بل تنزه الله تعالى عن كل ما يوهم النقص والقصور في حقه، وهذا كما أنا لم نشترط في كونه تعالى، عالما قلبا ولا دماغا، ولا في كونه قادرا بنية ولا آلة، بل السمع والبصر إدراكان، أعنى صفتين متعلقتين بالمسموعات والمبصرات، على ما يعرف في موضعه، فإذا تبين أنهما لا يرجعان إلى العلم، فعدوهما أقنومين زائدين على ما ذكرتم. وهذا ما لا محيص عنه ولا جواب عليه.

وأما قولك: "وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحدا لنفى ضده"، فكلام من لم يحنكه الاعتبار، ولا عرف اصطلاح النظار، وذلك أنك أطلقت صفات الذات وصفات الأفعال، على ما لم يطلقه عليه النظار ولا استعمله في نظره أحد من علماء الأمصار.

ونحن نذكر اصطلاح النظار، المعتبرين في صنعة² النظر والأفكار، في إطلاق هذه الأسماء، ليتبين للواقف على هذا الكتاب، أنك لم تعرف شيئا من اصطلاحاتهم، ولا حطت على شيء من مفهوماتهم.

قالوا: إنما تطلق الأسماء بحسب المسميات. والمسميات إما ذات أو أمر زائد على الذات، فالذي يدل من الأسماء على الذات، هو الذي يقال عليه اسم ذات. مثال قولنا إنسان وملك، ومن أسمائه تعالى³: الله والحق. وأما الذي يدل على أمر زائد على الذات، فذلك الأمر الزائد⁴ إما أن يكون نفى شيء عن الذات أو ثبوت شيء للذات، فالذي يدل على نفى شيء عن الذات، هو الذي يقال عليه اسم سلب، مثال ذلك فقير وسالم، ومن أسمائه تبارك وتعالى: القدوس والسلام، فإنها تدل على البراءة من العيوب وعلى نفيها، وأما الذي يدل على ثبوت شيء للذات، فذلك الثابت إما أن يقوم بالذات أو لا يقوم بها، فالذي يقوم بالذات هو الذي يقال عليه اسم صفة، ومثال ذلك عالم وقادر وسميع وبصير، فإن هذه صفات زائدة على الذات. وأما الزائد على الذات الذي لا يقوم بها، فهو الذي يقال عليه اسم الفعل، وقد يقال عليه اسم الإضافة، مثل خالق ورازق وما أشبه ذلك.

1- في ط: نشترط فيها بنية.

2- في ط: "صفة النظر"، وهو تصحيف.

3- في ط: "تبارك وتعالى".

4- في ط: سقطت كلمة: "الزائد".

فحصل من التقسيم، أن الأسماء على أربعة أضرب: أسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء سلوب، وأسماء أفعال. وقد يقال عليها [أسماء إضافات، فهكذا ينبغي أن تفهم اصطلاح المتقدمين والنظار]¹ المعتبرين، فإن كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأخبار، فتكلم باصطلاحك مع نفسك، ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك. ولا يظن ظان أن هذا السائل أراد بأسماء الأفعال: الأسماء التي لا يوجد الفعل إلا بها، مثل العلم والقدرة، والإرادة، فإنه قد جعل من أسماء الأفعال، مالا يوجد به فعل، كسميع وبصير وغيرهما مما ذكر. وفيما أحسب أنه أراد هذا المعنى، ولم تساعده العبارة فغني وعنى.

وأما قولك: "حي لنفي ميت، ورب لنفي مريب، وإله لنفي مألوه"، فكلام مجنون معتوه، فإنه إن جاز أن يكون حيا من أسماء السلوب والنفي، فما المانع من أن يكون العلم من أسماء السلوب. فإنه يمكن² أن يقال عالم لنفي جاهل، ومريد لنفي كاره، وقادر لنفي عاجز، وهكذا يجري في جميع الصفات والأسماء التي لها نقائص، وذلك يؤدي إلى جهالات وجحد المعقولات. وأيضا فإن كانت الحياة سلبا فيستحيل أن تكون شرطا للعلم والقدرة والإرادة وغيرها وكونها شرطا لهذه الصفات معلوم بالضرورة والنفي لا يكون شرطا ولا مشروطا في مثل ما نحن فيه.

ثم نقول قولك هذا مخالف لما تقوله أقستكم، هذا صاحب كتاب الحروف يقول: "الباري تعالى لم يزل حيا بروحه، وناطقا بكلمته، فمهما قلت لم يزل حيا، ولم يزل ناطقا، أوجبت في نطقك لحياته ونطقه الأزلية". وهذا منه تصريح بأن الحياة ليست ترجع إلى نفي الموت. ثم قال بعد ذلك بكلام: "وروحه أعنى حياته، أقنوم خاص كامل لم يزل"، وسيأتي الكلام معه في هذا إن شاء الله³.

وأما قولك: "رب لنفي مريب" فقول مختلط عقله مغلوب، فإن الرب معناه الملك، فهو من أسماء الإضافة والأفعال، وأما الإله فهو من الآلهة، وهي العبادة، فهو مألوه، أي معبود آلهة عبادة، فهو من أسماء الأفعال والإضافة.

1- ما بين المعقوفتين ساقط في ط:.

2- في ط: "ممكّن".

3- في ط: "الله تعالى".

وأما قولك: "وكما"¹ قد فهمنا أن نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة² فقول يدل على سوء نظرك، وقلة تثبتك؛ وذلك أن مفهوم ما ذكرته في هذا الفصل - على تشبيجه وسوء ترتيبه - هو أنك قلت: إن الإنسان لا يتأتى منه فعل حتى يكون قادرا عالما مريدا، فإن نقصه منها واحد لم يصح إيجاد الفعل منه، فكذلك خالقنا سبحانه وتعالى هو قادر عالم مريد، ولو نقصه منها واحد لم يصح منه إيجاد فعل كالإنسان. هذا مفهوم كلامك على كثرته.

وهذا كلام فاسد لأنه قياس الغائب على الشاهد؛ إذ هو قياس خال عن الجامع، وأيضا فلو كان هنالك جامع لكان باطلا، فإنه قياس جزئي على جزئي؛ وذلك إنما هو صالح للظنيات لا للعمليات²، ولو جاز قياس الباري سبحانه على خلقه، للزم ألا يكون قادرا حتى يكون ذا آلة وعصب ويد الجارحة، فإن الواحد منا لا يكون قادرا حتى يكون كذلك. وكذلك كان يلزم ألا يكون عالما حتى يكون ذا قلب ودماع، إلى غير ذلك من المحالات. ويلزمك على مساق قولك، أن يكون الباري تعالى جسما؛ فإنك كما لم تر موجدا ولا فاعلا لفعل، إلا قادرا عالما مريدا، كذلك لم تر فاعلا ولا موجدا إلا جسما، وهذه جهالات لازمة على قولك، ومنتجة [على صميم قولك]³ عن صميم⁴ جهلك، فلا تتفجع بهذا الكلام حتى تسبره على محك النظر الأعلام، ولو تتبعنا خطاك في هذا الفصل لطال الكلام، ولكثر عليك التوبيخ والملام، لكننا نكل الناظر فيه للوقوف على فساد معانيه.

1- في ط: "وكما أنا قد".

2- في ط: "للمليات".

3- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.

4- في ط: "صمم".

الفصل الرابع

دليل التثليث¹

في حكاية كلامه أيضا

قال: "هَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ مِنَ الْمَخَالِفِينَ فَقَالَ: فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى صَدَقِ مَا تَدْعُونَ مِنْ تَثْلِيثِ وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ² الثَّلَاثَةُ وَاحِدًا وَالْوَاحِدُ ثَلَاثَةً، مَعَ مَا ابْتَدَأْتُمْ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَإِثْبَاتِكُمْ إِيَّاهُ فَرْدًا لَمْ يَزَلْ؟

قُلْنَا لَهُمْ: أَمَّا أَنْ تَكُونَ الثَّلَاثَةُ وَاحِدًا وَالْوَاحِدُ ثَلَاثَةً، فَذَلِكَ³ لِعَمْرِي مَا لَا يُمْكِنُ كَوْنُهُ، وَلَكِنَّا⁴ نَقُولُ: إِنْ جَوْهَرًا قَدِيمًا لَمْ يَزَلْ موجودًا بِثَلَاثِ خَوَاصٍ أَزْلِيَّاتٍ، جَوْهَرَاتٍ غَيْرِ مُتَبَايِنَاتٍ، وَلَا مُتَفَرِّقَاتٍ فِي الْجَوْهَرِ الْقَدِيمِ الْأَزْلِيِّ، الَّذِي لَا يَتَّبَعُ وَلَا يَتَجَزَّأُ بَعِينَهُ وَكَمَالَهُ، فَلَا هُوَ ثَلَاثَةٌ، وَجَمِيعُ الثَّلَاثَةِ خَوَاصٌ هِيَ بِمَعْنَى مَا هُوَ وَاحِدٌ، وَلَا هُوَ وَاحِدٌ بِمَعْنَى مَا هُوَ ثَلَاثَةٌ، أَعْنِي لَيْسَ هِيَ⁵ خَاصَّةً وَاحِدَةً، بَلْ ثَلَاثَةُ خَوَاصٍ، فَهَذَا مَذْهَبُنَا فِي تَثْلِيثِ وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ⁶.

1- العنوان غير موجود في خ/م.

2- في ط: "تكون".

3- في ط: "فلذلك".

4- في ط: "ولكن".

5- في ط: "هو".

6- ورد عند عمار البصري نص قريب مما أورده المؤلف هنا على لسان صاحب كتاب "تثليث الوجدانية"، لذلك أورد نص عمار البصري حتى يمكن للقارئ أن يقارن بينهما، وجعلت التغييرات بالبند العريض "إن سأل سائل من المخالفين فقال: ما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وجدانية الخالق؟ وكيف يمكن أن يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدًا، معما ابتدأتم به أيضًا من تثبيتكم وجدانيته وإقراركم بأنه واحد ليس له مثل ولا شبه ولا نظير؟ قلنا: أما أن كون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدًا، فذلك لعمري لا يمكن كونه، وذلك أن العدد الواحد لا يكون العدد الثلاثة، فأما المعنى الذي إثبه نقصد في قولنا هَإِذَا نَعْنِي: أَنَّ ذَلِكَ الْجَوْهَرَ الْوَاحِدَ الْقَدِيمَ لَمْ يَزَلْ موجودًا بِثَلَاثِ خَوَاصٍ جَوْهَرِيَّاتٍ غَيْرِ مُتَبَايِنَاتٍ وَلَا مُفَرَّقَاتٍ. وَجَمِيعُ الثَّلَاثِ الْخَوَاصُ هُوَ ذَلِكَ الْجَوْهَرَ الْوَاحِدَ الْقَدِيمَ الَّذِي -يَ لَيْسَ هُوَ ثَلَاثَةً بِمَعْنَى خَاصَّةٍ- لَا يَتَّبَعُ وَلَا يَتَجَزَّأُ بَعِينَهُ وَكَمَالَهُ، وَلَا هُوَ ثَلَاثَةٌ، بِمَعْنَى مَا هُوَ وَاحِدٌ، - وَاحِدَةً بَلْ ثَلَاثِ خَوَاصٍ، فَهَذَا مَذْهَبُنَا فِي تَثْلِيثِ وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ ". عمار البصري، كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة، تحقيق ميشال الحايك، دار المشرق بيروت، 1977، سلسلة بحوث ودراسات⁵، ب. سلسلة جديدة الشرق المسيحي. النص من كتاب المسائل والأجوبة، ص: 148-149.

الجواب عنه: هذا السؤال¹ الذي وجهت على نفسك، وارد عليك ولازم لك. وأما انفصالك عنه فيخرجك² عن ملة النصرانية، ولا يبقى عليك منها بقية، وذلك أن مرادك من هذا الجواب أنك قلت كلاما معناه: أن كون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدا، غير جائز عقلا؛ ولكن معنى التثليث أن الله تعالى جوهر قديم لم يزل، موصوفا بثلاث خواص أوليات، فهو واحد بمجموع الأقانيم، وثلاثة بتفرق الأقانيم، وتلك الأقانيم لا تفارق وجوده ولا تباينه، لا³ يمكن أن يحمل كلامك إلا على هذا، وإن حمل على غيره فهو بعيد وغيره مفيد⁴.

وهذا الذي ذكرته، لا يسلمه⁵ لك أكثر النصارى، بل يتبرأون عنه ولا يرضون بشيء منه، إذ النصارى⁶ قبلك أو أكثرهم⁷ متفقون على أن الأقانيم الثلاثة آلهة وأنها إله واحد؛ فأنت تقول هي: خواص وهم يقولون: آلهة. فأى شيء يجمع بين الخاصية والإلهية، وبينهما ما بين السماء والأرض، والرفع والخفض؟ وسيتضح ذلك إذا نقلنا مذاهبهم في ذلك إن شاء الله⁸.

ثم نقول لهم: لأي شيء تحكمت⁹ بتسمية خالقكم جوهرًا؟ وفي أي موضع من¹⁰ كتب الأنبياء وجدتم الأمر بذلك؟ أو على لسان من بلغكم الأمر به، ولا تجدون لإثبات الأمر بذلك سبيلا غير التحكم؟ ولو كنتم ممن يستحي من الله لما تحكمت عليه بأن سميتوه بما لم يسم به نفسه، ولو أن واحدا منكم سمي له ولد بغير أمره، لأنف من ذلك وعظم عليه ولوبخ المسمي لأنه تصرف فيما لا ينبغي له؛ هذا إذا كان الاسم مما يفهم منه المدح، فما ظنك لو سمي بلقب يفهم منه النقص والعيب؟ ولفظ الجوهر في المعارف عند أرباب

1- في خ/م: "السائل"، وهو تصحيف.

2- في ط: "فمخرجك".

3- في ط: "ولا يمكن أن يحمل كلامك".

4- في ط: "غير مفيد".

5- في ط: "لا يسأله".

6- في ط: "نصارى".

7- في ط: "قبلك أكثرهم".

8- في ط: "الله تعالى".

9- في ط: "تحكمت".

10- في ط: "موضع كتب"، وهو تصحيف.

النظر إنما¹ يطلقونه على المتحيز، وهو الجرم الشاغل قدراً² من المساحة، ولا بد له من الحركة والسكون، وهما دليلان تغيّره وحدوثه [وربما أطلق لفظ الجوهر بعض النظائر على الموجود لأي موضوع وجوده زائد على ماهيته عند هذا المطلق وذلك هو الممكن لا الواجب]³. فإن أردت به معنى آخر فلا بد من بيانه؛ إذا لم تتكلم بما تكلم به أرياب النظر المذلول سبيل العبر.

1- في ط: "ولفظ الجوهر في المعارف عند النظائر وغيرهم".

2- في خ/م: "قدر"، وهو تصحيف.

3- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.

الفصل الخامس

في بيان اختلافهم في الأقسام

نبين في هذا الفصل مذاهب أوائلهم، ونتكلم معهم فيها، ونوضح فسادها¹ إن شاء الله²، ونحكي مذاهبهم بألفاظهم كما وجدتها في كتبهم؛ ولم أعول في ذلك على نقل علمائنا عنهم فقط، بل تتبعت ما أمكنني من كتبهم والله الموفق.

قالوا: لما أفهمنا الشواهد العقلية: أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا، قلنا: فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة، كما يقال في حد الإنسان: أنه حيوان ناطق ماث؛ إذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه: أقنوما واحدا، شخصا واحدا، ولا يسمى كل جزء وكل عرض منها أقنوما أنسيا؛ وذلك أن³ اسم الأقنوم واجب للشيء المستغنى بذاته القائم بشخصه. ولا لذي اضطرار كالأجزاء ولا لذي الاشتباك. فإن الأجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها، كما أن حر النار الذي هو جزء من قوى النار لا يقوم بذاته أقنوما منفردا دون أصلية النار وضوئها. وكذلك الأعراض المشتبكة في الجوهر كالسواد والبياض وما أشبههما، لا تقوم أشخاصا مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها. فالأقنوم هو المستغنى بذاته عن أصل جوهريته كالإنسان المستغنى بخاصية إنسانه عن الناس، والشجرة عن الأشجار، والدينار عن الدنانير، فامتاع أجزاء الإنسان من القيام أشخاصا لا اضطرارها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديد لها إنسانا دون جسمه ونطقه، وكذلك نطفة وجسمه يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديد إنسانا دون روحه، وذلك لا اضطرار كل جزء منها إلى صاحبه في القيام بإنسانيته.

فإذا تقرر هذا، فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره، كما هو من الإنسان أو غير جوهره، فإن قلنا: هما جزءان من جوهره الزمناه ما يلزم الإنسان من الاضطرار والتأليف، لأننا وجدنا أجزاء الإنسان لا اضطرار بعضها إلى بعض تقصر عن

1- في ط: "ونوضح مسائلهم فيها".

2- في ط: "الله تعالى".

3- في ط: "لأن".

احتمال أسماء الأقانيم، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلي، إذ هو يتعالى¹ عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض. فوجب² أن تكون خواصه لغنائه وكمالها، تسمى أقانيم قائمة بخواصها، ومستحقة أن توصف منها³ بجوهرية قديمة كقدمه، لا جزأين مركبين، ولا عرضيين مضطرين⁴، لأنه لم يزل حيا وناطقا بكلمته.

ومن زعم أن الحياة من الله، والنطق منه: محدثان؛ وصف الله تعالى في أزليته بالموت والجهل. وإن قلنا: إن حياته⁵ ونطقه غير جوهره أزليان، فقد أشركنا مع الله في أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة، فوجب أن يكون جوهر الخالق تعالى: أثنوما، خاصا، قائما، كاملا بخاصته⁶ لم يزل. ونطقه الذي هو كلمته أثنوما، خاصا كاملا قائما بخاصته⁷ لم تزل. [وروحه أعني حياته: أثنوما، خاصا، كاملا بخاصته لم يزل]⁸ فهذه ثلاثة أقانيم معروفة بمعانيها، لا متفصلة، ولا مترتبة، ولا متشابكة، جوهر واحد، ذات واحدة⁹.

هذا كلام صاحب "الحروف" وهو عندهم القسيس المعروف. ولقد رام تحسين مذهبهم، وتبيين مطلبهم، ولكن لا يستوي الظل والعود أعوج، ولا يصلح المذهب وقائله أهوج.

❖ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ❖

وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأقانيم مختلفون، وبالحيرة عمهون.

هذا صاحب كتاب "المسائل" يقول: "هذه الثلاثة الأقانيم متوحدة لأجل الآب، متساوية لأجل الابن، منتظمة الروح، فنؤمن أن الأب أب لأجل أنه ذو ابن، والابن ابن، لأنه ذو أب، والروح القدس منبثق، لأنه من الأب والابن، فالأب أصلية الإلهية، لأنه كما لا يخلو قط أن

1- في ط: "متعالى".

2- في ط: "فأوجبوا".

3- في ط: "ومستحقة الذي توصف به".

4- في ط: "منفصلين".

5- في ط: "وإن قلنا حياته".

6- في ط: "بخاصية".

7- في ط: "بخاصية".

8- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

9- في خ/م: "واحد"، وهو تصحيف.

يكون إلها كذلك لم يخل¹ قط أن يكون أبا، الذي الابن منه مولود، والذي الروح القدس منه ليس مولودا، لأنه ليس ابنا ولا غير مولود، لأنه ليس مخلوقا، لأنه ليس من شيء، بل إله منبثق من الأب والابن إله.

وأقنوم الأب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس، لكن التثليث المقدس ذات واحدة، إلهية واحدة، وهذا تصريح بأن الأقانيم: آلهة، وإن كان كل واحد² منها غير الآخر.

وقد ذهب "سباليش"³ إلى أن⁴ الثلاثة الأقانيم متمتزة في أقنوم واحد، وهو عند كثير منهم مكفرا وكالمكفر. وقد ذهب آريش⁵ إلى أنه إلهية الأقانيم منخزلة ومتبعضة الذات، وهو عندهم مفتر خارجي.

وقال صاحب كتاب "المسائل": "لسنا نؤمن أن في التثليث شيئا مخلوقا أو خادما كالذي أنشأه "دنونيشيش"، أو غير معتزل كقول "أونوميش"، أو ناقص الامتتان كقول "أوتنش"، أو مقدا أو مؤخرا أو صغيرا كقول "آريش"، ولا ذا جسد كقول "مالطه" و"ترتليان"، ولا مصورا بالجسدية⁵ كقول "أريد" و"نمرشيش"، أو محجوبا بعضه عن بعض كقول "أوريان"، ولا مرييا من المخلوقات كقول "فرطنات"⁶، ولا متفرق الإرادة والعوائد كقول "مرحيون"، ولا منقلبا من ذات التثليث إلى طبيعة المخلوقات كقول "أفلاطون" و"ترتليان"، ولا منفردا في رتبة مشتركا في أخرى كقول "أوريان"، ولا متمتزا كقول "سباليش" بدل كله كامل لأنه كله واحد، ومن واحد لا مفرد⁷ كزعم "شلبانش".

وإذا وفقت على هذه الأقاويل الضعيفة، والآراء السخيفة، لم تشك في تخبطهم في عقائدهم، وحيرتهم في مقاصدهم؛ قالوا في الله تعالى⁸ بأرائهم، واتبعوا فيها ظاهر أهوائهم، فهم في ربهم يترددون، ولجهالهم مقلدون، وبضلالهم مقتدون⁹.

1- في ط: "يخلو".

2- في ط: "وإن كان واحد"، وهو تصحيف.

3- في ط: "سباليش".

4- في خ/م: سقطت "أن".

5- في ط: "بالحيدية".

6- في ط: "فرشاط".

7- في ط: "لا تعدد".

8- في ط: "تبارك وتعالى".

9- في ط: "مقتدون".

ولما رأينا هذه المذاهب الركيكة لا تستحق أن تحكى، بل يضحك من ذهاب عقول أربابها وبيكى، أعرضت عنها إعراض المطلق على عوره أمام من يخاف جوره، فعزمت على نقل مذهب كبيرهم "أغشتين" فإن مذهبه في الأقاليم مقارب في الصفات مذهب المسلمين.

وذلك أنه قال بعد مقدمة كلام يرجع حاصله إلى ما نذكره: "لما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شيء، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرًا غير حي ولا مستغن بنفسه، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمهم إلى الإقرار بأن تلك القدرة ذات علم وإرادة".

قال: "وقد رد علينا هذه المقالة 'برفريش' فقال: لا نقول أنه شيء فيكون قد سميناه بالأشياء التي لا تسلم¹ من عيب، ولكننا نقول: 'إنه' ولا نقول: 'شيء' ثم قال: 'ألستم تقرون² أن الذي قدر هو الذي علم، وأن الذي علم هو الذي أراد، فهو واحد في جميع المعاني. وإنما القدرة والعلم والإرادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق، وليست لا خالقة ولا مخلوقة، لأنه لو لم يكن الشيء المقدور لم يسم ذو³ قدرة، ولو لم يكن الشيء المعلوم لم يسم ذا علم، وكذلك القول في الإرادة، فهذه الأسماء، إنما هي أعراض وأسماء فيما بينه وبين الخلق مثل قولنا: ذو رحمة وذو حكم وذو عقاب، فلو لم يكن الخلق المرحوم لم يلزمه اسم الرحمة وكذلك غيرها".

قال "أغشتين" في جوابه عن قوله: "لا نقول أنه⁵ لكل شيء عقيب، وما لم يكن له عقيب فليس بشيء، لأن عقيب شيء لا شيء، وإذا كان إنما ينفي عنه اسم شيء، لأن الأشياء كلها له، فمثل ذلك يجب عليه في قوله: 'إنه'⁶ أو قوله: 'كان'؛ مع أنا لا نعرف شيئًا نقول فيه: 'إنه'⁷ إلا بعد معرفتنا إياه 'شيئًا'، وحسبنا في هذا قولنا: شيء ليس كشيء من جميع الأشياء".

قال: "وأما قوله: أن القدرة والعلم إنما هي أعراض لزمانه فيما بينه وبين الخلق، وأنها مثل الرحمة والحكم؛ فإننا نحتج عليه في ذلك بأن نقول: لست تتكر أنه كان قبل الأشياء ودون الأشياء بلا ابتداء، فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبداً قادراً ؟ فإذا أقررت أنه لم يزل

1- في خ/م: 'تسلم'.

2- في ط: 'تقرون'.

3- في ط: 'ذا'.

4- كلمة 'لم' ساقطة من خ/م.

5- في ط: 'أن'.

6- في ط: 'أن'.

7- في ط: 'أن'.

قادرا، فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية، فإن قلت: أنه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشيء المقدور عليه قادرا¹، وإنما يسمى قادرا بعد كون الشيء المقدور علينا؛ قلنا: أفكان يقدر على أن يقدر، أم لا؟ فلا بد لك من أن تقول: كان يقدر. فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال.

وكذلك قولنا في العلم والإرادة: وقولك: يرحم ويغفر ويحكم، ليس مثل قولنا: يقدر ويعلم ويريد، لأنك لا تقول: كان أبدا يرحم، وكان أبدا يخلق. ولا بد من أن تقول: كان أبدا يقدر، وكان أبدا يعلم وكان أبدا يريد².

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة: "فتحن ما لم نصفه بالعلم والإرادة، لم نصفه بمدير ولا حي".

ثم قال: "إن قلنا عرفناه بوحدايته، وعلمناه بذاته من غير نظرنا إلى فعله، الدال على قدرته وعلمه وإرادته، فقد كذبنا. لأنه لا يقدر أحد أن يقول: أنه وقع على معرفته إلا بما نظر إليه من خلقه، وتفكر فيه من حكمه، وبمعرفته بنفسه؛ وكل هذا إقرار بالثلاثة الأقسام التي ذكرنا، لأننا لما وجدنا الخلق الذي لم يقدر أن يكون بنفسه وجب الإقرار بالشيء الذي به قدر² أن يكون، وهي القدرة التي سماها علماء المجوس: الهيول. ثم لما نظرنا إلى تدبير الخلق، وجب الإقرار بالعلم والإرادة، لأن التدبير لا يكون إلا ممن يعلم ويريد فتلاشتها اسم لإله واحد، ونعت لمدير فرد، ولا تجد هي غيره ولا يجد هو غيرها؛ فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمر بالإيمان به وسماه باللسان العجمي: الآب والابن والروح القدس".

فهذا كلام هذا القس، والنصارى معترفون³ بأنه أعرفهم بدينهم، وأعلمهم بشرعهم ويقينهم، ينص على أن الأقسام الثلاثة صفات ونعوت للواحد الفرد، ولا يقال فيها: أنها هو، ولا هي غيره، وهو لعمرى من المسددين في هذا النظر، إذ قد سلك مناهج البحث والعبر، ولقد قارب الحنيفية، وتباعد عن الملة النصرانية، إلا أننا تنازعه نزاعين أحدهما: في تسمية هذه الصفات الآب والابن والروح القدس⁴، على ما تقرر، وهذا نزاع لفظي ليس بكبير، ولا له حظ خطير. والنزاع الثاني: في أنه قصر الأقسام على هذه الثلاثة، ولم

1- في ط: سقطت كلمة "قادرا".

2- في ط: "الذي قدر".

3- في ط: "يعترفون".

4- "الروح القدس" ساقطة من خ/م.

يعد الحياة فيها كما فعل غيره منهم، وكذلك الوجود الموصوف بهذه الصفات لم يعد
أقنوما . وقد صرح بأنها صفات، ولا بد للصفات من موصوف بها بالضرورة.

وسنعطف¹ عليه بالرد إذا تكلمنا مع غيره إن شاء الله²، ومع هذا فقد سلك هذا
الرجل مسلك أرباب العقول، وتبرأ من جهالة كل جهول، وإذا كان كذلك، فسبيلنا أن نتكلم
مع الذي صدرنا هذا الفصل بذكر كلامه، فإنه كثير الفساد مضرب عن الرشاد، ويتضمن
الرد عليه الرد على غيره ممن يقول مثل قوله أو ما يقاربه، مستعينين بالله متوكلين عليه.
الجواب عن ما ذكره المصدر كلامه:

لتعلم أيها الناظر في كتابنا: أننا يمكننا أن نناقش هذا القائل كما ناقشنا السائل، فإن
كلامه كثير الغلط، ظاهر التكلف والشطط، لكننا تركنا مناقشته اللفظية، وصرفنا
المناقشة للمباحثة المعنوية، كراهة للإكثار وميلا للإيجاز والاختصار، وأيضا فإن نفس
الله في العمر، وصرف عنا عوائق الدهر، فسنرد عليه في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى،
أبين فيه غلطاته، وأوضح جهالاته وسقطاته بحول الله وقوته.

فنقول له: لا يشك عاقل سليم الفطرة أن: خالق العالم موجود ليس بمعدوم، وقد
اعترفتم بأنه حي عالم، ومن لم يعترف بذلك أقيمت عليه البراهين القاطعة، فإذا تقرر
ذلك؛ قلنا: فمفهوم أنه حي هو عين مفهوم أنه عالم أو غيره، فإن كان عينه فقولكم: حي،
عالم، كقولكم: حي أو عالم عالم؛ والفرق ما بينهما معلوم ضرورة، ولو كان عينه
لاختلطت الحقائق؛ فثبت أنهما متغايران متعددان، فإذا ثبت ذلك، فإما أن يرجعا إلى
الخالق سبحانه³ في قولكم أنه حي عالم أو لا يرجعان، فإن لم يرجعا لم يصح الإخبار
عنه بهما، ولم يكونا وصفين له، فثبت أنهما يرجعان إليه، وإذا ثبت ذلك فإما أن يكونا من
أوصافه تعالى النفسية أعني: الذاتية، فإن كانا من أوصافه النفسية أدى ذلك إلى أن
تكون⁴ ذاته وماهيته متركبة متبعضة، وذلك محال على ما قررتم فيما تقدم من كلامكم.
وأيضا لو عقل كون العلم والحياة من الأوصاف النفسية في محل لعقل⁵ ذلك في كل محل.
ويلزم من ذلك كون العلم والحياة من صفات أنفسنا، وذلك معلوم البطلان بالضرورة.

1- في ط: "وسنعطف".

2- في ط: "تعالى".

3- في ط: "سبحانه وتعالى".

4- في ط: "يكون".

5- في ط: "عقل".

وأيضاً فلو جاز ذلك، للزم أن يكون العلم والحياة قائمين بأنفسهما، أعني موصوفين، لأن جزء القائم بنفسه قائم بنفسه، وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن البارئ تعالى قائم بنفسه، والمعقول من العلم والحياة أنهما صفتان لا موصوفان، فإذا تقرر ذلك وثبت لزم منه أنهما زائدان على النفس، فإذا ثبت ذلك فإما أن يقوم به أو لا يقوم به، فإن لم يقوم به لم يتصف بهما، ولو جاز أن يتصف بهما¹ لا يقوم به لجاز ذلك في حقنا، فكان يلزم عليه أن يكون: "علم زيد² يتصف به عمرو" وذلك محال ضرورة، فدل ذلك على أنهما قائمان به؛ فإذا قاما به وهما وجودان زائدان على الذات حصل من ذلك كله أن: ذاته واحدة لا تركيب فيها ولا تعدد؛ وأن صفاته الزائدة هي المتعددة، وهذا لا إحالة فيه بل هو الحق الذي لا غبار عليه، ولا بد لكل ناظر من الرجوع، وأن تخبط إليه، فهكذا ينبغي أن تفهم صفات البارئ تبارك وتعالى [وتقدس وتترزه عما يقول الجاحدون والكافرون علواً كبيراً]³.

وهذه الطريقة البرهانية تجري في كل صفة يدعى ثبوتها للبارئ تعالى. وبعد الانتهاء إلى هذا المحل ينظر: هل أوصافه أزلية أو ليست بأزلية⁴؟ والحق أنها أزلية، ولا يجوز⁵ أن يكون شيء منها حادثاً، إذ لو كان شيء من صفاته حادثاً للزم عليه أن يكون محلاً للحوادث، ويلزم على ذلك حدوثه تعالى، وهو محال على ما يعرف في موضعه.

فإذا تمهد هذا الأصل قلنا بعده للمتكلم معه: الأقانيم عندهم لا تخلو من أن ترجع إما إلى صفاته النفسية أو إلى صفاته المعنوية، أعني الزائدة على النفس، ولا واسطة بين القسمين، فإن رددتموها إلى القسم الأول، لزمكم ما تقدم من المحالات، حذو النعل بالنعل، وإن رددتموها إلى القسم الآخر، فلأي معنى قلتم في حد الأقنوم أنه الشيء المستغني بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهرية؟ وهل المفهوم من هذا إلا أنه صفة نفس؟ لأن المستغني بذاته عن أصل جوهره هو الذي نعبر نحن عنه بالقائم بنفسه، ويعبر عنه غيرنا من النظائر بالموجود، لا في موضوع.

وأيضاً، إن كان أراد هذا القائل أن الأقنوم هو الصفة الزائدة على الذات فيلزمه أن يجعل الأعراض أقانيم؛ فإنها زائدة على الذات. ومن عجيب أمره أنه ألزم من قال: "إن

1- في ط: "فيما".

2- في خ/م: "زايد".

3- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

4- في ط: "أم ليست أزلية".

5- في ط: "ولا محرز".

العلم والحياة غير الجوهر" الإشراك به، وأي إشراك يلزم من قال: إن صفات المعاني زائدة على ذات الموصوف بها؟ وكيف يمكن أن يقول عاقل إن الصفة الزائدة على الجوهر أنها عين الجوهر؟ وهل قائل هذا إلا جاهل أو متجاهل؟

فتحصل من هذا كله: أن الأقانيم لا يصح عندهم أن تقال على الصفات النفسية ولا على الصفات المعنوية، ولا يعقل هنالك أمر آخر متوسط بينهما، فقولهم في الأقانيم غير معقول فكأنه قول مجنون¹.

ثم نقول لهذا القائل: لأي شيء لم تجعل القدرة من الأقانيم كما ذهب إليه مقدمكم الأقدم وأسقفكم الأزعم "أغشتين"² فتكون الأقانيم أربعة؟ فإن قال: إن القدرة ترجع إلى الوجود كما صرح بذلك بعضهم، فنقول لمن يقول ذلك: ولم ذلك؟ وهلا رجع³ العلم والحياة إلى الوجود؟ وما الفصل بينهما إلا محض التحكم.

وكذلك القول في الإرادة [سواء، فإن قال الإرادة⁴ ترجع إلى الحياة.

قيل له: إن صح ذلك فليرجع إليها العلم، وإن جاز شيء من ذلك فلترجع كل واحدة من هذه الصفات إلى الأخرى، ويرجع الكل إلى الموجود، والوجود هو نفس الذات، فترجع الأقانيم الثلاثة إلى واحد، وهو محال على ما تقدم لكم وعليكم، ويكون هذا أيضا قولاً بامتزاج الثلاثة الأقانيم في أفنوم واحد، كقول الخارجي الجاهل "شباليش" وأنتم لا ترضون شيئاً من قوله ولا مذهبه.

ثم نقول: لأي شيء تحكمتم بأن الأقانيم ثلاثة؟ وهلا أضفتم إليها القدرة والعلم والسمع والبصر كما تقدم الكلام عليه؟ أو لعلها اثنان؟ وعدم انتصارهم يدل على ضعف أنصارهم، ولا حجة لهم في هذه المواطن كلها أكثر من التحكم، فينبغي إذا⁵ أن يتكلم معهم على جهة المناقضة والتهكم، وغايتهم في ذلك: أن يرجعوا إلى الاستقراء والتمثيل، وهما في المعتقدات: طريقا الخطأ والتضليل.

ثم نقول: هذه الأقانيم الثلاثة قد قلتم أن كل واحد منها مستغن بذاته عن أصل جوهره، وإذا كان ذلك، فإما أن يكون كل واحد منها إلهاً أو جزء إله أو يكون مجموعها إلهاً

1- في ط: "مجنون مخبول".

2- في ط: "أغشتين".

3- في ط: "وهل لا يرجع".

4- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

5- في ط: "إذن".

واحد، فإن كان جزء إله لزم عليه أن يكون الإله متركبا متبعضا، ويلزمكم على ذلك إبطال التثليث الذي تقولون به، ويلزمكم على ذلك الامتزاج الذي ذهب إليه "شباليش"، وإن كان كل واحد منها إلها بانفراده لزمكم على ذلك أمور كثيرة شنيعة¹ باطلة، منها: أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم حيا، عالما، مريدا، قادرا، موصوفا بصفات الكمال إذ الإله هو الموصوف بصفات الكمال المتعالي عن صفات النقص، وإن² التزم ذلك ملتزم: لزم عليه أن تقوم الصفة بالصفة، وإن جاز ذلك جاز أن يقوم العلم والقدرة بالإرادة، والإرادة والقدرة بالعلم، والقدرة والعلم بالحركة، والحركة والقدرة والعلم باللون إلى غير ذلك من أنواع الجهالات التي لا يبيء بها عاقل ولا يرضى بسماعها فاضل؛ وإن جاز قيام الصفة بالصفة جاز أن يقوم بالصفة صفة، وبذلك الصفة صفة، ويتسلسل. وما يتسلسل لم يتحصل، ويلزم عليه أن تكون الأقانيم لا نهاية لها، إذ العلم يقوم به حياة³، وتلك الحياة حية بحياة إلى غير آخر. ومنها: أن تكون القدرة قادرة بقدرة، والعلم عالم بعلم، والحياة حية بحياة إلى غير ذلك من الصفات؛ وهذا غير معقول، فإن العلم والقدرة وسائر صفات المعاني إنما توجب أحكامها للمحال التي تقوم بها، لا لأنفسها، فالعلم⁴ لا يكون عالما ولا قادرا، وكذلك القدرة لا تكون عالمة ولا قادرة، وكذلك سائرهما وإنما العالم والقادر والمريد والحي هو الذات الذي تقوم به هذه الصفات، وهذا معلوم من غير أسباب ولا إطناب.

ومنها: أن يكون الإله صفة لموصوف، فإن المفهوم المعقول من هذه الأقانيم أنها صفات لا موصوفات على ما تقدم إلى أمور كثيرة يطول الكلام بذكرها.

ثم نرجع إلى بقية التقسيم فنقول: وإن لم تكن هذا الأقانيم حية ولا عالمة ولا قادرة فلا تكون آلهة⁵، وقد أطبق النصارى على أنها آلهة، ويلزمهم أن لم تكن الأقانيم موصوفة بهذه الصفات وصفها بأضدادها أو بالانفكاك عنها إن لم توصف⁶ بحياة وصفت بالانفكاك عنها. والمنفك عن الحياة ميت، فيلزم عليه: أن يقولوا بآلهة أموات وكذلك يلزم في سائر الصفات.

1- في ط: "مشينة".

2- في ط: "فإذا".

3- في خ/م: "حياة القدرة".

4- في ط: "بالعلم".

5- في ط: "إلهية".

6- في ط: "يوصف".

وقد كح المصدر بكلامه عن هذا الإلزام، وصعب عليه المرام، فتكلم بما لا يعقل فليته سكت ولم يتقول، وبعد الخطب والتأوه، قال: هذا ما لا يجوز لنا به التفوه. ومن أراد أن يقضي العجب العجائب، فليقف على ذلك الكتاب.

وتلخيص ما ذكره في الانفصال أن قال: إن قلنا إن الأب ليس يحيا كذبنا، وإن قلنا هو الحياة أبطلنا، فإذا كان ليس حيا وليس بحياة، وجب أن يكون حيا بلا محالة، وكذلك قال في العلم والحياة.

ومن أفضى به إلى هذا الهذيان بحثه ونزاعه، فقد تعين تركه وانقطاعه، وحسبك في شر سماعه؛ وذلك كله يدل على أنهم ليسوا من العقلاء، ولا معدودين¹ من جملة الفضلاء، بل قد انخرطوا في سلك الحمقى²، الجهلة الأغبياء، فهم قد جعلوا إلههم هواهم فأضلهم لذلك وأرداهم، فهم كما قال الله العظيم في محكم كتابه الكريم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ﴾ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون³ إن هم إلا كآلأ نعيم⁴ بل هم أضل سبيلا⁵.

وما حكاه⁴ صاحب كتاب "المسائل" فكلام يدل على أن القوم ليس فيهم مستحي ولا عاقل، كابروا الضرورات، وجحدوا المعقولات، فتارة⁵ يتناقضون، وأخرى يتوافقون، افتراء على الله، واستهانة بحرم الله، وحسبك دليلا على ذلك اختلافهم في البديهيات هنالك، وقد وكلت الناظر فيه لظهور تناقضه وفساد معانيه، فإن غاية الناظر في كلامه أن يلزمه من المحال والتناقض مثل ما صرح بالتزامه، ومن أنكر الضروريات، وارتكب المحالات، فدار المرضى والمجانين أولى به وأليق من اشتغاله بالمعقولات.

1- في خ/م: 'معدودين'.

2- في ط: 'الحمقاء'، وهو تصحيف.

3- سورة الفرقان: 43-44.

4- في ط: 'وأما حكاية'.

5- في ط: 'تارة'.

الباب الثاني

**في بيان مذاهبهم في الاتحاد
والحلل وإبطال قولهم فيها**

الفصل الأول

اتحاد الكلمة في حكاية كلام هذا السائل

قال السائل: "ثم نبدأ بالقول في الاتحاد، فإن قلت فإذا كان¹ التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض فلم² بعضتموه دون الآب وروح القدس³؟ [ولم سميت المسيح ابنا]⁴ ولم سميتوه آبا وروح القدس؟

اعلم أنها لم تفارقنا⁵ القضايا بالأفعال، اختلفت أسماءها كما قدمنا فأضفت⁶ قضية خلق الخليقة بدءاً⁷ إلى القدرة وسميت آبا، وأضفت قضية الموعدة إلى العلم المتولد كلاماً وسمى ابناً، وانفردت قضية الوعد باللحمة دون غيرها، لأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعدة لا لخلق الخليقة، لأن الله لو اتخذ جسماً ليخلق به الخلق بدءاً⁸ يسمى الجسم آبا، وأضفت اللحمة إلى الأب ولكنه إنما اتخذ لموعدة الخلق، والوعد مضاف إلى العلم المتولد كلاماً فسمى ابناً، فلذلك قال الإنجيل التحمت الكلمة وسكنت فينا، فأفرد الكلمة بالالتحام لأنها الواعدة بالأمر والنهي دون القدرة والإرادة. فهذا أخصر⁹ شرح الاتحاد.

الجواب عن كلامه: يا عجباً من بلادة صاحب هذا السؤال، كيف لم يحسن إذ تثبج عليه المقال، وكثر عليه اللحن والإختلال، حتى أخل بمفهومه وعدل عن السؤال، فصار كلامه لذلك كأنه كلام مجنون مخبول إذا تهذين¹⁰، ولم يثبت فيما يقول؛ وذلك أنه وجه¹¹ على نفسه في كلامه هذا أسئلة، انفصل بزعمه عن واحد منها، وتغافل عن سائرهما جهلاً منه بورودها وحيداً عن جوابها.

1- سقطت كلمة "كان" من خ/م.

2- في خ/م: "فلما بعضتموه".

3- في ط: "القدس".

4- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

5- في ط: "لما تعارفت القضايا بالأفعال".

6- في ط: "فاختلفت قضية خلق الخليقة".

7- في ط: "بيد".

8- في ط: "بيد".

9- في خ/م: "أخصر".

10- في ط: "تهذين".

11- في ط: "وجد".

أحد الأسئلة أنه أراد أن يقول: قد قلتم إن التثليث قد رددتموه إلى ثلاثة خواص لواحد لا يتبعض، فلم بعضتم ما لم يتبعض؟ وثانيها لم اتحد الابن بالمسيح دون الآب وروح القدس؟ وهذا تضمنه كلامه حيث قال دون الآب وروح القدس. وثالثها لم سميتكم المسيح ابنا؟ ورابعها لم سميتكم الله تعالى أبا؟ وخامسها لم سميتكم إرادة الله تعالى روح القدس؟ على أن ظاهر كلامه يدل على أن السؤالين الأخيرين إنما هما راجعان إلى المسيح، ألا ترى أنه أعاد الضمير -أعني ضمير سميتكموه- عليه، لكنه لم يرد هذا. ويدل عليه أنه لم يسم أحد منهم المسيح أبا ولا روح القدس، وإنما سموه ابنا، فتارة يقولون عليه ابن الله، وتارة ابن الإنسان. وأما روح القدس فقد تقدم في اصطلاح هذا السائل أنه أراد به الإرادة، ومن اصطلاح غيره أنه أراد به الحياة، ولم يقل قط أحد منهم: أن المسيح اتحدت به إرادة الله وحياته. ولم يقل قط أحد منهم: أن المسيح اتحدت به إرادة الله وحياته. فلما وجه على نفسه هذه الأسئلة التي لم يشعر بوجه لزومها ولم ينفصل عن شيء منها. أخذ بعد ذلك بزعمه ينفصل¹ بكلام لا يلتئم ولا يتصل، فأسهب في التكرار والترداد، فصار كلامه لذلك أبعد من حديث معاذ².

ثم قال في الجواب ما كان قد فرغ منه، ولقد كان يستغني عنه: "قد قدمنا أن الأقانيم الثلاثة إنما سميت بالآب والآب وروح القدس، لاختلاف القضايا الثلاث. فأضيف الخلق إلى القدرة وسمي أبا، وأضيفت الموعدة إلى العلم وسمي ابنا"، وهذا كلام مكرر مستغني عنه في جواب ما سئل³ عنه إذ لا تعلق له به، وإنما الكلام الذي يمكن أن يكون جوابا لبعض ما سئل⁴ عنه هو قوله: انفردت قضية الوعد باللحمة دون غيرها، لأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعدة وسكنت فينا لا لخلق الخليقة، ولذلك قال الإنجيل التحمت الكلمة وسكنت فينا". هذا مقتضى كلامه في الانفصال، بعد تلفيق مبدد وتهذيب مثبج المقال ومع هذا فكلام هذا السائل لا يقبل التلفيق من صانع فإن الفتق اتسع على الراجع ويعد تقرير هذا نقول:

قد تقدم جوابك عن أكثر هذا الفصل فيما تقدم، حيث تكلمنا في الأقانيم، وعلى أسماء الأفعال، وعلى التثليث، وعلى القضايا الثلاث بما أغنى عن إعادته، فمن أراد أن

1- في ط: "يتفضل".

2- في ط: "معاد".

3- في ط: "سأل".

4- في ط: "سأل".

يتحقق فساد هذا الكلام فليعد نظرا فيما تقدم. وإنما الكلام معك هنا على قولك: "إنما اتحدت بالمسيح الكلمة التي هي العلم، لأن المسيح اتحد¹ للموعظة". كيف يتمكن عاقل من أن يقول هذا الذي ذكرته، وعيسى عليه السلام قد اتخذ الله تعالى لإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وخلق الطير من الطين. وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تقع إلا بالقدرة والإرادة. فقولوا: إنهما اتحدتا به، ولا فرق بينهما وبين العلم لولا محض الجهل والتحكم، لاسيما وقد جاء في بعض كتبهم أن عيسى عليه السلام قال: "قدرته قدرتي ومشيتته مشييتي"، أو قولوا: إنه عليه السلام كان يفعل هذه الأمور الخارقة للعادة بغير قدرة، فيلزمكم أن يفعلها بغير علم، ثم يلزمك على مساق كلامك أن يكون كل من اتخذ للموعظة من الأنبياء والعلماء أن يتحد بلحمته² الإبن.

وأما قولك: "لأن³ الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق لسمي ذلك الجسم أباً"، فهو إلزام مالا يلزم. فإن الله تعالى قد اتخذ الأرض والماء والهواء والنار ليخلق بهم المخلوقات، ولا يلزم من ذلك أن يكون أباً ولا أن تسمى⁴ أباً وهي أجسام.

وأما قولك: "فلذلك قال الإنجيل: التحمت الكلمة وسكنت فينا"، فلقد خالفت التنزيل وحرفت التأويل. فهلا عليك، سترت على مكرك، ولم تلبس على نفسك وخصمك؟ ولأي شيء لم تذكر الكلام من أوله، وتسوقه على منازله. أتظن أن المسلمين ليسوا بكتبكم عارفين، ولا لتحريفكم وتلبيسكم منتهين. تالله لقد فيهم من يعرف⁵ منها الحق الذي لا تعرفون⁶ ويتحقق منها ما أنتم فيه تشكون⁷ ويعلم منها ما أنتم به جاهلون.

ومن ذلك أن هذا الكلام الذي حكيته عن الإنجيل، وسلكت به مسلك التجهيل، هو في إنجيل يحيى بن سبداي⁸ المصور بزعمكم بصورة عقاب، يقول عن عيسى عليه السلام

1- في ط: "اتخذ".

2- في ط: "بلحمة".

3- في ط: "أن".

4- في ط: "يسمى".

5- في ط: "تعرف".

6- في خ/م سقطت العبارة التالية: "الحق الذي لا تعرفون".

7- في خ/م: "تشكرون".

8- في ط: "يوحنا بن سبداي".

من تقبله¹ منهم وآمن باسمه أعطاهم سلطانا ليكونوا أولاد الله، وهم الذين لم يتوالدوا² من دم ولا شهوة لحوم، ولا شهوة رجل، ولكن توالدوا³ من الله، فالتحمت الكلم وسكنت فينا، ورأينا عظمته كمظمة ولد الله الفرد المحشو رضوانا وصدقا⁴.

هذا مساق كلامه في الإنجيل، وهذا الكلام لا يستدل [به]⁵ على ما ذكرته⁶، ولا على غيره، حتى يعلم أن عيسى عليه السلام هو الذي قاله. وليس هو في الإنجيل مرفوعا إلى عيسى ولا مسندا إليه ولا مخبرا به عن الله تعالى. وغايته إن صح أن يكون موقوفا على يحيى⁷ ومن قوله، وحاشاه⁸ عن قول مثله. ثم لو سلمنا ذلك، فليس بمعصوم فإن العصمة إنما ثبتت للأنبياء، أو لمن أخبر الأنبياء عنهم أنهم معصومون، وهذا ليس بنبي، ولا بلغ عن الأنبياء بطريق قاطع أنه معصوم. وسيأتي الكلام على هذا في باب النبوات إن شاء الله⁹.

وبتقدير أنه معصوم، فكتابكم قابل للتحريف والتغيير، فإنه لم تكمل فيه شروط المتواتر¹⁰، فإنه راجع إلى أخبار آحاد، لا تفيد علما على ما نبينه. وعلى التقريب إن أنجيلكم إنما هي أربعة عن أربعة كل واحد منهم لا يفيد خبره العلم، فإنه¹¹ خبر واحد. ومع ذلك فلو أنهم تواردوا على نقل خبر واحد، لكان نقلهم لا يفيد اليقين. فإن الخبر الذي يحصل به العلم اليقين، إنما هو المتواتر، وحقيقته¹² الخبر المفيد للعلم بالمخبر عنه الذي تحيل العادة على ناقله الغلط والتواطؤ على الكذب على ما يأتي إن شاء الله.

وعلى تسليم أنه لا يقبل التغيير ولا التحريف، فهذا الكلام ليس بنص قاطع، بل هو

1- في ط: "يقبله".

2- في ط: "يتولدوا".

3- في ط: "لكن توالدوا".

4- يوحنا: 10-14.

5- في ط: "لا يستدل على مذكرته".

6- في ط: "ذكرت".

7- في ط: "يوحنا".

8- في ط: "وحاشا".

9- في ط: "إن شاء الله تعالى".

10- في ط: "المتواتر".

11- في ط: "بأنه".

12- في ط: "المتواتر حقيقة".

محتمل للتأويل، وتأويله معضود بسياقة اللفظ؛ وذلك أن مساق هذا الكلام يقتضى أن كل من آمن بعمسى عليه السلام، فإنه توالد من الله والتحمت الكلمة به وسكنت فيه، ولذلك قال ولكن توالدوا من الله فالتحمت الكلمة¹ وسكنت فينا .

فإن كنت تريد أن تستدل بهذا اللفظ على أن الكلمة اتحدت بالمسيح خاصة، فليس لك فيه دليل، بل يدل ظاهره على أن كل من آمن به التحمت الكلمة به وسكنت فيه، وهذا شيء لا تقولون به، ولا يذهب إليه أحد منكم، فهلا عليكم تفهمتم² كتابه، وتدبرتم خطابه، ورددتم آخر الكلام على أوله، حتى تعرفوا نصه من مؤوله . على أنه لو كان نصا قاطعا لا يحتمل التأويل، لما كان ينبغي لعقل أن يقول بمقتضاه . فإن الإتحاد محال قطعا على ما يأتي إن شاء الله³ إذ تكلمنا على حقيقة الإتحاد والحلول .

وأما قوله: "فأفرد الكلمة بالالتحام، لأنها الواعظة بالأمر والنهي"، فقول لم يقله الإنجيل، ولا دل عليه ظاهر ولا تأويل، وغاية ما في الإنجيل: أن الكلمة التحمت، وليس فيه لأنها الواعظة، فمن عرفك أن الكلمة التحمت⁴ لهذه العلة؟ بل لعلها التحمت لعلة أخرى لم تعلمها أنت ولا غيرك، لعلها التحمت لا لعلة بل لنفسها . وإنما نزلنا في هذا المحل على تسليم الالتحام وإن كان باطلا بالبرهان ليتبين أن هذا المذهب هذيان .

وأما قوله: "لأنها الواعظة بالأمر والنهي"، فقول من لا يعرف فرق ما بين الأمر والنهي والوعظ، ولا حصل من الشرع ولا من العقل على حظ، فإن الوعظ مخالف للأمر والنهي بحقيقته ومقصوده، إذ قد يعظ الواعظ من غير أمر ولا نهى، وينهى ويأمر ولا يعظ، فهما أمران مفترقان غير متلازمين على ما يعرف في موضعه .

وأما قوله: "فهذا أخصر شرح الإتحاد"، فالسين موضع الصاد أليق، إذ الخسران إليه أقرب وبه الزق، لأنك أوهمت أنك شرحت وأوضحت واختصرت وأوجزت، بل أخللت وطولت وبفائدة ما أتيت . وكيف تصح لك هذه الدعوى، وقد قلت كلاما لا فائدة له ولا جدوى؟ دليل ذلك أنك اعترضت على نفسك باعتراضات كثيرة، ثم إنك حدثت عن الجواب، ولم تأت بفصل خطاب، بل أتيت بكلام يشهد عليك عند العقلاء بالبلادة وقلة

1- في ط: "فالتحمت بالكلمة" .

2- في ط: "فهمتم" .

3- في ط: "الله تعالى" .

4- في ط: "اتحدت" .

التحصيل وعدم الإجابة.

وقد كان ينبغي لك أن تبين حقيقة الإتحاد والحلول، وتبين فرق ما بين مذهب الروم فيه وبين ما به تقول، وتبين الفرق بينه وبين الاختلاط والامتزاج، وبعد ذلك تستدل على صحة وقوعه، وعلى اختصاص عيسى عليه السلام به دون غيره من الأنبياء. فلو فعلت ذلك حينئذ، كان ينبغي لك أن تدعي أنك شرحت وأوضحت، وأما الآن فقد جهلت وافترضت.

الفصل الثاني

معنى الإتحاد

من حكاية كلامه أيضا قال: "فإن سأل سائل عن معنى الإتحاد، قلنا: نقول بذلك تقليدا للإنجيل والنبیین ورسُل¹ رب العالمين فيما نقلوا من ذلك وأعلمونا² عن الله، وفيما نص لنا عنهم بتصديق الأخبار الذي لا تكاذب فيها .

فإن قلت: وكيف يجوز أن يتوحد³ القديم بالحادث، والخالق بالمخلوق؟ قلنا: على تقليد الكتاب وعلى الجائز في العقول؛ وذلك أنا لا نقول: إن القديم في الجوهر صار حادثا، ولا الحادث في الجوهر صار قديما، ولكننا نقول: صار الحادث إلهًا، ولا نقول صار الإله حادثا⁴، كما نقول: صارت الفحمة نارا، ولا نقول صارت النار فحمة.

فإن قلت: فما علة هذا الإتحاد؟ قيل لك الإرادة⁵. وسألك⁶ هذا كسائل يسأل فقال: لم خلق الله العالم؟ فمن الجواب له أن يقال له: أراد ذلك. فإن قلت: أفهذا الإتحاد⁷ قديم أو حديث؟ قيل لك قديم وحادث، فإن قلت فكيف يكون قديما وحديثا⁸؟ قيل لك قديم بالقوة حديث¹⁰ بالفعل. وكل عنده حاضر، لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان، ولا يعد الأشياء بالأعداد، وكل عنده مقيم حاضر¹¹.

الجواب عنه: هذا كلام تمجده الأسماع وتنفر عنه الطباع، سئل¹² فيه قائله عن حقيقة الاتحاد ومعناه. فأجابه بالدليل عليه وما جرى مجراه، ومن حق الانفصال أن يكون

1- في خ/م: "رسول".

2- في خ/م: "وأعلمونه".

3- في خ/م: "يتوحد".

4- في خ/م: "ولا إن الحديث في الجوهر صار قديما، ولكننا نقول صار الحديث إلهًا، ولا نقول صار الإله حديثا".

5- في خ/م: "للإرادة".

6- في خ/م: "سألك".

7- في خ/م: "الاتخاذ".

8- في ط: حادث.

9- في ط: "حادثا".

10- في ط: "حادث".

11- في ط: "حاضر مقيم".

12- في ط: "سأل".

مطابقا للسؤال. فكان يلزمك لما سئلت عن معنى الاتحاد أن تجيب بحده وحقيقته، ثم بعد ذلك تستدل على صحته ووجوده إن صح ذلك وأمكن الاستدلال هنالك.

أما قولك: "في جواب من سألك عن الاتحاد وحقيقته، نقول بذلك تقليدا للإنجيل والنبیین ورسلاً¹ رب العالمین"، فكلام غير متين لا يصدر مثله عن عقل رصين.

لتعلم يا هذا أن الأنبياء عليهم السلام صادقون مصدقون، والصادق لا² يخبر بصحة ما يُعلم بالعقول فسادَه واستحالته، فإن الصادق لا يناقض قوله دليل العقل ولا يعارضه، بل يصدقه ويشهد بصحته، فلو فرضنا شخصا جاء بأمر معجز فيما يرى، وادعى أنه أرسله الله لنا ليخبرنا أن الثلاثة واحد من حيث هي ثلاثة، وأن الواحد ثلاثة من حيث أنه واحد، وفهم ذلك منه بنص لا يقبل التأويل، لبادر العقلاء إلى تكذيبه، ولعلموا أن ما أظهره على جهة المعجزة، إنما هي حيلة ومخرقة، لأن المعجزة إنما هي دليل الصدق، ولا يقلب دليل الصدق دليل الكذب.

وكذلك لو قال: إن الضدين يجتمعان بعد مراعاة شروط التضاد، وكذلك لو أخبر أن الله تعالى يقلب جوهرًا عرضًا، ولونا وطعما، إلى غير ذلك من أنواع المحالات. ومن هذا القبيل هو ما ادعيت من الاتحاد وسيتبين إن شاء الله.

وبعد³ فلو فرضنا نبينا علمنا صدقه على القطع، تكلم بشيء من هذا، فيكون ذلك الكلام لا يدل على ذلك المعنى دلالة قاطعة، بل دلالة محتملة أو ظاهرة. فسبيلنا أن نتأول إن وجدنا وجهًا للتأويل، أو نتوقف على تأويله إن لم نجد له محملاً⁴ في التأويل، مع أن العقل علم⁵ استحالة الظاهر و بكل معرفة باطنه إلى الله تعالى، فإن الشرائع وإن لم تأت بما يخالف العقول فقد تأتي بما⁶ تقصر العقول عن دركه، وفرق بين يعلمه العقلاء بين العلم بالاستحالة وبين عدم العلم بالاستحالة فإن عدم العلم بالاستحالة لا يلزم منه نفى الجواز ولا إثباته ولا نفى الوجوب ولا إثباته وهذا مما لا خفاء به عند العقلاء.

1- في خ/م: "رسول".

2- في ط: "ما".

3- في ط: "وبعد هذا".

4- في خ/م: "محملاً".

5- في ط: "يعلم".

6- في ط: "مما".

وأما قولك: "وعلى الجائز في العقول"، فينبغي لنا أن نسألك هنا أسئلة تبين أنك بما ادعيت جهول. فنقول لك: ما حد العقل أولاً؟ وما حد الجائز العقلي؟ وما حقيقته وكم أقسامه؟ وما حد الواجب العقلي؟ وكم أقسامه؟ وما حد المحال العقلي؟ وكم أقسامه؟ فإذا فرغت من جواب هذه المسائل سألتك: هل أحكام العقل تنحصر في هذه الثلاثة أم تزيد عليها أم تنقص عنها؟ ولعمري ما ينبغي أن يتكلم¹ مع من لا يعرفها. وأعلم على القطع والبيات² أنك لا تعرفها ولا قرأت على من يفهمها، والا فالجواب وإن لم تجب، والا فيظهر أنك من دينك على شك وإرتياب. ثم نقول كيف يتجاسر عاقل أن يقول: إن علم الله تعالى الذي هو صفته ولازم له وقديم أزلي، حل في جسد إنسان حادث بعد أن لم يكن حالاً فيه، ومع أنه حل فيه فهو لم يفارق الله تعالى. ولولا أن الله تعالى³ سلبكم عقولكم وابتلاككم بظلمة التقليد الذي أفضى بكم إلى مكابرة العقول وإنكار البداية، لما وجد مثل هذا المذهب مستقراً في قلب مجنون، فأجرى في قلب غافل، ولكن الله تعالى سر في إبعاد بعض العباد ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾⁴.

وأما قولك: "إنا لا نقول أن القديم في الجوهر صار حادثاً ولا الحادث في الجوهر صار قديماً"، ولكننا نقول صار الحادث إلهاً. فهذا القول منك يدل على أنك تقول بحلول الحادث في الجوهر، واتحاده به. ولم يقل بهذا قط أحد من المخلوقات، وهذا أشنع وأقبح وأمحل من تحاد القديم بالحادث وحلوله فيه. وهذا الذي ذكرت أنه يلزمك يدل عليه قولك: "ولا أن⁵ الحادث في الجوهر صار قديماً"، فنفيت عن الحادث القدم وأبقيت عليه الحلول في الجواهر. وهذا بين بنفسه من كلامك. ثم هذا الذي فررت منه يلزمك؛ وذلك أنا نقول: هذا القديم الحال لا يخلو أن يكون حالاً في ناسوت المسيح قبل خلق المسيح أو لم يكن، فإن كان حالاً فيه قبل خلقه كان محالاً وباطلاً بالضرورة. فإنه قبل خلقه معدوم والموجود لا يحل في المعدوم. وإن كان حلوله في ناسوته بعد خلقه، فقبل خلقه لم يكن حالاً فقد حدث له حلول وقد صار حالاً بعد أن لم يكن حالاً، ويلزم على هذا أن تقوم الحوادث بالقديم وهو محال. فإنه يؤدي إلى حدوثه على ما يعرفه أرباب النظر.

1- في ط: "تتكلم".

2- في ط: "والثبات".

3- في ط: "ولولا الله تعالى".

4- سورة الرعد، آية: 33.

5- في ط: "ولا الحادث".

وأما قولك: "صار الحادث إلها"، فكلام تشتمز منه النفوس، ويشهد لقائله بالويل والعكوس، وكيف لا يستحي العقل¹ من مثل هذا الكلام الذي والله هو عار على الأنام، وكيف يتصور أن تعقل² الإلهية³ لمحدث مخلوق، يحزن تارة ويفرح أخرى، ويجوع تارة ويشبع أخرى، ويبول⁴ ويتغوط، ويظفر⁵ به أعداؤه ويعذبونه بالضرب والإهانة، والشوك والصلب والقتل بزعمكم، وهو مع ذلك يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾⁶، ويقول لكم: "إذا صليتم فقولوا يا أبانا السماوي تقدس اسمك وقرب ملكك"⁷ ويقول: "إن الله وحده ولا إله إلا هو"⁸، ويقول لإبليس: "إنما أمرت أن تعبد السيد إلهك وحده"⁹، ويقول حين قرب رفعه وأعلمه الله به: "سيلقى ابن الإنسان ما كتب له"¹⁰ يعنى نفسه، ثم تقدم وسجد على الأرض ودعا أن يزاح عنه ما هو فيه، وقال: يا أبتاه إنك قادر على جميع الأشياء فرج عني هذه الكأس"، وقال في إنجيل لوقا: "يا أبتاه إن كانت هذه الكأس لا تقدر تجاوزني حتى أشربها فلتكن إرادتك"¹¹.

ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام برئ مما تدعونه به، وتتسبون به إليه، وستلقونه بين يدي الله في الوقت الذي يقول الله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾¹²، فيتبرا من ذلك القول فيقول: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ

1- في ط: "العقل".

2- في ط: "أن يعقل".

3- في خ/م: "الإلهة".

4- في ط: "ويتبول".

5- في ط: "وتظفره".

6- سورة المائدة، آية: 117.

7- لوقا 11: 2. متى 6: 9-10.

8- مرقس 12.

9- متى 4.

10- متى 26: 24.

11- لوقا 22: 42.

12- سورة المائدة، آية: 116.

مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ ﴿١٠٠﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٠١﴾ ١، وقد جاعنا على لسان من دلت المعجزة على صدقه ٢، أن الله تعالى إذا حشر الخلائق في صعيد واحد، يعني يوم القيامة، فيقال للنصارى ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقول لهم: كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ٣، ثم يقال لهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم ٤ بعضها بعضا.

فألله الله أدرك بقية نفسك، قبل حلول رمسك ٥، واستعمل سديد عقلك، ولا تعمل على تقليد فاسد نقلك، واتبع الدين القويم، دين الأب إبراهيم، فما كان: ﴿يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَّسْلَمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٦. فالله يعلم أنني أنظر إليك وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضل من هذه الأمة، وأتأسف على الأباطيل التي تنتحلون ٧، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وسيأتي إن شاء الله ٨ في النبوات كلام على حقائق الملل، وتبين الهداة ٩ والضالين من ذوي النحل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما قولك: "كما نقول صارت الفحمة نارا، ولا نقول صارت النار فحمة"، فتمثيل ليس بمستقيم، ولا جار على منهج قويم، وذلك أن الفحمة مهما ١٠ صارت نارا فقد حدثت النارية وانعدمت الفحمة ١١، وليس هذا مساويا لقولك صار الحادث إلها. فإن الشيء

١- سورة المائدة، آية: ١١٦-١١٧.

٢- في ط: "بصدقه".

٣- في خ/م: "ولا ولدا".

٤- في خ/م: "يظم"، وهو تصحيف.

٥- في خ/م: "مسك"، وهو تصحيف لأن الرمس هو طمس الأثر/ وهو المناسب للسياق.

٦- سورة آل عمران، آية: ٦٧.

٧- في ط: "ينتحلون".

٨- في ط: "الله تعالى".

٩- في خ/م: "الهداية".

١٠- في خ/م: "مهمى".

١١- في ط: "الفحمية".

الذي صار به¹ الحادث إلها عندكم هو قديم، فكيف تشبیهه بالنارية الطارئة وهي حادثة؟ وإن ساويت بينهما لزمك أن يكون الحال في الناسوت حادثا، أو النارية قديمة، فترتفع الفحمية وهو محال بالضرورة.

وأما قولك: "فإن قلت فما علة هذا الإتحاد قيل لك الإرادة"، فهذا قول فاسد؛ فإن الإرادة إنما يصح تعلقها بالجائزات، ولا يصح تعلقها بالمحالات، والاتحاد محال فلا تتعلق به الإرادة على ما نقررره إن شاء الله، إذا نقلنا مذاهب أقستكم في هذا المعنى وتكلمنا معهم عليها.

وأما قولك في جواب من سألك² عن الاتحاد هل حادث أو قديم؟ حيث قلت: "إنه قديم وحادث"، فقول لم يقل به مؤمن ولا ناكث، فإن الجمع بين القدم والحادث مما يعلم فساده بضرورة العقل، فإن معنى القديم الذي لا أول لوجوده، والحادث هو الذي لوجوده أول، والجمع بين نفى الأولية وإثبات الأولية محال.

وأما قولك: "قديم بالقوة حادث بالفعل"، فكلام ليس له أصل، إذ لا يعقل العقلاء في القدم قوة ولا فعلا، فإن القدم من أسماء السلوب، والقوة والفعل فإنما يتواردان عند القائلين بهما على الصفات الوجوديات وعلى عدمها مع إمكان وجودها، ثم إنا نسألك عن حد القوة وحقيقتها؟ وما الفرق بينهما وبين الإمكان؟ وهل هي موجودة؟ وعن حد الفعل وما حقيقته؟ فإنك تكلمت بما سمعته وما حصلته ولا وعيته.

وأما قولك: "وكل عنده حاضر مقيم"، فكلام حق ومقال صدق، إن كنت أردت بحاضر أنه معلوم، وقد أخطأت بإدخالك مقيم في هذا المعنى. فإن المقيم إنما هو مأخوذ من أقام بالموضع إذا ثبت فيه، فإن أردت هذا المعنى لزمك أن تكون³ المعدومات الممكنة موجودة عنده في حال عدمها، وذلك محال. وإن أردت غيره، فكان ينبغي لك أن تبين مرادك، فإنك لم تتكلم به على مقتضى كلام القوم الذين تعاطيت التكلم بلسانهم.

ثم قولك: "لأنه تعالى⁴ لا تأخذه الأزمان"، ذكرته موهما أنك تستدل به على أنه تعالى عالم بجميع الأمور محيط بالكل، ولا يدل ذلك على ما أردته، وإلا فكونه قابلا للزمان أو

1- في خ/م: "صار به صار الحادث".

2- في ط: "سألك".

3- في خ/م: "أن يكون المعدومات".

4- في ط: "تبارك وتعالى".

غير¹ قابل للزمان، ما المناسبة بينه وبين كونه عالما بجميع المعلومات، أو ببعضها؟ ولا بد أن تسأل² عن الزمان ما هو؟ وهل هو موجود أو معدوم؟ فإن كان موجودا فهل هو جوهر أو عرض؟ وإن كان جوهرًا أو عرضًا فهل هو في زمان أوليس في زمان؟ فإن لم يكن في زمان، فلتستغن الموجودات كلها عن زمان. ويلزم عليه إثبات موجودات ليس بزمانية غير الباري تعالى³، وذلك محال على ما تقرر⁴، وإن كان في زمان، فهل ذلك الزمان في زمان؟ ويتسلسل فلا بد لك من علم هذه المسائل إن أردت⁵ أن تلحق بالصنف العاقل، ومن أراد أن يعلم فليرحل على الرأس والقدم.

وأما قولك: "ولا يعد الأشياء بالأعداد"، فيفهم منه أن المعلومات لا تتعدد عنده، وإذا لم تتعدد المعلومات عنده، لا تتميز جزئياتها، وإذا كان ذلك فإنما يعلم الأمور على وجه كلي، وهو ما يقوله⁶ الفلاسفة. وأهل الشرائع كلهم مطبقون على أن الله تعالى يعلم جزئيات الأمور وإن دقت على التفصيل، ومن لم يقل هذا يحكم عليه في كل ملة بالتكفير والتضليل. فأنت يا هذا في أكثر كلامك بين أمرين إما أن تتكرر الضروريات أو تكفر بالشرعيات. فنسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا ويسدد أحوالنا وأمورنا، وأن لا يجعل وبالاً علينا أعمالنا، وأقوالنا أنه سميع الدعاء قريب مجيب.

1- في خ/م: "غيره".

2- في ط: "أن يسأل".

3- في ط: "تعالى وتقدس".

4- في خ/م: "على ما يتقرر".

5- في خ/م: "بل إن أردت أن تلحق".

6- في ط: "تقوله الفلاسفة".

الفصل الثالث

الواسطة بين الله وبين موسى¹.

من حكاية كلام السائل قال: ثم نقول لمن ناظرني من نافية² المسلمين: إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه تكليما، فكيف كان ذلك وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من إدراكه في الدنيا والآخرة، لأنه لا مفطور ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام³، فإن قلتم إنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جارحة النطق ووقعتم فيما أنكرتم⁴ من الجسم، وإن قلتم إن الله خلق له كلاما فقد أثبتتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه، جوهرًا في نفسه، إذ لم يكن عرضا في الله. قال لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾⁵، وأثبتتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى، وأن موسى⁶ أقر لها⁷ بالريوية لقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁸، وقول الصدى الذي هو المتكلم له: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، فإن قلت إن الصدى لم يقل له أنا الله، ولكنه في مسامع موسى أنا الله، قلت لك إن الصدى هو العامل في مسامع موسى وهو المحرك له، وعليه رد وإياه أجاب⁹. والدليل على أنه كان في غفلة فما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون حتى خلق له نارا أبصرها، فنزع إليها فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى، قال له: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ إلا أن تقولوا إن موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون دون النار والكلام، فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما وخبرهما لم يفد شيئا، وهذا من القول تشنيع الكذب. وإذا لم يكن

1- العنوان غير موجود في خ/م.

2- في ط: "باقية المسلمين".

3- في خ/م: "أوهام".

4- في ط: "فيما أنكرتموه".

5- سورة طه، آية: 14.

6- "وأن موسى"، ساقطة من خ/م.

7- "لها" ساقطة من ط.

8- سورة الأعراف، آية: 143.

9- في خ/م: "جواب".

بد من أن موسى لم يدرك المرسل له إلا بواسطة اتخذ¹ له يسمى باسمه، فالواسط هو العامل في موسى وعنه تحمل الرسالة حتى يأتي فرعون بمصر ويقول: إن الله تراءى لي بطور سيناء وبعثني إليك لترسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم، مجددا الموضع الذي أقبل منه من عند الله، وكان الله بمصر وفي كل مكان، ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهي إلا بكلام محدود من جسم مفطور، خلق الله له نارا أبصرها، فنزع إليها ثم أحجب فيها صدى سمعه منها قام عنده مقام خالق فسماء إلها .

الجواب عنه: "أما قولك ثم نقول لمن ناظرني من نافية² المسلمين، فلتعلم يا هذا أنك غلطت في نفسك وغفلت عن حسك، حيث ظننت أنك ممن يستحسن مناظرته أحد من المسلمين، للذي أمروا به من الأعراض عن الجاهلين، وكيف وأنت لا يمكنك النطق بكلام فصيح، ولا تقدر على نظر صحيح، وأنى لك بمناظرتهم ولم تسلك شيئا من طريقتهم، وكيف يمكنك النظر معهم وأنت لم تعرف طريقه ولا التزمت شروطه؟

فو حق دين الإسلام، الذي هو دين إبراهيم عليه السلام، لقد وددت أن تكون من عقلاء الأنام، لتعرف قدر ما يلقي من الأسئلة عليك، وما يكتب به من الحكم إليك، فلعل مقلب القلوب يستفذك من عبادة إله مصلوب، ويبدلك بها إخلاص العبادة لعلام الغيوب، ولولا رجاء ذلك لما كان ينبغي لي أن أعطى الحكمة غير أهلها كما لا ينبغي أن أمنعها³ من هو من أهلها .

وأما قولك: "إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه تكليما"، فكيف يسوغ لك أن تحتج⁴ بما أنت منكر لأصله، ولا تعترف بأنه كلام الله، وأنت منكر لتصديق من جاء به، فلا يحل لك أن تحتج لنفسك ولا لغيرك بما تعتقد أنه كذب، وأما نحن فيمكننا أن نحتج عليكم وعلى اليهود بالتوراة والإنجيل، لأننا نعتقد أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى، وهما هدى قبل أن يغيرا ويبدلا وينسغا بغيرهما .

وأما اليوم، بعد أن ثبت عندنا ما ذكرته فلا نحتج بشيء منهما على جهة انتزاع الأحكام، فإن الله تعالى قد أخرجنا بالنور من الظلام، وهذان لما اختلفتم فيه من الحق

1- في ط: "اتحد".

2- في ط: "باقية".

3- في ط: "أسمعها، وهو تصحيف".

4- في ط: "تجنح، وهو تصحيف".

بنبينا محمد عليه السلام، وسنبين إن شاء الله ما يدل على صدقه من المعجزات وواضح الدلالات.

ثم نقول: إن الله تعالى كلم موسى بكلامه الذي هو صفته، وسمعه موسى بالإدراك الذي خلقه الله له، وقولك: "كيف" ظلم وحيث، إذ سؤالك بكيف في هذا المحل، دليل على أنك جاهل بمطلبها، فينبغي لك أن تعلم أن صيغ المطالب كثيرة وهي مع كثرتها لا يتوجه شيء منها على الله تعالى ولا على¹ صفاته؛ وذلك أن من صيغ المطالب: ما، وأي، ولم، وهل² وكيف، ومتى، وأين، وغيرها³، مما في معناها ولا يتوجه على الله تعالى بشيء منها لاستحالة معانيها على الله تعالى، فلا يسأل⁴ عنه بـ: ما، ولا بـ: أي، إذ لا، جنس له ولا فصل، ولا بـ: لم إذ لا علة له ولا أصل، ولا بـ: متى إذ هو مقدر الزمان، ولا بـ: أين إذ هو خالق المكان، ولا بـ: هل إذ لا نشك في وجوده وهو خالقنا، ولا بـ: كيف إذ لا يناسب جوده ولا صفاته شيئاً من أحوالنا وأوصافنا؛ وجوده إثباته⁵، وإثباته ذاته، وعلمه كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، لا يتوجه عليه بمخلوق⁶ حق ولا يعجزه خلق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ⁷ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ⁸﴾.

ثم نقول: ومما يبين لك أنه يصح السؤال بكيف هنا لأن المطلب بكيف إنما هو سؤال عن حال موجود يناسب⁸ حال السائل بكيف. فإذا قلت كيف زيد؟ إنما معناه على أي حال هو من الأحوال التي تناسب أحوالنا، في حال صحة أو في حال مرض، أو في حال علم أو في حال جهل، إلى غير ذلك من أحواله المناسبة من أحوالنا⁹، فإذا قلت كيف سمع موسى كلام الله؟ فكأنك قلت على أي حالة سمع موسى كلام الله من الأحوال التي نكون نحن عليها حين يسمع بعضنا من بعض؟ ونحن والعقلاء الذي يعرفون ما يجب لله وما يجوز،

1- في ط: "وعلى صفاته".

2- "هل" ساقطة في ط.

3- في ط: "وغيرهما"، وهو تصحيف.

4- في ط: "تسأل".

5- في خ/م: "إثباتها".

6- في ط: "لا يتوجه لمخلوق عليه".

7- سورة الشورى، آية: 11.

8- في خ/م: "تناسب".

9- في ط: "لأحوالنا".

وما يستحيل في حقه، يعلمون بالبراهين القاطعة أنه يستحيل أن يسمع موسى كلام الله على شيء من الأحوال التي يسمع عليها بعضنا من بعض على ما نبينه إن شاء الله.

فعلى هذا إذا سألنا سائل كما سألت أنت، قلنا له: السؤال عن الله تعالى وصفاته بـ: كيف، ظلم وحيث. فإن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وقد سألت بـ كيف في موضع لا مدخل لها فيه. فتأدب مع الله قبل حلول عقاب الله، فإن من لم يستعمل مع الله الأدب، فقد استحق التعب، وحرم الرتب، ومن لم يستتكر¹ هذا الكلام لحق بالبهائم والهوام، فإنه لو سألك عنين لم يذق قط لذة الجماع، وقال لك كيف أدركت أنت لذة الجماع؟ لكان الجواب يصعب عليك، ولم يمكنك تفهيمه إذ لم يذق لذة الجماع. وكذلك كل من لم يسمع كلام الله كما سمعه موسى عليه السلام فهو كالعنين بالإضافة إلى إدراك الكلام القديم إذ لم يسمعه ولا اتصف بالإدراك الذي اتصف به موسى عليه السلام، وكما لا يقال كيف يسمع الله كلام الخلق، كذلك لا يقال كيف يسمع كلامه أحد من الخلق، وكما لا يقال كيف يرى الله الخلق، كذلك لا يقال كيف يراه الخلق، فإن الكيفية محال على الله تعالى وعلى صفاته من جميع الوجوه، ولولا خوف الإكثار، وأنا وضعنا هذا الكتاب على الاختصار، لمألت صدرك من عظمة الله تعالى إن كنت عاقلاً، حتى يتبين لكم أنكم لم تعرفوا الله حق معرفته ولا قدرتموه حق قدره.

وأما قولك: "فإن قلت أنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جراحة النطق ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم"، فلا يلزم من هذا كله شيء، وإنما كان يلزمنا هذا لو قلنا: إن الله تعالى كلمه بصوت وحرف يخرج من لهوات ويقطعه لسان، ونحن لا نقول بشيء من ذلك بل نقول: إن الله تعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذات الله، ليس بحرف ولا صوت، وهذا معقول مفهوم، فإننا نحس من أنفسنا كلاماً قائماً بذواتنا فتتحدث به مع أنفسنا، ليس بحرف ولا صوت، وهذا مما يجده الإنسان من نفسه بالضرورة ويكون الحرف والصوت دالين على ذلك المعنى الذي في النفس، وهذا لاستحالته في كلام يناسبه² من بعض الوجوه لله تعالى، لكن على القدر الذي يجوز في حقه تعالى. وإنما ذكرنا لك أنفسنا مثلاً لذلك على جهة التأنيس، كما أنا نقول حقيقة العلم واحدة في القديم والحادث، ونعني بذلك انكشاف المعلوم، لأن العلم القديم يشبه الحادث. فافهم وهذا كله يتبين في موضعه ويعرف بدليله.

1- في خ/م: "ولا تستكر هذا الكلام فتلحق بالبهائم".

2- في ط: "يناسبه".

فعلى هذا الأصل الذي قررناه نقول: الكلام الذي سمعه موسى عليه السلام هو كلام الله القديم القائم بذات الله الذي ليس بحرف ولا صوت، فإن قلتم كيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت، قلنا: الجواب عنه قد تقدم، إذ لا يصح السؤال عنه بـ: كيف لاستحالة شرط السؤال بها .

ثم نقول سلمنا جدلا أنه يصح السؤال، ثم يكون الجواب عنه أن تقول: يسمع ما ليس بحرف ولا صوت¹، كما يعلم موجود ليس بجوهر ولا عرض، وكما يرى الله الخلق وليس بذى حدقة ولا عين، وكما يسمع أصواتهم وليس بذى صماخ ولا أذن، وكما يعلم وليس بذى قلب ولا دماغ، وكما يراه المؤمنون في الدار الآخرة كرامة لهم، وليس بذى جسم ولا لون، فكما تصح هذه الأمور كلها، وإن كانت مستبعدة، بالإضافة إلى أوها منا في حق الله تعالى، فكذلك يصح أن يسمع موسى ما ليس بحرف ولا صوت.

ثم نقول للذي لا تبقى معه حسيكة في النفس ولا استبعاد في الوهم: إن الله تعالى خلق لموسى إدراكا لكلامه القديم، وصل به إلى تحصيل مفهوم كلام الله تعالى ومراده منه، فسمى ذلك الإدراك سماعا وعبر عنه بسمع، كما أنا نجوز أن يكرم الله من شاء من أصفياء خلقه، بأن يطلعهم على بعض ما في نفوس بعض الناس من غير تعبير عنه بصوت ولا حرف، وذلك كما في بعض كتبكم أن عيسى عليه السلام، أعلم بعض الحواريين بما² في نفسه، ولو عبر عن ذلك بأن يقال سمع عيسى كلام ذلك الرجل لكان صدقا وحقا، وهذا كله جائز عقلا لا استحالة فيه.

فإن قيل: كيف ينبغي لك أن تقول إن الله تعالى متكلم بكلام ليس بصوت ولا حرف، وقد جاء في التوراة أن الله تكلم بصوت لآدم وحواء، وذلك أنهما لما طفقا يلفقان ورق التين ليسترا بهما³ عورتهم، فسمعا صوت الله الرب يتمشى في الفردوس، إلى أن قال: فدعا الرب آدم وقال أين أنت يا آدم، وقال آدم سمعت صوتك في الفردوس فرأيت أني عار فاستترت واستخفيت. وهذا يدل على أن لله⁴ تعالى صوتا وهو خلاف ما ذكرت، فيلزمك على هذا تكذيب التوراة أو تقول بمقتضاها فترجع عما قلته آنفا .

1- في ط: "بصوت ولا حرف".

2- في ط: "عما".

3- في ط: "بهما".

4- في خ/م: "الله".

فأقول¹ ما أمرنا به نبينا عليه السلام عندما تحدثونا بشيء: آمنا بالله وكتبه ورسله، وبعد ذلك نقول في التوراة بمثل ما قلناه في الإنجيل أو قريبا منه، فجدد به عهدا وفيه نظرا. ثم إن سلمنا صحتها، فليس في هذا الذي ذكرته ما يدل على أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت، وإنما الظاهر منه أن آدم سمع حس مشي² الله في الفردوس. ألا ترى قوله: فسمعا صوت الرب يتمشى في الفردوس، هذا هو الظاهر من هذا اللفظ، وأنتم لا تقولون به ولا نحن، وإن كانت اليهود أو أكثرها قد قالت بمقتضى ظاهره فجسمت. وأنتم إن قلتم بظاهره يلزمكم ما لزمهم، فإذا³ هذا اللفظ مؤول عندكم وعندنا، أعنى من المتشابهات التي يعلمها الراسخون في العلم، فما لم يستقم حمله⁴ على ظاهره تأولتموه أنتم وصرفتموه عن ظاهره، وقلتم أن هذا إنما يراد به كلام الله تعالى الذي هو حرف وصوت عندكم، وهو فعل من أفعال الله تعالى عندكم. وإلى نحو من هذا صار أغشتين. وإذا تأولتم أنتم هذا اللفظ وأخرجتموه عن ظاهره، فنحن نخرجه عن ظاهره بتأويل آخر أحسن من تأويلكم، لا يلزم عليه شيء من المحالات التي تلزمكم وسنبينها إن شاء الله. ولنا في ذلك تأويلان:

أحدهما: أن الله تعالى خلق صوتا في بعض طرق الفردوس يشبه صوت الماشي، وهو الذي يسمى بلسان العرب الهمس والخشخشة، فلما سمع آدم ذلك الصوت تنبه لمخاطبة الله تعالى ولحضوره معه، ثم أضاف الصوت إلى الله تعالى، لأنه هو الذي تنبه آدم عنده لمحاضرة الله، وكأنه كان⁵ في غفلة لشدة حزنه وعظيم ما حل به، وهذا كما يعتري الواحد منا إذا كان ملهوبا بأمر هائل، فإنه يشتغل بنفسه بل ويفضل عن حسه. ثم قد يتنبه عند سماع صوت شيء وحس إنسان، فيرجع عند ذلك لنفسه ويتنبه لمن معه، وعلى هذا التأويل يكون في: يتمشى ضمير يعود على الصوت، فكأنه قال يتمشى الصوت في الفردوس لا على الله. إذ يستحيل على الله تعالى ظاهر المشي ومفهومه السابق منه، وهذا تأويل حسن سائغ عند المنصف.

1- في ط: "فَنَقُولَ".

2- في خ/م: "سَقَطَتْ كَلِمَةُ 'مَشْي'".

3- في ط: "إِذْنٌ".

4- في ط: "جَمَلُهُ".

5- في ط: "وَكأنْ أَدَمُ كَانَ".

والتأويل الثاني: أن الصوت يراد به الكلام القائم بذاته، وإن كان ليس بصوت. فيجوز أن يسميه صوتا، لأنه يمكن أن يدل عليه بالصوت؛ كما نقول: إن موسى عليه السلام سمع كلام الله القائم بذاته بمعنى: أدركه وفهمه بإدراك خُص¹ به موسى ثم عبر موسى عنه لنا بصوت مقطع، إذ ليس في قوتنا إدراك ما ليس بصوت، وبقریب من ذلك نقول نحن في القرآن.

وهذا النوع من التأويل جائز² جار في الكلام، فإنه تسمية الشيء بما يدل عليه؛ كما تقول سمعت علم فلان وإنما سمعت كلامه الذي دل على علمه، والكلام ليس هو العلم. وعلى هذا التأويل يكون في الفردوس معلقا بـ: سمعا لا بـ: يتمشى، ويكون معنى يتمشى يبلغ، والبلوغ عبارة عن الإدراك الذي به أدرك كلام الله تعالى، يعني: سمعه وكذلك قوله سمعت صوتك في الفردوس أي وأنا في الفردوس.

وإن³ كنت تعرف لسان القوم الذين ترجمت التوراة والإنجيل بلغتهم، لذكرت لك من هذا أمثلة كثيرة، وفي القليل للبصير⁴ غنية عن الكثير. فهكذا ينبغي لك ولكل عاقل أن يفهم تأويل الصوت الذي وقع في التوراة، ولعمري لا يبعد أن يتأول تأويلات آخر جارية⁵ على السنن القويم والمنهج المستقيم، وفيما ذكرناه مقنع للعاقل فتدبر فهمك الله ما ذكرته، ولا تعتقد في الله تعالى أنه متكلم بصوت محدث فإن ذلك محال. ونحن نبين استحالاته مستعينين بالله ومتوكلين عليه فنقول: من المقرر الثابت عند المتشرعين⁶ كلهم أن الله تعالى متكلم، ومن لم يعمل في ذلك على ما أخبرت به الرسل ولا وافق على⁷ الشرائع أقيمت عليه القواطع التي⁸ لا يردّها إلا معاند، وليس هذا موضع ذكرها. فإذا تقرر ذلك فنقول:

إما أن يكون متكلمًا بصوت أو بغير صوت، فإن كان متكلمًا بصوت فذلك الصوت إما أن يكون قائمًا به، أو قائمًا بغيره، أو لا قائمًا به ولا قائمًا بغيره.

1- في خ/م: "يخص به".

2- في ط: "نوع جائز".

3- في ط: "ولو".

4- في ط: "المبصر".

5- في ط: "جاريات".

6- في ط: "المشرعين".

7- في خ/م: "عن".

8- في خ/م: "الذي".

محال أن يكون قائما به، فإن الصوت لا يكون مفيدا حتى يتقطع بالحروف، وتلك التقطيعات لا بد أن تكون حادثة، فيلزم عليه أن يكون محلا للحوادث، وإذا كان محلا للحوادث لم يخل عنها، وإذا لم يخل عنها كان حادثا مثلها على ما تحقق في موضعه، وذلك كله محال على الله تعالى.

وإن قام بغيره فذلك الغير يكون المتكلم به، وسواء¹ كان ذلك المحل جمادا أو حيوانا، فإن قلنا إنه يجوز قيامه بجسم جماد، وإن جاز أن يقوم الصوت بمحل ويكون الباري تبارك وتعالى متكلم به، جاز أن تقوم صفة بمحل وتوجب حكمها لمحل آخر، فيلزم على ذلك أن تقوم حركة بجسم يكون جسما² آخر متحركا بها³، ويقوم بمحل لون ويكون محل آخر متصفا به، وذلك كله محال بالضرورة، ويلزم عليه أن يكون الباري تعالى متكلم بما يقوم بنا من كلامنا إلى غير ذلك من المحالات.

ويأطل أن يقال: لا يقوم به ولا بغيره، لأنه يكون قائما بنفسه ويخرج⁴ عن كونه صفة زائدة على النفس، وإذا بطلت هذه الثلاثة الأقسام [استحال أن يكون صوتا، وإذا استحال أن يكون صوتا، وجب أن يكون ليس بحرف ولا صوت]⁵ وهو ما قدمنا ذكره ومن أراد مزيدا [على هذا]⁶ فليرحل ويرشد⁷ للحق بعد أن يبحث ويسأل.

وإذا ثبتت هذه القاعدة الوثيقة العظيمة الأنيفة التي لا يعرف قدرها ولا عظم خطرها، إلا من نور الله بنور اليقين بصيرته، وأصلح بجزيل التوفيق سريره، بطل ما أصْلُتموه⁸ ولم يلزم شيء مما ألزمتهم ولا تم لكم شيء مما أردتموه.

فإن جملة ما تريد أن تقوله في هذا الفصل: إن الله تعالى متكلم بصوت، وأن موسى سمع بذلك الصوت وهو يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾ وذلك الصوت غير الله. ومع ذلك يخاطبه⁹ موسى بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ وقد اعترف له موسى

1- في ط: "سواء".

2- في خ/م: "جسم".

3- في خ/م: "به".

4- في ط: "خرج".

5- ما كتب بين معقوفتين، ساقط من ط.

6- ما كتب بين معقوفتين ساقط من ط.

7- في ط: "يرتد".

8- في ط: "أملتكم".

9- في ط: "خاطبه".

بالربوبية، فكَذلك المسيح في قوله: "أنا الله"، صادق إذ قد اتخذهُ واسطة بينهُ وبين خلقه، كما اتخذ جسم النار والكلام واسطة بينهُ وبين موسى. فينبغي¹ أن نَعترف برُبوبية كما اعترف موسى برُبوبية الصوت. وهذا الهذيان كله الذي ذكرته، وليتك ما أنحلته، الذي والله لا شرع يعضده، ولا عقل يقبله ويؤيده²، مبني على أن الله تعالى متكلم بصوت، وقد أبطلناه فبطل كل ذلك. ومع ذلك فلنتكلم على أجزاء كلامك، بعد أن بينا جملة مقصودك ومرامك، حتى يتبين أنكم لستم على شيء مما ينتحلُه العقلاء، بل يتبرأ منه الفضلاء فنقول: أما قولك: "وإن قلتم إن الله خلق له كلاماً، فقد أثبتتم كلاماً مخلوقاً قائماً بخلقهِ جوهرًا في نفسه"، فنقول: بعد أن أبطلنا الصوت الذي ترومون البناء عليه، نسلّمه لكم جدلاً، ونبين بعد ذلك أنه لا يلزم شيء مما ذكرته، إذ لا يلزم من تقدير صوت الله تعالى عن ذلك مخلوق، أن يكون الصوت قائماً بنفسه جوهرًا، فإن الصوت إنما حقيقته أنه صفة لموصوف، وعرض في محل، والعرض لا ينقلب جوهرًا، فإن قلت: فيلزمك أن يكون عرضاً، قال لك المجيب: وما الذي يلزم منه إن كان عرضاً، فإن قلت يلزم منه أن يكون العرض هو الذي قال لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، والصوت لا يتكلم وإنما يتكلم به. [قلنا لك جوابك أن الصوت لا يتكلم عن نفسه وإنما يتكلم به]³ كما قلت أنت. ثم يلزمك أنت إن جعلته جوهرًا غير الله تعالى، أن يكون هو الذي قال عن نفسه: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، وله اعترف موسى بالربوبية لا الله، وله سجد لا الله، وإذا انتهى إنسان إلى هذه المخازي فقد كفر بموسى وبإله موسى. نعوذ بالله من أنظار تقود⁴ في الدنيا إلى الفضيحة والعار، وفي الآخرة إلى الخلود في عذاب النار، وعلى هذا الكفر الصراح⁵ يدل قولك: إن موسى أقر لها بالربوبية، تريد للواسطة، وإذا أقر لها بالربوبية، ولم يعرف قط من موسى عليه السلام أنه أقر بالربوبية لإلهين، فقد اعترف برُبوبية الواسطة وأنكر رُبوبية الله، وكذلك يفعل الله بكل مسرف مرتاب. أعاذنا الله من الاختلال المفضي بصاحبه إلى الضلال، ثم هذه المخارق يلزم منها قلب الحقائق، فإن الصوت لا يقوم بنفسه ولا بخلقهِ، والقائل بذلك يشهد العقلاء بحمقه. فإن حقيقته صفة

1- في ط: "فينبغي لنا".

2- في ط: "ويريده".

3- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

4- في خ/م: "تعود".

5- في ط: "الصريح".

لموصوف يستدعي وجودها محلاً كما سائر الصفات، إذ لا يعقل قيام صفة بنفسها بل بغيرها وهذا ضروري.

وأما قولك فإن قلت إن الصدى لم يقل له: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ ولكنه كان في مسامع موسى: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، قلت لك: إن الصدى هو العامل في مسامع موسى وهو المحرك له، وعليه رد وإياه جاب¹، فيلزمك على هذا الانفصال، أن يكون موسى رسول الصدى لا رسول الله، وعليه يدل كلامك، وعنه تحمل الرسالة لا عن الله، وإذا كان ذلك²، فقد كذبت موسى عليه السلام على ما يلزمكم، حيث قال لفرعون: أنا رسول الله فإن كان بزعمك رسول الصدى، فإذا كان الصدى يقول: أنا الله، ويعترف له موسى بالربوبية، ويأمر لموسى بتبليغ رسالته، فقولوا: إن الصدى إله، وأضيفوه إلى آلهتكم المتقدمة، فيكون عددهم خمسة، وذلك أن الأقانيم الثلاثة عندكم آلهة، وعيسى إله رابع، والصدى إله خامس. ومنكم طائفة تدعى أن مريم إله، فتكون الآلهة عند هذه الطائفة ستة. وإذا انتهى عقل إنسان لأن يقول³ هذه المخازي بلسانه ولا يشعر بها، سقطت مكانته ووجبت مجانbته. ولا معنى لتطويل الكلام مع من يرتكب ذلك الهذيان، فلقد⁴ تم للشيطان فيهم أمله، وأنجح معهم سعيه وعمله، ومع هذا ف ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾⁵، وينبغي أن يتعدى⁶ أكثر كلام هذا السائل مما⁷ هو ظاهر الفساد، ولعلنا نصل إلى ما هو المهم والمراد من نقل مذاهب المتقدمين، أعنى المطارق والقيسين، إذ كلامهم يمكن أن يعقل أعني يفهم ويتحصل، ولا بد مع ذلك من نقل كلام هذا السائل، ليعلم الناظر فيه أنه ليس تحته طائل وأن المتكلم به ليس بعاقل.

1- في ط: "أجاب".

2- في ط: "وإذا كان كذلك".

3- في ط: "إنسان يقول".

4- في ط: "فقد".

5- سورة الأنعام، آية: 36.

6- في خ/م: "يتصدى".

7- في خ/م: "فما".

الفصل الرابع

تجسد الواسطة¹

من حكاية كلامه قال: فإذا لم يكن بد من الصدى، فقد قال: أنا الله، فأسألك: إن كنت تصدق الصدى أم تكذب؟ فإنه لم يكن بدا² من تصديقه في قوله بالربوبية³ إذ قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، قلنا لكم وكذلك صدق المسيح في قوله: أنا الله، وأنا لنرى كذا صدقه⁴ الحواريون ومن اتبعه من غيرهم في قوله في الربوبية، كتصديق موسى للكلام والاتمار⁵ له برسائته إلى أهل مصر، وقد أوجبتم أن جسم المسيح وكلامه لما خاطب⁶ بالربوبية، مثل جسم النار والكلام إذا خاطب موسى بالربوبية.

فإن قلت: إن موسى لم يعبد النار والكلام⁷، كما تعبد النصارى المسيح. قيل لك: إن الكلام قال له اعبدني وسجد له موسى، وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، فإن قال المسلم عند الاضطراب، إن النار والصدى واسطة ولكنها خلاف المسيح وكلامه، لأن النار ليس من طبعها الكلام، وأما المسيح فإنه كان إنسانا معروفا بالكلام، فلا آية فيه. قلنا لك: إذ قد أوجبتم أن الخليفة لا تدرك الخالق إلا بجسم مخلوق يتخذه⁸، وتجعله واسطا بالواسط⁹ بينه وبين من خاطب من الأنبياء، ويصير الواسطة لهم إلها، فقد جامعتموه على الإقرار بواسط¹⁰ مخلوق بالربوبية للمسيح، ووقعتم فيما أنكرتم، وليس ينفعكم ملجؤكم إلى القول بأن النار والمسيح ليس آية.

1- عنوان "تجسد الواسطة" غير موجود في خ/م.

2- في ط: "فإذا لم يكن بد".

3- في ط: "قول الربوبية".

4- في ط: "صدق".

5- في ط: "والا يتمارى".

6- في ط: "خطب".

7- "والكلام" ساقط في ط.

8- في ط: "تتخذه".

9- في ط: "واسطة".

10- في ط: "بواسطة".

وانما أوجبت علينا الشرك في قولنا بواسطة، فإذن العقل والحق لا يعيب الواسط، فكلما الواسطتين بين الله والخلق. وإذا ذهبتم إلى أن النار صادقة لا يتخوف منه¹ الكذب، وأن المسيح يتخوف عليه الكذب، فإن موسى قد أوجز في النار والكلام، وانما قطع الشك باليقين بأية العصا واليد الذي أدخل² في جيبه، وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم بإقرار الموتى عند إحيائه لهم بربوبيته. وإن ذهبتم إلى أن خلق النار في ذاتها أشرف، فإن كل مخلوق في الدنيا هو منافع لولد آدم مسخرة لهم، وكفى بقولكم في قرآنكم³ إن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم وأن إبليس مسخوط عليه في الأبد لإبائته⁴ السجود له، وقوله: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾⁵.

فإن قلتم كذبتكم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئا، قلنا إنما أنكرتم علينا القول بما وجدنا في كتابنا، نحن لا نستدل⁶ بمثل هذا في الأبد فاضطربناكم من كتابكم إلى القول بمثله، فلما ثبت⁷ قلتم: كذبتكم على المسيح. فلم تكذبونا وكتابنا على القول بمثل قولكم في واسطة موسى وعبادته لها؟ وأنتم لما أوجبت أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة، أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها ثم يقول قرآنكم⁸: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾⁹.

فما تتكبرون أن يكون المسيح الذي كان واسطاً¹⁰ للوعظ، أن يكون هذا المقبل مع الملائكة كما قدمه في الإنجيل حيث قال: "يقعد ابن الإنسان أعني¹¹ الحجاب المتخذ من

1- في ط: "عليها".

2- في ط: "أدخلها".

3- في خ/م: "قولكم"، وهو تصحيف.

4- في ط: "لإبائته".

5- سورة الأعراف: آية: 12.

6- في خ/م: "نعتدل".

7- في ط: "أبيننا".

8- في خ/م: "تقول قراءتكم".

9- سورة الفجر، آية: 22.

10- في ط: "واسطة".

11- في ط: "يعني".

نسل آدم في مجلس عظمته ويقدم¹ جميع الأمم بين يديه ويميزهم كما يميز الراعي الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه والمجرمين عن شماله ثم يعاتبهم ويأمر² كل طائفة بمثل ما قدموا في دنياهم³.

وإذا أوجبتكم أن الله لا مفسطور ولا مدرك بحاسة، فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس، مع إقراركم أن ريكتم قال: ترون ريكتم ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر، أو لم تتكروا أن يكون المسيح الذي كان واسطاً للوعظ، أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾⁴.

الجواب عما ذكره: اعلم يا هذا المتكلف في يقينه⁵، المتعسف في تأويل دينه، أنك قلت في هذا الفصل من الباطل والكفر ما لا حجة له ولا أصل، خالفت فيه دين النصارى المتقدمين ولم تعرج على مذاهب القسيسين، بل رغبت عن ملة أئمتك المطارين⁶، فوجب على أهل ملتك أن يعدوك في الخارجين ومن الجهال المبتدعين.

وذلك أنك زعمت أن الذي قال لموسى: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾، إنما كان الصدى ولم يكن الله تعالى، وزعمت أن موسى اعترف للصدى بالربوبية، وأنه هو الذي كلم موسى وإياه جاوب⁷، وعنه تحمل الرسالة حتى أتى فرعون، وأن ذلك الصدى قام⁸ عند موسى مقام خالقه⁹، فسماه إلهاً، وزعمت أن موسى سجد لذلك الصدى، وأنه هو الذى سأل موسى رؤيته، ولذلك زعمت أن موسى قال للصدى: ﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

1- في ط: "وتقدم".

2- في ط: "ويأمن".

3- متى 25: 31-33.

4- سورة البقرة، آية: 210.

5- في ط: "بغيته".

6- في ط: لا «مطارين».

7- في ط: "حارب".

8- في خ/م: "قال"، وهو تصحيف.

9- في خ/م: "خالق"، وهو تصحيف.

أَلْمُؤْمِنِينَ¹ فإذا كان للصدى فلا حاجة لموسى ولا لأحد إلى الله تعالى، فإنه لم يقل: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» وإنما قالها الصدى، والصدى صادق بزعمك فقد بطلت إلهية الله تعالى وثبتت إلهية الصدى.

وإذا كان كذلك فلم لا تعبدون هذا الصدى الذي عبده موسى وسجد له وتاب له بعد أن اعترف بريوبيته؟ وما بال حبقوق النبي لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى ولم يذكره ولم يعترف بريوبيته؟ وكذلك ما بال حزقيال لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى، ولم يذكره ولم يعترف بريوبيته؟

وكذلك إشعياء ويحيى وعيسى وغيرهم من الأنبياء. والحواريون ما بالهم لم يعبدوا ما عبد موسى وسجد له واعترف بريوبيته وأنه لا رب سواه؟ فهؤلاء الأنبياء والأولياء إما أن يكونوا علموا أنه لا إله إلا الصدى، كما قال الصدى بزعمك، أو جهلوا ذلك. فإن كانوا علموا، فلأي شيء لم يعترفوا بذلك وسكتوا عنه، إذ لم يصح قط عن واحد منهم أنه قال: لا إله لكم إلا الصدى، فليزكم أن يكون سكوتهم عن ذلك إما عن جحد أو تلبيس، فإن كانوا علموا الحق فجحده فذلك كفر منهم، وهم صلى الله عليهم أجمعين مبرأون عن ذلك منزهون، ولو كان ذلك لاستحال أن يظهر عليهم من الآيات شيء مما ظهر، وإن كان سكوتهم عن تلبيس، فإن جاز عليهم التلبيس في مثل هذا، جاز عليهم التلبيس في كل ما أخبروا به من الشرائع، إذ كل الشرائع والأحكام محتقرة² بالإضافة إلى معرفة الربوبية وإن كانوا جهلوا ذلك فكيف علمت أنت يا أحمق ما جهله الأنبياء والأولياء.

فإن كانوا تكلموا بذلك وقالوا به، ففي أي سفر من أسفار التوراة هو أن موسى أخبر أن الله لا إله له ولا لكم إلا الصدى، وأن الصدى أرسله إلى فرعون، وأنه إله؟ فإن كان ما تدعيه حقا فات³ بالتوراة فاتها إن كنت من الصادقين، وفي أي كتاب من كتب الأنبياء جاء مثل ذلك؟ في كتاب حبقوق أو في كتاب حزقيال⁴ أو في كتاب أشعياء أو في كتاب دانيال أو في إنجيل لوقا أو في إنجيل متاؤوش أو في إنجيل ماركس أو في إنجيل يوحنا أو في مصحف الإعلان أو في أي كتاب من رسائل الحواريين وجد مثل ذلك؟

1- سورة الأعراف، آية: 43.

2- في ط: "تحتقرة".

3- في ط: "فانت".

4- في خ/م: "حزقين وهو تصحيف".

هل وقع شيء منه هنالك؟ وهذه الكتب التي ترجعون إليها وتعولون عليها إذا لم يوجد فيها شيء مما ذكرت، علم من حالك أنك على الله ورسله كذبت وافتريت؟ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾¹.

بل قد تواردت الرسل على الأخبار بالقواطع التي لا تجهل بأن الله إله واحد، وأنه ليس له في ألوهيته شبيه ولا مضاد. وإذا تبين بهذا أنك كفرت وأن الله ربك سببت وعلى رسله كذبت وأنك من جميع الملل خرجت تعين على اليهود والنصارى أن يشتموا في أمرك ويأتمروا في حرقك أو نحرك ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾².

ثم نقول هذا الصدى الذي وصفت وهو إله عندك كما زعمت، أهو الله تعالى رب العالمين وخالق السموات والأرضين أم إله غيره؟ فإن كان هو الله تعالى، فلم سميته الصدى؟ ولم جعلته واسطاً بين نفسه وبين خلقه؟ وهل هذا إلا محال، فإنه لا يتصور في العقل واسط لا بين اثنين ويكون الواسط ثالثاً.

ثم يلزمك على هذا أن تجعل ذات الباري، الرب تعالى، صوتاً حادثاً، فإن ذلك الصدى عندكم حادث. وهذا كله محال بضرورة العقل. وإن قلت إنه غيره فيلزم أن يكون ذلك الصدى هو المتكلم عن نفسه والمخبر بحقيقته. فإذا سمعه موسى يقول: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾³، فإما أن يخبر عن نفسه أو عن رب العالمين. فإن أخبر عن نفسه فهو كاذب، فإن الرب تعالى يكون إلهاً آخر³، وإن أخبر عن الرب، فلا شيء قلت أنه إله وأن موسى اعترف له بالربوبية وسجد له، بل الإله الحق رب العالمين والصدى ليس بإله ولا رب.

فقولك: "اعترف موسى بربوبيته وعبدته" باطل بالضرورة. ثم نقول: هب أن ذلك الصدى هو المتكلم عن الله، وأنه إله، فهل يقدر الله تعالى على أن يتكلم ويخبر عن إرادته بغير ذلك الصدى؟ فإن قلتم لا، فذلك تعجيز لله تعالى وهو القادر على كل شيء، ويلزم عليه أيضاً، أن يكون محتاجاً لذلك الصدى المحدث⁴، وكل من كان محتاجاً فهو ناقص

1- سورة الزمر، آية: 60.

2- سورة الرعد، آية: 34.

3- في خ/م: "فإن الرب تعالى إلهاً آخر".

4- كلمة "المحدث" ساقطة من المطبوع.

معيب، وليس بغنى. والله تعالى هو الغنى عن كل الموجودات، وليس لشيء من الموجودات عنه غنى، وإن كان قادرا على أن يسمع كلامه بغير واسطة، فلعل موسى سمعه بغير واسطة، وإذا جاز أن تسقط الواسطة، انهدم كل ما رُمّت بناءه، على أنا قد كنا هدمناه أولا في أوجر¹ لحظة بأيسر نفخة، وإنما أردنا أن نبين لك ولكل من وقف على كلامك بعض ما يلزمك، وأنت لم تشعر بشيء من ذلك، ولولا خشية التحويل لأوردت عليك من النقوض واللوازم ما يتعجب منه كل حبر نبيل.

ثم نقول: هب أنا نسلم جدلا أن الله تعالى تكلم مع موسى بواسطة الصدى، فلم قلت أن عيسى مثل الصدى أعني أنه واسطة؟ كما أن ذلك الصدى واسطة، وما الذي ذلك على ذلك؟ ولأي شيء سويت بينهما والفرق بينهما ظاهرا؟ وذلك أن الصدى الذي زعمت أن موسى سمعه، إنما سمعه موسى بعد أن احتجت له بالنار، كما زعمت، النار² جماد، وإذا قام بالجماد صوت يفهم منه: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فيمكن أن يعقل هنا غلط مثلك، أن المتكلم بذلك الصوت إما غير الجماد لاستحالة الإلهية عن الجماد، وإما حيوان ممكن أن يتوهم فيه أنه إله كما توهمتم أنتم في ذلك، فلا يصح ذلك فيه³ لأنه إذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فعن نفسه يخبر، وإليه يرجع حكم خبره بخلاف الجماد، فكيف قست أحد الواسطين على الآخر وليس في معناه؟ ولو أردنا تطويل الكلام لذكرنا فروقا آخر تمنع مقايضة النار بالبشر.

وأما قولك: "إن عيسى عليه السلام قال: أنا الله، وأن الحواريين صدقوه في ذلك فكذب صراح، وإفك براح"⁴، فإنه لم يرووا عنه عليه السلام ذلك القول⁵ بوجه صحيح، ولا بنص صريح، بل الذي صح منه ونُقل بالتواتر عنه أنه كان يقول: اعبدوا الله الذي لا إله إلا هو وأناجيلكم تشهد بذلك عليكم.

ثم نقول: لو ثبت أن عيسى قال ذلك اللفظ بعينه، لكان يسوغ⁶ حمله على محمل قويم

1- في ط: "أوجر".

2- في ط: "والنار".

3- في ط: "ولا يصح ذلك في الله".

4- في ط: "بواح".

5- في ط: "في ذلك أقوال".

6- في ط: "فمن الممكن يسوغ".

في العقول غير مخالف للمنقول، وهو أن عيسى عليه السلام كان محبا لله تعالى مستهترا¹ في محبته ومن عادة المشغوف بشيء المستهتر² به، أن يستحضر ذلك الشيء المستهتر³ فيه في قلب، ويجعله نصب عينيه حتى لا يلاحظ شيئا سواه، بل ربما ينتهي ذلك به إلى أن يذهل عن نفسه ويغيب عن حسه، ففي مثل تلك الحالة يظن المستهتر⁴ أن الشيء الذي شغف به هو هو حتى يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا⁵
وكذلك قال الآخر:

فكل شيء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى⁶،

وكذلك عيسى عليه السلام، لما انكشف له من سلطان الحقيقة أمر ما، غاب عن نفسه وفنى عن حسه، لما شاهد من جمال الربوبية والحضرة الإلهية، فذهل عن كل ما سوى الله، فقال: أنا الله، وهذه أمور عجيبة وأذواق غريبة لا يدركها إلا من اختاره الله من خلقه واصطفاه بحضرته. فـ "ليس بعشك قادرج".

وأما قولك لنا: "قد أوجبتم أن الخليفة لا تدرك الخالق إلا بجسم مخلوق تتخذه، ويجعله⁸ واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء، فقول باطل علينا، فاسد لدينا، فإننا قد أحلنا تلك الواسطة فيما تقدم بوجوه متعددة، وقد حكمنا بتكفير من أثبت واسطا

1- في ط: "مشتهرا". جاء في لسان العرب مادة هتر: الاستهتار فهو الوُلُوعُ بالشيء، والإفراط فيه حتى كأنه أهتر أي خرف. وفي الحديث: سبق المفردون؛ قالوا: وما المفردون؟ قال: الذين أهتروا في ذكر الله يَضَعُ الذِّكْرَ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَفَافًا؛ قال: والمفردون الشيوخ الهرمي، معناه أنهم كبروا في طاعة الله وماتت لذاتهم وذهب القرن الذين كانوا فيهم، قال: ومعنى أهتروا في ذكر الله أي خرفوا وهم يذكرون الله. يقال: خرف في طاعة الله أي خرف وهو بطيع الله؛ قال: والمفردون يجوز أن يكون عني بهم المتفردون المتخلون لذكر الله، والمستهترون المولعون بالذكر والتسبيح. وجاء في حديث آخر: هم الذين استهتروا بذكر الله أي أولعوا به. يقال: استهتر بأمر كذا وكذا أي أولع به لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره.

2- في ط: "المشتهر".

3- في ط: "المشتهر".

4- في ط: "المشتهر".

5- البيت للحلاج.

6- في خ/م: "الساق"، وهو تصحيف.

7- البيت لأبي نواس ويقول فيه: فكل كف رآها ظنها قدحا ... وكل شيء رآه ظنه الساقى.

8- في ط: "وتجعله".

على نحو ما زعمت، ولا أعلم أن أحدا من المسلمين قال شيئا من ذلك، بل ولا من أهل الملل غيرك.

ثم نقول: هذا الواسط الذي زعمت، لا يخلو أن يدرك الله تعالى، أعنى يعرفه ويسمع كلامه أو لا يدرك. فإن قلت: لا يدرك فقد شهدت على أنفسكم أن الواسط ليس بالله، إذ الإله لا بد أن يكون دراكًا، ويلزمكم على ذلك أن يكون عيسى لا يعرف الله تعالى ولا يسمع كلامه وهو محال.

وإن قلت: إنه يدرك الله تعالى، فهل يدركه بواسطة أو بغير واسطة؟ فإن أدركه بواسطة أخرى، فالكلام في تلك الواسطة كالكلام في الأولى ويلزم التسلسل، وإن أدركه بغير واسطة فيجوز لنا نحن أن ندركه بغير واسطة، وفي هذا إبطال ما ذكرت من إثبات الواسطة الذي ذكرت أن المسلم قد اضطر إليه.

وأما قولك: "إنما أوجبتم علينا¹ الشرك في قولنا بواسطة²، فإذا الحق والعقل لا يعيب الواسط"، فلتعلم³ أنا لم نوجب عليك الشرك من حيث الواسط فقط، بل من حيث أثبت واسطًا إلهًا⁴، وذلك أنك زعمت أن الصدى قال لموسى مخبرًا عن نفسه: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، واعترف له موسى بالربوبية، وتحمل عنه الرسالة وعبدته وسجده له. فهذا إثبات إله⁵ غير الله، وكذلك قلت في المسيح أنه قال:

أنا الله واعترف له الحواريون بالربوبية⁶، فهذان إلهان ثم إن الأقانيم ثلاثة آلهة، فصارت آلهتكم خمسة، فيا ليت شعري هذه الآلهة الخمسة، هل اشتركوا في إيجاد الموجودات واختراع الكائنات، أو انفرد بها أحدهم؟ فإن كان قد انفرد بها أحدهم فهو الإله الحق الواحد الفرد، وإن كانوا قد اشتركوا وتعاونوا على خلق المخلوقات، فلا معنى للشرك إلا هذا، ويلزم على تقدير اجتماعهم وتوافقهم على الخلق، أن يكون كل واحد منهم مضطرًا إلى مساعدة الآخر، وكل مضطر ناقص، والناقص ليس بآله. وإن قدرنا

1- في خ/م: "عليه".

2- في خ/م: "بواسطة".

3- في ط: "فلتعلم".

4- في ط: "إلهيا".

5- في خ/م: له.

6- في ط: "واعترف الحواريون له بالربوبية".

اختلافهم في الخلق بحيث يريد أحدهم أن يخلق ويريد الآخر أن لا يخلق، فيؤدي ذلك إلى أن لا يخلق أحدهم شيئاً، فلا يوجد الخلق وقد وجد الخلق، فدل ذلك على أن الإله واحد لا شريك له ولا إله غيره¹.

ثم نقول: عباد الأصنام والأوثان أشبه حالا منكم، لأنهم في عباداتهم إنما كانوا يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله زلفى، وأنتم إنما تعبدون هذه الآلهة لأنها أرباب من دون الله، متقربون منها. وهذه جهالات بينة وضلالات ظاهرة عميت عنها بصائرهم، فانطوت² عليها قلوبكم. وأعجب من ذلك كله قولك: الحق والعقل³ لا يعيب الواسط، أما من قال هذا فقد خرج عن غريزة العقل، وتاه في مفازة الجهل⁴، فإن العقل الصحيح⁵ يشهد بضرورته بإبطال الواسطة، وأما الحق فهذه كتب الأنبياء بين أيدينا وأيديكم، ففي أي كتاب منها أن الآلهة خمسة، بل⁶ تدل كلها على أن الإله واحد، ولا ولد له ولا والد ﴿وَمَا يَتَّبِعِ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾⁷ إن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا⁸ وسبق تقدم فتعلم، وأنتم قد اضطربتم في هذا الفصل، ولم يثبت لك فيه فرع ولا أصل، والتكثير⁸ مع من لا يعقل عمل من لا يحصل.

وأما قولك: "وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها"، فقد كان ينبغي لك ألا تحتج بشيء لم يثبت عندك أصله ولا تصدق بنقله، ثم لا حجة لك في شيء مما ذكرته، وذلك أن محاسبة الله

1- لأبي بكر الباقلاني في كتابه التمهيد قولاً شبيهاً بهذا حيث يستوحي دليله في إثبات أن الصانع للعالم واحد من قوله عز وجل: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ حيث يقول: "وليس يجوز أن يكون صانع العالم اثنين ولا أكثر من ذلك، والدليل على ذلك أن الاثنين يصح أن يختلفا ويوجد أحدهما ضد مراد الآخر فلو اختلفا وأراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته لوجب أن يلحقهما العجز". تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، القاضي أبو بكر الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة 1414هـ/1993م بيروت لبنان ص: 45.

2- في ط: "فأفطرت".

3- في ط: "العقل والحق".

4- في ط: "وتارة وقع في مفازة الجهل".

5- في ط: "الصريح".

6- في ط: "أنها".

7- سورة مريم، آية: 92-93.

8- في ط: "والكثير".

تعالى للعباد في الدار الآخرة مما يجب الإيمان بها، ومما قد تواردت عليه الشرائع إما بالتصريح وإما بالإيماءات والتلويح.

وذلك يكون ولا بد ولأجل مجازاة العباد بأعمالهم في الدار الآخرة، خلق الله الخلق، وبسط الرزق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾¹، ومحاسبة الله للخلق تكون على وجوه جائزة في العقل، وإرادة في النقل، لا تحتاج إلى شيء مما تخيلته منها، أن العبد يوقف في موضع الفصل والقضاء، فيعطى كتاباً أحصيت فيه أعماله، ويقال له: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾²، فإذا وقف عليها، علم أن المكتوب فيها هو أعماله، فإن كان سعيداً قال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرَيْبٍ فَقَالَ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا وَكَتَبْتَنِي ﴾³ إني ظننت أني ملقي حِسَابِيَّةٍ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾⁴ في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾⁵ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾⁶، وإن كان شقياً فيقول: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالٍ فَقَالَ يَلْبَسُنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِي ﴾⁷ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٍ ﴿ يَلْبَسُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴾⁸ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾⁹ عند ذلك يقال للملائكة: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾¹⁰ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾¹¹، فهذا وجه من وجوه المحاسبة، لا تحتاج معه إلى إثبات واسط، ويمكن أن يكون هنالك وجوه ممكنة في المحاسبة ليس هذا موضع ذكرها، ولا أنت أهل لفهمها، لا تحتاج في شيء منها إلى ما رُمت من الواسطة، فكأنني والله بك إن مت على ما أنت عليه يؤخذ بناصيتك وقدمك ويحيط⁶ بك ملائكة ربك، ﴿ مَلَكِكُهُ غِلَاطٌ

1- سورة المؤمنون، آية: 115.

2- سورة الإسراء، آية: 14.

3- سورة الحاقة، آية: 19-24.

4- سورة الحاقة، آية: 25-29.

5- سورة الحاقة، آية: 30-32.

6- في ط: "وتحيط".

شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ¹. فتنادي فتقول يا عيسى، يا سيدي، يا إلهي يا ولد الله، فيقول لك كذبت ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، ولست بإله ولم أقل لك كذلك، ولا أبلفتك ذلك، وإنما بلفتك أن لا إله إلا هو، وحده لا شريك له. فكيف ترى خجلتك بين يديه، وحيرتك إذا طلبت في نفسك جواباً تردده عليه، فذلك المقام لا ينفعك فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا ما قدمت يدك من حسن إيمان وصالح عمل، وسعادة قضت لك بها سابقة الأزل. فإن الملائكة والنبیین لا يشفعون إلا لمن ارتضى رب العالمين: قاله الله انظر في خلاص نفسك لتجتني ثمار غرسك.

وأما قوله²: يقول قرآنكم: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا³﴾، فلست لها فما شأنك وإياها، أنت لا تعرف لسان من خطب بها، ولا تعرف مضمونها⁴، فكيف يمكنك الاستدلال بها والتطواف حولها، وأنت عري عن الشرط الذي به يعرف معناها ويفهم فحواها، وليس مفهومها عند من خطب بها من العرب الفصحاء البلغاء على شيء مما ذكرت، ولا يقرب مما توهمت، بل معناها عندهم لا تخالفه العقول، ولا يخرج عن أسلوب لسان العرب المنقول، وإنما أكره أن أضافك به، لأنك فاقد شرطه. فإن كنت ممن ينور الله بصيرته ويحسن سريره، شرعت في أن تتعلم، ويجب علينا أن نفهمك حتى إن شاء الله تفهم.

وأما قولك في الإنجيل: "يقعد ابن الإنسان في مجلس عظمته ويقدم⁵ جميع الأمم بين يديه ويميزهم كما يميز الراعي الغنم" فنقول آمنا بالله وكتبه ورسله⁶، ومع ذلك فنعلم على القطع والثبات أن كل أمة تدعى يوم القيامة بإمامها، وتنادى بمعبودها وأنبيائها، فيتبع كل من كان يعبد الشمس، الشمس. ويتبع كل من كان يعبد الطواغيت، الطواغيت.

وإذا كان ذلك فلا بد لعيسى أن يجمع له كلا من لزمه اتباع شرعه، فحينئذ يميزهم كما يميز الراعي الغنم، فمن آمن به وانتبه على النحو الذي رسم له، فهو من الفائزين ومن اعتقد فيه أنه إله، أو ابن إله، فالنار مأواه، بعد أن يتبرأ عيسى من دعواه.

1- سورة التحريم، آية: 6.

2- في ط: "قولك".

3- سورة الفجر، آية: 22.

4- في ط: "مضمونها".

5- في ط: "وتقدم".

6- في ط: "آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله".

وأما قولك: "وإذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة، فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس"، فهذا لا يلزم منه شيء مما ذكرت، فإننا إذا قلنا أن الله تعالى ليس مدركا بالحواس، فإنما يريد¹ به أن الله ليس مدركا بالحواس كما تدرك الأجسام والألوان، فيكون محاطا به فيكون ذا حدود وأقطار وذلك محال.

وإذا قلنا إن الله تعالى مرئي² في الدار الآخرة، إنما نريد به أن الله تعالى يخلق لنا إدراكا آخر لا تناسب حاله إدراك الأجسام، ولا الألوان. فإن الإدراكات مختلفة باختلاف متعلقاتها، وذلك إدراك خاص له حكم نفسه، لم نذق³ منه ذوقا في هذه الدار، فإنه إنما يكرم الله به أصفياه وأوليائه⁴ يوم القيامة.

وإذا أنعم الله⁵ على وليه بذلك الإدراك المعبر عنه بالرؤية، خلق له من اللذة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإن أنكرت أن يرى ما ليس بجسم ولا لون، فلتتكر أن يعلم موجودا ليس بجسم ولا عرض، وإن زعمت أن الرؤية غير جائزة عقلا، فقد جهلت موسى حيث سأل الله ما يستحيل عليه، فكيف جهل موسى من وصف الله، ما علمه جاهل مثلك.

وأما استشهادك بحديث نبينا عليه السلام على رؤية ذي الجلال والإكرام، فأنت ممنوع منه لإعراضك عنه، وهو من عبدنا⁶ على إثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة لكوننا عالمين بحقه ودليل صدقه.

ثم إنك نقلت ذلك الحديث فأجحفت، وبالمعنى أخللت، وإنما صوابه: "إنكم ترون ربكم ولا تضامون⁷ في رؤيته إلا كما تضامون⁸ في رؤية القمر ليلة البدر"⁹ وهذا لا حجة لك

1- في ط: "نريد".

2- في ط: "يرى".

3- في ط: "يذق".

4- في ط: "أوليائه وأصفياه".

5- في ط: "تعالى".

6- في ط: "عبدنا".

7- في ط: "تضاهون".

8- في ط: "تضاهون".

9- روى البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: "وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة" قال: "حدثنا عمرو بن عون حدثنا خالد وهشيم عن إسماعيل عن قيس عن جرير قال كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر

فيه، فإنني¹ نقول: إن الله تعالى هو المرئي لا غيره بالأبصار في الدار الآخرة على ما تقدم، وأنتم تقولون: إن المرئي الواسطة. وهذا الحديث يعرف معانيه أهله، وهم الذين يصدقون برسالة من هو قوله، فلا تطمع في معرفته فإنك لست أهلاً لداريته.

وأما قولك: "لم تتكروا أن يكون المسيح هو المقبل مع الملائكة"² كما قال عنه قرآنكم: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾³، فكيف لا تتكرر⁴ ذلك، ولم يدل على وقوعه دليل عقل ولا صحيح نقل، وليس معنى الإتيان في هذه الآية إلا كالمجيء في الآية المتقدمة، وكلاهما ليس المراد به المجيء الذي هو نقل الأقدام، بل المجيء والإتيان لهما معان آخر يعرفها العرب المؤمنون.

وهذه الآية فيها محذوف تفسره آية أخرى، تقديره هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾⁵، فقد ذكر في هذه الآية ما حذف هنالك، وهذا على المعروف في لسان العرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك الكلام على الآية الأولى، وهذا لا خفاء به عند البصير بلسان العرب، فإنها تستعمل الحذف والإضمار والمجاز والاختصار، ثم مالك ولكتابنا، ولأي شيء تشد ضاللتنا، "دعها معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها"⁶.

لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا^{*}

1- في ط: "فإننا".

2- في ط: "لم تتكروا أن يكون المسيح الذي كان واسطاً للوعظ أن يكون هو المقبل مع الملائكة".

3- سورة البقرة، آية: 210.

4- في ط: "تتكرر".

5- سورة النحل، آية: 33.

6- العبارة مقتبسة من الحديث الشريف الذي رواه البخاري في حديث ضالة الإبل: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ رَبِيعَةَ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ، مَوْلَى الْمُتَنِيعِ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ جَاءَ أَعرَابِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَمَّا يَلْتَقِطُهُ فَقَالَ "عَرَفَهَا سَنَةً، ثُمَّ أَحْفَظُ عِفَاصَهَا وَوَكَاةَهَا، فَإِنْ جَاءَ أَحَدٌ يُخْبِرُكَ بِهَا، وَالْأَفَاسَتْفَقَهَا". قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَضَالَةٌ الْغَنَمِ قَالَ "لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّئْبِ". قَالَ ضَالَّةُ الْإِبِلِ فَتَمَعَّرَ وَجْهَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ "مَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ". كتاب اللقطة باب ضالة الإبل.

ألق السلاح فلست من أكفائنا

واقعد مكانك بالحضيض الأسفل.

ثم نقول من عجيب أمر هذا السائل، أنه لا يصلح أن ينسب لمقلد ولا ناقل، وذلك أن هذا المذهب الذي أبداه من اتخذ¹ الله واسطة صوت الصدى، إنما حملة عليه تقليده لكتاب أغشتين، وذلك أنه أشار في مصحف العالم الكائن إلى نحو مما ذكره هذا السائل، ولعله وقف عليه ولم يفهمه صحيحا، ولا أورده فصيحاً، بل زاد عليه كلاماً فاحشاً قبيحاً، وإنا إن شاء الله تعالى أذكر كلام أغشتين في الفصل الذي بعد هذا، وأبين فيه أنه ليس كما فهمه هذا السائل، ثم أعطف على أغشتين بتبيين فساد مذهبه وأوضح أنه غير مصيب في مطلبه، وأحقق فيه أن أغشتين مخالف لغيره من القسيسين.

1- في ط: 'اتخاذ'.

الفصل الخامس

في حكاية كلام المتقدمين

[منهم في الاتحاد وبيان اختلافهم فيه]¹

لتعلم أيها الناظر في هذا الباب، أن النصارى قد كثر اختلافهم، وعظم خبطهم وارتباكهم، فلا يستقرون² فيه على قدم، ولا يمشون منه على طريق أمم، فقليل منهم من نفى الاتحاد والحلول، ولم يقل بشيء من ذلك، وهم طائفة متقدمة يعرفون بـ الأرمنية، ولا يكاد مذهبهم يخالف مذهب المسلمين، إلا في إنكارهم نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وجمهورهم على القول به وإثباته، ثم المثبتون له، منهم من قال: لا يقال فيه "كيف"³ ولا يسأل عنه بحرف، ومنهم من شرع في بيان كيفيته، وتفسير ماهيته، فصارت اليعقوبية والنسطورية إلى أن الكلمة خالطت جسد المسيح ومازجته، كما يمازج الخمر اللبن، وإلى نحو هذا ذهب الروم وزاد⁴ عليهم فقالوا: اختلطت الكلمة بالمسيح، فصارا شيئاً واحداً.

ولقد حكى من كلام اليعقوبية⁵، ما يدل على توقعهم وجراتهم على الله تعالى، وذلك أنهم قالوا: إن الله نزل فدخل في بطن مريم، فاتخذ من لحمها جسداً، فصار الله مع الجسد نفساً واحدة⁶.

وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ اللحم⁷ والدم، فزاده في نفسه فصار ذلك اللحم الله. وأما النسطورية فقالوا ليست تلك النفس هي الله، وإنما هي بعضه، وهذا هو

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط.

2- في ط: "فلا هم يستقرون".

3- في ط: "بكيف".

4- في ط: "وزادوا".

5- في خ/م: "الملكية"، وهو خطأ لأن القائلين بأن الله هو المسيح بن مريم هم اليعقوبية.

6- في ط: "واحدة".

7- في ط: "الله اتخذ ذلك اللحم".

البهتان الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل إنسان، وصار معظم اليعاقبة، إلى أن الكلمة انقلبت لحما ودما.¹

وصارت طائفة من النصارى إلى أن الكلمة حلت جسد المسيح، كما يحل العرض محله، وصار أخلاط من النصارى إلى أن المراد: بالإتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت وربما عبروا عن ذلك بالفيض.²

ثم اختلفوا في تمثيل ذلك على ثلاثة أوجه: فمنهم من قال مثاله ما ينطبع في الأجسام الصقيلة³ من الأشياء التي تقابلها، ومنهم من قال: مثاله الطابع المنقوش إذا اتصل بشمع وما يضاهيه، فيظهر نقش الطابع عليه وإن لم يحله شيء من الطابع. ومنهم من قال: معنى ظهور اللاهوت على المسيح، كمعنى استواء الإله على العرش عند الإسلاميين مع مصيرهم إلى استحالة الماسة والمحادات.⁴

وربما يعبرون عن الإتحاد بالتدرع كأنهم أخذوا ذلك من لفظ الدرع، يشيرون إلى أنا اللاهوت اتخذ ناسوت المسيح درعا.

هذه مذاهب المشتهرين من طوائفهم. وأما اختلاف آحادهم فمما لا يكاد ينضبط ولا يرتبط، ومن أراد الوقوف على شيء من ذلك فليطالع كتاب المسائل لهم ففيه يرى تحريرهم وخطبهم.

ونفرد بعد هذا إن شاء الله بابا نذكر فيه كلام أغشتين فإن مذهبه في الإتحاد مخالف لمذهب من تقدم ذكره من الفرق والقسيسين.

الجواب عن كلامهم. أما من حكى عنه نفي الإتحاد فقد قال بالحق وأتى بالمراد. وأما من أثبته وقال إن الإتحاد لا يسأل عنه ولا كيف، فنقول: معنى الإتحاد لا يخلو أن تعرفه أو لا تعرفه، فإن لم يعرفه فقد اعترف بجهله وناقض متقدم قوله، فإنه اعترف بالإتحاد وادعى ثبوته للمسيح وحده، ثم لما طولب بتثبيته قال: لا أعرفه، وهذا تناقض وقول باطل

1- في ط: "وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ اللحم والدم فزاده في نفسه فصار ذلك اللحم الله. وصار معظم اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحما ودما، وأما النسطورية فقالوا ليست تلك النفس هي الله وإنما هي بعضه وهذا هو البهتان الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل إنسان. وصارت طائفة من النصارى...".

2- في ط: "وربما عبروا له عن ذلك بالفيض".

3- في ط: "الصقيلة".

4- في ط: "المحادات ساقطة من المطبوع".

وأما من قال أعرفه إلا أنني¹ يقصر عن إدراك حقيقته عقلي، ولا أقدر على العبارة عنه، وهذا كما قلتم أنتم في جوابكم عن كيفية سماع موسى كلام الله تعالى، حيث قلتم إنه لا يسأل عنه بكيف، فإنه ظلم وحيف، فنقول: أما قولك: أعرفه إلا أنه يقصر عقلي عن إدراك حقيقته فمتناقض أيضا، لأن كل معروف لا بد أن يرتسم في العقل، ويحصل فيه على الوجه الذي يكون معروفا منه، فإما على الجملة، وإما على التفصيل، وما لم يرتسم في العقل لا جملة ولا تفصيلا، فليس بمعلوم. وأنت إذا ادعيت أنك عالم بالإتحاد، فلا بد أن تكون عالما به، إما على الجملة أو على التفصيل، وكيفما كان، فلا بد لك من أن تعبر عن معلومك على أي وجه كان، وإلا فأنت جاهل بالإتحاد، ومن جهله كافر عندكم، وأما تشبيهك هذا بكيفية سماع موسى فليس بصحيح، لأننا مهما قيل لنا كيف سمع موسى كلام الله، فإنما نسأل عن أمر لم نعلمه علم ذوق وعن تفصيل، ما لم تعلمه² تفصيلا بل علمناه على الجملة.

ولذلك أجبنا بقولنا: إن الله تعالى خلق له إدراكا سمع به كلام الله تعالى الذي هو وصفه الذي ليس بحرف ولا صوت، ففهمنا الإدراك على الجملة، ولم نفهمه على التفصيل، وأنت لم تعرف الإتحاد جملة ولا تفصيلا، بل جهلت وادعيت أنك علمت، ف﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾³.

وأما من قال إن الكلمة خالطت جسم المسيح ومازجته مازجة الخمر اللبن، فكلام فاسد، قائله للعقل فاقده، وذلك أن المفهوم من المخالطة والمازجة لا يتصور إلا في الجواهر المتحيزات⁴، وذلك إن المخالطة إنما يعبر بها عن تجاوز الجواهر واجتماعها، بحيث يكون كل واحد من الجواهر المتمازجة يحفظ حيزه ويشغله ويمنع منه غيره.

ولذلك إذا أفرغت إناء ماء على لبن مثلا وتمازجا، كثر اللبن وصار لا يسعه بعد الممازجة [إما كان يسعه قبل الممازجة]⁵، والعلم ليس بجوهر فاستحال عليه الاختلاط والامتزاج بالضرورة.

1- في ط: "أنني".

2- في ط: "تعلمه".

3- سورة البقرة، آية: 111، وسورة النمل، آية: 64.

4- في ط: "المتحدات".

5- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط.

فإن أرادوا بالامتزاج والاختلاط أمرا آخر، فلا بد من بيانه وإفادة تصوره، ولا يتكلم على الشيء ردا وقبولا، إلا بعد كونه معقولا، ولو سلمنا المازجة جدلا للزم عليها أنواع من المحالات، منها قيام الصفة بنفسها وانتقالها، وبقاء جوهر الله تعالى عريا عنها، على قولهم والعري عن العلم جاهل، والجهل على الله محال، ويلزم على ذلك أن لا يكون العلم أزليا بل حادثا، مخلوقا [ولأن حاله تغيرت وذلك بعد أن لم يكن مختلطا ممتزجا مختلطا]¹.

وهذان أمران حادثان ولا يخلو عن أحدهما، وما لا يخلو عن الحوادث حادث على ما يعرف في موضعه، وهذه أمور باطلة فالمفضي إليها باطل وهو الاختلاط.

وأما من قال بالحلول فليس له محصول ولا معقول، لأن حقيقة الحلول إنما هي أن يحصل جسم أو متحيز في شيء أو على شيء، فيسمى الحاصل حالا والمحصول فيه يسمى محلا، وتسمى النسبة بينها² حلولا، وهو الذي يسميه النحوي مصدرا هذا هو المفهوم من حقيقة الحلول.

وقد يتوسع فيه فيقال: حل العرض في محله، ومعناه صار المحل متصفا به، وصار العرض قائما به وموجودا فيه. فإن أردتم حقيقة الحلول كان محالا، فإن العلم ليس بجسم ولا جوهر على ما مر.

وإن أردتم الثاني، فهو محال أيضا لأنه يلزم عليه مفارقة العلم الجوهر وبقاؤه جاهلا، ويقوم عرض واحد بمحلين في زمان واحد، ويلزم عليه انتقال الصفة من محل إلى محل وحدوثها، إلى أنواع من المحالات لا يبيء بها عاقل ومنتحلها أحمق جاهل.

وقد صرحوا بأنهم أرادوا بالحلول حلول الجوهر في العرض، وقد صرحنا نحن بما يلزمهم من المحالات على ذلك وبيناه والحمد لله.

ثم نقول لهم بعد ذلك في قولهم بالاختلاط وبأنهما صارا شيئا واحدا، لا يخلو أن حين اختلطا إما أن يبقى العلم موجودا بحاله، والجوهر موجودا بحاله، أم ينعدم أحدهما أو ينعدم معا.

محال أن يبقيا موجودين بحالهما مع فرض الاختلاط وكونهما شيئا واحدا، فإن الواحد لا يعود اثنين إلا بإضافة غيره إليه، وإذا أضيف غيره إليه ارتفعت الوحدة

1- في ط: "وأن حاله تغيرت وبعد أن لم يكن مختلطا ممتزجا مختلطا".

2- في ط: "بينهما".

بالضرورة على ما تقدم في التثليث، وكذلك الاثنان لا يعودان واحدا إلا إذا انعدم أحدهما، فترتفع الإثنية بالضرورة، ومحال أن يعدم¹ فإنه يؤدي إلى عدم القديم وإلى عدم ما هو موجود في حالة وجوده، فلم يبق إلا أن ينعدم أحدهما دون الآخر، وذلك محال فإن الموجود لا يخالط المعدوم ولا يمازجه بل يبقى الواحد واحدا.

وإذا بطلت هذه الأقسام المنحصرة بطل الامتزاج والاختلاط، ويصير² الاثنان واحدا على ما قالو.

وأما من قال إن الكلمة انقلبت لحما ودماء، فلقد ارتكب حماقة، والتزم عما³ يلزمه عليه جواز عكس مذهبه، وهو أن يتقلب⁴ اللحم والدم علما، والقديم حادثا، والحادث قديما، إلى غير ذلك من المحالات التي لا تصدر عن من شد أطرافا⁵ من المعقولات، ولولا الحق والتقليدات، لما وجد مثل هذه النواقح⁶ في كلام أحد من المخلوقات.

وأما من قال إن الإتحاد هو ظهور وفيض، ومثله بانطباع الصور في المرأة، فهذا المثال إنما كان يصح لو كان العلم صورة محسوسة بالبصر، ويكون جسد المسيح صقيلا تنطبع فيه صورة المقابلات، وكل ذلك معدوم في مسألتنا بالضرورة، فتخيله فاسد وباطل بالضرورة، فكما لا تتمثل ذات الحياة والادراكات في المرأة، كذلك لا تتمثل الكلمة في جسد المسيح، ثم إن جاز انطباع علم الله في جسد البشري، فليتنطبع في كل ما يشبهه في الجسدية، وسيأتي لهذا مزيد بيان وفيما تقدم ما يبين فساد واستحالة.

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا في الشمع، فيلزم عليه أمران أحدهما: أن الناتئ⁷ من النقش في الخاتم يعود منحفرا في الشمع⁸، والمنحفر في الخاتم يعود ناتئا في الشمع، وذلك⁹ لا يتصور إلا في الأجسام، وإن جاز في غير الأجسام فيلزم أن يكون كل

1- في ط: "ينعدم".

2- في ط: "مصير".

3- في ط: "عمى".

4- في ط: "ينقلب".

5- في ط: "أطرافا".

6- في ط: "الفواقح".

7- نأ الشيء نأنا نأنا ونؤنا: انتبر وانتفع. وكل ما ارتفع من ثبت وغيره، فقد نأ، وهو ناتئ.

8- ما كتب بين المعقوفتين ساقطة في ط.

9- في ط: "فذلك".

واحد منهما أعنى: اللاهوت والناسوت، يؤثر في الآخر ويحل فيه، فيكون الناسوت حل في اللاهوت، وذلك محال عند كل فريق. والأمر الثاني أن النقش في الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ثم تنطبع مستقيمة [في الشمع، ولو وضعت في الخاتم مستقيمة¹، لانطبع في الشمع منعكسة، فيلزم على مساق هذا المثال أن تنطبع الكلمة في الناسوت إما بالاستقامة أو بالعكس، فإن انطبع فيه بالاستقامة فأقوم الكلمة في الجوهر بالانعكاس، وإن انطبع فيه بالانعكاس فلم تبق الكلمة في الناسوت على حقيقتها في اللاهوت، بل هي منعكسة فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت، بل هي ليس بعلم. وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ومتحكما²هم الباردة.

وأما من لبس منهم بأن مثل قولهم في الإتحاد بقولنا في استوائه تعالى على العرش، فذلك مما لا يقال عليه عندنا اتحاد ولا حلول، ولا فيض ولا انطباع، لأننا نريد بقولنا هو على العرش مستوي³، واستوى على العرش أن العرش تحت قبضته، ومسخر بقدرته، والاستواء عليه إنما هو بمعنى الاستيلاء على ما يعرفه العرب من كلامها فإنها تقول:

قد استوى بشر على العراق
بغير سيف ودم مـهـراق⁴.

فإن أراد⁵ هذا المعنى فهو حق وصحيح، لكنه لا يصح في حق عيسى وحده، فإن الله تعالى مستول على عيسى وعلى غيره، وأما من أطلق منهم لفظ التدرع⁶ فيستحيل على

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- في ط: "تحكما²هم".

3- في ط: "مستو".

4- البيت للشاعر النصراني الأخطل، وهو بيت يستدل به المعتزلة للتدليل على تأويلهم لقوله تعالى استوى على العرش بالاستيلاء، والمؤلف هنا يتبنى رأي المعتزلة لا الأشاعرة في تفسير قول الله تعالى: استوى على العرش. ولقد لعن ابن حزم من يحتج بهذا البيت الشعري في رده على اعتراضاته للمرجئة في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل. "ملعون ملعون قائل هذا البيت وملعون ملعون من جعل قول هذا النصراني حجة في دين الله عز وجل وليس هذا من باب اللفظ التي يحتج فيها بالعربي وإن كان كافراً وإنما هي قضية عقلية فالعقل والحس يكذبان هذا البيت وقضية شرعية فالله عز وجل أصدق من النصراني اللعين إذ يقول عز وجل: "يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم" فقد أخبر عز وجل بأن من الناس من يقول بلسانه ما ليس في فؤاده بخلاف قول الأخطل لعنه الله أن الكلام لفي الفؤاد واللسان دليل على الفؤاد فأما نحن فنصدق الله عز وجل ونكذب الأخطل ولعن الله من يجعل الأخطل حجة في دينه وحسبنا الله ونعم الوكيل". الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل، الطبعة الثانية، 1416هـ/1996، ص: 261.

5- في ط: أرادوا.

6- في ط: "التدرع".

الحقيقة والتوسع؛ وذلك أن هذا اللفظ يشعر بأن اللاهوت اتخذ الناسوت درعا أو كالدرع، وهذا كله مستحيل على الإله تبارك وتعالى وعلى علمه. وكل ما تقدم من المحالات على هذا المذهب يلزم.

وعلى الجملة، فهؤلاء القوم أغبياء جاهلون، وعن التوفيق معزولون، فهم عن المعقولات معرضون، وبها مستهزون، لا يستحيون من خالقهم ولا يتأدبون مع مآكلهم ورازقهم، فسبحان الله عما يقول الجاهلون، وتعالى عما ينسبه إليه المبطلون، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ¹ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ².

ولولا ضرورة الحال، ورجاء قمع أهل الضلال، لما استجزت حكاية مثل هذا المقال، وأنا أستغفر الله ذا العظمة الجلال إنه ذو العفو والأفضال.

ولا بد مع ما تقدم أن نطالبهم أجمعين بصحة الدليل الذي حملهم ³ على ذلك القول الفث الهجين، حتى نتبين تحكماهم وتظهر لكل أحد ترهاتهم.

فأقول لجميعهم ما الذي حملكم على القول بالإتحاد والتورط في الضلال والإلحاد، فلتعلم أنهم قد اختلفت مسالكهم في ذلك، فمنهم من قال: إنما قلنا بذلك تقليدا للإنجيل، وحذرا من المخالفة والتبديل، كما قال هذا السائل. ومنهم من قال: إنما قلنا بالإتحاد لأن عيسى ظهرت على يديه ⁴ أفعال لا تتبغي إلا لإله، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، وهذه أفعال لا يقدر عليها إلا إله، وهو قد قدر عليها فهذا إذن الإله ⁵. ومنهم من قال إنما صرنا إلى ذلك لكون عيسى لم يخلق من الماء الدافق الكائن عن أبوة، ولا خرج عن شهوة آدمية، بل خلق الله ناسوته، من غير أب ليكون واسطا بينه وبين خلقه، وليتخذ له كلمته، وربما قال بعضهم الستم تقرأون في كتابكم: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ⁶، وهذا عين ما أنكرتم علينا من الإتحاد، فإن عيسى رسول الله وكلمته ألقاها وروح منه ⁷، فناسوته رسول الله، ولاهوته كلمة الله على ما أخبر به كتابكم.

1- سورة الإخلاص، آية: 3-4.

2- في ط: "جعلهم".

3- في ط: "ظهرت عليه".

4- في ط: "فهو إذن إله".

5- سورة النساء، آية: 171.

6- ما كتب بين المعقوفتين ساقط في ط.

فنقول: لمن قال بذلك تقليدا للإنجيل. جوابك قد تبين فيما تقدم، إذ قد تقدم أن فهم الإتحاد منه بالمسيح باطل، وأن الصائر إلى الإتحاد بعد الوقوف على ما تقدم معاند جاهل.

وأما من استدل منهم على ذلك بما ظهر على يدي المسيح من خوارق العادات، فنقول له لأي شيء قلت أنها تدل على إلهيته¹، ولم تقل إنها تدل على ما كان يستدل هو بها من رسالته، [فقد حُكي في الإنجيل أن عيسى لما دعا الله ليحيي أليعازر ومعه جماعة من الخلق]² فقال: "رب أعلم أنك تعطيني كل شيء ولكن أقول من أجل الجماعة الواقفة ليؤمنوا به وليصدقوا أنك أرسلتني"، فهو قد استدل بإحياء الموتى على رسالته، وأنتم تستدلون بذلك على إلهيته، فيلزمكم³ من هذا الاستدلال العدول عن شرع عيسى المنقول، ومصادمة العقول.

ثم نقول لهم كيف ينبغي لكم أن تقولوا: هذه الأفعال العجيبة تدل على أنه لاهوت، وأنتم تعززون في كتبكم أن عيسى كان إذا أراد أن يفعل شيئا مما ذكر، تضرع إلى الله ورغب إليه بخضوع وتذل، حتى يقضى الله حاجته. وهذا موجود في كتبكم كثيرا فيها.

وكفى دليلا على نفي ما تسبونه إليه قوله حين صلبه بزعمكم: "إلهي إلهي لم أسلمتني"⁴، وقوله قبل ذلك: يا أبتاه إن كانت هذه الكأس لا تقدر تجاوزني حتى أشربها فلتكن إرادتك وهذا كله في سجوده.

وفي هذا الموطن قال: "يا أبتاه إن كان ممكنا فلتذهب عني هذه الكأس"⁵.

وفي إنجيل يحيى⁶ أنه قال في هذا المقام: "سيلقى ابن الإنسان ما كتب له"⁷، ثم قال بعد ذلك: "يا أبتاه إنك قادر على جميع الأشياء فرج عني هذه الكأس"⁸، فهذا كله يدل دلالة لا شك فيها أنه كان يفعل ما يفعل بإذن الله إذا أراد وأقدره عليه.

1- في ط: "الوهيته".

2- ما كتب بين المعقوفتين ساقطة من ط.

3- في ط: "الوهيته فيلزم".

4- متى 27: 46.

5- متى 27: 46.

6- في ط: "ماركوش".

7- مرقس 14: 21.

8- مرقس 14: 36.

وأنه إنما كان يتفق له ذلك بعد أن يتضرع ويرغب لله تعالى، وربما كان يسأل أموراً لا يعطيها الله له لما سبق في علم الله أنها لا تكون.

منها: ما تقدم حيث سأل الله أن يدفع عنه أمر الصلب والقتل، فلم يجب لذلك على زعمكم. ومنها أن اليهود كانت تطلبه¹ بمثل بعض معجزات موسى بن عمران فلا يجيبهم بشيء، وسيأتي لهذا مزيد [بيان في باب النبوات وأعجب من ذلك كله أن في إنجيل يحيى]² أن عيسى قال لليهود: "لست أفعل من ذاتي شيئاً، لكنني³ أحكم بما أسمع لأنني لست أنفذ إرادتي بل إرادة"⁴ الذي بعثني"⁵. إلى ما في كتبكم من هذا الذي قد عميت عنه، ولم تسمعوا حرفاً منه، فتارة ينبهكم على وجه الاستدلال، وأخرى يصرح بالمقال، وتارة يسأل فيعطى ويجاب، وأخرى يسأل فلا يرد عليه جواب، وحيناً يتبرأ من مشيئته، وأخرى يعترف بزلته وعبوديته⁶. ثم هؤلاء القوم مع ذلك يقولون هو إلهاً ومحييناً وخالقنا، فهؤلاء بكم⁷ كالأنعام وصم كالأصنام: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾⁸.

ثم نقول إن كان إحياء الأموات يدل على الإلهية⁹، فلا شيء لا تقولون إن اليسع والياس¹⁰ كانا إلهين وأنه حل بناسوتهما اللاهوت؟ وشأنهما في إحياء الموتى لا يقدر أحد على دفعه ولا يخفى¹¹.

ولم لا تعتقدون إلهية¹² النبي حزقيال، إذ فر قومه وهم ألوف حذر الوباء، فأماهم الله ثم جاءهم نبيهم فقال لهم: "لتحيوا بإذن الله، فحيوا ورجعوا إلى قومهم سحنة الموت على وجوههم حتى ماتوا بآجالهم"¹³. وهذا معروف عندهم ولا مدفع فيه.

1- في ط: "تطلبه".

2- ما كتب بين المعقوفتين ساقط في ط، وجاء مكانه: "ودليل ذلك من الإنجيل".

3- في ط: "لكنني".

4- في ط: "بل إرادة الله الذي بعثني".

5- يوحنا 5: 30.

6- في ط: "وحيثما يتبرأ من مشيئته ويعترف بزلته وعبوديته".

7- في ط: "فهؤلاء يكونون بكم كالأنعام".

8- سورة النساء، آية: 78.

9- في ط: "الالهية".

10- في ط: "إلياس واليسع".

11- الملوك الأول 17، الملوك الثاني 13.

12- في ط: "الوهية".

13- حزقيال 37.

وان أنكرتم وجود شيء من ذلك، نزلنا معكم إلى ما في الكتب القديمة من قصص الأنبياء وكتبهم، وهذا لازم لهؤلاء القوم لا ينفك عنه واحد منهم أبدا.

ثم من عجيب أمر هؤلاء القوم أنهم يزعمون أن عيسى عليه السلام أيد نفرا من الحواريين بإحياء الموتى، وجعلهم رسلا إلى الأجناس، فأحيوا الموتى بزعمهم¹، فما الذي أوجب أن يكون المسيح في حال إلهيته²، قد أيد بذلك بشرا وجعله رسولا إلى الأجناس كما زعموا؟ وما الذي منع أن يكون الله عز وجل يؤيد بذلك بشرا ويجعله رسولا إلى الناس؟ فإن كان المسيح من أجل أنه أحيى ميتا هو الله، فكل من أحيى ميتا من الحواريين وغيرهم هو الله، ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته، فإنهم يعارضون بمثل ذلك في حق غيره من الأنبياء عليه السلام ويدعي ألوهيته، فلا يجدون فصلا بينهم وبين من يعارضهم.

وأما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب، فيلزمه أن يعترف لآدم بالإلهية³، فإنه لم يخلق من نطفة أب، بل إنما خلق من تربة أرض، ثم نفخ فيه من روحه، كما فعل بعيسى عليه السلام⁴، خلقه من نفخة الملك فعلقت بلحمة مريم فتشأ منها وفيها، فتربه بمنزلة لحمه ونفخه بمثابة نفخه، وهذا مالا مخلص منه ولا خروج عنه، [ثم أكرمه]⁵ الله تعالى بأنواع من الكرامات لم يكرم بها غيره، منها: أنه أسجد له ملائكته وأعلمه بما لم يعلمهم، حتى جعله رسولا إليهم، وكفى بهذا شرفا إلى ما هنالك من خصائصه ومن فضائله.

بل لو أمكن لأحد أن يقول: إن بشرا يتصور أن يكون إلها لكونه من غير أب، لكان آدم أولى بذلك من حيث إنه لم تشتمل عليه أضرار الرحم، فقد شارك المسيح في كونه من غير أب، وزاد عليه أنه من غير أم، لم يتكون في ظلمة الرحم ولم يتلطخ بدم الطمث، ولا خرج من مجرى البول، هذا مع الاعتراف بأن ذلك كذلك، ولم يختلف في ذلك أحد، أعنى: في أن آدم مكون مخلوق من غير أبوين.

وقد خالفتمكم اليهود لعنهم الله، في كون إلهكم المسيح من غير أب، وأطلقت القول على مريم البتول المبرأة عند الله مما قالوا بما قد علمتم، فلعنهم الله وغضب عليهم فلقد كذبوا.

1- متى: 10: 8.

2- في ط: "ألوهية".

3- في ط: "بالألوهية".

4- في ط: "النفخة ساقطة".

5- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

وانما أسمعتمكم هذا لتعلموا أنا نعرف ما قالت اليهود لعنهم الله في عيسى وأمه عليهما السلام، وأنا ننزههما عما قال فيهما المبغضون لهما، والمحبون القالون فيهما، فما أجمل بكم لو شاء الله توفيقكم، أن لو قلتم فيهما الحق الذي ينبغي لهما، أن الله جعل عيسى وأمه آية للناس هو عبدا ورسولا وأمه صديقة مباركة.

ثم نقول للمستدل بما تقدم، يلزمك على استدلالك أن تكون حواء أم البشر إلها، فإنها لم تخلق من أبوين، ولا من نطفة وانما خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم، لم تتكون في ظلمات الرحم ولا نشأت بين الأقدار والأوصار، وخلقها من ضلع آدم كخلقها من تراب ولا فرق، ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾¹.

وأما استدلالهم بما في كتابنا من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، فلا حجة لهم في ذلك لوجوه:

أحدها أنهم لا يصدقون بكتابنا فلا يستدلون به على شيء.

والثاني أنهم إن استدلوا على غرضهم بشرط هذه الآية، فإن صدرها يرد عليهم استدلالهم، وكذلك الآيات التي بعدها، قال الله تعالى في كتابه العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^٢ تَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿مُخَاطَبًا لَهُمْ وَرَدًا عَلَيْهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خِمْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾².

1- سورة يس، آية 82.

2- سورة النساء، آية: 171-173.

[[الزام آخر يعمهم]]¹: نقول لهم حين صار أقتنوم العلم لعيسى كيفما صار، هل بقى الرب تعالى كما كان قبل ذلك أو اختلفت حاله؟ فإن بقى² كان كما كان قبل، فلم يصير لعيسى منه شيء، وأيضا فلو صار إليه بعض أقانيمه، لبقى ناقص الأقانيم وتبطل إلهيته³، فإن حقيقته عندهم واحد ثلاثة أقانيم، وأما إن اختلفت حاله فيلزم عليه أن يتغير⁴ من العلم إلى الجهل، ومن القدم للحدوث، وهذا كله على الله⁵ محال ومرتكبه في بحبوبة الضلال.

إلزام آخر: نقول لهم حين صار أقتنوم العلم لعيسى، فهل بقى الباري تعالى عالما بذلك الأقتنوم أم بغيره، أو غير عالم؟ باطل أن يقال غير عالم لاستحالة الجهل عليه، وباطل أن يقال بقى عالما بذلك الأقتنوم، إذ لو كان ذلك للزم منه ألا يصير إلى عيسى، ويلزم منه أيضا أن يكون علم واحد يقوم بمحلين، ولو صح ذلك يصح أن يكون الواحد منا موصوفا بنصف علم، وذلك محال. فإن العلم الواحد لا يتبعض ولا ينقسم، إذ العلم الواحد⁶ إنما يعقل في محل واحد، بمعلوم واحد، في زمان واحد، فيما يقبل الزمان والتعدد، وباطل أيضا أن يقال أنه يكون عالما بعلم آخر، فإنه يؤدي إلى حدث⁷ الأقانيم بل إلى حدثه⁸ وذلك كله محال.

إلزام آخر يظهر تناقضهم: وذلك أنه قد تقدم من مذهبهم أنهم قالوا في الأقانيم أنها غير متباينة ولا مفترقة، ثم إنهم قد قالوا هنا إن أقتنوم الابن اتحد بناسوت المسيح دون أقتنوم الأب وروح القدس، فمفهوم هذا أن الابن اتحد بناسوته، وبقى الجوهر⁹ وروح القدس لم يتحدا به. هذا¹⁰ تصريح بالمباينة والمفارقة فإن بعض هذه الثلاثة وجب له أمر دون صاحبيه، فلو لم يباينهما ولم يكن غيرهما، لما وجب له من الحكم ما لم يجب لهما، ولا تناقض أظهر من هذا، وقد كنا أظهرنا اضطرابهم في هذا في باب الأقانيم.

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط، وعض ب: ونورد بعد ذلك الإلزامات لهم: إلزام لهم: .

2- في ط: "ساقطة".

3- في ط: "الوهيته".

4- في ط: "يصير".

5- في ط: "على الله تعالى".

6- في ط: "للواحد".

7- في ط: "حدوث".

8- في ط: "حدوثه".

9- في ط: "جوهر الأب".

10- في ط: "وهذا".

ثم نقول تحقيقا للإلزام الجميع: هذه الأقانيم إما أن تكون مباينة للجوهر مفارقة، أو لا تكون كذلك.

فإن كانت مباينة، لزم أن تكون زائدة عليه، وإن كانت زائدة عليه، لزم أن يكون الإله متركبا من أمور كما مر وقد أبيت ذلك، وهذا¹ محال، ويلزمكم أيضا إخراجها عن كونها أقانيم، ويلزمكم رفع التوحيد إلى محالات كثيرة عندكم. وإن كانت غير مباينة لم يصح إتحاد بعضها دون بعض، بل لو اتحد بعضها لاتحد جميعها، فيلزم على هذا اتحاد العلم والقدرة والإرادة والوجود وهذا بين لا خفاء به.

الإلزام آخر وطلبه: نقول لهم لأي شيء قلتم أن الذي اتحد بناسوت المسيح إنما هو الابن فقط؟ ولأي شيء لم تقولوا أنه اتحد به الآب وروح القدس؟ ولو قلتم ذلك لكان أجرى على ما أصلتم من أن الأقانيم لا متباينة ولا مفترقة.

فإن قالوا: إنما قلنا باتحاد الابن، لأن عيسى إنما أرسله الله ليعلم الناس شريعتهم، ويخبرهم بالمغيبات عنهم ويعظمهم، وذلك كله إنما يصح بالعلم.

فنقول لهم: هذا الذي ذكرتم مسلم لكم جدلا، لكن لم قلتم أنه إنما اتخذه الله لهذا فقط؟ وإنما هو اتخذه لهذا ولأمور أخرى، منها: ليعبد، ومنها: ليبرئ مرضى كانوا قد أعياوا الأطباء، وأراد الله تعالى شفاهم على يديه، ومنها: أنه أراد إحياء موتى على يديه. فيحصل² من هذا أمران أحدهما: أن هذه معجزات تدل على صدقه، والثاني: أن من أبرأه أفاق من مرضه وجذامه وجنونه وبرصه فانتفع بذلك، وكذلك يحصل للميت الذي حيى، وزائدا على ذلك أن الميت آمن به فأدخله الله الجنة بإيمانه برسوله. وهذه الأمور كلها لا يمكن إنكار أن يكون كل واحد منها مقصودا لله تعالى، وإذا أمكن أن يكون كل واحد من هذه الأمور مقصودا، فلم اقتصرتم على مقصود واحد من هذه الأمور مع إمكان هذه المقاصد؟ وإذا تقرر ذلك حصل منه أن الله تعالى اتخذه لما لا يصح إلا بالعلم والقدرة والإرادة والحياة، فقولوا إن هذه الأقانيم اتحدت به وهذا لازم لا محيص عنه ولا جواب عليه، ثم يلزم على هذا أن يكون كل نبي أرسله الله تعالى يتحد به العلم، فإن هذا الذي استدللتم به في حق عيسى موجود في حق غيره من الرسل، إذ كل واحد منهم إنما أرسل معرفا بشرع الله، ومبلغا رسالة الله، ومخبرا بوعده الله ووعدته. فيلزم على هذا أن يتحد العلم بكل رسول.

1- في ط: "وهو".

2- في ط: "فتحصل".

إلزام آخر: قد تقرر أن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طائرا، فإذا قلنا هذا فإما أن يكون عيسى هو الذي يفعل ذلك أو غيره، فإن كان غيره، فليس ذلك إلا الله تعالى، وغاية عيسى أن يكون عبدا يرغب لله تعالى في قضاء حاجته، ثم إن الله تعالى يفعل ما يشاء عند تحديه بالنبوة تصديقا له في دعواه، وعيسى ينظر إلى ذلك ويتعجب عند ذلك من فعل الله ولطيف صنعه، وهكذا كان حال موسى عندما أيده الله بالعصا فقل له: ﴿ أَلْقَهَا ﴾، ﴿ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾، فلما رآها على حال لم يعرفه منها هاله ذلك، وولى مدبرا خائفا، وذلك لما شاهد من قدرة الله¹ فلما فرغ قال الله² له: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾³.

وإذا قلنا إن عيسى هو الذي يفعل ذلك، فإما أن يفعله بقدرة وعلم وإرادة، أو لا يحتاج إلى شيء من ذلك، باطل أن يقال أنه لا يحتاج إلى شيء من ذلك، لأن الفعل الاختياري لا بد له من هذه الأمور بالضرورة على ما يعرف في موضعه، فلم يبق إلا أن يفعل ذلك بقدرة وعلم وإرادة، وهذه الصفات هي شروط الفعل، ولا بد وأن تكون منسوبة له ويكون هو موصوفا بها⁴، فإن لم يكن هو موصوفا بها ولا تنسب إليه، فلا ينسب الفعل إليه، وقد نسبت الفعل إليه فدل ذلك على أنه موصوف بها، وتنسب إليه كلها، وإذا ثبت ذلك فليس من يسلب عنه القدرة والإرادة، ويقول هما صفتان لله⁵ وليستا بصفتين لعيسى بأسوأ⁶ حالا ممن يسلب عنه العلم، ويقول هو علم الله تعالى وليس علم عيسى، مع أنه صفة عيسى، فيلزم عن هذا البحث أن هذا الفعل المنسوب إلى عيسى موجود عن علم وقدرة وإرادة، وأن هذه الثلاثة إنما تنسب لواحد، فإما لله وإما لعيسى، ولا يجوز عقلا أن ينسب⁷ بعضها لله وبعضها لعيسى، فإن هذه الثلاثة مشروط بعضها ببعض، فالمحل أو الجوهر الذي يجب لأحد هذه يجب للباقي وهذا مالا خفاء به عند العاقل الموفق.

1- في ط: "الله تعالى".

2- في ط: "الله تعالى".

3- سورة طه، آية: 21.

4- في ط: وردت هذه العبارة: "أو لا تكون منسوبة إليه ولا يكون هو موصوفا بها"، بعد قوله: "موصوفا بها".

5- في ط: "تعالى".

6- في ط: "فتبرؤوا".

7- في ط: "تنسب".

إلزام آخر: قد تقرر عند هؤلاء القوم أن علم الله اتحد بعيسى، ولا خلاف بين جمهورهم في هذا المعنى وإن اختلفت عباراتهم عنه، فعيسى عالم والله تعالى عالم بعلم واحد، فقد اتحد أقنوم العلم وتعدد المحل. فإذا ثبت ذلك، لزم عليه أن يكون عيسى عالما بكل معلومات الله¹، ويكون الله تعالى عالما بكل معلومات عيسى، فإنهما عالمان بعلم واحد. فإذا علم الله أنه نفسه² خالق المخلوقات، ينبغي لعيسى أن يعلم أنه نفسه³ خالق المخلوقات كذلك، لأن علمهما واحد. وكذلك إذا علم الله أنه نفسه⁴ قديما، باقيا موصوفا بصفات الكمال، ينبغي لعيسى أن يعلم أنه نفسه⁵ كذلك. وإذا علم عيسى نفسه متغوطا بآثلا، ومصفوعا ومتوجا بالشوك، ومصلوبا في خشبة ومسمرة يداه ورجلاه فيها، فينبغي لله تعالى أن يعلم نفسه كذلك، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وهذا كله لازم على هذا المذهب السخيف الفاسد الضعيف.

إلزام آخر: اتفق النصارى القائلون بالاتحاد على أن عيسى لا هوت وناسوت، فيما⁶ هو لا هوت يحيى الموتى، ويبرئ المرضى وغير ذلك، وبما هو ناسوت يجوع ويعطش، ويبول ويتغوط، ويفرح ويألم، ويحزن ويلتذ. ثم إنهم⁷ يعبدون ناسوته ويجعلونه إلها، فهم بين أمرين: إما أن يقولوا إن جسده المتغوط البائل إله، أو هو شطر إله، فإن قالوا: إن جسده إله، فكفى شناعة فهجانه⁸ إله بائل متغوط مصلوب. وإن قالوا: إنه إله بما حل فيه من الإله، فكان ينبغي لهم أن يقولوا إنه نصف إله، ولا يعبدون جسده ولا يسجدون لجسده، وإذا قالوا بإلهنا⁹ المسيح، قالوا مكان: يا إلهنا، يا نصف إلهنا، أو يا ثلث إلهنا، فإنه اتحد به أحد الأقانيم الثلاثة، والواحد من الثلاثة ثلث. وهذا كله جهالات وتواقحات منهم.

إلزام آخر: وذلك أنهم اتفقوا على أن عيسى¹⁰ صلب، وقتل بالانحر¹¹، ورفع فوق

1- في ط: "تعالى".

2- في ط: "أنه هو نفسه".

3- في ط: "أنه هو نفسه".

4- في ط: "أنه هو نفسه".

5- في ط: "أنه هو نفسه".

6- في ط: "فيما".

7- في ط: "ثم يعبدون".

8- في ط: "وهجانه".

9- في ط: "إلهنا".

10- في ط: "المسيح".

11- في ط: "بالنحر".

الخشبة¹ بعد أن أهين، وصفح ووضع على رأسه الشوك، وسمرت يدها ورجلاه في الخشبة، وقد جاء كل هذا في إنجيلهم كما زعموا. فنقول لهم: الوقت² الذي أهين وصفح ورفع على الخشبة، وسمرت يدها ونحر³، هل كان متحدا به اللاهوت أو زال عنه؟ فإن كان متحدا به اللاهوت في تلك المواطن، فلقد أدرك لا هوته من المذلة والإهانة والنخز والموت ما أدرك ناسوته، لا سيما وقد التزمت فيما تقدم أن أقنوم العلم حي، فيلزمكم على هذا أن تعبدوا إلها ذليلا مهانا، ينخز ويموت وكفى بهذا خزيا وفضيحة. وإن قلتم إنه فارقه، فإذا جاز أن يفارقه في [موطن جاز أن يفارقه في]⁴ كل موطن، وهذا مما يابونه، ويلزم عليه إن فارقه، أن يكون جاهلا وألا يكون إلها فتعبدون ما ليس بإله.

وقد خرجنا مع هؤلاء الجهال بخالفهم المستهزئين بأديانهم إلى حد الإكثار، وفارقنا شرط الاختصار، وإنما⁵ أطيننا في هذا الفصل، وإن كان لا متمسك لصاحبه، ولا أصل لكونهم متفقين عليه ومحتجين به ومتحومين نحوه.

ولا يظن الظان أن هذا المذهب الذي ارتكبه هؤلاء القوم في الأقانيم والاتحاد، يحتاج⁶ في إبطاله إلى نظر واجتهاد، بل العقول بأوائلها تشهد بفساده، كما أن الحس يدرك بياض الجسم من سواده، وهؤلاء معاندون وللضروريات جاحدون. ومن كان حاله كذلك، إنما يتكلم معه بضرب الأمثلة بأبين المدارك، وتعدد⁷ الالتزامات، وتكثير المسالك، ليتبين الإفحام ويلقى يد الاستسلام. وقد قدمنا العذر عن ذلك كله في أول الكتاب، وإلى الله أرغب في الهداية للصواب وحسن المنقلب إليه والمآب.

1- في ط: "خشبة".

2- في ط: "الوقت".

3- في ط: "ونخز".

4- ما كتب بين المعقوفتين ساقط من ط.

5- في ط: "وقد".

6- في ط: "محتاج".

7- في ط: "تعديل".

الفصل السادس

في حكاية مذهب أغشتين إذ هو زعيم القسيسين

نذكر في هذا الفصل إن شاء الله تعالى¹، كلام هذا المذكور الواقع له في مصحف العالم الكائن، ونحكي ألفاظه من غير زيادة ولا نقصان، إلا أنني اختصر من كلامه ما لا تدعو ضرورة سياق الكلام إليه، من غير إخلال بلفظه ولا تقصير في معناه، وربما قدمت وأخرت. وإنما خصصته بالكلام معه في فصل مفرد لغرضين.

أحدهما: أن هذا السائل على مذهبه عول، وإياه قلد، ومن كتابه نقل، إلا أنه مع ذلك أخل بمفهوم كلامه، وخالفه في سياقه ونظامه، فربما ترك مذهبه بسوء نظره، وهو يظن أنه يمشي على أثره. وسيتبين ذلك.

والثاني: أن النصارى معولون على معرفته، ومقلدون له في قومته وقعدته، على أنه أعرف بمسالك النظر، وأجراهم على مناهج العبر، لكن نعوذ بالله من عين عوراء وفطنة بتراء.

قال أغشتين: قد أجمعت الملل الثلاث² على أن الله تعالى قد كلم موسى تكليماً، واجتمعت على أن موسى سمع صوتاً يقول له: أنا ربك. فأخبرونا أتؤمنون بأن الصوت الذي سمعه موسى هو ذات الرب، وأن الرب في ذاته مسموع، أم تقولون: إن الرب أسمع موسى صوتاً على ما شاء³ من رفع وخفض، وغلظة ورقة، وأنه ابتداء الصوت متى شاء، وقطعه متى شاء، وأنهى إلى موسى من إرادته ما شاء؟

1- في ط: "إن شاء الله تعالى في هذا الفصل".

2- في ط: "أجمعت الملّة"، قول أغشتين هذا "أجمعت الملل الثلاث"، يدل على أنه غير القديس أغسطين (354-430م) كما ذهب إلى ذلك حجازي السقا في تحقيقه للكتاب، لأن القديس أغسطين عاش قبل الإسلام ولا يجوز أن يذكر الإسلام، اللهم إن كان يقصد ملة غير ملة الإسلام كالديانة المانوية التي كانت منتشرة على عهده، بل هو نفسه كان مانوياً قبل أن يتحول إلى المسيحية. ولقد أكد لي أنه غير القديس أغسطين الدكتور فان كوينزفيلد في لقاء لي معه أثناء زيارته لمؤسسة دار الحديث الحسنية أيام 2010/11/30-2010/12/10، مستدلاً على رأيه بكون القديس أغسطين لا توجد من بين مؤلفاته ما يذكره القرطبي هنا مثل "مصحف العالم الكائن"، ونرجو في الطبعة القادمة أن نحقق من يكون أغشتين هذا الذي يذكره القرطبي.

3- في ط: "يشاء".

فإن قالوا: إن الصوت نفسه هو الرب، وأن الرب مدرّك بالسمع، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفي التشبيه. وإن قالوا إن الصوت من فعل الله، وأن الله خلق الصوت على ما وافقه، وأظهر فيه من إرادته ما شاء، وأن الصوت قد كان له مبتدأ ومنتهى، وأن الله الخالق له لا مبتدأ له ولا منتهى. قيل لهم: فقد ثبت أن الصوت الذي سمعه موسى¹ كان مخلوقا، فكيف جاز لموسى أن يقول سمعت الله؟ فإن قالوا مقام الصوت من الله، مقام صوت الإنسان من الإنسان، وأنا نسمع صوت إنسان فنقول: سمعنا فلانا. وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله²، أن يقول سمعت الله. قيل لهم فقد أقررتم أن الصوت من فعل الله، كما أن صوت الإنسان من فعل الإنسان، ولستم تقدرّون أن تقولوا إذا سمعتم صوت رجل: سمعنا [ذات المريد لذلك]³ الصوت الذي ابتدأه وخاطب به، ولكنكم تقولون سمعنا صوت فلان، وسمعنا فلانا إذ سمعتم فعله⁴، وكذلك من سمع صوت الله، وجب أن يقول: سمعنا الله. لأن الله خلق الصوت، وجعله حجابا لإرادته التي أظهرها فيه، فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب، إلا بصوت مخلوق على ما يشبهه تعارفهم، يكون حجابا فيما بينهم وبينه⁵.

والواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له، كما أن الصوت⁶ إنما خاطبهم عن الله. ومثل ذلك يلزمهم في كل ما يشبه التحديد مما وقع في كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم، ووصف نفسه بالعين والوجه والفم، ولا يمكن جرده، فقد رضي أن ينسب إلى نفسه مثل كلامهم، وأن يخاطبهم في مثل لغتهم، فقد ثبت أنه اتخذ التشبيه حجابا بينه وبين خلقه.

ثم قال بعد ذلك كلاما معناه: كما جاز أن يتخذ صوتا، ويجعله حجابا لإرادته حتى أظهرها فيه، كذلك يجوز أن يكون قادرا على اتخاذ أي صورة شاء، وأن يظهر لعباده في أي حلية وافقه⁷، وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء، لأننا إن قلنا إنه لا يقدر أن يسمع عباده صوتا، ولا أن يظهر لهم بصورة، فقد أزلنا عنه القدرة على كل شيء.

1- كلمة "موسى" ساقطة في ط.

2- اسم الجلالة "الله" ساقطة في خ/م.

3- في ط: "صوت المريد كذلك".

4- في ط: "صوته".

5- في ط: "بينه وبينهم".

6- في خ/م: "السوط"، وهو تصحيف.

7- في ط: "وافقته".

ثم قال بعد ذلك: فعلمنا أن الحجاب مخلوق، وعلمنا أن الله خالق كل شيء، ووجب علينا إنزاله من الإكرام، بحيث أنزله الله المحتجب به. لأننا¹ متى لم ننزل كل شيء على ما أنزله عليه، فقد عصينا. لأننا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة، مالا نكرم الشياطين، ونكرم الصالحين مالا نكرم الفجار. وهكذا، فلا بد أن يكون شيء أعز من شيء، وشيء أقرب إلى الله من شيء، حتى يكاد شيء في العز أن يتصل بخالقه، ويكون أعز الأشياء. ويكاد شيء أيضا أن يكون في الهوان، بحيث لا يكون شيء تحته.

والواجب على العارف بالله، أن ينزل كل شيء بحيث أنزله الله، ويسميه بما سماه الله، فإن أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت وتلك الصورة، بما لم يخص به شيئا من المخلوقات، وأن الواجب على من سمع ذلك الصوت، أن يقول سمعت صوت الله، ومن رأى تلك الصورة، أن يقول رأيت صورة الله، ولهذا وجب على موسى إذ سمع صوت القائل: أنا ربك، أن يجاوبه باسم رب³، ويقول بأنه ربه، ووجب على آدم إذ قال: يا آدم، أن يستجيب فيقول: ما ترى⁴ يا رب. وكذلك في مخاطبته لجميع الأنبياء، لأن الصوت لم يقل: أنا صوت الله، وأنا أخاطب عن الله، وإنما الله خاطب به فقال: أنا الله. فالواجب أن نخاطب بمثل ما خاطب به.

ومثل ذلك يجب في الصورة، ومن ظهر له الله في صورته، كما ظهر لإشعياء ولدانيال⁵، فقد وجب عليه أن يسجد للصورة، وأن يخاطبها باسم الله، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتحاد⁶ لها، والاحتجاب بها، ضام له إلى عبادته فيها، لأنه قد رضي أن يرى فيها ويعبد بها.

وقد علمنا أن الله خلق⁷ الصوت الذي أسمعه لموسى، كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات، ولكن وجب علينا الإقرار لذلك الصوت بالربوبية، ما لم يجب لغيره، لعلمنا أن

1- في ط: "لأنه".

2- كلمة "أن" ساقطة في ط.

3- في ط: "الرب".

4- في ط: "هأنذا".

5- في خ/م: "ولدانيقال" وهو خطأ.

6- في ط: "بالاتحاد".

7- في ط: "خالق".

الله ولى المخاطبة بذلك، وكذلك يجب في الصورة أن يخصها¹ من الإكرام، بما خصها الله به.

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله، ولا أن يجاوب الصوت باسم الله، فقد قال: إنه لا يجوز أن يتخذ الله صورة، ولا أن يسمع صوتا، وإذا وجب إكرام الحجاب، بإكرام المحتجب به، فلم² يبق علينا من الكلام شيء إلا في الحجاب الذي اتخذه منا، وهو المسيح، والاستشهاد بالتوراة والإنجيل في أمره، إلا أنا نقدم القول في ذلك بالقياس، لنألا نستشهد بالكتاب إلا فيما كان داخلا تحت الإمكان.

ثم قال: هذا وإن لم يوجبه القياس إيجاب الاضطرار، فإنه يجوزه تجويز الإمكان، لأن القياس الذي فضل به الإنسان على جميع خلقه، وخاطبهم بمثل لغتهم وتشبه بهم في مخاطبتهم، وخلق كل شيء لهم ومن أجلهم، وأوجب لهم البقاء معه في رضوانه، وألا يكون دونهم أبدا، وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق، فتشبه لهم بنعت محدد، فقير ممتنع فيه، ولا بعيد أن يكون حجابهم فيما بينه وبينهم منهم³ ومما يشبههم، ونزوله إلى مخاطبتهم في مثل لغتهم، هو⁴ نزوله إلى الظهور لهم في مثل صورتهم، لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت.

ثم قال: شواهد الواضحة كثيرة، من ذلك قول يرميا⁵ النبي حيث يقول مناجيا الله: "يا رجاء إسرائيل ويا⁶ مخلصه من الغم، لم ستكون في المستقبل كالغريب في الأرض، أو كالمسافر يعدل إلى المبيت؟ لم ستكون في المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص"⁷. وقول إشعيا النبي حيث يقول: "إن العذراء ستحمل وتلد ولدا، ويدعى ولدها عجيبا مدبرا إلها قويا، والدا مقبل الدهر العالم يكثر ملكه ولا يكون لسلطانه انقطاعا ولا آخر"⁸، وقوله أيضا: "من ذا يقبل خبرنا؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب؟ ثم وصف أنه ظهر

1- في ط: "يخصها".

2- في ط: "لم".

3- في ط: "بينه ويلتهم منه".

4- في ط: "وهو".

5- في ط: "إرميا".

6- في ط: "يا مخلصه".

7- إرميا 14: 8-9.

8- إشعيا 7: 14.

ضعيفا محتقرا وأنه هدى بنفسه إلى القتل طوعا ووصف خبره¹ المسيح ظاهرا كما كان²، وقول يعقوب³ لبنيه حيث يقول: "لا ينقضني الملك من سبط يهوذا، ولا يزال منهم أمير حتى يأتي الذي هو مرسل، وهو يكون رجاء الأجناس"⁴ وكذلك⁵: لا ينقطع الملك منهم حتى يأتي المسيح.

هذا ملخص كلامه وزيدته في عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر، من غير أن أخرج عن لفظه إلا ألفاظا يسيرة يتصل بها الكلام ولا تغير المعنى.

وها نحن بعون الله نجاوبه محاورة⁶ على طريق البحث والمناظرة.

وأما قوله: "اجتمعت الثلاث ملل على أن موسى سمع صوتا يقول: أنا ربك"، فهذا قول كذب، ينبئ عن غفلة أو جهل؛ وذلك أن الذي اتفقت الملل عليه، إنما هو أن الله كلم موسى، وأن الله تعالى متكلم، وأما أنه متكلم بصوت، أو سمع موسى صوتا من الله، فهذا شيء اختلفت فيه الملل وتباينت فيه النحل، وأكثر أهل الملة الحنيفية يأبى ذلك، ويخطئ من صار إلى ذلك، أعنى من صار إلى أن يكون الباري تعالى متكلم بصوت، وأن موسى عليه السلام لم يكلمه الله بصوت، وإنما كلمه بكلامه الذي هو وصفه الذي ليس بصوت ولا حرف على ما تقرر بيانه فيما تقدم. فهذا الرجل الحاكي هذا القول، إما أن يكون علم اختلاف الملل فيما ذكر فيه إجماعها، أو لم يعلم. فإن كان علم، فقد كذب وإذا عرف من أحد من الناس الكذب فينبغي ألا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

فينبغي لكم ألا تعولوا على شيء من نقله، لإمكان أن يكون كذب فيه كما كذب في هذا. وإن كان ذلك القول منه عن جهل فهذا كثير في حقه من جهتين:

أحدهما: أنه أقدم على الإخبار عما لم يتحقق من غير بصيرة، وليس هذا فعل العلماء ولا الأكياس الفضلاء⁷، وكفى بالمرء كذبا وإثما أن يحدث بما لم يعلم صحته.

1- في ط: "خبر".

2- إشعيا 53: 1-12.

3- في ط: "يعقول".

4- تكوين 49: 10.

5- في ط: "وتترجم كذلك باختصار".

6- في ط: "مجاورة".

7- في ط: "ولا الأكياس من الفضلاء".

والجهة الثانية: أنه جهل أمرا معلوما على القطع، صار إليه وعمل على مقتضاه أمم لا يحصون كثرة منذ مضى السنين، ولا يحمل من¹ تعاطى نصرة المذهب² والكلام مع أربابها أن يجهل مثل هذا، وإذا جهل هذا، فهو بما هو أخفى من هذا أجهل، فهو بين أمرين: إما أن يكذب متعمدا، فلا يثقون بقوله. أو يجهل أمرا جليا يدرك بأدنى بحث وأيسر أمر، فلا ينبغي لكم أن تقلدوه في نظره وعمله³.

وإنما ذكرت هذا، لتعلموا أن عمدة النصارى على هذا الرجل في مذاهبهم، بقوله يحكون، وبه يحتجون، وله يقلدون، وعليه يقولون. فهو وهم، كرجل أعمى ادعى أنه بصير، فاستقاده عمى، فقاد بهم⁴ فسقط في حفرة فسقطوا لسقوطه. وأشد الناس⁵ عذابا يوم القيامة، رجل قتل نبيا أو قتله نبي، وإمام ضلالة. وإنما كان كذلك لأن عليه وزرها ووزر من عمل بها، فطوبى لمن مات ومات معه ذنوبه.

وأما قوله: "فإن قالوا إن الصوت نفسه هو الرب، وأن الرب مدرك بالسمع، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفى التشبيه". فهذا نص من كلام هذا الرجل، أن الصدى ليس بالرب.

وقد قال السائل الذي جاوبناه قبل هذا إنه أقر له بالربوبية، وظاهر قوله مناقض لقول إمامه. ثم نقول لهما: قد اتفقتما على أن الصوت مخلوق، وأن الله تعالى ليس بمخلوق، فهذا الصوت المخلوق، إما أن يكون ربا غير الله، أو ليس برب⁶. فإن كان ربا غير الله، فيلزمكم أن تعبدوه بعبادة خاصة غير عبادة الله، بل هو أولى بالعبادة من ناسوت المسيح إذ يتغوط، ويبول، ويصلب على قولكم إلى غير ذلك مما عددناه. وذلك الصوت⁷ لا يليق به شيء من ذلك. وذلك كله جهل، وقد ألزمناهم على ذلك مناقضات لا محيص عنها فيما تقدم. وإن كان هذا الصدى ليس برب، فيلزمكم على قولكم، أن يكون موسى خاطب بالربوبية من ليس برب، وذلك لا يليق به. وهذا على قوله أن المخاطب هو الصدى

1- في ط: "محمل بمن".

2- في ط: "المذاهب".

3- في ط: "عمله ونظره".

4- في ط: "فقادهم".

5- في ط: "وأشد عذابا".

6- في ط: "رب".

7- في ط: "وذلك أن الصوت".

لازم ضرورة. ثم ما أعجب أمر هؤلاء القوم، ينفون تشبيه الله تعالى بخلقه، ويجعلون بقيه¹ قاعدة يرجعون إليها بزعمهم، ثم يلتزمون من التشبيه في حق الله تعالى، ما لم يقل به من المشبهة أحد؛ وذلك أنهم قالوا: إن الله تعالى متكلم بصوت هو من قبيل أصواتنا، وهو مخلوق مقطوع بالحروف، وهو مع ذلك يخاطب² بالربوبية، وهذا هو التشبيه الذي فروا منه وزيادة عليه.

ولقد أوغل في التشبيه كبيرهم أغشتين، وإن كان عن أصل التشبيه من المعرضين، وذلك أنه جوز عقله بزعمه، أن يتخذ الباري صورة بجلها³، ويظهر فيها، ويسجد لها، ومن رأى تلك الصورة يقول⁴ رأيت صورة الله، فإنه قد رأى الله. ولا تشبيه أعظم منها، بل المشبهة أحسن حالا منه، وذلك أنهم -أعنى المشبهة- بنوا أمرهم على ظواهر الشرائع، فأثبتوا ما أثبتت الشرائع، وما قالت الأنبياء، وما جاء في كتب الله مصدقين لها غير منحرفين عن ظواهرها، ثم عزلوا عقولهم فلم ينظروا بها، فبقوا على جمود التقليد، وثبتوا على صميم الاعتقاد والتوحيد، ومع ذلك فإنهم يعظمون الله، ويقولون بأن لا إله إلا الله.

ومما صرح فيه بالالتزام التشبيه قوله: صوت الله من فعل الله، كما أن صوت الإنسان من فعل الإنسان، ولا معنى للتشبيه الذي نفى إلا هذا، فهذا تناقض ظاهر، فإنه تارة نفى التشبيه، وتارة أثبته. ثم قوله يصرح بأن حقيقة المتكلم من فعل الكلام، وهو خطأ. بل حقيقة المتكلم من قام به الكلام، والدليل على ذلك، أن حقيقة المتكلم تفهم بكما لها، مع فرض الغفلة والذهول عن كونه فاعلا للكلام، ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام، لما فهمت حقيقة المتكلم حتى يفهم كونه فاعلا للكلام، على ما يعرف في موضعه. ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام، لكان الباري تعالى متكلمًا بالكلام الذي يقوم بنا، فإنه فاعل كلامنا وخالقه على ما يعرف في موضعه وذلك محال.

ونتعلم أيها الناظر في هذا الكتاب، أن كل ما ذكره هذا القس في هذا الفصل، إنما هو مبني على أنه تعالى متكلم بحرف وصوت، وقد أبطلنا ذلك فيما تقدم، حيث قلنا كلام

1- في ط: "نفسه".

2- في ط: "مخاطب".

3- في ط: "يجهلها".

4- في ط: "ويقول".

الباري تبارك وتعالى ليس بصوت ولا حرف، وإنما هو وصف له قائم به، ليس بحرف ولا صوت كما نبهنا عليه.

وإذا بطل¹ ذلك بطل كل ما انتحل في هذا الفصل من الهذيان. وإنما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا، وذلك أن أرياب النظر، ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد، ليتبين تناقض الخصم وتحكمه للعباد، وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل بحول الله فنقول له:

لأي شيء قلت إن الله اتخذ الصوت حجاباً لإظهار إرادته، وليست بلفظ الحجاب؟ ولو قلت إن الله جعل الصوت دليلاً على ما أراد، لارتفع التلبس² ولزال الأوهام³ الذي أوهمت، فإنك أوهمت بلفظ الحجاب أن الإرادة احتجبت به، واتحدت معه، حتى ظهرت بواسطته، فجمعت بلفظ⁴ الحجاب والظهور وأوهمت، وأنت ما حصلت على فائدة ولا وجدت.

ومما يتبين أن هذا الذي ذكره إنما هو جمعة لفظية ليس وراءها معنى، أنا نبذل⁵ لفظ الحجاب بالدليل، ولا يبقى⁶ مما توهمه شيء، فإننا يمكننا أن نقول: إن الصوت الذي خلقه الله تعالى، وجعله دليلاً على إرادته على قوله، إنما هو بمثابة أن لو خلق خطوطاً في حجر، يستدل بها المستدل على إرادته إذا قرأها، فلا يتمكن لعاقل أن يقول: إن الإرادة انحجبت بخطوط ذلك الحجر ولا اتحدت به، فإن الإرادة لا تقوم بجماد وهذا بين بنفسه.

وكذلك لو كتبنا لفظ النار في ورقة، لما تخيل عاقل، بل غافل، أن ذات النار حلت في الورقة، إذ لو حلت النار في الورقة لاحتقرت، وكذلك الصوت المقطع حروفاً، إنما هو دليل على ما في النفس من غير أن يحل ما في النفس ولا أن يتحد به، وإذا فهم هذا ارتفع كل ما توهمه هذا المخدوع بالضرورة.

ثم نقول له: نسلم جدلاً ما ذكرته من لفظ الحجاب والظهور، لكن لم قلت أنه إذا صح أن تظهر إرادته بحجاب الصوت، جاز أن تظهر ذاته بحجاب الصورة؟ وما الدليل على ذلك وأي جامع بينهما؟

1- في ط: "بكل".

2- في ط: "التلبس".

3- في ط: "الإبهام".

4- في ط: "فجمعت أنت بلفظ".

5- في ط: "تبطل".

6- في ط: "تبقى".

فإن قال: الدليل على ذلك أن الله تعالى قادر على ذلك، كما هو قادر على حجاب صوته، فإنه إن لم يكن قادرا على إظهار ذاته بصورة، فيكون عاجزا. والعجز عليه محال، فهذا هو الدليل. وأما الجامع فإن الصوت مظهر للإرادة والصورة مظهرة للذات.

فيقال له: أما استدلالك بأن الله قادر على كل شيء، فاستدلال فاسد. فإن الأشياء التي يقدر البارئ تعالى عليها إنما هي الممكنات لا المستحيلات، وهذا الذي ذكرت من ظهور الله في صورة مستحيل، لا يكون مقدورا¹، فإن المستحيل لا يوصف البارئ تعالى بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه، لاستحالة شرط تعلق القدرة. وهذا إنما يعرفه من يعرف حقيقة² الواجب والممكن والمستحيل.

ثم إنا نقلب عليهم دليلهم، ونقول: هل يقدر الله تعالى أن يظهر نفسه من غير صورة أم لا؟ فإن قالوا يقدر، قلنا لهم فلا³ يحتاج إلى الصورة التي فرضتم، وإن قالوا لا يقدر، قلنا لهم فيلزمه العجز. وبالذي ينفصلون عن هذا به بعينه ننفلن نحن عما ألزمونا.

وقد بينا فيما تقدم أن اتخاذ البارئ سبحانه⁴ صورة ليظهر فيها مستحيل، حيث أبطلنا الحلول والاتحاد وما في معناه.

ونزيد الآن هنا نكته وهي: إنا نقول هذه الصورة التي يظهر فيها، لا بد أن تكون متحيزة محدودة، والظاهر فيها إما أن يكون داخلا فيها أو خارجا عنها⁵، أولا خارجا ولا داخلا. فإن كان داخلا فيها، كان محدودا محاطا به وهذا هو التشبيه.

فإنه يلزم منه أن يكون جسما وهو باطل على الله تعالى ومحال، وإن كان خارجا عنها، لزم تحديده أيضا، لأنه لا يكون خارج محدود متحيز إلا محدود متحيز⁶، فيلزم أن يكون بجهة من الصورة، وإذا كان بجهة كان جسما وهذا تشبيه.

وأیضا فإذا كان بجهة من الصورة التي ظهر فيها، كان مفارقا لها. وإذا كان مفارقا لها، لم يظهر فيها. وإن ظهر فإنما يظهر بنفسه لا بالصورة، وإذا كان لا داخلا فيها، ولا

1- في ط: "لا يكون به مقدورا".

2- في ط: "حقيقة حقيقة الواجب".

3- في ط: "لا".

4- في ط: "سبحانه وتعالى".

5- في ط: "منها".

6- في ط: "لا يكون خارج لا محدود متحيز".

خارجا عنها، استحال عليه أن يظهر بها أو فيها، لأن ما ليس بمتحيز، ولا داخل ولا خارج، لا يظهر في جسم متحيز، لأنه من حيث كان ليس بداخل فيها، فقد فارقها وإذا فارقها لم يكن فيها، وإذا لم يكن فيها لم يظهر فيها .

ولو جاز أن يظهر في كل ما ليس بداخل فيه، ولا خارج عنه، لجاز أن يظهر في كل موجود، وإذا جاز ذلك، فلعله قد اتخذ الأنبياء كلهم حجابا يظهر فيهم، وهذا مما يابونه وهو محال عندهم .

وأیضا فإن الله تعالى عندهم لا يرى بانفراد من غير صورة، ولا يظهر دونها، فكذلك يلزمهم أن يبقى على حاله لا يظهر وإن أوجد¹ صورة، إذ ليس بداخل فيها ولا بخارج عنها² .

فإن الصورة لا تكسبه أمرا أوجب له ظهورا لم³ يكن له . وهذا بين الاستحالة إذ يلزم على ذلك تغييره عند العاقل المنصف .

نكتة أخرى:

وهي أنا نقول: هل يجوز أن يرى الباري تعالى ويظهر من غير صورة أم لا يجوز؟ فإن جاز ذلك، فلم حتمتم اتخاذ الصورة عليه، وقلتم أنه لا يظهر ولا يرى إلا بصورة . وإن قلتم لا يرى ولا يظهر إلا باتخاذ صورة، فإذا وقع بصر الناظر، فأما أن يقع على تلك الصورة أو على الله تعالى أو عليهما⁴ .

فإن قلتم وقع البصر على الصورة لا عليه، فالمرئي الظاهر⁵ إذن هي الصورة المخلوقة لا الخالق، وإن وقع البصر على الخالق وحده لا على الصورة، فينبغي ألا⁶ ترى الصورة، فإن الصورة ليست هي الخالق تعالى، والرائي لم ير إلا الصورة وحدها⁷، فإذا لم ير الخالق . وإن وقع البصر عليهما، لزم عليه أن يرى الرائي شيئين ويظهر له أمران⁸ .

1- في ط: "وإذا وجد".

2- في ط: "ولا خارج عنها".

3- في ط: "طهورا إلا لم".

4- في ط: "على الله وعليهما".

5- في ط: "فالمرئي إذن".

6- في ط: "الصورة فهو المرئي ولا ترى الصورة".

7- في ط: "لم ير إلا الصوت".

8- في ط: "يرى الرائي شيئين الخالق والصورة".

وهو إنما رأى شيئاً واحداً بالضرورة وهو الصورة، لقول من يقول إنه ظهر في الصورة أو بالصورة¹.

وأيضاً، فلو وقع بصر من رأى عيسى عليه السلام على ناسوته ولاهوته، لم يحتاجوا² أن يستدلوا على إلهيته³ بإحياء الموتى وغير ذلك، ولَمَّا كان يحتاج هو أن يدل على لاهوت نفسه بشيء من المعجزات وخوارق العادات، إذا كان يدرك منه بالحس والعيان ذلك. والمعلوم بالعيان لا يطلب تحصيل علمه بالدليل والبرهان.

فحصل من هذا أن الصورة المقدرة لا يظهر فيها الباري تعالى، وإن ظهرت هي فإن الرائي إنما يراها وحدها وهي الظاهرة له، وأما الباري سبحانه وتعالى فهو بعد إيجاد هذه الصورة على ما كان عليه قبل إيجادها لم تتبدل حاله، أعنى أنه إن كان قبل إيجاد هذه الصورة قابلاً لأن يظهر، فهو بعدها قابلاً لأن يظهر، وإن كان ممتنعاً عليه أن يظهر قبلها، امتنع عليه ذلك بعدها لاستحالة التغير عليه، فإنه لو تغير لكان محدثاً.

وأما ما ادعاه من الجامع، فلا نسلم أن الصوت مظهر للإرادة إلا بمعنى أنه يدل عليها، لا بمعنى الاحتجاب والظهور كما زعم. وإذا لم نسلم هذا في الصوت، فلا يصح له قياس الصورة على الصوت، ولو سلمنا قياس الصورة على الصوت من حيث الجامع، فبأي دليل يحمل أحدهما على الآخر، فإن وجود الجامع لا يدل على أن حكم أحدهما حكم الآخر، إذ لا يبعد في التماثلات في بعض الصفات، اختلافها في بعض الأحكام على ما يعرفه أهله. ولو سلمنا وجود دليل الإلحاق، لكان قياس جزئي على جزئي⁴، وذلك غير مقبول في العقليات على ما يعرف في موضعه، وعلى ما يقال مع أهله. فظهر من كلام هذا الرجل عند العقلاء أنه غير متمسك بدليل عقلي. وسنبين أنه لم يستدل على صحة مذهبه بدليل نقل⁵، فإذا بطل له المعقول والمنقول، ثبت أنه بالتحكم والهوى يقول، وذلك دأب كل غبي جهول. وأما قوله: "فالواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له وكذلك الصورة يجب أن تخاطب باسم الذي هي له".

1- في ط: "إنه ظهر بالصورة".

2- في ط: "لما احتاجوا".

3- في ط: "اللاهوتية".

4- في: "جزء على جزء".

5- في ط: "نقلي".

فنقول له قولك: واجب عليهم هذا الوجوب الذي ادعيته، أهو عقلي أو شرعي؟ فإن قال هو عقلي وشرعي، فلا بد من إقامة الدليل على ذلك.

فإن قال: الدليل على ذلك العقل والنقل¹. أما النقل فهو أن العاقل إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر² بأن الله خص ذلك الصوت وتلك³ الصورة، بما لم يخص به شيئاً من المخلوقات إذ تجلى هو فيها. وإذا ثبت ذلك، فالعقل يشهد بأن تلك الصورة وذلك الصوت⁴ شريف، والشريف⁵ لا بد أن يعترف لشرفه وينزل منزلته، ولا أشرف من الله تعالى وما ظهر فيه الله تعالى، فينبغي أن يعظم بأقصى رتب التعظيم، ويعبد بأجل العبادات، فخرج من هذا أنه يجب عقلاً أن تعظم الصورة لتعظيم الحال فيها، فتخاطب باسم الرب ويعترف لها بالربوبية والإلهية⁶.

وأما الشرع، فهذا الذي⁷ دل عليه العقل جاءت به الشرائع، ألا ترى أن موسى خاطب الصوت باسم الربوبية، وكذلك من رأى الصورة إنما يرى صورة الله، والله تعالى معظم بالشرع والعقل، [فتلك الصورة ينبغي أن تكون معظمة بالشرع والعقل]⁸، ألا ترى أن الشرائع قد أمرتنا بتعظيم الملائكة وإهانة الشياطين، وليس يخفى أن العرش أعظم من السماء، وأن المشرق أعظم من المغرب، وأن الصالحين أعظم من الطالحين، وهذا كله يشهد له العقل والنقل كما سبق.

هذا إنهاء تقرير حجته، وإليها أشار في كلامه ولا مزيد في التقرير عليها.

فنقول: قولك العقل دل عليه باطل، فإن العقل لا يدل على التزام العبادات، فإن معنى العبادات التي تفعل بحكم اللزوم، إنها إن لم تفعل⁹ وإلا فيعاقب الله التارك، وذلك لا يتوصل العقل إليه، إذ العبادات لا تتعين عنده إلا بتعيين معين، الذي هو الشارع الذي

1- في ط: "النقل والعقل".

2- في خ/م: "قر".

3- في خ/م: "وذلك".

4- في ط: "ذلك الصوت وتلك الصورة".

5- في ط: "والصوت".

6- في ط: "والألوهية".

7- في ط: "وأما الشرع فالذي دل".

8- عبارة مكررة في خ/م.

9- في ط: "بحكم اللزوم إنها تفعل".

ينص على ما يرضيه من العبادات، وعلى ما لا يرضيه. وأما العقل فلا يستقل بشيء من ذلك، فلعل العبادة التي يعينها العقل ويلتزمها، لعل الله تعالى لا يرضى بها، إذ يفعل الله ما يريد. ولعل ما يظنه العقل عبادة هو معصية، فإن هذا الله تعالى يفعل ما يشاء، فكما يجعل من شاء نبيا ووليا، ويجعل¹ من يشاء فاسقا وخبيثا، ويمد بأسباب ذلك ولا حجر عليه في ذلك ولا حكم، كذلك يجعل ما يشاء من الأعمال طاعة، وما يشاء معصية، [ولا حجر عليه في ذلك]²، وإن [تقم بذلك]³ لزمك أن تجعل الله تعالى محكوما عليه مغلوبا، وذلك كله على الله تعالى محال.

وأما ما ادعيت من النقل من الأنبياء فذلك شيء لا يصح عنهم أنهم عظموا الصوت والصورة بما عظموا به الله حتى عبدوهما كما تزعمون أنتم.

وقولكم: إن موسى خاطب الصوت بالربوبية، زعم وقاح وإفك صراح، وإنما المخاطب بالربوبية المتكلم بالصوت بزعمكم⁴ الذي قال عن نفسه بالصوت: أنا الله. والذي يعقله العقلاء الذين لا يلعبون بأديانهم، ولا يجترؤون على ربهم والههم، إن الصوت موجود يتكلم به ولا يتكلم هو عن نفسه، فإذا سمع العاقل قائلا قال بصوت مقطوع: مشيت إلى بيت المقدس فرأيتُه مثلا، لا يشك عاقل في أن المخبر عن نفسه إنما هو الذي قام به الصوت لا الصوت، فإنه لو كان الصوت هو الذي أخبر بذلك عن نفسه لما صدق عليه ذلك، ولما صح منه الخبر لأنه لا يتأتى منه المشي ولا الرؤية.

وكذلك لو قال إنسان مخبرا عن نفسه بقوله: أكلت الخبز. وهذا بين بالضرورة، وإذا تقرر هذا، فالصوت الذي سلمناه جدلا -الذي تكلم الله به على زعمهم- لم يقل من نفسه شيئا مما ذكروه، إنما الله هو الذي قاله مخبرا عن نفسه، وأما ما قاله موسى فإنما قاله لله تعالى، فله اعترف بالربوبية، وإليه تاب وله سجد، وإياه عبد لا للصوت. وهذا معلوم على القطع والضرورة. والمخالف في ذلك جاهل متسامح أو معاند متوابع.

وقد كان تقدم من قول السائل الغبي الجاهل: أن موسى اعترف للصدى بالربوبية، وأنه الذي قال عن نفسه: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأنه هو الذي سجد له موسى،

1- في ط: "يجعل".

2- في ط: "معصية وإن لم تقل ذلك".

3- في ط: "وإن لم تقل بذلك".

4- في خ/م: "يزعمكم" وهو تصحيف.

وعن ذلك الصدى تحمل موسى الرسالة، وأنه هو الذي كلم موسى وإياه جابوب، وأنه قام عند موسى مقام خالق هسماء إلهاء، وربما يظن ذلك الجاهل أن هذا الذي قاله أغشتين هو الذي قاله هو، وهيهات أن بينهما ما بين الثرى والثريا .

وغاية كلام أغشتين، وإن كان فيه من المخطئين، أن يقول: قد علمنا أن الله تعالى خلق الصوت الذي أسمعه لموسى، كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات، ولكن وجب علينا الإقرار لذلك الصوت بالريوبية، ما لم يجب لغيره، لعلمنا أن الله تعالى ولى المخاطبة به .
هذا نص ما في كتابه على هذا المعنى .

ولا يفهم منه شيء مما انتحله ذلك السائل، وقد وكلت الناظر¹ العاقل المنصف، للوقوف على كلامهما وتفهم معانيهما، فإني قد نظمت² على كلامهما في هذا الكتاب وحكيته، كي يزول الارتياح ويعلم الناظر المنصف، أن السائل ليس على شيء من الصواب، وإنما نبهت هذا التنبية حذرا من المغالطة والتمويه، فإني أخاف إن ويخ أحد أقسة النصارى هذا السائل على هذا المذهب الذي اخترعه والمحال الذي ابتدعه، أن يحتج لنفسه بأن ينسبه إلى أغشتين ويكون في نسبته من الكاذبين .

فمن أراد الإنصاف فليطرح عن نفسه التعصب والاعتساف، ويقف على كلامهما متدبرا وفيه متفكرا، ولقد كنت أتمنى أن يكون أولئك الأقسى بين يدي حتى يسمعوا مني وينظروا إلى، فليس كل ما في النفس تبرزه المكاتبة ثم ليس الخبر كالمشافهة .

وأما قوله: وإذا وجب إكرام الحجاب بإكرام المحتجب³، لم يبق علينا إلا النظر في الحجاب⁴ الذي اتخذه منا وهو المسيح . فنقول: المفهوم من لفظ الحجاب إنما هو الساتر للشيء المانع له، فإنك تقول احتجب عني فلان إذا استتر عنك، وامتنع من لقائك والخروج إليك، ولا يصح هنا على مفهوم كلام هذا الرجل أن يكون الحجاب هو الساتر، بل هو الكاشف المظهر على قوله، وذلك أن إرادة الله وذاته، قبل اتخاذ الصوت والصورة، لم يكن شيء منهما ظاهرا، فلما اتخذهما ظهرت إرادته وذاته، هذا مفهوم مساق كلامه فتدبره .

1- في خ/م: "الناطق" وهو تصحييف .

2- في ط: "تصصت" .

3- في ط: "المحتجب به" .

4- في ط: "لم يبق علينا من الكلام شيء إلا في الحجاب" .

وهذا يدل على قلة التحصيل، وقصد التخليط والتجهيل، وإذا كان الناظر من قلة التحفظ، بحيث يعبر عن المظهر بالسائر فعلمه جهل ونظره قاصر.

وأما قوله: في الشواهد على اتخاذ الله المسيح حجاباً، فتحويل ليس وراءه تحصيل. وذلك أنه قال: إن لم يوجب القياس إيجاب اضطراراً، فإنه يجوز تجويز الإمكان، ثم إنه تكلم بأكثر، وذكر القياس الفاسد الذي به كفر، ثم رجع حاصل كلامه إلى أن قال: لأن اتخاذ الصورة كاتخاذ¹ الصوت. وهذا كله قد بينا فساده فيما تقدم.

وأما ما ذكره من شواهد الأنبياء عليهم السلام على ما ادعاه من الهذيان والهذر والبهتان على المتعالي عن النقصان، فليس له في شيء من ذلك شاهد، وحاشا أنبياء الله وكتبه من مذهبه الفاسد، وغاية تلك الشواهد أن تدل على رسالة عيسى عليه السلام، وليست دلالتها قاطعة على ذلك. فتدبرها بفهمك وخذها بقياس عقلك.

وسياتي ذكر ذلك وأشباهه في باب النبوات بعد هذا إن شاء الله²، وقد أتينا على ما أردنا ذكره في هذا الباب والحمد لله. على أننا أغفلنا كثيراً من ألفاظ أغشتين، يمكن البحث فيها، تركنا ذلك³ لئلا يطول الكتاب ويخرج عن الضبط هذا الباب.

على أن هذا من كلامه هو اللب واللباب، هذا مع أن الأمل⁴ إن وافق القدر أن أرد على القس أغشتين كلامه وأبطل من ذلك الكتاب قصده ومرامه.

وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله

كمل الباب الثاني⁵، ويكماله كمل الجزء الأول، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

يتلوه الثاني.

1- في ط: "مثل اتخاذ".

2- في ط: "إن شاء الله تعالى".

3- في ط: "تركناها".

4- في خ/م: "الأصل" وهو تصحيف.

5- في خ/م: "الأول" وهو سهو من الناسخ.

الباب الثالث

في النبوات وذكر كلامهم [فيها]¹

هذا الباب ينقسم قسمين:

أحدهما نحكى فيه كلام السائل ونذكر الجواب عليه.

والثاني نتكلم فيه على النبوات وعلى إثبات نبوة نبينا محمد².

1- الكلمة بين المعقوفتين ساقطة من ط.

2- سنكتفي بتحقيق القسم الأول من هذا الباب، والمقدمتين الواردتين في أول القسم الثاني، أما باقي القسم الثاني فقد قام بتحقيقه أحمد آيت بلعيد .

القسم الأول [وفيه فصول]¹

الفصل الأول

[احتجاج أصحاب الملل]²

في حكاية كلامه

قال ابتداء احتجاج الثلاث ملل بعون الله:

اعلم أن أهل الملل أجمعين متكافئون³ في إدعاء الإيمان، حاكمون⁴ على كل قوم لأنفسهم بالإيمان، ولغيرهم بالكفر، قد غلبت عليهم في ذلك الغواية⁵ وتأديب الصبا، ووصية الآباء والأجداد⁶، حتى صار ذلك طبعاً فيهم، لازماً لهم. فكلهم قد سهل عليهم انتقاص⁷ غيرهم، وطاب عندهم⁸ دينهم بالتهنية في دنياهم، عن ميعاد⁹ آخرتهم، وصاروا في تدبير دنياهم ومعاشيهم على خلاف ذلك، لأنك تجد أهل كل ملة يزعمون أن غيرهم من الملل، ألحف على كل طلب معاشيهم وألطف¹⁰ في استجلاب أرزاقهم.

وأحسب أن العلة في ذلك، رغبتهم في التكاثر من الدنيا، وهي¹¹ التي تدخلهم إلى التحاسد والمغايرة¹²، فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم، وأن الآخرة عندهم مهمة لبعدها عن حواسهم.

1- ما بين المعقوفتين ساقطة من ط.

2- العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.

3- في خ/م: "متكافئين"، وهو تصحيف.

4- في خ/م: "حاكمين"، وهو تصحيف.

5- في خ/م: "المزاية"، وهو تصحيف.

6- في خ/م: "الأدباء"، وهو تصحيف.

7- في خ/م: "ابتفاض"، وهو تصحيف.

8- في خ/م: "عنادهم"، وهو تصحيف.

9- في ط: "معاد".

10- في خ/م: "النطف"، وهو تصحيف.

11- في خ/م: "وهي" ساقطة.

12- في ط: "المغايرة".

فلذلك، يزعم¹ أهل كل ملة أنهم أحق خيرا من غيرهم، فلذلك قل تناصفهم فيها، وإن طال عصرهم. لأن كل قوم قد قلدوا سلفهم، وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم، وذم غيرهم. فأسقط الرجل منهم كل حاسة، وأمات خواطره، وأذهب فهمه، بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره، واستعماله إياه بما هو مدبر عنه من دنياه.

ولتجدن² الرجل من كل ملة، يروم شراء خرقة يرقع بها ثوبه، أو شركة لنعله، فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة والغلط.

ثم إذا صار إلى كشف دينه ومعاده، اكتفى فيه بتقليد سلفه. ثم لا يبالى [بدليل]³ من خالف ملته، وانتقص⁴ كل خارج عن دينه.

فكل يقتحم المناظرة وإن لم يحسنها، ويراهما فريضة وهو لا يفهمها، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات إلا الفضول، معترف فيها للفضائل، لا الجدال والمناظرة، وأن الجميع يدعون أمرا لا يقدرون على التناصف فيه، لبعد غايته [أنهم يختلفون في الباري الذي]⁵، لا يدركونه بالحواس، فيختلفون في معرفته. وإنما يتعارف الناس فيما [يدرك بالحواس ويتصور]⁶ في الأوهام، فينقمع العقل السليم في إجابة الحق إذا أدركه وانكشف⁷. فلذلك يجادل كل قوم عن دينهم، ويفضلون أنفسهم على غيرهم، ويدلك على ذلك أنك تجد الصقلي العبد الحبشي، يقع مرقوقا بيد رجل من أحد الثلاث ملل فيرده إلى ملته، ويورد عليه أخبار سلفه، فيتقبله منه كتقبل الأطفال المذبذبين فيه. وعلمته في ذلك أنه يجد صدره خاليا من الأخبار المدونة في الكتاب⁸، فيتعلق بما أورد عليه من أخبار من علمه، ويتمكن ذلك في صدره حتى يصير واحدا من أهل الملة في إدعاء الفضل لها، وانتقاض⁹ أهل غيرها والطعن عليهم.

1- في خ/م: "يزعمون".

2- في خ/م: "وليجدن".

3- في خ/م: "كيف".

4- في ط: "وينتقص".

5- في ط: "وهو أنهم ليختلفون في معرفة الباري تعالى لأنه".

6- في ط: "يدركونه بالحواس ويتصورونه".

7- في ط: "وانكشف له".

8- في ط: "الكتب".

9- في ط: "انتقاض".

ولو أن مجوسيا دخل بلدنا طارئاً أو تاجراً، فكبرت¹ عليه مجوسيته، ووحش لوحده على البقاء عليها، عازماً على رفضها، ثم طلب الخروج إلى أفضل الثلاث الملل، المفسدة² عليه مجوسيته، لتحير وعمي أيتها³ أفضل، فخرج⁴ إليها [إذا وجد]⁵ كل قوم يدعون لأنفسهم الإيمان، ولغيرهم الكفر. ثم تجدهم متكافئين في إدعاء الآيات، لأن أهل كل دين يزعمون أن بينة دينهم على آيات قامت وبراهين ظهرت، وما تجد عند أحدهم آية، من تلك الآيات التي زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى إلى الدخول في أديانهم.

ولكن الذي كان يضمه إليه حسن نظره، أن يتوقف حتى يسمع حجتهم، ويستعمل عقله في دعواهم، ليفهم [ما احتجاجهم من نبذ الحق]⁶، فكان يجد في دعواهم: أن النصراني والمسلم مقرران لليهودي بأن دينه أول، وأنبيأؤه حق. ثم يقول النصراني إن كتابي جاء من بعد، فنسخ طاعة دين اليهودي. ثم يقول المسلم وكذلك جاء كتابي بعد، فنسخ طاعة دين النصراني كما نسخ اليهودي. فإذا كشف⁷ المجوسي اليهودي عما ادعياه، أنكرهما وقال لم يأت بعد كتابي من الله كتاب. ثم إذا سأل النصراني عما ادعاه المسلم، أنكر أيضاً وقال لم يأت [كتاب من الله بعد كتابي]⁸.

فوجب على النصراني أن يأتي بالبينة على اليهودي من الكتب التي أقر له بها، فإن لم يكن فيها مسيحاً منتظراً، فلا حجة له عليه، ولا معلق له إليه. وإن كان فيها مسيحاً منتظراً، يرجى صلاح الحال من سببه⁹، ووافقت علاماته علامات الذي قد جاء وظهر، فإذا كان فقد اختار النصراني الرسالة الأولى والثانية لنفسه، وخرج اليهودي عن رضا¹⁰ المعبود بجحد الرسالة الثانية، ودفعه لسنته¹¹ فيما أعقب به في عباده من الرسالة

1- في خ/م: "فكسرت".

2- في خ/م: "المسدة".

3- في ط: "آية".

4- في ط: "فيخرج".

5- في ط: "لأنه يجد".

6- في خ/م: "فاحتجاجهم من نبر الحق".

7- في ط: "كاشف".

8- في ط: "بعد كتابي من الله كتاب".

9- في خ/م: "سببه".

10- في خ/م: "رضى".

11- في ط: "بسنته".

الثانية. ثم يحمل المسلم البيئة على النصراني من الكتب التي أقر له بها، وجامعه عليها. فإن لم يكن فيها محمد منتظرا¹ فلا حجة له عليه ولا مطعن² له إليه. وإن كان فيها محمد منتظرا، ثم وافقت علاماته علامات الكتب، فقد أصاب المسلم ولزم النصراني الخروج عن رضا معبوده.

الجواب عن كلامه:

يا هذا أسهبت وأطنبت، وبحبة خردل ما أتيت، كثر كلامك، فكثرت غلطك، وقلت فائدته فظهر قصورك وسقطك، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كانت النار أولى به، أعجبت³ لجهلك بلحنه ولم تتفطن لتشبيجه ولحنه، فلقد استسمنت ذا ورم، ونفخت في غير ضرر.

فأول خطئك⁴ قولك في ترجمتك هذا الفصل: "احتجاج الثلاث ملل"، ثم ضمنته ذكر ملة المجوس، فكان ينبغي⁵ أن تقول احتجاج الأربع ملل، فإن المجوس أمة تدعي أنها أرسل إليها رسول وأنزل عليه كتاب، ثم إن مذهبهم في التشيعة - وإن كان باطلا - فهو أقل شناعة، وأبعد عن جحد الضرورة، وأدخل في مسلك النظر، وإن كان فاسدا من مذهبكم، فإنهم يقولون: إن الموجودات خير وشر، ولا بد لكل واحد من موجد فموجد الخير خير، والخير لا يفعل الشر لئلا يكون شريرا، وموجد الشر شرير لا يفعل الخير، إذ لو فعل الخير لما فعل الشر، قالوا فلا بد من إلهين اثنين يفعل أحدهما الشر والآخر الخير.

وهذا كلام يشبه النظر العقلي، وبعد بحث شديد يتبين فساد، فلهم شبهة في التمسك بمذهبهم، ولو أورد المجوسي شبهته عليكم لصعب عليكم إبطالها، لكونه يلزمكم من مذهبكم التزامات لا تفصلون عنها.

وأنا الآن أذكر طرفا من ذلك حتى يتبين عجزكم وجهلكم هنالك.

وأما⁶ مذهبكم في الأقانيم فغير مقبول ولا معقول كما تقدم، وكفى به فسادا قولكم آلهة ثلاثة إله واحد، وكذلك مذهبكم في الاتحاد والحلول على ما مر، ومن العجب أنكم

1- في خ/م: "منتظر".

2- في خ/م: "معلق".

3- في ط: "أعيت".

4- في ط: "خطابك".

5- في ط: "ينبغي لك".

6- في ط: "أما مذهبكم".

تعتقدون مذهب المجوس ولا تشعرون، فإنكم تتسبون الشرور والإضلال إلى غير الله تعالى، وتعيبون علينا إذا نحن فوضنا كل الأمور إلى الله تعالى، وقلنا كل موجود في العالم فإنما هو موجود بإيجاد¹ موجد واحد وهو الله تعالى، وهذا والله هو التوحيد الحق الذي ارتضاه الله لخلقه، وكلف به أنبياءه ورسله وأنزل به كتبه.

فعين مذهبكم في هذه المسألة هو مذهب المجوس، فإنكم تتسبون الشرور كلها إلى الشيطان، وهو عدو الله وهو لا يصدر عنه إلا الشر، وليس الشر من إيجاد الرحمن عندكم فإنه لا² يوجد إلا الخير، فعلى مذهبكم هناك خالقان: أحدهما خالق الخير وهو الله، والآخر خالق الشر وهو الشيطان، وهذا عين المجوسية فصرحوا بها ولا تتكروها، وأجمعوا بينها وبين النصرانية وتقلدوها. ثم زعمت على مقتضى ترجمتك أنك تذكر حجاج الملل الثلاث ولم تف بشيء من ذلك، ولا ذكرت في كلامك هذا حجة للمسلمين عليكم ولا لليهود، بل ذكرت حجة النصارى الداحضة وسكت عن حجة خصومهم المسلمين الظاهرة، وهذا أثر التقليد، والجمود عليه حملك على الإعراض عن حجة خصمك، لعلك لا تسمع ما يؤدي إلى تبكيته ولطمك، ولقد كان ينبغي لك لو كنت من النظائر العارفين³ بأديانهم أن تذكر حجج خصومك أحسن، فتبحث عنها واحدة بعد واحدة⁴ حتى يتبين لك فيها الصحيح من الفاسد، ولكن مع هذا نقبل عذرك ونعلم جهلك، فإنك واحد من عوام [المسيحيين]⁵ الذين تشبهوا بالقسيسين وفي مثلك ينشد.

فسد الزمان فسدت غير مسود من الشقاء تقردي بالسؤدد⁶
ولكن لا عليك، فإنما هو جني⁷ يدك، فإني لأرجو أن يقف على هذا الكتاب جماعة المطارين، ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين، فيخرجوك من بين القسيسين ويلحقوك بالأريوسيين⁸.

1- في ط: "إيجاد".

2- في ط: "ما".

3- في ط: "النظار والعارفين".

4- في خ/م: "واحدة بعد واحد".

5- مكان هذه الكلمة فارغ في خ/م.

6- البيت لحارثة بن بدر، ويختلف عما أورده المؤلف حيث يقول: خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تقردي بالسؤدد.

7- في ط كما في خ/م: جنا.

8- في خ/م: "الرياسيين". وفي ط: "الرياسين"، وهو تصحيف، والصحيح هو الأريوسيين، نسبة لأريوس القائل بالتوحيد الرافض للتثليث.

ثم قلت: "أعلم أن أهل الملل أجمعين متكافئون¹ في إدعاء الإيمان، حاكمون² على كل قوم لأنفسهم بالإيمان ولغيرهم بالكفر"، فنقول أما التكافؤ في الدعوى فنعم، لكن الفصل يقع بينها³ من جهة البينات، ووقوف العقلاء على حكاية المذاهب والديانات، فإن من الأديان ما يدرك فسادها بغير نظر ولا برهان، بل بالفطرة التي خص الله بها الإنسان، وذلك⁴ دين النصارى، الضلال الحيارى.

ولقد حكى أن بعض حكماء الهند - وكان من الملوك الذين يحكمون بالسياسة المدنية⁵، الذين لم يتقلدوا إتباع ملة دينية - أنه ذكرت⁶ له الملل الثلاث، فقال: أما النصارى [فإن مناصبهم]⁷ من أهل الملل يجاهدونهم بحكم شرعي. [فلقد أرني ذلك بحكم عقلي، وإن كنا لا نرى بحكم عقولنا قتالا، ولكن استثنى]⁸ هؤلاء القوم، يريد النصارى من جميع العوالم، فإنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة، وتحلوا ببث الاستحالات مع أنهم حادوا عن المسلك الذي انتهجه غيرهم من أهل الشرائع، وقد كان لهم فيه كفاية، ولكنهم شذوا عن جميع مناهج العالم الشرعية الصالحة، والعقلية الواضحة، واعتقدوا كل شيء مستحيل ممكنا فلم يعزب عنهم شيء، وينوا من ذلك شرعا لا يؤدي البتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم، إلا أنه يصير العاقل إذا تشرع به أخرق، والمرشد سفيها، والمحسن مسيئا، لأن من كان في أصل عقيدته التي جرى⁹ نشوؤه عليها الإساءة إلى الخالق، والنيل منه بوصفه بغير صفاته الحسنى، فاخلق به أن [يستسهل الإسناد]¹⁰ إلى مخلوق، ولذلك ما بلغنا عنهم¹¹ في خلقهم من الجهل، وضعف العقل والطمع والبخل، ومهانة النفس وخساسة الهمة، والفدر وقلة الحياء إلا قليلا منهم، فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم، إلا

1- في خ/م: "متكافئين".

2- في خ/م: "حاكمين".

3- في ط: "بينهما".

4- في ط: "كذلك".

5- في ط: "الدينية".

6- في ط: "دينية ذكرت له".

7- في ط: "وإن كان مناصبهم".

8- في ط: "فقد أدت آراؤهم إلى أن لا نرى بحكم عقولنا لهم عقولا فاستثنى".

9- في خ/م: "جرا".

10- في ط: "يقصد الإساءة".

11- في ط: "عنهم مما في".

لعموم أضرارهم [الذي لا تحصى وجوهه]¹، وكما يجب قتل الحيوان المؤذي بطبعه فكيف
و² ثم من الموجبات ما تقدم.

فهذا ما بدا لهذا الحكيم في أول نظرة من مذهبكم على أول وهلة، وليس بمخاصمكم
ولا مناوئكم، ولا بمتهم بإتباع الهوى فيكم، لكن قد تبين الصبح لذي عينين بحيث لا
يشك فيه أحد من الثقلين³، وسترى ذلك واضحا إن كنت ذا بصر وبصيرة إن شاء الله⁴.

ثم قلت: "قد غلبت عليهم في ذلك الغواية⁵ وتأديب الصبا، ووصية الآباء والأجداد⁶،
حتى صار ذلك طبعاً فيهم"، هذا الذي ذكرته لعمري حكم الرعايا الغبر، والغثاء الغثر،
وأما من أمدد الله بنور توفيقه، وبين له سواء طريقه، فقد تبين له الرشد من الغي، والميت
من الحي. فقد أخطأت في إطلاقك هذا الحكم على جميع الملل، ولم تشعر بما لزمك من
الفساد والزلل، كلا بل الذي ذكرته، وصف أهل ملتك وحيلة عصبتك، إذ هم أهل تقليد
ونظرهم غير سديد، ثم قلت: "فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم، وطاب عندهم
دينهم بالتهنية في دنياهم عن معاد آخرتهم"، عدلت⁷ في هذا الحكم عن العدل، فحاق
عليك اللوم والعذل، بل في الملل من لا ينتقص أحداً، إلا إذا ذمه الشرع، [وإذا رأى ذا
فضيلة أو محققاً أحبه وشكره بالطبع والطوع، يهجر في طلب الحق]⁸ جميع لذاته ويزهد
في جميع ممتلكاته، يبغى بذلك رضى⁹ سيده ومرضاته، يضرب في طلب الحق الأرض
ضرباً فيقطعها شرقاً ويقطعها غرباً.

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معداً ما فعدنان¹⁰

1- في ط: "التي لا تحصى وجوهها لكفى".

2- في ط: "وقد ثم".

3- في ط: "الثقلين".

4- في ط: "تعالى".

5- في خ/م: "الغواية".

6- في خ/م: "الأدباء".

7- في ط: "وعدلت".

8- في ط: "وإذا رأى ذو فضيلة محققاً أحبه وشكره بالطبع والطوع يهجر في طلب الحق جميع لذاته".

9- في ط: "رضاً".

10- البيت الشعري لعمران بن حطان، وجاء فيه:

فاذر أخاك ابن زنياع فان له في الحادثات هنات ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت يمن وإن لقيت معدياً فعدنان
لو كنت مستغفراً يوماً لذي ملك كنت المقدم في سري وإعلاني
لكن أبست لي آيات مطهرة عند الولاية في طه وعمران

راجع كتاب الأنساب للصحابي الجزء الأول ص: 163

فارق¹ الأهل والوطن، ولازم² الفقر والعطرة³، فإذا ظفر بالبغية [لِبا وقطن]⁴، أما الدنيا فلا يلتفت إليها، وأما الآخرة فهو مقبل بكلية عليها، فهو في كل حال ينشد وأحواله تشهد.

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع وأعجبني من حبك الطلح والضال
وأهوى لجراك⁵ السماوة⁶ والفضا ولو أن ضيفيه وشاة وعذال⁷

فأنت لم تحكم بالسوية ولا عدلت في القضية، حيث حكمت بإعراض كل العقلاء عن الأديان، وبالتكاثر من الدنيا على كل البرية، كلا لو كان ذلك، لما بقى منا أحد إلا هالك، فراجع نفسك عن هذا الإطلاق، وتب للواحد الخلاق، واحكم على أهل ملتك بتلك الخصال والأخلاق، فإن رب العالمين يبقي علينا ببركة الفضلاء والصالحين.

ثم قلت: "وأحسب أن العلة في ذلك، رغبتهم في التكاثر من الدنيا، هي⁸ التي تدخلهم إلى التحاسد والمعايرة⁹، فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم، وأن الآخرة عندهم مهمة".

يا هذا لقد كثر غلطك، حتى يعجز الناظر فيه عن إحصائه، وعظم سقطك حتى لا أقدر على استقصائه.

تفرقت الأطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد
فتارة يتبجح عليك الكلام، وأخرى تبدل المدح بالملام، فريما تريد أن تمدح فتذم، وتظن أنك تحل ربطا وأنت تزم، وأنت في هذا الكلام قد لحت فيه في عدة مواضع، وأردت أن

1- في ط: "يفارق".

2- في ط: "يلازم".

3- في ط: "العطن".

4- في ط: "ليا وقطن".

5- في ط: "لجوان"، وفي خ/م: "بجراك" وهو تصحيف.

6- في خ/م: "السماوات" وهو تصحيف.

7- البيت الشعري فيه تصحيف وينسب لأبي العلاء المعري، ويقول فيه:

8- في ط: "وهي".

9- في خ/م: "المتغاية".

تقول شيئاً، فعبرت عنه بعبارة يفهم منها بحكم وضعها خلاف ما أردت أن تقول، وذلك بين عند من تأمله من أهل العقول.

وبالجملة، فأنت في هذا الفصل أردت أن تتفصح¹ وتغرب، فإذا بك تبهم ولا تعرب، على أن كلامك في هذا الفصل قليل الجدوى، واهي الأصل. فينبغي أن نتعدى² أكثر كلامك [وننزه عقولنا]³ عن الأخذ في كثير من هذيانك، فإن الأخذ في الخرافات، والاشتغال بالترهات، محل بالعقول والمروءات.

ثم قلت بعد ذكر كلام حكيث⁴ به فعل السفلة الطغام المعدودين في رعا عوام⁵، لأن كل قوم قلدوا سلفهم، وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم وذم غيرهم. يا هذا جهلت كل الأنام، إذ زعمت أن التقليد دأب كل الأقوام، ولو أنصفت في القضية، وعدلت بالسوية، لقلت إن الناس قسمان: قسم إيمانهم برهاني، وقسم اعتقادهم تقليدي. هكذا ظهر من أمر أهل الأديان، وأما من لم يتدين بدين فينبغي ألا يعد في الموحدين.

وبعد هذا ينبغي أن تعلم أن أمور الاعتقاد والإيمان، لم يقنع فيها قط أحد من الفضلاء بالتقليد من غير برهان، ولأجل هذا حرم الله علينا الركون إلى التقليد، وذم من عول في اعتقاده على إتباع الآباء والجدود، فقال تعالى حكاية عن المقلد، وذاماً له وموبخاً له على جهله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۖ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۖ﴾ ﴿٢٢﴾ قُلْ أُولُو جُنُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ﴾⁶، فهذا ذم من الله للتقليد وأهله، وقد أمر بالنظر الصحيح وحض على فعله، فقال تعالى: ﴿قُلِ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ

1- في ط: "تتفصح".

2- في ط: "نتعدى".

3- في ط: "تنزه عقولاً".

4- في ط: "حكيث".

5- في ط: "الأعوام".

6- سورة الزخرف، الآيات: 22-24.

وَالْتُدْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ¹، وقال²: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ³، وقال⁴: ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ⁵، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ⁶.

ومثل هذا كثير، وكفى شرفاً بهذا الدين، ودليلاً على صحته عند العقلاء العاقلين، أنه حرم التقليد، الذي يجر إلى الإلباس والتجهيل والتعنيذ⁷، واستتهض العقول للنظر، وأوضح لها مسالك العبر، وأوجب عليها النظر الصحيح المفضي إلى العلم، ومن لم يفعل ذلك من العقلاء، فقد تعرض للعتاب⁸. وألزم ذلك كله ليتبين عن بصيرة الرشد من الغي، ويعلم من هو على الحق ممن تحكم في دينه بظلمات التقليد والرأي. وبعد هذا، فإني لا أشك في أنك لا تعرف حقيقة التقليد، ولا أقسامه، ولا أحكامه، ولا في أي محل يجوز، ولا في أي محل يحرم، ولا من الذي يُقلد، ولا من المقلد.

فإن ادعيت أنك تعرف شيئاً مما هنالك، فعجل بالجواب على ذلك.

ثم قلت: -بعد ترديد وتطويل، من غير إفادة علم ولا شفاء غليل- فكل يقتحم المناظرة وإن لم يحسنها، ويراها فريضة عليه وهو لا يفهمها، ولم يتخذ شيئاً من العلوم والصناعات إلا الفضول.

اعلم يا هذا، أن الله⁹ أنطقك بشرح حالك، فإنك عبرت عن سوء مناظرتك، ونظرت بركيك مقالك، فجهلت حتى توهمت أنك من أهل النظر، وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر، كلا فلقد ارتقيت مرتقا صعبا، وسلكت مسلكا وعرا، وادعيت

1- سورة يونس، آية: 101.

2- في ط: "وقال تعالى".

3- سورة الطارق، آية: 5.

4- في ط: "تعالى".

5- سورة الروم، آية: 8.

6- سورة الحج، آية: 46.

7- في ط: "التعنيذ".

8- في ط: "للعقاب".

9- في ط: "تعالى".

دعوى عريضة، لتخضع بها قلبا ضعيفا ونفسا مريضة، ولا بد من سؤالك حتى يتبين حـكـك¹ من محالك، فأقول لك: ما حد النظر وحقيقته؟ وما أصوله؟ وكم أقسامه؟ وما أحكامه؟ وما حقيقة المناظرة؟ وما شروطها؟ وكم هي؟ وما الشيء الذي يطلب بالمناظرة؟ وما حقيقة الدليل؟ وكم أقسامه؟ وكم شروطه؟ وما وجه الدليل؟ وما المدلول؟ وكم أقسامه؟ فإن كنت تدعى المناظرة فأجبنا عن هذه الأسئلة محاوره.

ثم قلت: "وإن الجميع يدعون أمرا، لا يقدرّون على التناصف فيه لبعـد غايته"، لتعلم يا هذا أن حكمك على الجميع بأنهم لا يقدرّون على التناصف حكم خطأ، فإن العاقل المشتغل بما يعنيه، إنما يطلب الحق ليصل إليه، ويتعرف الباطل ليـجـتـبـه²، ومن كانت هذه حاله، أنصف وتناصف، وإنما يمتنع التناصف على من غلب عليه التقليد، وجمد على ما ورثه من الآباء والجدود، وهو يصمم على أنه على الحق، فيمنعه ذلك التصميم عن البحث والنظر، ثم إن تبـه لنوع نظر، كان كما قال:

إن الفـصـون إذا قومـتها اعتـدلت ولن تـلـين إذا قومـتها الخـشب³.
فهذا الذي يتعذر عليه التناصف، وتبعد عليه الغاية المطلوبة، وما من نور الله قلبه، وأجزل من المعقولات حظه، فالتناصف مرغوبه، إذ الحق مطلوبه. وفي مثل هذا ينشد:
بعيد على الكسلان أو ذي ملالة وأما على المشتاق فهو قريب⁴.
فإن قلت: "ما ذكرته أنت قليل وما ذكرته أنا كثير"، قلت لك:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وحرار الأكثـرـين ذليـل
تـعـيـرنا أنـا قـلـيـل عـديـدنا فـقـلـت لـها إن الكـرام قـلـيـل⁵

- 1- في خ/م: "حك".
- 2- في ط: "يعرف الباطل ليتجنبه".
- 3- البيت لسابق البربري ويقول فيه:
- 4- قال سري السقطي: خرجت إلى الحج من طريق الكوفة، فلقيت جارية حبشية تمشي، فقلت: إلى أين يا جارة. قالت إلى مكة. فقلت لها: الطريق بعيد. فقالت:
- بعيد على الكسلان أو ذي ملالة ... وأما على المشتاق فهو قريب.
- 5- الأبيات للشاعر اليهودي السموأل بن عادي الجاهلي قالها بعد أن ضحى بابنه في سبيل الحفاظ على وعده لامرئ القيس بأن يصون دروعه وامراته أثناء غياب في سفره إلى بلاد الروم، وقد ذكرها الأعلام الشنتمري 476هـ في كتابه "شرح أشعار الشعراء الستة"، كما ذكرها التبريزي 502هـ في شرح كتاب الحماسة لأبي تمام وذكر البيتين معكوسين ويقول فيها:
- إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

ثم إن وجد في جميع الخلق واحد بهذه الصفة فقولك فاسد، فإنك حكمت على الجميع بحكم قبيح شنيع، وأطلقت القول ولم تخف فيه الزلل ولا العول.

ثم قلت: "ليختلفون في معرفة الباري تعالى لأنه لا يدركونه بالحواس، وإنما يتعارف¹ الناس فيما يدركونه بالحواس"، اعلم أن هذا الذي ذكرت لا يصح أن يقال على كل العقلاء، وإنما يصح ذلك على الجهلة الأغبياء، بل نقول إن الأغبياء أهل الجهالات يختلفون في الضروريات، وقد بينا عليكم مواضع كثيرة من اعتقادكم، خالفتم فيها الضروريات وناكرتم المعقولات، وأما أهل العقول السليمة والفطر المستقيمة فلم يختلف منهم اثنان في معرفة وجود الله تعالى، وإنما تخالفوا في أي وجود وجوده، وهذا يعرف في موضعه فلست من أهله.

وأما تمثيلك بالعبد الحبشي، فتمثيل ليس وراءه تحصيل، وذلك أن العبد الحبشي إذا كان عاقلاً سليم الفطرة، إذا سمع كلاماً لا يقبله عقله يردّه، وأما إذا كان ناقص الفطرة مختل العقل، فيقبل كل محال ولا يثبت على حال.

ثم قلت: "ولو أن مجوسياً دخل بلدنا فكسرت² عليه مجوسيته، ثم طلب الخروج إلى أفضل الملل³، أنت توهم بهذا القول البراءة عن المجوسية، والدعاء إلى الملة النصرانية، عساك يظن بك أنك تفحم الخصوم، أو أنك حصلت من دينك على أمر معلوم، كلا بل لو ناظرك مجوسي لأفحمك، ولو وزن دينه بدينك في معيار العقل لرجحك، وقد تبين ذلك فيما تقدم.

ثم قلت: "فكان يجد المجوسي في دعواهم: أن النصراني والمسلم، مقرران لليهودي بأن دينه أول وأنبيأؤه حق، ثم يقول النصراني: إن كتابي جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودي، ثم يقول المسلم وكذلك جاء كتابي فنسخ طاعة دين النصراني.

يا هذا البليد: أخطأت على المسلم، حيث ظننت أن المسلم يسلم لليهودي دينه الذي بيده الآن، ويعترف بأنه أول، وليس الأمر كذلك، بل الذي يقول به المسلم إن الدين الذي

فليس إلى حسن الثناء سبيل	وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فقلت لها: إن الكرام قليل	تعيرونا أنا قليل عدينا
وجار الأكثرين ذليل	وما ضرنا أن قليل وجارنا عزيز

1- في خ/م: "يتعارفون".

2- في ط: "فكبرت".

3- في ط: "الثلاث ملل".

جاء به موسى عليه السلام هو حق، وأنه الأول بالزمان بالإضافة إلينا وإليكم، وأما اليهود اليوم فليسوا على دين عندنا وعندكم.

فعندنا من جهتين، وعندكم من جهة واحدة، إحدى الجهتين عندنا: أنهم كفروا بمحمد نبينا، وقد كان الله تعالى أخذ عليهم العهد بالإيمان به، وبلغهم ذلك على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام، على ما ننقله إن شاء الله¹، وكذلك نقول في المسيح عليه السلام، إنهم كفروا به بعد أن أنكروه، وهذه هي الجهة الأخرى، فهاتان جهتان. وأنتم إنما تكفرونهم من جهة واحدة وهي كفرهم بالمسيح، فقد اتفقنا نحن وإياكم، على أن اليهود في هذا الوقت، ليسوا على دين، وليسوا بمنتسبين إلى شيء من دين موسى عليه السلام، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف جائف² في لفظك، وقلت على المسلمين والنصارى، ما لا يرضون به ولا يعولون عليه؟ وهل إطلاقك هذا إلا نتيجة جهلك، ومما يدل على نقص عقلك؟

ثم إنك ادعيت أن النصارى يقولون: إن كتابهم نسخ شرع اليهود، وكيف يصح لك يا جاهل بدينه أن تقول هذا؟ وعيسى عليه السلام يقول في الإنجيل الذي بأيديكم: "لم آت لأنقض شريعة من قبلي إنما جئت لأتممها"³.

فأما أنت هو الكاذب أو كتابك هو المحرف الباطل، وسنبين إن شاء الله تعالى ما أحدث في الإنجيل والتوراة من المناقضة والتحريف، ما يدل على أنها ليست هي التي أنزل الله.

ومن عجيب أمرك، وأدل دليل على جهلك، أنك تدعي أن كتابك نسخ شرع اليهود، وأنت بجهلك ترجع إليه في أحكامك، وهل هذا إلا تناقض ظاهر وجهل فاحش؟

ثم قلت: "فإذا كشف المجوسي اليهودي عما ادعياه أنكرهما، وقال لم يأت بعد كتابي من الله كتاب". يا هذا لقد قولت اليهود ما لا يمكنهم قوله، ولا يسمعون جهله، فإن اليهود يعترفون بأنه قد كان بعد موسى أنبياء كثيرون، جاءوا بصحف وقرءوا على الناس كتباً كثيرة، هي بين أيديهم وأيديكم اليوم، تقرؤونها وتحكمون بها، وها أنت قد استدلت بكثير

1- في ط: "تعالى".

2- في ط: "جائف"، ولعل جائف هي الأصح، أي ملت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسَى جَنَفًا﴾.

3- متى: 5: 17.

منها في كتابك هذا على إثبات نبوة¹ المسيح، فتلك الكتب التي نقلت منها، إما أن تكون من الله أو لا تكون، فإن كانت من الله، فقد أفحمت نفسك وأكذبتها، وصار كلامك ينقض أوله آخره، مع أن اليهود توافقك على أن تلك الكتب والصحف من الله، وعلى السنة رسل² الله. على هذا جمهورهم وأكثرهم. وإن كانت تلك الكتب، ليست من الله -ولا يساعدونك عليها- فكيف يسوغ لك الاحتجاج عليهم بشيء ليس من كلام الله ولا يسلمونه. فلقد مكنت من نفسك يا هذا اليهود والمسلمين، وصاروا على كذبك وخطئك من الشاهدين. فمثلك مثل: "الباحث بظلفه على حقه، والجادع مارن أنفه بكفه"³. فلقد لحقت ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا⁴.

وبعد هذا، فلتعلم أن الذي ينكره⁵ اليهود -لعنهم الله- من الكتب المنسوبة إلى الله تعالى، كتابك وكتابتنا لا غير، وسنقيم واضح الأدلة إن شاء الله على من خالفنا.

ثم قلت: "ثم يحمل المسلم البينة على النصراني من الكتب التي أقر له بها، وجامعه عليها، فإن لم يكن فيها محمد منتظرا، فلا حجة له عليه ولا مطعن⁶ له إليه، وإن كان فيها محمد منتظرا، ثم وافقت علاماته علامات الكتب، فقد أصاب المسلم، ولزم النصراني الخروج عن رضى⁷ معبوده".

ظاهر كلامك أنك أنصفت، وأنت في اعتقادك عليه ما عولت، ولقد أعلم أنك إذا أتيت ذلك، عليك من كتب عدلت وغدرت، شنشنة أعرفها من أخزم، وإذا كان الغدر في النفوس

1- في ط: "نبوة".

2- في خ/م: "رسول".

3- من أمثال العرب المشهورة وأصل الشطر الأول منه أن عنزة كانت لقوم فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شفرة، فنبشت بظلفها في الأرض فاستخرجت منها شفرة فذبحوها وقالوا: (بحثت عن حتفها بظلفها) فسارت مثلا. أما الثاني فيشير إلى قصة قصير مولى جذيمة الأبرش قصير، وكان قد أشار على سيده أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة، وقد دعت إليه ليزوجها، فخالفه وقصد إليها فقتلته فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر. فذهب مثلا.

4- سورة الكهف، آية: 103-104.

5- في ط: "تنكره".

6- في خ/م: "معلق".

7- في ط: "رضا".

الخبیثة طباعا، فالثقة بكل أحد عجز¹ وما هي أول برکتکم.

وأنا أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، بأسمائه الحسنی، وصفاته العلی، وبحق آدم وموسى، وعيسى ومحمد صلى الله عليهم، وممن بينهم من النبیین والمرسلین، وبالملائكة المقربين، وأهل طاعته أجمعین، أن یلعن من لا یرجع إلى الحق إذا تبین له، وأن یعجل علیه بنقمته فی الدنیا، تكون علامة على غضب الله علیه، وعلى عذابه فی الآخرة العذاب الدائم، نسأل الله العظيم، أن یفعل ذلك بعزته وكرمه، آمین آمین والصلاة على خیرته من خلقه.

ثم ینبغي لك أن تعلم أن نبوة نبینا محمد، لم تثبت لنا بطریق واحدة، بل بطرق كثيرة، فلو فرضنا أن الأنبياء صلوات الله عليهم، لم یبشروا به، لكانت نبوته ثابتة ببراہین قاطعة كثيرة، بها عرف نبوته العقلاء الذین لم یقرؤوا قط کتابا، ولا انتسبوا إلى شریعة، وسنوضح هذه الطرق إن شاء الله تعالى، ونبینها على ما لا یبقى معه ریب لعاقل بحول الله وقوته.

1- فی خ/م: "عجز".

الفصل الثاني

[المسيح المنتظر]¹

في حكاية كلامه أيضا،

قال: ومن بينة النصراني على اليهودي، أن في الكتب التي أقر له بها وجامعه عليها مسيح منتظر، لا يقدرّون على جحده، لأن انتظاره معروف فيهم، وظاهر عليهم، ودل على زمان مجيئه، أنهم منتظرون له منذ سببت اليهود، وبددت إلى اليوم، فإذا قد لزم اليهود انتظاره² من وقت تفريقهم في الدنيا، فقد وجب للنصارى أن يقولوا أنه قد جاء، والدليل على أنه هو، أن اليهود اختلفت من سببه، فصارت فرقتين على الكفر والإيمان به، فالفرقة الكافرة هم اليهود، والفرقة المؤمنة هم النصارى، فأمنت طائفة وكفرت طائفة، والكتب أجمع مع كلامهم، يحتجون بها بعضهم على بعض، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها، ويختلفون في تأويلها، كفعلهم إلى هذه المدة. والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما، أن ننظر في الكتب ونستدل بها على حالة بني إسرائيل منذ كانت على الإيمان والكفر، فإنهم إن كانوا على الكفر، فإنه يلزمهم الذلة، إذ الذلة والأسرة والفرقة، علامة الكافرين، وموجودة³ في الكتب، أن الله لم يوعدهم بالشواب [في الآخرة]⁴ لبني إسرائيل على الطاعة والإيمان، وإنما وعدهم في الدنيا، فوعدهم عند الطاعة والإيمان، بالملك والنعمة والنقمة من عدوهم، والتمهير لزرعهم وفواكههم، وأوعدهم عند الكفر والعصيان، بالتغلب عليهم، والملك والقهرة لهم من عدوهم، فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة والإيمان، ومستعبدين عند الكفر والعصيان.

فافهم الجواب عنه

اعلم يا هذا، [أنا لولا أنا نخاف أن ننابد]⁵ اليهود على كفرهم، وأن يحملهم ذلك على دوام الإصرار، وزيادة العناد، لنبهناهم على مواضع في هذه الأدلة التي ذكرت، يفسد

1- العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.

2- في ط: "بانتظاره".

3- في ط: "موجود".

4- ما كتب بين معقوفتين ساقط من خ/م.

5- في ط: "أنه لولا أننا نخاف أن نساعده".

عليك لأجل ذلك أكثرها، ويبطل عليكم الاحتجاج بها، ولو فعلنا ذلك، لما كان مما يقدر
في صحة نبوة المسيح فإنها تثبت بطرق أخر.

[وانما كان يكون]¹ ذلك دليلا على أنك لا تحسن الاستدلال، ولا تعرف طرق المناظرة
والجدال، ولكن حاشى لله أن أعين اليهود، أولي اللعنة والعداوة والبغضاء والأحنة، على
من التزم شرعة المسيح وركب منها المنهج الصحيح، وكيف أفعل ذلك، وقد أخبرنا الله
على لسان نبيه ورسوله، بأنه كان منهم عالمون بالله، ومصدقون بما جاءهم على لسان
محمد رسول الله، فقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّذِينَ ءَامَنُوا
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا^١ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي^٢ ذَلِكَ
بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ^٣ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ^٤ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ
الصَّالِحِينَ^٥ ٢.

[فهؤلاء هم الذين]³ عرفوا شرعة المسيح عليه السلام، وعلموا ما عهد إليه من نعت
محمد خير الأنام، فبادروا لتصديقه، ولم يمكنهم العدول عن طريقه، ولولا حرمة هؤلاء
الأولياء، الذين كانوا منكم، لما بقى ستر الله عليكم، لكن كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ^{١٧} مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ^{١٨} وَأَفْعِدُهُمْ
هَؤُلَاءِ^٤ ٤.

ومع هذا، فلا نخلي هذا الباب من التنبية على نكت تدل على سوء استدلال هذا
السائل خاصة بعون الله.

1- في ط: "وانما يكون".

2- سورة المائدة، آية: 82-84.

3- في ط: "فهؤلاء الذين".

4- سورة إبراهيم، آية: 42-43.

قلت يا هذا: "والدليل على أنه هو، أن اليهود اختلفت من سببه، فصارت فرقتين على الكفر والإيمان به، فالفرقة الكافرة هم اليهود، والفرقة المؤمنة هم النصارى، فأمنت طائفة وكفرت طائفة".

هذا دليل ليس له للدلالة على مجيء المسيح من سبيل، بل هو عين المذهب الذي تدعونه، ويبقى عليك الاستدلال عليه، وإن جاز أن يكون مثل هذا دليلاً صحيحاً على مجيئه، جاز أن يكون نقيضه دليلاً على انتفاء مجيئه، ولا فرق بين ما قلت، وبين ما يقوله اليهودي، إذ كل واحد منكم تكلم بدعوى ولم يثبتها، ولا بد لك من إقامة دليل، فاذكره فإن كلامك الأول ليس بدليل، فإن أخذت تستدل بدليل آخر خلاف ما ذكرت، فقد اعترفت بأن كلامك الأول ليس بدليل وانقطعت، وإن رجعت تستدل بذلك تبين جهلك هنالك.

فانظر ما أحسن هذا الدليل، فلعمري ما للمستدل به من النظر العقلي¹ كثير ولا قليل.

ثم قلت: "والكتب أجمع مع كلامهم، يحتجون بها بعضهم على بعض، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها، ويختلفون في تأويلها كفعلهم إلى هذا المدة".

تناقضت يا مخدوع ولم تشعر، وظننت أنك تنتصر، فإذا بك تستأسر، أفعجت² هنا بأنكم يحتج بعضهم³ على بعض، ويتضمن ذلك أنكم تحتجون بالتوراة عليهم، وكيف يصح لك هذا مع أنك قد ادعيت أنها منسوخة بكتابتكم، فإن قلت: "إن هذا عليهم في معرض الإلزام، قيل لك: فلا تأخذ من التوراة شيئاً من الأحكام، ولا تحكم منها على شيء بحلال ولا حرام".

ثم إن كلامك هذا، يفهم منه أنهم يحتجون عليكم بكتبهم، على أن المسيح لم يجيء، وإذا اتفق أن يحتجوا عليكم بمثل هذا من كتبكم، فقد أفحموكم.

هذا كله على ظاهر كلامك، ولم ترد⁴ هذا المعنى، وإنما أردت أن تقول: إن الجميع قد اتفقوا على ألفاظ الكتب، واختلفوا في تأويلها، ولم تساعدك العبارة، وهذا أكثر كلامك،

1- في خ/م: "العقل".

2- في ط: "أفصحت".

3- في خ/م: "بعضهم".

4- في ط: "ترد".

تريد أن تقول شيئاً، ثم تعبر عنه بعبارة تدل على خلاف ما أردت، وسبب ذلك أنك أدخلت نفسك في شيء لم تعرفه، وتعاطيت ما لم تحسنه، فكنت بمثابة من أدخل نفسه في شفت، ثم جاء آخر فشده عليه وربط.

ثم قلت: "والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما، أن ننظر في الكتب". إلى أن قلت: "إذ الذلة والأسرة والتفرقة¹ علامة الكافرين".

وهذا الإطلاق لو علمت ما يلزمك عليه، لاستغفرت إلهك منه، لكنك جهلت فأطلقت، وحيث وجب أن تمسك أرسلت، وذلك أنه إن صح ما ذكرت، فلا ذلة ولا أسرة ولا تفرقة، أبلغ من ذلة من يصفع في قفاه، ويجعل على رأسه شوك، وفي يده قصبة، ويساق للقتل وعلى عنقه خشبة، ويصلب وتسمر يداه ورجلاه وينحر²، وهو يطلب ماء فيرفع إليه إناء خل، وهذا كله بزعمكم، ولا رتبة في المذلة أبلغ من هذه، فعلى قولك وسياق دليلك، يلزمك تكفير المصلوب، ويحصل لليهودي منكم الغرض المطلوب، فإن كنت عاقلاً، فليقل³ كلامك، ولا يكن عارا عليك لسانك، وقد نصحتك يا فشك، وما أظنك تقبل.

وإنما أردت أن تقول -قلم تطاوعك العبارة يا جهول-: الدليل على مجيء المسيح المنتظر، أنه قد ثبت في كتب الأنبياء عليهم السلام أن الله قال لليهود: لا يزال ملككم قائماً وخيركم دائماً، ما دمت مؤمنين حتى تكفروا، فإذا كفرتم، أزلت ملككم، وأبدلتكم منه ذلاً وصغاراً، وغضباً ونقمة. وعند ذلك أرسل إليكم المسيح، ولا يشك أحد في زوال ملك اليهود وانقطاعه، وفي نزول الذلة والمسكنة عليهم، فلا يشك في كفرهم، ولا يشك في مجيء المسيح وأنهم كفروا به، ولو هكذا قلت، لما لزمك شيء مما ألزمت، وهذا الدليل الذي استدلت به على اليهود، إذا سيق على الطريقة التي ذكرناها، وصح نقله عن الأنبياء بطريق القطع، هو حجة على اليهود لا مخرج لهم منها ولا محيص عنها، على أنه بقي فيه مواضع للبحث إذا انفصلت تم الدليل ووضح السبيل.

1- في ط: "الفرقة".

2- في ط: "وينخر".

3- في ط: "فتقل".

الفصل الثالث

[المسيح عيسى ابن مريم]¹

من حكاية كلامه ايضا،

قال: وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء، قال النبي هوشع بن بثيري² عليه السلام هكذا بكلام عبراني: "كي يا ميم ربيم يا شابوا بأنا إسرائيل أن ملخ وان صار"³ تفسيره⁴: "إن أياما كثيرة يقيموا بنى إسرائيل دون ملك ودون مقدم"⁵، فإذا سئل اليهودي الجاحد، إن كان لهم ملك أو مقدم، فلا يكون جوابه إلا أن يقول: ليس عندنا ملك ولا مقدم. فيقال لهم: إذ ليس عندكم ملك ولا مقدم، فاسمع ما قال يعقوب الذي كان له اثنا⁶ عشر ولدا الذي منهم يوسف الصديق، رضي الله عنهم أجمعين إلى يوم الدين، قال الفاضل يعقوب بكلام عبراني: "لو يا صور شابات مى يهودا ومحو كيك [صبان غلات غاض]⁷ كى يا بوشيلو ولوا اقاهاث عميم"⁸، وهذا تفسيره⁹: لا ينتقض قضيب¹⁰ الملك من يهودا وراسم من بين رجليه، حتى يأتي المسيح وله تطوع الأمم.

- 1- العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.
- 2- في خ/م: "باوي". ابن بثيري. وهو نبي من الأنبياء الصغار، تتبأ أيام الملوك عزريا ويوثام وأحاز وحزقيا ملوك يهودا ويريعام الثاني ملك المملكة الشمالية (هو: 1: 1). ويظن أن فترة نبواته دامت حوالي أربعين سنة، في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد عاصر هوشع سقوط السامرة سنة 722 ق.م. وكان ينتمي إلى مملكة الشمال، وإلى تلك المملكة (أي السامرة). تتبأ، وكان معاصرا لإشعيا الذي تتبأ للمملكة الجنوب (يهودا) (قابل هو: 1: 1 مع إش: 1: 1). كما أن هوشع عاصر عاموس في المملكة الشمالية وميخا في المملكة الجنوبية. وسفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار في ترتيب وضعها في الكتاب المقدس. وهو السفر الثامن والعشرون، في العهد القديم ويتألف من قسمين: ص1-3، ثم ص4-14. أما القسم الأول فيرجع إلى السنوات الأولى من عهد نبوة هوشع. وهو يفسر إصحاحات القسم الثاني، التي تدور حول عدم وفاء شعب بني إسرائيل في تاريخهم الطويل (4: 1-5: 7، 6: 4-7: 16، 8: 11)، وحول ضرورة الطهارة، والاعتراف بمحبة يهوه (6: 1-3، 12: 14) (ويرمز إلى خيانة بني إسرائيل لله في الإصحاحات الثلاثة الأولى بالخيانة الزوجية).
- 3- سفر هوشع: 4. "כי ימים רבים، ישבו בני ישראל—אין מלך ואין שר".
- 4- في خ/م: "فسره".
- 5- هوشع: 4، "لأن بني إسرائيل سيقعدون أيام كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وبلا ترافيم".
- 6- في ط، وخ/م: "أثي".
- 7- في ط: "مبين رعلاف عاد".
- 8- التكوين: 49: 10. "ל'א-יסור שבט מיהודה، ומח'קק מבין רגליו، עד כי-יב'א שיל'ה، ולא יקהת עצמים".
- 9- في خ/م: "فسره".
- 10- في ط سقطت كلمة "قضيب".

فيقال له¹: إذ ليس لكم ملك ولا مقدم، فقد جاء المسيح لقول² يعقوب: [لا ينتقض قضيب الملك من يهودا ورأسه من بين رجليه حتى يأتي المسيح فقد كمل ما قال يعقوب]³ النبي: إذ ليس لهم ملك.

وقال يرميا⁴ النبي عليه السلام، في الطائفة الكافرة به بكلام عبراني هكذا: "أم يا عمود موشا وشموا لافاناي⁵ أن نفسى⁶ الها عم هذا سلاح معال فاناي ويا ساوها ياكى نمروا⁷ أناه ناسا وامرتا [لاميم مي]⁸ لما باث لما باث امى لسانى⁹ امى لا راعاب لا راعاب وخلاي¹⁰ حامتي¹¹ بام".¹²

اسمع كلام الله على لسان يرميا¹³ النبي تفسيره¹⁴: "إن وقف إلى موسى وشموا لا نرضى عن هذه الأمة أرميههم من قدامى ويخرجوا، فإن قالوا أين يخرجوا فتقل لهم من الموت إلى الموت ومن الغنى إلى الغنى¹⁵ ومن الجوع إلى الجوع ويكمل غضبي فيهم".¹⁶

1- في ط: "لهم".

2- في ط: "كقول".

3- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

4- في ط: "إرميا".

5- في ط: "لقاني".

6- في ط: "نفسى".

7- في ط: "يمرو".

8- في ط: "لاهميم هي".

9- في ط: "تشانى".

10- في ط: "خلاقى".

11- في ط: "جماتى".

12- إرميا 15: 1-2،^أ "وَيَأْمُرُ يְהוָה، أֵלֹהִי، אֶם-יַעֲמֹד מִשָּׁה וּשְׁמוּאֵל לִפְנֵי אֵין נִפְשִׁי אֶל-הָעָם הַזֶּה; שְׁלַח מַעַל-פָּנַי، וַיֵּצְאוּ. וְהָיָה כִּי-אָמְרוּ אֵלַי، אָנָּה נֵצֵא; וְאִמְרַת אֲלֵיהֶם כֹּה-אָמַר יְהוָה، אֲשֶׁר לַמּוֹת לַמּוֹת וְאֲשֶׁר לַחֲרֹב לַחֲרֹב، וְאֲשֶׁר לַרֶעֶב לַרֶעֶב، וְאֲשֶׁר לַשָּׂבִי לַשָּׂבִי.

13- في ط: "إرميا".

14- في خ/م: "فسره".

15- في ط: "الغنى إلى الغنى".

16- إرميا 15: 1-2. ثم قال الرب لي وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. اطرحهم من أمامي فيخرجوا ويكون إذا قالوا لك إلى أين نخرج أنك تقول لهم هكذا قال الرب الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي.

فهم في غضب الله بكفرهم بالمسيح الذي قد جاء.

ثم قال الله¹ على لسان يعقوب النبي الفاضل بلسان سرياني هكذا: "[لا يا عضا عاث شلطان مرفاث]² يهودا وصفوا متانا بانوهي عاض على ما عاثرا³ ياتا ماشيحا داث لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عما⁴ مايا" وهذا تفسيره⁵: "كما قاله الله على لسان نبيه يعقوب: "لا ينتقض قضيب الملك من يهودا ورأسهم من أنبيائه⁶ حتى أن يأتي ما شيحا الذي هو المسيح الذي له ملك⁷ وله تطوع الأمم".

وقال الله تعالى على لسان يرميا، النبي في انقطاع ملكهم بكلام عبراني هكذا: "فأضاع أدوناي يا حور أف كل كان⁸ إن إسرائيل"، وهذا تفسيره⁹: "قطع الله بشدة غضبه جميع دولة إسرائيل" فافهم فقد جاء المسيح وانقطع ملكهم.

وقد قال الله على لسان يرميا النبي في إثبات شريعة المسيح وإيمان الحواريين قائلا بلسان عبراني: "[من ياميم بايم نوم أدوناي واحارتي لابت وابت إسرائيل يهودا بريث حاد شالو خبريت أشير نار بي أبوثام باليوم موسى أاثام هي أرض نص ثم मिलت عابا ضميم]¹⁰ تفسيره، يقول الله: وأثبت لبית إسرائيل ويهودا عهدا جديدا ليس كالعهد الذي قلت لأبائهم في اليوم الذي أخرجتهم من أرض مصر من بيت العبودية".

1- في ط: "تعالى".

2- في ط: "ألا يا عضا عاث غلطان مد أفات".

3- في ط: "عاث ذا".

4- في ط: "عاما".

5- في ط: "م: فسر".

6- في ط: "أبنائه".

7- في ط: "الملك".

8- في ط: "مكان".

9- في ط: "م: فسر".

10- إرميا 31: 31-32. ورد النص في ط باختلاف طفيف في بعض الحروف والكلمات، "هنا يا ميم بايم نوم يهوه واحارتي ات بت إسرائيل وايت بت يهودا بريث حارشا لو اخبريت اشير بريث ات ابو ثام بيوم هو تزيكي بيرم لهو عاييم مي ارس مصريم امير همه هفرو ات بريث وانبي بعلتي بم نام يهوه". والنص بالعبرية هو: "ל'א כבדית, א/שר כרתי את-אבותם, ביום החזיקי בדם, להוציאם מארץ מצרים; א/שר-המה הפרו את-בדיתי, ואנכי בעלתי גם--גאם-יהוה." כי זאת הברית אשר אכרת את-בית ישראל אחרי הימים ההם, גאם-יהוה, נתתי את-תורת בקרבם, ועל-לבם אכתובה; והייתי להם לאלהים, והמה יהיו-לי לעם".

فبين الله بهذا الكلام، إيمان الحواريين¹ والتابعين لهم، كما قال الله في موضع آخر على لسان إرمياء النبي بلسان عبراني، عن إيمان الحواريين قال: "اشربوا"² بانيم شوبايم نوم ادوناي كي انوخى با على باخيم ولا كحتى اتخيم [أحد مي عيدا وشنايم مشباحا واهاباتى]³ اتخيم سيون"⁴.

تفسيره: "ارجعوا يا أولاد اللجاجة فإني [انضريت فيكم]⁵ وأخذكم واحدا من مدينة واثنين من عشيرة وأدخلكم إلى صهيون وكذلك أخذ الحواريين واحدا من مدينة واثنين من عشيرة"⁶، ثم قال لضيق الآية: "واناتى"⁷ لا خيم روعيم كلبى" تفسيره: "ونعطيكم رعاة قلبي"⁸.

[ثم قال]⁹: "وأراع اتخيم رعاء واهسكال"¹⁰ تفسيره¹¹: "ويرعوكم المعرفة"¹² والفهم"¹³ وكذلك جعل من الحواريين أئمة ورعاة يعلموا الناس المعرفة والفهم"¹⁴. ثم قال لضيق الآية في ألا يعمل بالعهد البالي: "واها ياكى ترفوا"¹⁵ افريتيم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناي لو يمرؤا [عردارون ريث]¹⁶ ادوناي ولو يا عالا على لاب ولديز كا وابوا ولوا يفقوا

1- في خ/م: "الحواريون".

2- في ط: "شوبوا".

3- في ط: "أحد معير وشنايم مشتبان واهاباتى".

4- إرميا: 3: 14، شوبو بنيم شوبابيم نأ-يهوه، كي أن كي بعلايتي بكم، ولقحتي أتككم أحد معير، أشنيم ممشפה، وهباتي أتككم، فيون
5- في ط: "سدت عليكم".

6- النص العربي من سفر إرميا: 3: 14: "ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب لاني سدت عليكم فأخذكم واحد من المدينة واثنين من العشيرة واتي بكم إلى صهيون"

7- في ط: "واناتي".

8- في ط: "قلبي".

9- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

10- النص العربي من إرميا: 3: 15، "وننتي لكم رعاة، قلبي وركو أتككم، دعه وهشكيل".

11- ساقطة في ط.

12- في ط: "بالمعرفة".

13- النص العربي إرميا: 3: 15 "وأعطيكم رعاة حسب قلبي فيرعونكم بالمعرفة والفهم".

14- ما بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.

15- في ط: "تربوا".

16- في ط: "عردارون بريث".

ذوا ولو يا عا ساعود¹، تفسيره²: "ويكون إذا كثرتم وتنمو في الأرض في تلك الأيام يقول الله لا يقولوا³ أبدا بتابوت عهد الله ولا يصعد على قلب ولا يذكر به ولا يعتقد ولا يعمل به أبدا"⁴.

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم.

ثم قال سليمان الفاضل: "لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين"⁵.

فافهم أيها الإنسان ما هي معرفة المقدسين الذي لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا إلا أن عرفها وآمن بها.

وفي⁶ حقيقة الإيمان قال: "من صعد إلى السماء وهبط من قبض الأرواح في كفيه من جمع الماء في ثوب"⁷، ثم قال بكلام عبراني: "مى هاكميم كل افس اريس [مشموا أمشم]⁸ بنوا"⁹.

فافهم فسرهم وكن عاقلا مدبرا ترشد.

قال سليمان: "مى هاكميم كل افس اريس [مشموا أمشم]¹⁰ بنوا"¹¹ تفسيره: "من أقام

1- النص العبري من سفر إرميا 3: 16، "וְהָיָה כִּי תִרְבוּ וּפְרִיתֶם בְּאֶרֶץ בְּיָמֵי הַהֵמָּה، בְּאֵם-יְהוָה--לֹא-יֵאמְרוּ עוֹד אֲרוֹן בְּרִית-יְהוָה، וְלֹא יַעֲלֶה עַל-לֵב؛ וְלֹא יִזְכְּרוּ-בּוֹ וְלֹא יִפְקְדוּ، וְלֹא יַעֲשֶׂה עוֹד .".

2- في خ/م: "فسره".

3- في ط: "تقولوا".

4- النص العربي من إرميا 3: 16، "ويكون إذ تكثرون وتثمرون في الأرض في تلك الأيام يقول الرب أنهم لا يقولون بعد تابوت عهد الرب ولا يخطر على بال ولا يذكرونه ولا يتعهدونه ولا يصنع بعد".

5- سفر الأمثال 3: 30.

6- ساقطة من خ/م.

7- الأمثال 30: 4. من صعد إلى السموات ونزل من جمع الريح في حفنتيه من صر المياه في ثوب، ثبت جميع أطراف الأرض. ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت.

8- في ط: "ماشموا وماشم".

9- النص العبري من الأمثال 30: 4، "מִי עֹלֶה-שָׁמַיִם וַיֵּרֵד، מִי אֹסֵף-רוּחַ בְּחִפְנָיו מִי צָרַר-מַיִם בְּשִׁמְלָה--מִי، הַקִּים כָּל-אֶפְסֵי-אֶרֶץ: מֶה-שָּׁמוּ וּמֶה-שָּׁם-בְּנוֹ، כִּי יִדְּעָא."

10- في ط: "ماشموا وماشم".

11- النص العبري من الأمثال 30: 4، "מִי עֹלֶה-שָׁמַיִם וַיֵּרֵד، מִי אֹסֵף-רוּחַ בְּחִפְנָיו מִי צָרַר-מַיִם בְּשִׁמְלָה--מִי، הַקִּים כָּל-אֶפְסֵי-אֶרֶץ: מֶה-שָּׁמוּ וּמֶה-שָּׁם-בְּנוֹ، כִּי יִדְּעָא."

جميع أقطار الأرض ما اسمه واسم ابنه² ثم قال لضيق الآية بالعبراني: "كل أمراث ألواه صروفا ماغين هو [لا حول ها حوسيم بوا]^{1,2}، تفسيره³: "جميع كلام الله ترس منير هو لجميع الواثقين⁴ به⁵ فافهم.

ثم قال الله على لسان يرميا⁶ النبي بكلام عبراني: "هنا ياميم بايم توم⁷ أدوناي واكراتي ات بت إسرائيل وات بت يهودا بریت هارشاه زيرع آدام وزيرع مهيم⁸، تفسيره: "هذا يوم يأتي يقول الله ونزرع في بيت إسرائيل وبيت يهودا نسل آدمي ونسل بهيمي⁹".

فكان النسل الآدمي الحواريون المؤمنون بالمسيح عند إقباله والتابعين لهم، وكان النسل البهيمي اليهود الجاحدين¹⁰ للمسيح، وكذلك الحواري يحيى¹¹ الذي اسمه جوانش قال من لم يؤمن¹² ولم يتمادي في تعليم المسيح فلا إله له فافهم ترشد.

1- في ط: "لات سيم بو".

2- الأمثال 30: 5، النص العبري: "כל-אמרת אלוה צרופה; מגן הוא, לח'סים בו".

3- في خ/م: "فسره".

4- في خ/م: "الواثقين".

5- الأمثال 30: 5، والنص العربي: "كل كلمة من الله نقية ترس هو للمحتمين به".

6- في ط: "إرميا".

7- في ط: "توم".

8- النص اختصار لما ورد في النص العبري من سفر إرميا 31: 31-34: "לא' א כבדתי, אשר כרתי את-אבותם, ביום החזיקי בידם, להוציאם מארץ מצרים: אשר-המה הפרו את-בריתי, ואנ' כי בעלתי גם--גאם-יהונה. כי זאת הברית אשר אכרת את-בית ישראל אחרי הימים ההם, גאם-יהונה, נתתי את-תורתי בקרבם, ועל-לבם אכתבנה; והייתי להם לאל' הים, והמה יהיו-לי לעם. ול' א ילמדו עוד, איש את-רעהו ואיש את-אחיו לאמר: דעה את-יהונה: כי-כולם ידעו אותי למקטנם ועד-גדולם, גאם-יהונה--כי אסלח לעונם, ולחטאתם לא' אזור-עוד. כי כ' אמר יהונה, נתן שמש לאור יומם, חק'ת ירח וכוכבים, לאור לילה; ר'גע הים ויהמו גליו, יהונה צבאות שמו".

9- إرميا 31: 31-34: "ها ايام تاتي يقول الرب واقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا . 32 ليس كالعهد الذي قطعته مع ابائهم يوم امسكتهم بيدهم لاجرجهم من ارض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب 33 . بل هذا هو العهد الذي اقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الايام يقول الرب اجعل شريعتي في داخلهم واكتبها على قلوبهم واكون لهم الها وهم يكونون لي شعبا 34 . ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد قائلين اعرفوا الرب لانهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب . لاني اصفح عن اثمهم ولا اذكر خطيتهم بعد .

10- في خ/م: "الجاحدون".

11- في ط: "يوحنا".

12- في خ/م: "يا من".

اعلم أنني كتبت لك بالعبراني والسرياني¹ من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التي بأيديهم، وأن اليهود لا يقدرّون على إنكار حرف منها، إذا احتج معهم بها بالعبراني والسرياني، كما نطقت به الأنبياء رضي الله عنهم في إثبات إقبال المسيح، وإيمان الحواريين² والتابعين لهم وفي إطراح اليهود الملاعين الجاحدين للمسيح سيدنا فأفهم.

الجواب عما ذكره³

يا هذا المخدوع، ظننت السراب ماء، والأرض سماء، فاستسمنت ذا ورم، ونفخت في غير ضرم، اعلم يا هذا، أنه لا يقبل منك في هذا المقام، الاستدلال بالظنون والأوهام، إذ المطلوب فيه تحصيل العلم القطعي، واليقين البرهاني، فلا يحصل لك شيء من ذلك، حتى تعلم صحة ما استدلت به هنالك، ولا تعلم صحة شيء مما ادعيت، دليلاً قاطعاً مفيداً للعلم، إلا بعد معرفتك بأن⁴ هذه الكتب التي استدلت بها، هي⁵ من عند الله، وأنها بلغتك عن الله على السنة الصادقين، ولا تتوصل⁶ إلى معرفة شيء من ذلك، إلا بعد معرفتك بالنبوات وحقيقتها، ودلائل صحتها العقلية.

ولا تتوصل إلى ذلك، حتى تعلم حدوث العالم، وأنه موجود بعد عدم، وتعلم أن له محدثاً، وأن محدثه موجود، حي عالم قادر مريد، موصوف بصفات الكمال، حتى يصح منه إرسال الرسل وتأييدهم بالأدلة، وكل ذلك إنما يعرف بأدلة عقلية⁷، ولا يصح أن تعرف بأدلة سمعية، فإن السمع لا يثبت، إلا بعد ثبوت هذه الأصول، فإذا وصلت إلى هذا المحل، وسلمت من التعثر بأذيال الزلل.

وكم دونها من مهمة ومفازة وكم أرض جذب دونها ولصوص⁸
فحينئذ يجب عليك أن تنظر فيما ألقى الصادقون إليك، فإن كنت ممن تسمع منهم

1- في خ/م: "السرياني".

2- في خ/م: "الحواريون".

3- في ط: "ذكر".

4- في ط: "أن".

5- في ط: "أهي".

6- في ط: "يتوصل".

7- في ط: "قطعية".

8- البيت لامرئ القيس من قصيدته:

أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص.

كلامهم، وتشافه بنفسك خطايهم، فقد سقطت عنك معرفة طرق النقل، وشروط التحمل والحمل، ولزمتك معرفة اللغة التي يتكلم بها الصادقون، فتعرف مقاطع الكلمات، وكيفية النطق من اختلاف بسكون أو حركات، وتعرف فرق ما بين الحقيقة والمجاز، والنص والظاهر، والمجمل والمؤول¹، والخاص والعام²، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، إلى أمور كثيرة تعرف في علم الأصول، وإن كنت ممن لم يسمع³ من الصادقين، فلا بد لك من أن تنظر في الذي بلغك ذلك الدليل على يديه، إن كان يجوز عادة عليه الغلط والسهو أو لا، فإن كان ممن يجوز عليه الغلط والسهو عادة، فلا يلتفت إلى خبره في هذا المقام، وهذا النوع هو الذي يسمى عندنا أخبار الآحاد، ولها محل تقبل فيه بعد مراعاة شروط. ويعرف كل ذلك في موضعه.

وأما مثل هذا الذي تصدित له، فلا يتوصل إليه بهذه الطرق، فإن المطلوب هنا حصول العلم، ولا يحصل العلم بقول من يجوز⁴ الخطأ والسهو عليه في خبره، وإن كان مما لا يجوز عليه شيء مما ذكرناه عادة، فهو الذي يحصل العلم بقوله، وهو العدد الكثير الذين تحيل العادة عليهم الكذب، وهذا الخير هو الذي يسمى المتواتر، والتواتر له شروط وأحكام تعرف في موضعه.

فإذا تقررت هذه المقدمة، فأنا أسألك سؤال منصف لا معنف⁵، وأقسم عليك بدينك قسم متلطف لا متعجرف، هل توفرت لديك هذه الشروط، أم هل أكثرها عندك مطرح مسقوط؟ فإن أنصفت واعترفت، علمت أنك على العلم بها ما حصلت، فينبغي لك أن تطلب حصول العلم من بابه، وأن تجتهد في تحصيل أسبابه، وإن ادعيت علم ذلك، علم أنك مغالط معاند، جائر عن الحق وحائد.

وكفى بكلامك في كتابك هذا على كذبك شاهد، ثم على قرب تفتضح إذا خرست عن جواب ما عنه سئلت، فعجل⁶ بالجواب، ولا تتأن بالكتاب⁷، وإن أبيت إلا تماديا في غيك، واستمرار على جهلك وبغيك.

1- في خ/م: 'المؤول'.

2- في ط: 'العالم والخاص'.

3- في خ/م: 'تسمع'.

4- في ط: 'يتجاوز'.

5- في ط: 'منصف'.

6- في ط: 'تعجل'.

7- في ط: 'في الكتاب'.

أريناك اختلال هذه الشروط عندكم عيانا، وأقمنا على فساد كتبك حجة وبرهاننا .
 وذلك أنا نقول: "إن من أعظم كتبكم التي ترجعون إليها وتعولون في أحكامكم عليها
 التوراة والإنجيل، وكفى بهما شرفا وشهرة أنهما عندكم كلام الملك الجليل، وأنتم تدعون
 أنكم تناقلتموهما جيلا بعد جيل، وأنا أبين إن شاء الله أن نقلهما إنما هو¹ بطريق الآحاد،
 وأن الغلط والسهو يجوز على ناقليهما [وهما منهما ببطلان المراد]².
 وأذكر³ إن شاء الله بعض ما وقع فيهما من التناقض والتحريف، والقلب والتصحيف،
 وأنبه على قبيح ما تتسبونه فيهما إلى الله، من القول السفساف السخيف، وما تنتقصون
 به الأنبياء أولى الفضل والتشريف، بحول الله تعالى وحسن عونه.
 وأبدأ بالتوراة لكونها مقدمة في الرتبة والزمان، ومعترفا بها عند أولي الأديان [وبالله
 المستعان]⁴.

1- في ط: "كان".

2- في ط: "وسأتي منهما ببطلان المراد".

3- في ط: "أذكر".

4- ساقطة في خ/م.

فصل: في بيان بعض ما طرأ في التوراة من الخلل، وأنها لم تنقل نقلاً متواتراً فتسلم لأجله من الخطأ والزلل.

فأول ذلك¹:

أنها لم تترك على ما كانت في الألواح التي كتبها الله² لموسى، ولا على ما انتسخها لهم موسى، بل زيد فيها ولا بد ما ليس منها، ولا كان في الألواح التي كتبها الله لموسى، ويدل على ذلك أن في آخر السفر الخامس أن موسى توفى: "في أرض موآب [ودفن في الوادي في أرض موآب]³، بإزاء بيت فغور، ولم⁴ يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم، وكان قد أتى على موسى إذ توفى مائة وعشرون سنة، ولم يضعف بصره، ولم يتشيخ⁵ وجهه، وبكى بنو إسرائيل على موسى ثلاثين⁶ يوماً في غريب⁷ موآب، فلما تمت أيام حزنهم على موسى، امتلأ يوشع⁸ بن نون من روح الحكمة، لأن موسى كان وضع يده على رأسه في حياته، وكان بنو إسرائيل يطيعونه ويعملون كما أمر الرب موسى".⁹

ولا يشك الواقف على هذا التاريخ وهذه الوفاة، أنها ليست مما أنزل الله على موسى ولا مما كتبها موسى عن نفسه، وإنما هي من إثبات من أراد أن يثبتها بعد وفاة موسى بزمان، ويدل على ذلك قوله: "ولم يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم"¹⁰ يريد¹¹ اليوم الذي كتب فيه هذا، وهذا بين عند المنصف، ومع بيانه فليس أحد من اليهود والنصارى - فيما أعلم - يقول إن التوراة زيد فيها شيء بعد موسى، ولا يفرق بين هذا الكلام وغيره،

1- في ط: "دليل".

2- في ط: "تعالى".

3- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

4- في خ/م: "أو لم".

5- في خ/م: "يتشيخ".

6- في ط: "ثلاثون".

7- في ط: "غريب".

8- في ط: "يشوع".

9- النص اختصار لما جاء في سفر التثنية 34: 5-9

10- التثنية 34: 6

11- في ط: "يريد به".

بل هي كلها عندهم كلام الله، وهذا جهل عظيم وخطب جسيم، فهم بين أمرين: إما أن يقولوا: إن هذا الكلام هو مما كتبه الله لموسى وأخبر به موسى، أو يقولوا إنه ليس مما أخبر الله به موسى ولم يخبر به موسى، فإن قالوا الأول كذبه مساق الكلام، فإن المفهوم منه على القطع أنه كتب بعد وفاة موسى بزمان، وإن قالوا بالقول الآخر، قيل لهم فلا شيء خلطتم كلام الله بكلام غيره، وأجريتموها في نسق واحد وزدتم على كلام الله ولم تشعروا بذلك، بل نسبتم كل ذلك إلى أن الله أنزله.

وإذا جاز زيادة مثل هذا ولم يتحرز منه، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا تصح¹ نسبتها إلى الله زائدة، ولا سيما الحكايات الركيكة، التي تحكى فيها عن الأنبياء التي لا يليق ذكرها بسفلة الناس، وغالب الظن، ولا يعلم الغيب إلا الله²، أن السفر الأول الذي هو سفر البدء والأنساب، مما زيد على كلام الله³ ولم يشعروا بزيادته.

ومما يدل أيضا على هذا المعنى أن كثيرا مما يجيء فيها: "وكلم الرب موسى وقال له اقبض حساب بني جرشون"^{4,5}، "وكلم الرب موسى وقال له كلم بني إسرائيل"⁶، ومثل هذا كثير.

وهذا يدل على أنه ليس مما قاله الرب جل ذكره لموسى، ولا مما قاله موسى لهم أعني: "لفظ وكلم الرب موسى وقال له"⁷، وما أشبهه من لفظ الحكاية عنه، وإنما هو شيء حكى عنه بعد انقراضه، وأضيف إلى كلام الله، ثم لا يعرفون من الحاكي، وإذا جاز مثل هذا، ولا يشعرون به، جاز أن يكون أكثرها مغيرا ومبدلا، وليس من كلام الله ولا من كلام موسى ولا يشعرون به، ومن وقف عليها متتبعا لهذا المعنى، قطع بأنها زيد فيها ما ليس منها.

وعند انكشاف الغبار، يتبين⁸ أفرس تحتك أم حمار، ماء ولا كصدي⁹ ومرعى

1- في ط: "تصح".

2- في ط: "تعالى".

3- في ط: "تعالى".

4- في خ/م: "خرشون".

5- العدد 4: 21.

6- العدد 15: 2-1.

7- العدد 18: 25.

8- في ط: "تتبين".

9- في خ/م: "تصدي".

ولقد حفظ الله القرآن العظيم فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنُحِيطُونَ﴾^{2,3} ولذلك كره علماءنا رضي الله عنهم كتب التعاشير⁴، وأسماء السور في المصحف، وإن كانت بخط آخر ولون آخر، وقد اتفقوا -فيما أحسب- على أنه لا يجوز كتب فواتح السور -أعني⁵ أسماءها- بخط المصحف ويلون مداه، لئلا يختلط به ما ليس منه، فالحمد لله الذي هدانا لهذا الدين القويم والمنهج المستقيم.

وأما بيان أنها ليست متواترة، فهو أن اليهود عن⁶ بكرة أبيهم، يعرفون ولا ينكرون، أن التوراة إنما كانت طول⁷ مدة ملك بني إسرائيل عند الكوهان الأكبر الهاروني وحده، وعنه تلقيت، ولا ينكر ذلك منهم ولا منكم إلا مجاهر بالباطل.

1- جاء في زهر الأكم في الأمثال والحكم. وقال أبو علي البصير يمدح عبيد الله بن خاقان وله:

يا وزراء السلطان ... أنتم وآل خاقان

كبعض ما روينا ... في سالفات الأزمان

ماء ولا كصدي ... مرعى ولا كالسعدان

2- سورة الحجر، آية: 9.

3- في خ/م: سقطت بقية الآية: "وَأَنَا لَهُ لَنُحِيطُونَ".

4- هامش 3، في ط: التفاسير وهو تصحيف والصحيح التعاشير، وهي العلامة التي توضع للإشارة إلى تمام عشر آيات في القرآن يقول السرخسي في أصوله عند الحديث عن القرآن: "فعرضنا أن الطريق فيه النقل المتواتر. وإنما اعتبرنا الاثبات في دقات المصاحف لأن الصحابة رضي الله عنهم إنما أثبتوا القرآن في دقات المصاحف لتحقيق النقل المتواتر فيه، ولهذا أمرنا بتجريد القرآن في المصاحف وكرهوا التعاشير وأثبتوا في المصاحف ما اتفقوا عليه ثم نقل إلينا نقلاً متواتراً فثبت به العلم قطعاً، ولما ثبت بهذا الطريق أنه كلام الله تعالى ثبت أنه حجة موجبة للعلم قطعاً لعلنا يقينا أن كلام الله لا يكون إلا حقاً. أصول السرخسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م، ج1، ص: 280، أما الغزالي فيقول في المستصفى: "وحد الكتاب ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلاً متواتراً. ونعني بالكتاب القرآن المنزل، وفيدناه بالمصحف: لأن الصحابة بالغوا في الاحتياط في نقله حتى كرهوا التعاشير والنقط وأمرنا بالتجريد كي لا يختلط بالقرآن غيره، ونقل إلينا متواتراً، فعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن، وأن ما هو خارج عنه فليس منه"، المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق حمزة بن زهير حافظ، ج2، ص: 9.

5- في ط: "يعني".

6- في ط: "على".

7- هامش 6: في ط: طور، ساق ابن حزم الاستدلال نفسه وهو ينتقد صحة التوراة، "وفي نص ثورتهم أنهم كانوا لا يلزمهم المجيء إلى بيت المقدس إلا ثلاث مرات في كل سنة فقط فإنما أمر بنص التوراة كما أوردنا أن يقرأ عليهم الكوهن الهاروني عند اجتماعهم فقط فثبت أنها لم تكن إلا في الهيكل فقط عند الكوهن الهاروني فقط لا عند أحد سواه" ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص: 300، ومما لا شك فيه أن أبا العباس القرطبي اطلع على الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم..

وكذلك ما يحكى من قتل بخت نصر جميع بني إسرائيل، وإحراقه كتب التوراة حيث وجدت، واتلاف ما كان بأيديهم، حتى لم يترك منهم إلا عددا يسيرا، لا يحصل بخبرهم العلم، وكان قد أجالهم إلى بابل¹ وهدم البيت، أو لعله كان الباقي منهم عددا كثيرا، إلا أنهم لم يكونوا كلهم يحفظونها، بل كانوا عددا يسيرا لا يحصل العلم بقولهم، وكان هذا كله قبل المسيح بخمس مائة سنة².

وكذلك واقعة طيطش بن شبشان³ التي كانت بعد المسيح إلى أربعين سنة، إذ فرقوا التفرقة التي هي اليوم عليها، وهذا أيضا من المعروف عند الجميع، بحيث لا ينكره إلا مكابر مجاهر، وهذه الأمور كلها مما تقدح في النقل الذي يدعونه متواترا.

ثم نقول هذه الأمور المذكورة، إن وافقوا على وقوعها فقد اعترفوا بعدم التواتر، فإن من شرط خبر التواتر، أن ينقله العدد الكثير الذي تحيل العادة عليهم التواطؤ على الكذب والغلط عن عدد مثله، هكذا ولا ينقطع.

فإن رجع الخبر إلى عدد لا تحيل العادة عليهم الكذب، لم يحصل بذلك الخبر العلم، إذ لا يكون متواترا. وإن لم يوافقوا على وقوع هذه الوقائع هكذا، لم يقدروا على جحد أصلها، وإذا اعترفوا بأصلها، لم يقدروا أن ينكروا إمكان وقوع ما يعترفون بأصله، وتجوز وقوع ذلك، كتتحقيق وقوع ذلك في عدم حصول العلم بالخبر الذي يدعون أنه متواتر..

وأما بيان التحريف فيها فهو أن اليهود تعترف بأن السبعين كوهانا اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة، وذلك قبل المسيح في زمان القياصرة، ومن اجتراً على تبديل حرف من كتاب الله وتحريفه فلا يوثق بالذي في يده مما يدعى أنه كتاب الله لعدم الثقة به ولقلة مبالاته بالدين.

وأیضا قلعله قد حرفه كله أو أكثره.

وكذلك يقرون ولا ينكرون أن طائفة منهم يقال لهم السامرية حرفوا التوراة تحريفا بيّنا كثيرا، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف.

وكذلك النصراني أيضا يدعون على اليهود أنهم حرفوا في التوراة التاريخ، ويزعمون أنهم نقصوا من تاريخ آدم ألف سنة ونحو المائتين.

1- في خ/م: "بابل".

2- في ط: "مائة سنة تقريبا".

3- في ط: "نسبسان". وهو الحاكم الروماني الذي هدم الهيكل سنة 70م وقضى على ثورة اليهود.

وهذه احتمالات توجب على العاقل التوقف فلا يدعي حصول العلم بنقل التوراة مع انقذاح هذه الممكنات إلا مجاهر متعسف.

فإن قيل: كيف يصح أن يقال هذا، وقد كان الأنبياء بعد موسى عليه السلام يحكمون بالتوراة، ويرجعون إليها واحدا بعد واحد إلى زمن يحيى وعيسى، ثم بعد ذلك تناقلها النصارى كما تناقلها اليهود خلفا عن سلف إلى اليوم، وإن جاز تطرق التحريف إلى ما هذا سبيله، فيلزم عليه أن يحكم الأنبياء بالباطل.

ويلزم عليه أيضا، أن يقرروا على الباطل غيرهم، وهذا كله باطل على الأنبياء، ويلزم عليه أيضا أن لا يحصل العلم بخبر متواتر، ولا يوثق بكتاب يدعى أنه جاء عن نبي.

فنقول وبالله التوفيق:

إنا لم نعين لوقوع التحريف فيها زمانا، ولا عينا من حرف منها شيئا، ولا من الحق بها شيئا، فيحتمل أن يقع التحريف فيها قبلهم أو بعدهم، وإنما أبدينا تلك الاحتمالات، ليعلم أن الذي في نفوسكم من الثقة بها، إنما هو اعتقاد جزم وليس بعلم.

ومما يدل على قبول تلك الاحتمالات، وأنها قاذحة في دعوى العلم بسلامتها، أنها لم تقرر على ما تلقيت من موسى، بل زيد فيها ما لم يتلق عن موسى، مثل الذي حكيناه من ذكر وفاته، وحزن بني إسرائيل، وحكاية قول كلم الله موسى، وهذا يعلم منه على القطع، أن الله لم يقله لموسى ولا موسى قاله عن نفسه، يعلم ذلك من وقف عليه، وتتبعه بضرورة مساق الكلام ولا بد.

فالذي زاد ذلك لعله الذي وقع الخلل من جهته.

وأما ما ذكرتم من حكم الأنبياء بها، فليس فيه حجة لإمكان أن تنازعوا في قولكم كانوا يحكمون بها، بل لعلمهم كانوا يحكمون بما كان الله يعلمهم بما يوافق شريعة موسى ولا يخالفها.

ولو سلمنا أنهم كانوا يحكمون بها، فنقول كل شيء حكم به الأنبياء من التوراة فليس بمحرف، وأما ما لم يحكموا به منها فلهلله الذي حرف، مثل الأخبار التي حكيناها ونحكيها إن شاء الله¹.

فإن قيل: فيلزم منه أن يقر الأنبياء على الخطأ ويتحدثوا بالكذب، فإنهم كانوا يتحدثون بها، قلنا ليس بكاذب من حكى شيئا يعتقد صحته، لا يتعلق به حكم الله تعالى،

1- في ط: 'تعالى'.

وإن كان ذلك الخبر في نفسه مخالفا لما في الوجود، فإنه إنما يحكى عن اعتقاده وهو حق، وإنما الكاذب، الذي يخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه مع العلم بذلك، وهو حد الكذب عندنا وحقيقته.

وهذا إنما يجوز في حكاية الأخبار التي لا يتعلق بها حكم، وأما ما تعلق به حكم، منها فلا يجوز ذلك، إذ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه من الأحكام عن الله تعالى، وإنما قلنا هذا حذرا من أن ننسب إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله أن ينزله في كتابه، ولا أن يناجي به صفوة أحبابه من الفواحش والفجور، التي حكوها في التوراة وادعوا أنه فيها مسطور، مع أنه ليس في ذكرها فائدة بل هي بكل ضلالة عائدة.

وكذلك تنزه موسى والأنبياء بعده، صلوات الله عليهم، عن ذلك الكلام الغث الرقيق، الذي لو حكى مثله عن بعض السفلة لأنف منه، واستحى منه. ولما كان ينبغي لعاقل أن يلتفت إليه¹ ويصفى إليه، ولكان يجب عليه أن يعرض عنه وينكره إذا سمعه، هذا إذا كان محكيا عن السفلة، فكيف إذا حكاه الله عن نفسه، أو عن خيرته من خلقه الذين برأهم الله عن الكبائر والنقائص التي تناقض نبوتهم، فهم أكرم الخلق عليه وأحظاهم لديه.

وأیضا، فإن الله² حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والغيبة والبهتان والإح³، ثم يتعامل بها مع أكرم الخلق عليه في نفوسهم وذرائعهم وبناتهم، وينسبها إليهم ويشيعها أبد الأبدین عليهم.

هذا مما لا يليق بجلال الله تعالى. والقائل بوقوع هذا مستهزئ مفتر على الله.

وسننقل بعض⁴ ما حكوا في التوراة من هذه القبائح إثر هذا إن شاء الله تعالى.

ثم نقول لو سلمنا أنها لم تحرف في زمان الأنبياء، لأمكن أن نقول فلعله حرف بعدهم، وذلك بعد وقعة طيطش حيث أفتاهم، والذين تنصروا منهم عدد يسير لا تقوم الحجة بقولهم.

وإن قلنا إنهم كانوا عددا كثيرا، فلم يكن كل واحد منهم ممن يحفظها ولا يضبطها.

1- في ط: "يلتفت ويصفى إليه".

2- في ط: "تعالى".

3- في خ/م: "الإح". وهو تصحيف لأن الإح هو البغضاء.

4- في ط: "عن بعض".

ثم نقول للنصارى: إن أنكرتم أن يكون شيء من التوراة حرف، فلا شيء تقولون إن اليهود حرفوا في التوراة في نسب آدم ونقصوا منه، وإذا جاز ذلك في نسب آدم، جاز في غيره وهذا بين، وأما قولهم: يلزم أن لا نقبل خبر متواتر، ولا يوثق بكتاب نبي. فلا يلزم شيء من ذلك، فإن الخبر إذا تطرقت إليه أمثال [هذه الاحتمالات، فلا يكون متواترا إذا كان قابلا لها، وأما كتب الأنبياء، فكل كتاب تطرق إليه أمثال¹] تلك الاحتمالات فلا يوثق بنقله، ولا يعمل عليه لا مكان تلك الآفات.

[و لعل أشداقكم تتحلب²] نحو كتابنا، فيقولون: فكتابكم لا يلتفت إليه ولا يعمل عليه، فنقول هيهات، إنما قلنا كل كتاب تطرق إليه شيء من تلك الاحتمالات، وكتابنا منزّه عن أمثال تلك الآفات، فإن الله تعالى تولى حفظه، وأجزل من كل صيانة حظه، فصانه بنظمه الذي لا يقدر الجن والإنس على آية منه، فلا يختلط به كلام متكلم، ولا يقبل وهم متوهم، إذ ليس من جنس كلام البشر، وهو معدود الآي والسور، ثم صانه بأن يسره للحفظ والاستظهار، فيستوي في نقله الكبار والصغار، لا يختص بحفظه أحد، والوالد إذ نقص منه حرفا واحدا، أو غير حركة منه رده وأصلحها عليه الولد.

ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره في الدواوين معددة، وأشكال كتبه حروفه فيها مقيدة، ومع هذا فنقل الأمم التي لا تحصي عن الأمم التي لا تحصي، حتى يصل ذلك إلى النبي المصطفى، مع قرب العهد والتشهير في صيانتها، والجد واستعمال القانون النحوي، وتثقيف اللسان العربي فيهما، كمل الله له الصون، وحصل له بهما على فهمه أكبر العون، فله الحمد على ما أولى والشكر له على نعمه التي لا تحصي فأين اللؤلؤ من الخزف والياقوت من الصدف.

وبعد هذا فالآن حان أن نذكر بعض ما وقع في التوراة مما تطرق إليها التهم.

ومن ذلك ما ذكروه فيها في المصحف الأول منها:

"ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين في الأرض فتندم على خلقهم وقال سأذهب الآدمي الذي خلقت على الأرض والخشاش وطيور السماء لأنني نادم على خلقتها جدا"³.

1- ما بين معقوفتين ساقط من ط.

2- في ط: "أو لعل أشرا فكم تتحلب" ويقال تحلب فوه، إذا سال لعابه، جاء في لسان العرب في مادة "حلب"، وَتَحَلَّبَ فُوه: سَالَ.. وفي حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: رأيت عمر يَتَحَلَّبُ فُوه، فقال: أَشْتَهِي جَرَاداً مَقْلُوعاً أَوْ يَتَهَيَّأُ رُضَابُهُ لِلسَّيْلَانِ.

3- التكوين 6: 6-7.

وهذا في حق الله تعالى محال، إذ الندم إنما يلحق من لا يعلم مصير المندوم عليه ومآله، واعتقاد هذا في حق الله كفر، إذ ينبئ عن أن الله تعالى جاهل، وأنه متغير تعالى عن ذلك علوا كبيرا، ولفظ الندم هنا، نص لا يقبل التأويل فهو كذب وباطل قطعاً .

ومن ذلك ما ظهر في الوجود خلافه¹، وذلك أنهم حكوا فيها أن بني إسرائيل يسكنون تلك الأرض إلى الانقراض، ثم لم يلبثوا أن رأيناهم أخرجوا منها رأي العين. فقد ظهر أن ذلك باطل وكذب.

ومن ذلك أيضاً أنه حكى فيها أن الله تعالى كالإنسان شخص [ذو جوارح]²، وهذا على الله بالضرورة محال، ولا للتأويل في هذا اللفظ مجال، ثم أنى هذا من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾³.

ومن ذلك أيضاً، أن الله تعالى حين أمر بني إسرائيل إلى التوجه إلى الشام، وعدهم أن يتوجه معهم، وأمرهم أن يعملوا قبة على صفة كذا ينزل فيها في سيره معهم.

ثم إن موسى قال له: "يا رب إن هذه الأمة القاسية رقاها لا تمضي إليك إلى الشام حتى تمضي معها كما وعدتها، فقال الله: نعم اعملوا لي القبة، فعلم موسى القبة وسماها قبة العهد، ونزل الله من عرشه وسار معهم في داخل القبة ينزل بنزلهم ويرحل برحيلهم"⁴ هذا نص التوراة.

ومما يذكرونه من بقية هذا [الخبر]⁵ وليس في التوراة: "أنهم حين جمعوا المال لعمل هذه القبة أجروا إنفاقه"⁶ على يد موسى عليه السلام، فلما كمل عملها ادعوا عليه أنه قد نقصهم من المال ألف رطل وسبع مائة رطل وخمسة وسبعون رطلاً، وقالوا لموسى [تشريفا له]⁷ أين نقص هذا المال، وإنما جرى الإنفاق¹ على يدك، فسمعوا صوتاً من السماء يقول

1- في خ/م: "خلاف".

2- في خ/م: "جوارح كشخص وجوارح".

3- سورة الشورى، آية: 11.

4- ورد مضمون هذا النص في سفر الخروج 25.

5- ساقطة من ط.

6- في ط: "الاتفاق".

7- في ط: "تهكما به".

لهم: إن هذا العدد دخل في رؤوس الأعمدة وفي التغشية، فحينئذ كفوا عنه فهولاء لم يعرفوا الله حق معرفته، ولا قدروه حق قدره ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾².

ومن ذلك أيضا أنهم ذكروا فيها: أن الله قال لهم أن يضربوا القرن في عسكرهم قليلا قليلا حتى يلقوا عدوهم، فحينئذ يضربونه بأشد ما يقدرون عليه، ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوهم، فكانه سبحانه وتعالى لا يسمع إلا الأصوات العالية، فأين هذا من وصف الله تعالى نفسه في كتابه على لسان رسوله³ حيث قال: ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾⁴ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى⁴.

وفيهما من هذا النوع كثير، لو ذهبت أنقله لطال الكتاب، ولخرجنا من مقصود الباب. وينبغي أن نذكر الآن ما جاء فيها مما ينزه عنه الأنبياء عليهم السلام. من ذلك ما حكوا في السفر الأول عن لوط أنه طلع من صاغار، فسكن الجبل هو وابنتاه معه، فجلس في مغار هو وابنتاه، فقالت الكبرى للصغرى: قد شاخ أبونا وليس على الأرض رجل يدخل علينا، هلمي⁵ نسقى أبانا الخمر ونضطجع معه في مضطجعه، ففعلتا وحملتا منه بولدين مواب وعمون⁶.

هذا لوط من رسل الله الأكرمين، أوقعه الله في فاحشة كما يوقع الأزدلين ثم خلد ذكرها في الآخرين، وهل هذا إلا عين الإهانة، وأي نسبة بين هذا وبين النبوة والكرامة؟ وكذلك أيضا حكوا فيها: أن اسحق لما شاخ وعمى بصره دعا بعيصو⁷ ابنه الأكبر ليبارك⁸ عليه وليدعو له بالنبوة، فتحيل يعقوب عليه فقال له إسحق أبوه: من أنت؟ فقال

1- في ط: "الاتفاق".

2- سورة البقرة، آية: 79.

3- في ط: "لسان نبيه ورسوله".

4- سورة طه، آية: 7-8.

5- هلمي ساقطة في ط.

6- التكوين 19: 30-37.

7- في ط: "بعيسو".

8- في خ/م: "ليبرك".

له: بكرك عيصو¹، فقال له: أدن مني حتى أجسك، فدنا² منه وقد كان وضع على رأسه شعرا بمكيدة أمه، فقال له: الصوت صوت يعقوب، [والمجسة مجسة]³ عيصو⁴، فبارك⁵ عليه ودعا له بالنبوة ويشره بها وهو على غلط فيه، ثم بعد ذلك جاء عيصو⁶ وقال له: باركني⁷ أيضا يا أبي، فقال له: دخل أخوك بمكر فقبل بركاتك، فقال عيصو⁸ بعد بكاء وحزن: أما تركت من البركات شيئا أبركة واحدة لك يا أبتى⁹.
فما أعظم هذه الآفة¹⁰ التي تشبه حديث خرافة.

ومن ذلك ما ذكره فيها أيضا: أن يعقوب بينما هو يصلح خيمته ويبسطها¹¹، مشى ابنه راوبين¹² وهو أكبر أولاده فضاجع سرية أبيه بلهة¹³، ولما علم بذلك يعقوب قال لابنه راوبين: ¹⁴[سلكت على وجهك]¹⁵ كالماء، فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث امتهنت فراشي¹⁶.

وتفسير هذا، أن سنة الميراث كانت عندهم أن يرث الولد الأكبر سهمين¹⁷ وسائر الولد سهمًا واحدًا، فعاقب يعقوب ابنه راوبين¹⁸ على فعله بسريته بأن لم يفضلته بالميراث على أنه كان أكبر ولده.

-
- 1- في ط: "بعيسو".
 - 2- في خ/م: "فدنى".
 - 3- في ط: "ولكن اليدين يدا".
 - 4- في ط: "عيسو".
 - 5- في خ/م: "فبرك".
 - 6- في ط: "عيسو".
 - 7- في خ/م: "بركني".
 - 8- في ط: "عيسو".
 - 9- التكوين 27.
 - 10- في ط: "الآفة".
 - 11- في خ/م: "يبيضها".
 - 12- في خ/م: "روبييل".
 - 13- في خ/م: "بلهاء".
 - 14- في خ/م: "روبييل".
 - 15- في ط: "فضل العز فائرا".
 - 16- تكوين 49: 3-4.
 - 17- تشيية 21: 17.
 - 18- في خ/م: "روبييل".

[ولذلك حكى فيها]¹ أن يعقوب [قال له]²: يا راوبين أنت بكري وقوتي، ورأس جرأتي³، وعوني طائفة⁴ الحمولة وطائفة⁵ العز والمنعة عديت مثل الماء فلا تمكث إذ صعدت إلى مضطجع أبيك حقا لقد نجست مضطجعي وتناولته.

ومن ذلك ما ذكره فيها أيضا: أن يهوذا بن يعقوب زنى بكنته ثامار امرأة ولديه، ولقد كانا هلكا عنها واحدا بعد واحد، فردها يهوذا إلى بيت أبيها ووعدا بتزويج ولده الثالث المسمى بشيلا⁶ إذا كبر، ثم أنها قعدت⁷ ليهوذا في طريق غممه، وتسترت جهدها فظنها بغيا، فعدل إليها ودعاها إلى نفسه، فسألته أجرا فوعدا بجدي من غممه، فطلبت منه رهنا، فأعطاه خاتمه ومنديله وعصاه، وواقعها بزعمهم، فحملت منه. ثم إن يهوذا أرسل بالجدي ليطلب رهنه فلم توجد المرأة، فجاء بنفسه إلى أهل القرية وقال لهم: أين قحباكم المتبلطة على الطريق؟ فقالوا: ما كان منا على الطريق قحبا، ثم قيل له بعد حين إن كنتك ثامار حبلى، فقال: تحرق بالنار، فأخرجت لتحرق بالنار⁸، فقالت: إنما أنا حامل منه وهذه رهنة بيدي حين زنى بي ليفكها بجدي من غممه، فعرف ذلك يهوذا وقال: هي أصدق مني⁹.

وفي بقية هذا الخبر خرافة، وذلك أن ثامار لما جاءها المخاض كان في بطنها توأمان فتناولت القابلة خيط عهن فربطته على يده وقالت: هذا يخرج بديا، فلما مد¹⁰ يده خرج أخوه فقال: لقد انحزمت فيك ثلثة عظيمة¹¹.

وحكى فيها أيضا أن دينة¹² بنت يعقوب خرجت لبعض شأنها، فنظر إليها شخيم¹³

1- في ط: "وفي بعض التراجم".

2- في ط: "قال".

3- في ط: "حراتي".

4- في ط: "طائفة".

5- في ط: "طائفة".

6- في خ/م: "بشيلا".

7- في خ/م: "تصدقت".

8- انظر سفر اللاويين 21: 9 ففيه حكم زنا بنت الكاهن هو الحرق بالنار.

9- التكوين 38

10- في خ/م: "رد".

11- قصة يهوذا وثمار وردت في سفر التكوين 38

12- في ط: "دنيا".

13- في خ/م: "شخيم".

بن حمورا الزناتي فعشقها واحتملها فواقعها¹ وافترضها، ثم أن شخيم² قال لأبيه حمورا: اخطب لي هذه الجارية لتكون لي امرأة، فبلغ ذلك يعقوب، وأنهم قد نجسوا دينة ابنته، فصمت يعقوب وأطرق حتى أتاه بنوه، فلما بلغهم ذلك اغتموا وساءهم ذلك، واشتد عليهم ذلك جدا، لأنهم ارتكبوا النجاسة في³ إسرائيل، ثم إن بني يعقوب عاقدوا شخيم⁴ وحمور أباه وقومه أنهم إذا اختتوا أنكحوه اختهم دينة⁵، فإنهم قالوا لشخيم⁶: "لا نقدر أن نزوج أختنا من رجل له غرلة، ولكن إذا اختتتم زوجناكم أختنا وبناتنا ونتزوج بناتكم، ففعل القوم ذلك، فلما اشتدت بهم أوجاعهم تناول شمعون ولاوي كل واحد منهما حربة، ودخلا على القرية بغتة فقتلا كل ذكر فيها⁷.

ومثل هذا كثير مما يخرج استقصاؤه إلى التطويل.

وكذلك حكوا فيها أيضا من وعيد الله لبني إسرائيل بالفاحشة والقبيح، مالا يقبله ذو عقل صحيح.

مثل ما حكوا أن موسى قال لبني إسرائيل في الوصية التي وصاهم بها حيث قال لهم: "إن كفرت بربك وحدت عن سبيله، وعبدت الآلهة الأجنبية يبيلك الله بدواهي مصر، ويضرب الجزء من جسدك الذي يصدر عنه الزيل بالجذب والحكاك الذي لا دواء له، وتزوج زوجا ويضاجعها غيرك⁸.

وهذا الكلام تضمن أن الله تعالى توعد بني إسرائيل من عبد غير الله منهم، بثلاثة أنواع من الفواحش، لا ينبغي لذوي المروءات أن يتلفظوا بها، ولو أسقطوا مروءتهم فتلفظوا بها، لما كان ينبغي لهم أن يتوعدوا بها، ولا أن ينفذوا ذلك الوعيد لفحشه، ثم إنهم

1- في ط: "فواقعها".

2- في خ/م: "شخيم".

3- في خ/م: "من".

4- في خ/م: "شخيم".

5- في ط: "دنيا".

6- في خ/م: "لشخيم".

7- التكوين 34.

8- في ط ورد النص كالآتي: "إن كفرت بربك وحدت عن سبيله وعبدت الآلهة الأجنبية يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها".

يلزمهم على هذا أحد ثلاث أمور: أحدها أن يكون هذا الكلام باطلا أو كاذبا¹ على الله تعالى عن ذلك، أو يكون بني إسرائيل كل من أشرك منهم وعبد غير الله، أن يبتلى بهذه الأدواء الثلاثة، وأن يكونوا بني زنى ولا يقدرّون على أن ينكروا أنهم قد أشركوا بالله وأنهم عبدوا الأوثان بعد موسى، فيلزم من ذلك إن لم يكن ذلك الكلام محرفا، أن يكونوا كلهم بني زنى وقرنانين² وموصوفين بالفاحشة الكبرى.

وحكوا في سفر ملاخيم³: أن داوود عليه السلام اطلع من قصره فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل في دارها، فعشّقها وبعث فيها فحبسها أياما حتى حبلى - تعالى الله أن يجرى ذلك على رسله - ثم ردها وكان زوجها - يسمى أوريا - غائبا في العسكر، ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به إلى داوود، فبعث داوود إلى يوأب⁴ بن صوريا قائده على العسكر يأمره أن يبعث إليه بأوريا زوج المرأة، فجاء فصنع له طعاما وخمرا حتى سكر وأمره بالانصراف إلى أهله ليواقعها⁵ فينسب الحمل إليه، ففهم الأمر أوريا وتخابث فلم يمش إلى أهله، وقال حاشى لله أن يكون الملك هنا دون أهله وأمشى أنا إلى أهلي، فلما يئس داوود منه رده إلى العسكر، وكتب إلى القائد أن يصدر به في القتال مستقتلا له، فقتل⁶ أوريا وقتل معه من المؤمنين سبعة آلاف، وفزع القائد من داوود لقتل العدد العظيم من المؤمنين، وقال للرسول إذا أنت أخبرت الملك داوود بقتل الناس ورأيتهم قد غضب قل له سريعا إن أوريا قتل فيهم، ففعل الرسول وسكن داوود من بعد الغضب، وسر بموت أوريا وهانت عليه من أجل موته دماء المؤمنين.

فاعتبر هذه الفواحش المنكرة، وهذه الصفات المذمومة المستقذرة، هل تليق بأولي الديانات فكيف بمعدن النبوات؟ وهل يحمد ذكرها عند ذوي المروءات، فكيف عند الحي

1- في ط: "كذاب".

2- في ط: "قرحانين"، وهو تصحيف لأن القرحان هو الذي لا يصيبه الجرب. أما القران من الرجال فهو نعت سوء وهو الذي لا غيرة له.

3- في ط: "صمويل الثاني" والقصة وردت بالفعل في سفر صمويل الثاني الإصحاح 11، وتجدر الإشارة إلى أن هناك من يطلق على مجموع سفرى صمويل وسفرى الملوك سفر الملوك الأول والثاني والثالث والرابع. وملاخيم كلمة عبرية وهي جمع كلمة ملخ وتعني ملك.

4- في خ/م: "أياب".

5- في خ/م: "ليواقعها".

6- في ط: "فقتل".

الكريم إله المخلوقات؟ تبا لهم ولمصدقهم، وخسرا ولعنة¹ وجذعا وعقرا، فوالله لقد افتروا على رسل الله وكذبوا على كتب الله ﴿ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾².

وكتبوا في هذا المصحف: أن أمنون بن داوود عشق أخته تامار بنت داوود وتمارض، فعاده أبوه فتمنى عليه طعاما تطعمه أخته تامار³، فبعث بها داوود إليه فلما قربت إليه الطعام وضع يده فيها وافتضاها فخرجت باكية، فلقيها أخوها الآخر شقيقها أبشالوم فأخبرته فهون عليها ثم بعد أيام وثب على أمنون فقتله من أجل ذلك⁴.

وكتبوا في هذا المصحف: أن أبشالوم بن داوود نافق على أبيه وأخرجه عن قصره، ودخل على نسائه فوطئن كلهن على أعين بني إسرائيل استبلاغا في الانتقام من أبيه⁵.

ومن أفضح ما كتبوا في هذا المصحف⁶ عن سليمان بن داوود: أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر وسبته⁷ نساؤه دينه، كذبوا ﴿ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾⁸ إذ بالأباطيل والفواحش يتقولون ويتخرصون، فلقد صدق الله العظيم ورسوله الكريم حيث قال سبحانه⁹ في محكم كتابه الحكيم ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا ﴾¹⁰، فغضب الله عليهم وعلى من يصدقهم إلى يوم الدين ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فهذه الحكايات الوخيمة، والأقوال غير المستقيمة، تضمنت الأخبار عن لوط بأنه زنى بابنتيه وأنهما حملتا منه من الزنى، وأن نبوة يعقوب إنما حصلت له بأن خدع إسحق

1- في ط: "براحنة".

2- سورة الأنعام، آية: 140.

3- في ط: "تامار أخته".

4- صمويل الثاني 13.

5- صمويل الثاني 16.

6- الملوك الأول 11.

7- في ط: "وسبيت".

8- سورة التوبة، آية: 30.

9- في ط: "وتعالى".

10- سورة البقرة، آية: 102.

ومكر به وإنما كانت لعيسو¹، وأن داوود زنى بامرأة مؤمنة زوجة مؤمن، وأن داوود تحيل على زوجها حتى قتل، وقتل لقتله جماعة من المؤمنين فسر بذلك، وأن رأوين² زنى بسرية أبيه يعقوب، وكذلك يهوذا زنى بكنته ثامار وولدت له من الزنى توأمين³، وأن ابنة يعقوب دينا⁴ زنى بها شخيم⁵ بن حمورا، وأن أولاد يعقوب بعد أن آمنوه وعقدوا معه، غدروا به وقتلوه وأباه وأهل القرية، وأن أمنون بن داوود زنى بأخته تامار بنت داوود، وأن أخاهم أبشالوم قتله غيلة وغدرا، وأن أبشالوم زنى بنساء داوود أبيه، وأن سليمان ارتد عن نبوته وعبد الأصنام.

فإن ثبت هذا الذي ذكروه في كتبهم -وتعالى⁶ الله والأنبياء عن قولهم- فهذا الشعب الذي ذكروه فيه هذه الفواحش ليس هو شعب النبي إسحق، بل هو شعب غدر [وزنا وكفر ونفاق]⁷، وكيف يصح أن تكون هذه الأفعال القبيحة أفعال أهل نبوة صحيحة، بل كل ذلك ناقض⁸ للنبوات، لاسيما مع دعاء إبراهيم وإسحق لذريتهما بالبر والبركات، فإن كان هذا شعبهما الذي دعوا له بالبر والبركة، فدعاؤهما غير مسموع وقولهما مردود مدفوع.

ثم هذه الحكايات الوخيمة الفاحشة، غير المستقيمة في التوراة، لها أمور آخر تعارضها بل وأدلة العقل تناقضها.

من ذلك ما حكى فيها من مدح لوط على لسان إبراهيم وشهادته له بالبر، وذلك أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم بأنه يريد أن يهلك سدوم وعمورا -وهما مسكن قوم لوط- قال: "يا رب أهلك الأبرار مع الفجار"⁹، يعنى بالأبرار لوطا وبنتيه، فسماهم أبرارا وشهد له بذلك بين يدي الله تعالى، وكيف يصح أن يكون ابنتا لوط من الأبرار، ويوقعان أنفسهما في أن يزني بهما أبوهما نبي الله، ثم لم يعصمه الله تعالى من مثل هذه الرذيلة،

1- في ط: "عيسو".

2- في خ/م: "ابنه روين".

3- في خ/م: "الزنا توأمين".

4- دينا ساقطة من ط.

5- في خ/م: "شخيم".

6- في ط: "تعالى".

7- في ط: نفاق وزنى وكفر.

8- في خ/م: "يناقض".

9- التكوين 18: 23.

ثم إن الله شهد عنه هذه الفضيحة التي يتحدث بها على مد الدهر، مع أنه لم يسمع قط من المتشرعين من أجاز نكاح البنات، وهل هذا من ناقله وناسبه إلى الله إلا جرأة وتواثق¹ على الله.

وكذلك ما كتبه فيها من الحكايات التي ذكرناها في ذرية إسحق، يعارضه ما حكوا فيها عن الله أنه قال لإبراهيم في غير ما موضع² منها: لأباركك³ بركة تامة، ولأكثرن⁴ نسلك ويتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أعطيتي⁵.

وكذلك قال الله لإسحق بعد موت إبراهيم: أنا معك أكون وأباركك لأنني أعطيك ونسلك جميع هذه الممتلكات ويتبارك بنسلك جميع الشعوب⁷.

وكذلك قال إسحق ليعقوب حيث مكر به يعقوب بزعمهم قاتلهم الله قال: "به يؤتيك الله من ظل السماء وخصب الأرض، تعبدك الأمم وتسجد لك الشعوب، كن رئيساً لإخوتك يسجد⁸ لك بنو أمك، مباركوك مباركون ولا عنوك ملعونون"⁹.

تأمل بعقلك هذه المخازي البادية، وما نسبوا في كتبهم إلى أكرم الخلق من المناكر الفاحشة¹⁰.

فإذا أنت أمنت النظر، واشتدت منك العبر، علمت أن هذه الحكايات بواطل، وأن ملحقة في التوراة، وناسبها إلى الله متزندق جاهل، وإنما ألحقها عدو للأديان، أراد أن يقول في صفوة الله البهتان، فحصل له مراده حيث أفسد على المتشرعين الإيمان.

ثم نقول للنصارى بعد ذلك: العجب منكم ومن جهلكم، حيث صدقتم بوقوع هذه الفواحش من الأنبياء، واعترفتم مع ذلك بنبوتهم، ثم لم تجوزوا على الحوارين وقوع

1- في خ/م: "وتوقع".

2- في ط: "موضع ما".

3- في خ/م: "لأبركك".

4- في ط: "لأكثر".

5- في خ/م: "أصعيتي".

6- التكوين 22: 17-18.

7- التكوين 26: 3-4.

8- في ط: "تجسد".

9- التكوين 27: 28-29.

10- في ط: "الفاحشة".

الغلط منهم، فيما حكوا لكم -إن صحت الحكايات عنهم- من اتحاد العلم باللحمة، فإن العقل يدل بضرورته على أن ظاهر ذلك فاسد محال، فهلا عليكم تأولتم ذلك، أو قلتم أنهم¹ يجوز عليهم الغلط، ولا يدل ذلك على نقصهم²، كما قلتم في الأنبياء الذين حكيت عنهم تلك الفواحش. ولو فعلتم ذلك لكان الأولى عند العقلاء.

1- في ط: "إنه".

2- في ط: "نقضهم".

فصل في بيان أن الإنجيل ليس بمتواتر

وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل.

فنقول وبالله التوفيق: إن هذا الكتاب الذي بيد النصارى اليوم الذي يسمونه بالإنجيل، ليس هو الإنجيل الذي قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ¹ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ².

وانما قلنا هذا في الإنجيل دون التوراة، لأن التوراة قد ثبت عندنا وعندهم، أن الله تعالى كتبها في الألواح لموسى عليه السلام، ويدعي² اليهود أن موسى عليه السلام نسخ لهم التوراة من تلك الألواح، فحصل من هذا أن التوراة تُلقيت³ بجملتها عن موسى عليه السلام، ثم أنه حدث فيها من التغيير بعده ما قدمنا ذكره.

وأما هذا الكتاب الذي يدعى النصارى أنه الإنجيل، فقد توافق هؤلاء النصارى على أنه إنما تُلقي عن اثنين من الحواريين، وهما متاؤوش⁴ ويوحنا، وعن اثنين من تلاميذ الحواريين وهما ماركش ولوقا، وأن عيسى عليه السلام لم يشافهم⁵ بكتاب مكتوب عن الله كما فعل موسى، ولكن لما رفع الله عيسى عليه السلام إليه، تفرق الحواريون في البلاد والأقاليم كما أمرهم عيسى، فكان منهم من كتب بعض سيرة عيسى وبعض معجزاته، وبعض أحواله حسب ما تذكر، وما يسر الله عليه فيه، فربما توارد الأربعة على شيء واحد فحدثوا به، وربما انفرد بعضهم بزيادة معنى، ولذلك⁶ كثيرا ما يوجد بينهم من اختلاف مساق، وتناقض بين قولين وزيادة ونقصان، وسترى بعض ذلك إن شاء الله تعالى، فعلى هذا لا يسمى الإنجيل كتاب الله المنزل حقيقة، فإن حقيقة الكتاب المنزل بحكم العرف إنما هي⁷ عبارة عن جملة من كلام الله، المبلغة على لسان رسول من رسله، يحكيها ذلك الرسول عن الله تعالى.

1- سورة آل عمران، آية: 3-4.

2- في ط: "تدعي".

3- في ط: "بلفت".

4- في خ/م: "متواش".

5- في خ/م: "يشافهم".

6- في ط: "وكذلك".

7- في ط: "هو".

وليس شيء من هذا موجودا في الإنجيل، فإن سماه مسم كتابا منزلا، ولم يرد هذا المعنى، فلا بد من أن نسأله عن المعنى الذي يريده بذلك الإطلاق، فلا شك أنه يقول: إنما سميت كتابا منزلا، لأن عيسى جاء من عند الله، وبلغنا شرع الله، وفي ذلك الكتاب وصف سيرته، وحكايات وأخبار عن الله. فكيف لا يقال عليه هو كتاب الله ومنزل من الله، فنقول له: تسمية¹ هذا كتاب الله بالمجاز أو بالحقيقة؟ فإن قال بالحقيقة فكلامه باطل، فإن حقيقة كتاب الله المنزل هو ما قدمناه، وإن قال بالمجاز، قنعنا بهذا، ثم ألزمنه عليه أن يكون كل كتاب يحكى عن نبي من أنبياء الله، وإن² ألفه أي مؤلف كان كتاب الله ولا فرق.

وإذا انتهينا إلى هذا فقد حصل غرضنا، وهو أن هذا الإنجيل الذي بأيديهم ليس منزلا ولا يقال عليه كتاب الله المنزل، كما يقال على التوراة والإنجيل والقرآن، وذلك ما كنا نبغي.

فقد حصل من هذا الكلام أنه ليس منزلا من الله حقيقة، وأن نقله ليس متواترا، فإنه راجع إلى الأربعة الذين ذكرناهم، والعادة تجوز عليهم الغلط والسهو والكذب، فإن قالوا هم معصومون فيما نقلوه عن عيسى عليه السلام، قلنا ما دليل عصمتهم، فإن قالوا دليل عصمتهم: أنهم كانوا أنبياء، ودليل نبوتهم ما ظهر على أيديهم من خوارق العادات وشهادة عيسى عليه السلام لهم حيث قال لهم: "كل ما سألتهمو إذا حسن إيمانكم ستجابون"³، وقال لهم: "ستوقفون على الملوك ويسألونكم فلا تفكروا فيما تقولونه"⁴، فإنكم ستهدون ذلك الوقت لما تقولونه، ولستم تتطقون أنتم لكن روح القدس ينطق على ألسنتكم"⁵، وقد جاء عن عيسى عليه السلام أنه دعا الاثني عشر حواريا، وأعطاهم من القدرة والسلطان ما يتقون به جميع الجن ويبرءون به الأسقام"⁶، وكذلك قال لبطرس⁷:

1- في ط: "تسميه".

2- في ط: "فإن".

3- متى 17، ومتى 21

4- في ط: "تقولون".

5- متى 10: 18-20، والنص يختلف لفظا عن النص الحالي: "و تساقون أمام ولاية وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم".

6- متى 10: 1-4.

7- في خ/م: "لبيترو".

”ما عقدته أنت في الأرض فمعقود في السماء، وما حللته في الأرض فمحلول في السماء”¹،
وأما خوارق العادات فقد كانوا يحيون الموتى، ويبرءون المرضى، كما كان يفعل عيسى عليه
السلام وذلك معروف من حالهم².

قلنا ما³ ذكرتموه عن عيسى عليه السلام من الشهادة فلا يصح لكم الاستدلال بشيء
مما ذكرتموه لوجوه.

أحدها: أنكم أسندتم ذلك إلى الإنجيل، واستدلتم على صدقهم بما جاء عنهم فيه، وما
جاء عنهم فيه لا يثبت حتى تثبت عصمتهم، فلا يثبت بما ذكرتموه لا الإنجيل ولا عصمتهم.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا ذلك لكم، لما كان فيما ذكرتموه حجة، لأنه ليس شيء منها
ينص على أنهم معصومون فيما أخبروا به على الإطلاق، وغاية ما ذكرتموه أن يدل على أنهم
يعانون ويؤيدون مما يبلغون عن عيسى في بعض الأوقات، أو في بعض الأخبار والأحوال.

والوجه الثالث: أن ما ذكروه معارض بما نقلوه أيضا، وذلك أنهم نقلوا في الإنجيل أنه
قال للحواريين: ”يا نسل التشكيك والكفر إلى متى أكون معكم، وإلى متى أحتملكُم“⁴ وأما
ما قال لبطرس⁵ فهو أيضا معارض بما حكيتُم عنه أنه قال له: ”تأخر يا شيطان فإنك
جاهل بمرضات الله“⁶.

وأما ما ادعوه من معجزاتهم، فلم ينقل منها شيء على التواتر، وإنما هي أخبار آحاد
غير صحيحة، ولو سلمنا أنها صحت، لما دلت على صدقهم في كل الأحوال وعلى أنهم
أنبياء، فإن القوم لم يدعوا النبوة لأنفسهم، وإنما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام،
فظهر من هذا البحث، أن الإنجيل المدعى لم ينقل تواترا، ولم يقدّم دليل على عصمة
ناقليه، فإذاً يجوز الغلط والسهو على ناقله، فلا يحصل العلم بشيء منه، بل ولا غلبة
الظن فلا يلتفت إليه، ولا يعمل في الاحتجاج عليه⁷.

1- متى 16: 16-19.

2- لوقا 19: 1-2.

3- في خ/م: ”أما“.

4- لوقا 9: 41، ومتى 17: 17.

5- في خ/م: ”لبتر“.

6- متى 16: 23.

7- في ط: ”عليهم“.

وهذا كاف في رده وبيان قبول تحريفه وعدم الثقة بمضمونه، ولكننا مع ذلك نعلم منه إلى مواضع يتبين فيها تهافت نقلته، ووقوع الغلط في نقله بحول الله تعالى.

فأول ذلك، أنهم ذكروا في أول ورقة من إنجيل يوحنا¹ حيث ذكر المسيح فقال: "ولد المسيح الذي هو بادئ الأشياء وعلتها الأولى علة جميع الأشياء وكل زمان ورأس كل نظام وأولية² جميع المراتب"³، ثم قال بعد ذلك في معرض مدحه المكوم في لحمه المعلق في الخشبة. كيف يجترئ عاقل أن يتحدث بمثل هذا العار، أو كيف تصح نسبة هذا التناقض البين إلى أحد من الأخيار.

وذكروا فيه أيضا أن عيسى عليه السلام قال: "أنا الباب فمن دخل علي يسلم ويجد مرعى أبدا"، ثم عرض بمن قبله من الأنبياء فجعلهم لصوصا وسراقا فقال: "آمين آمين أقول لكم إنني باب الضأن، والقادمون عليكم كانوا لصوصا وسراقا، ولا يقبل اللص إلا ليسرق شيئا ويقتل، وأنا قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا"⁴.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال: "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد لي"⁵، ثم في موضع آخر من الإنجيل أنه قال: "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأنني أعلم من حيث جئت وإلى أين أذهب"⁷.

فكيف تكون شهادته حقا وباطلا، ومقبولة وغير مقبولة، وكيف يجمع بين هذين في كتاب ينسب إلى الله.

وفي الإنجيل أيضا أنه حين استشعر بوثوب يهوذا⁸ عليه قال: "قد جزعت نفسي الآن، فماذا أقول يا أبتاه فسلمني في هذا الوقت"⁹، وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما وقال: "آلى آلى لم عزيتاني"، وترجمته: "إلهي إلهي لم أسلمتني"¹⁰.

1- في خ/م: "منا".

2- في خ/م: "وأوليته".

3- النص مخالف لفظا عما ورد في بداية إنجيل يوحنا 1: 1-5، التي تقول: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه".

4- يوحنا 10: 7-8.

5- في ط: "غيري يشهد".

6- يوحنا 5: 31.

7- يوحنا 8: 14.

8- في خ/م: "يهود".

9- متى 26: 38.

10- متى 27: 46، "و نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا ايلي ايلي لما شقيتني اي الهي الهي لماذا تركتني".

ثم في أول ورقة منه إنما أسلم نفسه لتظهر قهرته¹ بسلطانه على الموت، وظفرته على جميع الآلام والمهن التي تستبجحها أوهام الأدميين".

فكيف يصيح² ويجزع مما تظهر به قدرته وقهرته، وهل سمع قط أسخف من هذا القول أو أظهر تناقضا منه.

ثم في موضع آخر منه أنه قال: "قبل ذلك من أحب أن يقضو أثري فليذهب نفسه"³ فحرض على إتلاف النفوس، فكيف يجزع مما يحرض عليه قبل؟ أم كيف يكون إلها أم كيف يكون ابن الله ثم يدعوه أن يخلصه في ذلك الوقت فلم يستجب له؟

ومن أظهر دليل على وقوع الغلط فيه أن في إنجيل متاوش⁴ الحواري حين ذكر نسب عيسى عليه السلام، حيث نزل خطيب مريم أبا لعيسى فقال: "ابن يوسف بن يعقوب بن [مثن بن اليعازر بن أليود بن أجييم]⁵، وعد إلى إبراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبا ثم في إنجيل لوقا يقول: "يوسف بن هالي⁷ بن ممتات⁸ بن لاوي⁹ بن ملكي بن ينا¹⁰⁻¹¹ وعد إلى إبراهيم نيفا وخمسين أبا.

فيا ليت شعري، كيف يجوز مثل هذا على الله؟ أو كيف ينقل هذا في كتاب معلوم عن الله؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرقع هذا الخرق المتسع، بأن قال أحد النسبين طبيعي نسب التوليد، والآخر نسب شرعي نسب الولاء والكفالة، والتناقض باق عليه بعد اختراع هذا الهذيان.

ثم انظر هذه الشناعة التي ارتكبوها، حيث نسبوا عيسى عليه السلام إلى رجل زعموا أنه خطب أمه مريم، وأي نسبة تثبت بينهما، بأن أراد أن يتزوج إنسان أمه، ثم إنهم يبلغون نسب يوسف إلى آدم ثم يقولون إلى الله.

1- في ط: "قدرته".

2- في خ/م: "يصيح".

3- متى 10.

4- في ط: "متاوش".

5- في خ/م: "مثن بن عزرا بن أليود ابن أجييم".

6- متى 1: 14-16.

7- في خ/م: "ألي".

8- في خ/م: "مثن".

9- في خ/م: "لاي".

10- في خ/م: "ممتان".

11- لوقا 3: 23-38.

فهلا عليهم يستغنون عن ذكر نسب من لا ينتسب له¹ عيسى، ويقولون في عيسى ما يقولون في آدم لولا الجهل والتحكم.

وفي الإنجيل عنه: أنه كان يوما قد نهاهم عن التجارة في بيت المقدس، وأن اليهود قالت له حينئذ: "أي علامة تظهر لنا، قال تهدمون هذا البيت وأبنيه لكم في ثلاثة أيام، فقالت اليهود بيت بني في ستة² وأربعين سنة تبنيه³ أنت في ثلاثة أيام⁴.

ثم في موضع آخر منه: أنه لما ظفرت به اليهود -بظنكم- وحُمِلَ إلى بلاط قيصر واسترعت⁵ عليه بيعة، أن شاهدي زور جاءا إليه وقالا: سمعنا هذا يقول أنا قادر على بنيان البيت في ثلاثة⁶.

وهذه شهادة موافقة لما قال عيسى لليهود، فهذا الشاهد قال عليه الحق [على ما]⁷ يقتضيه كلامه، ومن شهد بما سمع كيف يقال عليه شاهد الزور؟ أو كيف يسميه الله شاهد زور؟ ومن أعجب الأشياء أن اليهود لا تعرف شيئا من هذا، ولا سمعت أن أسلافها جرى بينهم وبين عيسى هذا المجلس ولا سوى ذلك مما تصفون من خرافات كتبكم.

وفي الإنجيل أيضا للوقا أن عيسى قال لرجلين من تلاميذه: "اذهبا إلى الحصن الذي يقابلكما، فإذا دخلتماه فستجدان فلوا مربوطا لم يركبه أحد، فحلاه واقبلا به إلي⁸، وفي الإنجيل لمتاوش⁹ يصف هذا الخبر بعينه ويذكر أنها كانت حمارة¹⁰. فحسبك بهذا خلاا وتناقضا.

وفي الإنجيل أيضا للوقا¹¹ يخبر عن المرأة التي صبت الطيب على رجلي المسيح، وشق ذلك على التلاميذ وقالوا لها: هلا تصدقت به. وفي الإنجيل لمتاوش¹² أنها إنما صبت الطيب على رأس المسيح، فما أبعد اليقين، عن خبر فيه مثل هذا الاختلاف المبين.

1- في ط: "في".

2- في خ/م: "خمسة".

3- في خ/م: "تبنيه".

4- يوحنا 2: 19-20.

5- في ط: "استوعيت".

6- متى 26: 61.

7- في ط: "لما".

8- لوقا 19: 30.

9- في ط: "لمتاوش".

10- متى 21: 2-3.

11- لوقا 7: 46.

12- في ط: "لمتاوش". متى 26: 7.

وفي الإنجيل أيضا أن "أم ابني" ¹ زبدى جاءت إلى عيسى ومعهما ابناها، فقال: ما تريدان؟ فقالت: أريد أن تجلس ولدي ² أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك إذا جلست في ملكك، فقال: تجهلين السؤال، أيصبران ³ على الكأس التي أشرب بها؟ فقالا نصبر، فقال: ستشريان بكأسي وليس إلى تجليساكما عن يميني ولا عن شمالي إلا لمن وهب ذلك" ⁴.

فقد أخبرنا أنه لا يقدر على تجليساكما عن يمينه ولا عن شماله.

وفي أول ورقة منه ⁵ أنه بادئ الأشياء وعلتها وعلة كل زمان، فكيف يصح أن يكون بادئ الأشياء كلها وعلتها، ولا يقدر أن يجلسهما عن يمينه ولا عن شماله ⁶، ثم يتبرأ عن ذلك بقوله: إلا لمن وهب ذلك لي. ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال: "لا تحسبوا أنني قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصلاحهم، لكن لألقى المحاربة بينهم، إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه، والمرأة وابنتها" ⁷ حتى يصيروا ⁸ أعداء المرء أهل بيته ⁹.

وفيه أيضا عنه: "إنما قدمت لتحيا وتزدادوا خيرا وأصلح بين الناس" ¹⁰، وأنه قال: "من لطم خدك اليمنى فانصب اليسرى" ¹¹. ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال: "لم آت لأنقض شريعة من قبلي إنما جئت لأتمم" ¹² وكلاما من معناه. ثم فيه بعد أحرف قليلة كلام آخر ينقض فيه شريعة من قبله، وذلك أنه قال:

1- في خ/م: "ابن".

2- في ط: "ولداي".

3- في خ/م: "أتصبران".

4- متى 21: 20-23.

5- يوحنا 1: 1-3.

6- في ط: "يساره".

7- في خ/م: "ابنها".

8- في خ/م: "يصيروا".

9- متى 10: 34-36.

10- متى 20: 28.

11- متى 5: 39.

12- متى 5: 17.

إنما علمتم أنه قيل للقدماء¹ لا تقتلوا، و²من قتل فقد استوجب [القتل. وإنما أقول: كل من سخط على أخيه فقد استوجب العقوبة، ومن قذف أخاه فقد استوجب] النفي من الجماعة³، ثم قال بعد ذلك: "أما علمتم أنه قيل للقدماء من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق، وأنا أقول لكم: من فارق امرأته منكم فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى، ومن زوج مطلقة فهو فاسق"⁴، ثم قال: "أما بلغكم أنه قيل للقدماء العين بالعين، والسن بالسن. وأنا أقول لكم: لا تكافئوا أحدا بسيئة، ولكن من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى، ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك"⁵.

كيف يصح أن يقول: لم آت لأنقض شريعة من قبلي، ثم ينقضها حكما حكما، ثم قوله جئت متمما لا يصح أيضا، فإن شريعة موسى كانت تامة كاملة، والتام لا يتمم والكامل لا يكمل فهذا تناقض وفساد.

وعيسى عليه السلام منزه مبرا عن كل تناقض وفساد، وليس هذا ولا شيء منه من قبله بل هو منزه عن ذلك كله.

وفي الإنجيل أيضا لما وُشَّ⁶ أن المسيح قال لبطرس⁷: "طوبى لك يا شمعون بن الحمامة، وأنا أقول: إنك الحجر، وعلى هذا الحجر أبتى بيتي، فكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقوداً في السماء"⁸، ثم بعد أحرف يسيرة قال بعينه: "اذهب يا شيطان ولا تعارض فإنك جاهل بكوني"⁹.
فكيف يكون شيطان جاهل بطبعه صاحب السماء وهذا غاية التناقض.

1- في خ/م: "للغرماء".

2- الواو ساقطة في خ/م.

3- متى 5: 21-22.

4- متى 5: 32.

5- متى 5: 39-40.

6- في ط: "متاؤوش".

7- في خ/م: "لبيتر".

8- متى 16: 18-19.

9- متى 16: 23.

وفي الإنجيل أيضا لمناوش¹ أن عيسى قال: "لم تلد النساء مثل يحيى"²، ثم في إنجيل يوحنا³، أن يحيى بعثت إليه اليهود من يكشف لهم عن أمره⁴ فسألوه: "من هو؟ أهو المسيح؟ قال: لا. قالوا أتراك إلياس؟ قال: لا. قالوا: أنت نبي؟ قال: لا. قالوا: أخبرنا من أنت؟ قال: أنا صوت مناد في المفازل"⁵.

فنفى عن نفسه كونه نبيا، ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته، فإنه يكون كاذبا. والنبي صادق⁶ لا يكذب.

فيلزمهم أحد أمرين: إما أن يكون يحيى ليس بنبي وهو باطل، أو يكن إنجيلهم محرفا⁷ وهو حق.

ولو تتبع ما فيه من هذا القبيل، لاحتاج ذلك إلى التكرير والتطويل، وبموضع واحد من هذه المواضع يحصل أن كتابهم قابل للتحريف والتغيير، فكيف بالتزيد والتكثير؟ فقد حصل من هذا البحث الصحيح:

أن التوراة والإنجيل لا تحصل الثقة بهما، فلا يصح الاستدلال بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغيير.

وقد دللنا على بعض ما وقع فيهما من ذلك، وإذا جاز مثل ذلك في هذين الكتابين مع كونهما أشهر ما عندهم، وأعظم عمدتهم ومستند ديانتهم، فما ظنك بغير ذينك من سائر كتبهم التي يستدلون بها، مما ليس مشهورا مثلهما ولا منسويا إلى الله نسبتهما.

فعلى هذا، هما أولى بعدم التواتر ويقبول التحريف فيهما⁸، فإذا ادعوا تواتر شيء من ذلك، فلينظر هل كملت فيه شروط التواتر أم لا؟ فإن كملت قبلنا وآمنا، وإن لم تكمل توقفنا وعلابناهم بالطريق الموصل إلى العلم.

1- في ط: "مناوش".

2- متى 11: 11.

3- يوحنا

4- في ط: "يكشف لهم أمره".

5- يوحنا 1: 19-23.

6- في ط: "الصادق".

7- في خ/م: "محرف".

8- في خ/م: "عنهما".

فإذا ثبتت هذه المقدمة، قلنا بعدها للمستدل على إثبات نبوة عيسى [بالأدلة المتقدمة، لا تظن أننا نرد نبوة عيسى أو]¹ أنا نشك فيها -حاشى لله- بل نحن أحق وأولى بعيسى ابن مريم منكم، فإنكم قُلْتُمْ فيه ما لا ينبغي له، ونسبتموه إلى ما يتبرأ هو منه، بل أنتم لعمرى الله²، أبعد منه وأبغض إليه ممن أنكر نبوته وكفر به، فإن من أنكر نبوته وكفر به، لم يشرك بالله كما فعلتم أنتم، حيث جعلتموه إلهاً آخر، ولم يعرض بعيسى عليه السلام للموقف المخجل الذي يسأله الله فيه عن غلوكم³ فيه وعبادتكم له، حيث يقول الله له: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَن تَقُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾⁴، فيقول خجلاً فزعاً متبرأ من قبيح ما نسبتموه إليه: ﴿سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾⁵.

وأما نحن فإنما نقول فيه ما قاله الله على لسان رسوله المصطفى: ﴿مَا أَلَمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾⁶، وما قاله الله أيضاً فيه على لسان إشعياء حيث بشر به وأخبر بقدومه: "هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت به نفسي"⁷. وما قاله هو عن نفسه حين تكلم في مهده: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾⁸.

فنحن نعرفه حق معرفته، ونؤمن بنبوته وشريعته، ونحيل عليه الإلهية إذ ليست من

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- في ط: "والله".

3- في خ/م: "علوكم".

4- سورة المائدة، آية: 116.

5- سورة المائدة، آية: 116.

6- سورة المائدة، آية: 75.

7- إشعياء 42: 1.

8- سورة مريم، آية: 30-31.

صفته، ﴿ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يُزَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾¹.

ثم إننا نعرف ما ذكرناه من وصفه بأدلة كثيرة قاطعة، وبراہین صادقة²، تخضع لها رقاب الجاحدين، وتستضي بنورها بصائر المبصرين.

وإذا كان كذلك، فما استدلت به أنت على نبوة عيسى من كلام النبيين -إن صح فهو- زيادة في أنواع الأدلة لا في نفس اليقين، فلذلك لا نباحثك فيها، ولا نبالي بك أتجهلها أم تدريها، على أنا لو ناقشناك في تلك الأدلة لأظهرنا لك فيها الفساد والعلة، ولكن ما لا يخالف غرضنا لا يقصيه³ فيما بالنا نطول أنفاسنا فيه.

1- سورة آل عمران، آية: 79.

2- في ط: "صادقة".

3- في ط: "يقضيه".

الفصل الرابع

[هاجر أم إسماعيل الذبيح]¹

من حكاية كلامه أيضا

قال: "وانت أيها الإنسان تجدوا في كتابكم في آل عمران: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾² من قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ".³

فأنت مقر بالتوراة والإنجيل؛ فاثبتوا دينكم من التوراة، كما أثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء، واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم شيئا، فإن قلت من كتابك شيئا؛ قلت لك كما قال رسولك: "البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر"⁴، فوجب عليك أن تثبت دينك من التوراة والإنجيل التي أنت مقر بهم وأنت مدعي أن كتابكم من الله؛ فأثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي كما أنتم مقرون.

وقولكم: "وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل"⁵، فإني أطلبك من الكتب التي جاءت به الرسل كما قلت؛ فإني بما ادعيت ولا يميني؛ لأنني أنكر لك، ولا نقبل لك من النبوات والروايات المرويات عن مسلم في كتابه الذي قال: حدثنا سفيان عن الزهري عن قتادة عن عائشة قالت: "جاءت امرأة رفاعة إلى الرسول فقالت له: كنت لرفاعة فطلقني فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، فتبسم الرسول ضاحكا وقال: أتريد أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عبد الرحمن بن الزبير عسيلتك"، وفي رواية أخرى عن عائشة قالت: "طلق رجل امرأة ثلاثة فتزوجها رجل، ثم طلقها قبل أن

1- : العنوان الموجود بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- سورة آل عمران، آية: 3-4.

3- الحديث ورد عند البيهقي في سننه، "أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أنبا أحمد بن عبيد الصفار ثنا جعفر بن محمد الفريابي ثنا الحسن بن سهل ثنا عبد الله بن إدريس ثنا بن جريج وعثمان بن الأسود عن بن أبي مليكة قل كنت قاضيا لابن الزبير على الطائف فذكر قصة المراتين قال فكتبت إلى بن عباس فكتب بن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

4- سورة آل عمران، آية: 144.

5- في ط: "فأنت".

يدخل بها، وأراد زوجها الأول أن يتزوجها، فسأل الرسول عن ذلك، قال: "لا حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق الأول"¹.

فافهم؛ فمثل هذه النبوات لا تقبلها منكم؛ لأن المسيح يقول: "لا ينبغي لرجل طلاق زوجته إلا أن تزني، وإن زنت فلا يحل له مراجعتها، ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى، أعنى من طلقها دون سبب، ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها"².

وانتم تقولوا: لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني، بدل أن تنهوا عن الزنى³ تأمروا بالزنى⁴ وهو عندكم فريضة التياس.

وأنا أريد قطع ذنب التيس؛ وأن نجعله في ذقنه ليلوح لسته لمعة صرصر الشمال وحمأة قيظ هجير الجنوب.

وهذا جواب كلامك انتصافا منك كما يقول قرآنك: "ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه"⁵، فافهم.

ثم قلت في شعرك: أراد النصارى ينصرون محالهم..

فانصر أنت محالك لأنك قلت بالسفه والطمع في ديننا، وقلت الكذب على مسيحنا، كيف قلت ما لم تعلم وكيف تجرات أن تتكلم، واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني

1- الحديثان وردا عند مسلم في صحيحه في كتاب النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطْلَقِهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ وَيَطَاهَا ثُمَّ يُفَارِقَهَا، بِالْأَلْفَاظِ التَّالِيَةِ:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَمَرُو النَّاقِدُ، - وَاللَّفْظُ لِعَمْرٍو - قَالََا حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ جَاءَتْ امْرَأَةً رَفَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ كُنْتُ عِنْدَ رَفَاعَةَ فَمَطَّلَنِي فَبَتُّ مَطْلَاقِي فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّيْبِرِ وَأَنْ مَا مَعَهُ مِثْلُ هَدْيَةِ الثَّوْبِ فَتَيَسَّمُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رَفَاعَةَ لَا حَتَّى تَذَوْقِي عَسِيلَتَهُ وَيَذَوْقَ عَسِيلَتَكَ"

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ طَلَّقَ رَجُلٌ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَأَرَادَ زَوْجُهَا الْأَوَّلُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَبَسَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ "لَا حَتَّى يَذَوْقَ الْآخِرُ مِنَ عَسِيلَتِهَا مَا ذَاقَ الْأَوَّلُ"

2- متى 5: 32.

3- في خ/م: "الريا".

4- في خ/م: "الريا".

5- هذا الكلام ليس قرآنا، وكأني به يقصد قول الله تعالى في سورة الشورى، آية: 41 (وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ).

أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدرون على إنكارها .

فافهم لأنك قلت في المسيح: [أنه]¹ غشاء وأوطار، وأنتك سبيت الحاكم عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة، لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة، فإن أرسلت بعد هذا بالشتم، فإني أعرفك بشجرتك ما هي؟ حتى تعلم من أنتظ وأعلم أنني لم أرد في الأول شتم أحد، لكن لما بعث إلي أول كتاب بالسفاهة والسب، رددت له الجواب بأمة هاجر، ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها في التوراة²، فاسمع قول الله عنها وعن ابنها: "رأت سارة³ ابن هاجر المصرية⁴ الذي ولدت لإبراهيم وهو يلعب، فقالت لإبراهيم: ارم هذه الأمة وابنها أن⁵ ليس يرث هذه الأمة وابنها مع ابني إسحق، فصعب على إبراهيم ما قالت له عن ابنه، فقال الله لإبراهيم: لا يصعب عليك بكلام سارة⁶ عن الصبي وعن أمتك وجميع ما تقول لك سارة⁷، اسمع من قولها، فقال إبراهيم: هذا كلام الله إلي قائل لا يرثك هذا"⁸.

إن الذي يخرج من صلبك هو يرثك.

ثم قال الله لإبراهيم: "ياسحق يتسمى نسلك"⁹.

فافهم ترشد، وأعلم كيف قطع الله ورث إسماعيل وأمه في قوله: "لا يرثك هذا"، ثم قال [عن إسحق الذي يخرج من صلبك وكيف قال الله]¹⁰ لإبراهيم ياسحق يتسمى نسلك، ولم يقل بإسماعيل يتسمى نسلك، فأخذ إبراهيم خبزا وجرة ماء، وجعل على أكتاف الأمة وجعل إسماعيل على عنقها بالليل؛ وأخرجها بولدها عن العمران، فتناسلت¹

1- في ط سقطت كلمة "أنه".

2- في ط: "وعن ابنها".

3- في خ/م: "صارت".

4- في خ/م: "المصري".

5- في ط: "إذ".

6- في خ/م: "صارت".

7- في خ/م: "صارت".

8- تكوين 21: 13.

9- التكوين 21: 13.

10- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

فتناست¹ منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾².

فافهم؛ والسلام على من اتبع الهدى؛ وآمن بشريعة المسيح حقيقة الإيمان ورحمة الله وبركاته كمل كلامه.

الجواب عما ذكر [في هذا الفصل]³.

اعلم -يا هذا المخدوع؛ المصروف عن المعارف الممنوع؛ الشاهد عليه جهله بأنه ليس بتابع ولا متبوع- أنا نؤمن بالله وكتبه ولا نفرق بين أحد من رسله، فنؤمن بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلهما على رسوليهِ الملك الجليل، ولكن قبل أن يعتريهما التغيير والتبديل؛ وقد نبهنا على أن الكتاب الذي بأيديكم المسمى بالإنجيل عندهم لا يقال عليه منزل بالحقيقة؛ كما تقدم من تلك الطريقة، ثم إنا نسلم جدلاً صحة ما تدعونه من تلك الكتب⁴؛ ونبين صحة نبوة نبينا منها عن كتب.

فأما قولك: واعلم أنا لا نقبل من كتبكم شيئاً؛ فليس ذلك بأول عنادكم؛ فكم لكم منها؛ وكم "شنشنة أعرفها في أخزم"⁵.

لكنكم لستم عند العقلاء أهلاً لقبول حق؛ ولا لرد باطل؛ فليس ردكم بأولى من قبولكم هذا⁶، فعل الرعاع الغثر الغثاء الغير يقبلون بغير دليل؛ ويردون بغير حجة ولا سبيل.

والأفما الدليل الذي أوجب عندهم إلا تقبلوا نبوة نبينا محمد مع وضوح معجزاته وعدالة بيناته؛ على ما نبينه إن شاء الله⁷.

فظهر من هذا أن ردكم لديننا ليس بدليل؛ وإنما هو لأجل إتباع قول كل جهول دخيل؛ يحكم على عقله هواه⁸ ويطيح معه حيثما رماه، ولأجل ذلك صار دينكم ضحكة العقلاء؛ مشتملاً على كل مقالة شنعاء، ومن كان هذا منهج سبيله فردّه لغير معنى بمثابة قبوله.

1- في خ/م: "فتست".

2- سورة التوبة، آية: 97.

3- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

4- في ط: "النبوة".

5- هذه القولة قريبة من الشطر الثاني من بيت شعري لأبي أخزم الطائي جد حاتم الطائي يقول فيه: إن بني زملوني بالدم...شنشنة نعرفها من أخزم.

6- في ط: "وهكذا".

7- في ط: "تعالى".

8- في خ/م: "هواد".

ولقد كان ينبغي لك؛ لو كنت على سنن النظار؛ أهل البحث عن الحق والاعتبار؛ أن تحكى ديننا، وتستدل بزعمك على فسادك كما قد فعلنا نحن بدينكم، إذ بينا تناقضه وعدم سداكه؛ على أنه قد تبين الصبح لذي عينين ووضحت الشمس لسليم الحاستين.

ما ضر شمس الضحى في الجو مشرقة... ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ثم قلت متواقحا في قولك؛ مستهزئا برسول ربك (فإن قلت من كتابك شيئا قلت لك كما قال رسولك "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر")، أما قولك؛ "رسولك" فنعم هو رسول إلينا وإليك؛ فآمنا وكفرت؛ وصدقنا وكذبت ﴿وَسَعَلُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾¹، فنحن نقول رضيينا بالله ربا وبمحمد رسول الله رسولا وبالإسلام ديننا، وأما أنت فإن مت مصرا على تكذيبك فليدخلك الله النار؛ وليدخلك في دار البوار، فلا تنتفع بشفاعه ملك مقرب ولا بنبي مختار، وأما طلبك البينة على صدقه فكفاك شهادة الأنبياء العارفين بحقه؛ المخبر عنه بلزوم تصديقه وصدقه، وسنبين ذلك بأبلغ بيان وأوضحه بأوضح برهان.

وعلى سبيل الاستعجال يكفيك بينة عدلة² ما وقع في صحف النبي دانيال؛ حيث وصف الكذابين وقال: "لا تمتد دعوتهم ولا يتم قريانهم وأقسم الرب بساعده أن لا يظهر الباطل ولا تقوم لدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة".

وهذا دين محمد رسولنا؛ قائم منذ ستمائة سنة ونيف؛ فكيف ترى هذه البينة المصححة؛ أمعدلة عندك أم مجرحة.

وكذلك في صحف النبي حبقوق؛ وهو الشاهد المعظم الموثوق؛ قال: "جاء الله من التين"³؛ وتقدس من جبال فاران؛ وامتألت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه وملك الأرض بهيبته" وقال أيضا: "تضئ له الأرض؛ وستنزع في قسيك إغراقا؛ وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتوا"⁴.

فهذا النبي الصادق المصدق قد أفصح بنعته؛ وصرح باسم بلده وشهد بصدقه، ومن

1- سورة الشعراء، آية: 227.

2- في ط: "عدله".

3- في ط: "التيمن".

4- في ط: سقطت "ارتوا".

كان الأنبياء شهوده فقد استحق مكذبه عذاب النار وخلوده، فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من تبين له الحق ثم صار عنه من المعرضين.

وسنعتقد في النبوات فصلا مفردا؛ ونأتي فيه بالعجائب حتى يتبين فيه توافق كل طاعن عائب.

وأما قولك: "وأنت تدعي أن كتابكم من الله". فإن كنت تتكر ذلك فادع عصابتك البلغاء من نصارى نجران؛ المتكلمين بلغة القرآن ليعارضوه¹ بسورة من مثله، فإن فعلوا ذلك دحضت حجته وانقطع عظيم قوله، لكنهم لما سمعوا منه القرآن؛ تحققوا على القطع أنه ليس يقدر عليه أحد من الإنس والجان؛ وعلموا أنه كلام الملك الديان، فأمنوا وصدقوا لما عرفوا؛ وحققوا فحصلوا على فضل الملتين؛ وآتاهم الله أجرهم مرتين.

وأما قولك: "فأثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي" فلتعلم أنا لولا كره منا أن نتكلم برطانة العجم؛ لكان ذلك علينا أيسر شيء يلتزم، ولكننا -إن شاء الله تعالى- نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم؛ مثل يرونم² وحفص³ ابن البر وغيرهما من المترجمين الذين تثقون بقولهم وتعملون على نقلهم، ولست أفعل مثل ما أنت فعلت؛ ولا أصنع شيئا مما صنعت؛ حيث نقلت كلام الأنبياء بالعبراني والعجمي، ثم إنك شرعت في ترجمته وفي تفسيره من غير أن تتسبب التفسير إلى أحد المترجمين العالمين بالمعاني وباللغات ومواقع الألفاظ، وأما أنت فليست بموثوق بنقلك ولا مصدق في قولك لجهلك بالشروط التي يحتاج إليها المترجمون، وإذا ادعيت أنك لست جاهلا فما حد الترجمة وحقيقتها وما شروطها وكم أقسامها؟ وما المحل الذي تجوز فيه من الذي لا تجوز؟ وبهذا السؤال يظهر جهلك وتبلدك وحصرك وتوددك.

ثم قلت: "فأنت بما ادعيت وإلا يميني لأنني أنكر" ها أنا قد أقمت البيئات العدول الذين ليس لقائل في عدالتهم ما يقول، ولقد أعلم مع ذلك أنك تبادر باليمين؛ وتباهت المسلمين؛ إذ قد تقولت بالكذب والزور على رب العالمين، ثم ذكرت على جهة الاستهزاء والتتقيص والازدراء والتخريض⁴ حديث امرأة رفاعة لتقبح بذلك ديننا؛ وتتسبب إليه

1- في ط: "ليعارض".

2- في خ/م: "يروغ".

3- في خ/م: "جمعص".

4- في خ/م: "التخريض".

شناعة؛ وأنت مع ذلك لم تعرف معناه ولا فهمت فحواه.

ثم قلت -بعد أن أخللت بمساقه ولم تقمه على ساقه- فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم لأن المسيح يقول: "لا ينبغي لرجل طلاق زوجته إلا أن تزني"، فلتعلم أن هذا كلام جاهل بأحكام الأنبياء؛ ظان أن أحكام الشرع صفات لأعيان الأشياء؛ ثم يستمد¹ من إنكار الناسخ والمنسوخ وكلام كل جاهل مردود مفسوخ.

فنقول لهذا المنكر الجاهل -الذي ليس بمتشرع ولا عاقل- منعك طلاق الرجل زوجته ورده إياها بعد طلاقها لا يخلو إما أن يكون منعاً من جهة العقل؛ أو من جهة الشرع، فإذا ادعيت أنه [ممنوع]² من جهة العقل كانت دعواك باطلة بالضرورة؛ فإن صور هذه المسائل ووجودها معلوم بالضرورة، فإذا بطل أن يكون امتناعها من جهة العقل فيجوز أن توجد، وإذا جاز أن توجد فكيف ينبغي لمن ينتسب إلى العقل أن ينكر نبوة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث³ حكم بشيء يصح في العقل أن يوجد.

ثم من العجب العجائب؛ الذي يستعظمه أولو الألباب؛ أنكم التزمت في شرعكم بما يشهد العقل الأول بفساده، مثل قولكم في الأقانيم أنها آلهة ثلاثة إله واحد، وقلتم في الاتحاد والحلول ما يعلم فساده بضرورة العقل⁴، ثم لم ينفركم ذلك عن إتباع شرعكم؛ بل يقول من يميز استحالة ذلك القول منكم هذا مما ليس يدرك بالعقول؛ بل يتبع فيه الكتاب المنقول، ثم بعد التزام هذه المحالات والمدافعة عنها بالترهات والخرافات تتكرون علينا فعل شيء تجوزه العقول؛ ولم نصر⁵ إليه إلا بعد ثبوت الشرع المنقول؛ الذي دل على صحته البرهان المعقول، فأنتم من الجهل والزلل كما جرى من كلام النبوة مجرى المثل: "يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عينه"⁶ وإنما كان ذلك كله للمعنى الذي نبه الشاعر عليه هنالك.

1- في ط: "تستمد".

2- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

3- في ط: "حيث إنه".

4- في ط: "العقول".

5- في ط: "نصر".

6- متى 7: 3.

عيون الرضا عن كل عيب كيلة... ولكن عين السخط تبدي المساويا¹

فلو وفقتم لطريق الإنصاف لتركتم طريق التعصب والاعتساف، ولو كنتم تطلبون الحق بدليله لأوشك أن يرشدكم إلى سبيله، ولكن من حرم التوفيق استدبر الطريق ونكل عن التحقيق.

وإن ادعيت أن ذلك ممنوع من جهة الشرع، فنقول لك: إما أن يكون ممنوعاً من جهة الشرائع كلها أو من بعضها، فإن قلت: إنه ممنوع من جهة الشرائع كلها، كان ذلك باطلاً إذ الشرائع في ذلك مختلفة، فإن المعلوم من شرع التوراة في ذلك خلاف شرعكم؛ وكفى دليلاً على أن التوراة تخالفكم في ذلك أو الكلام الذي حكته عن المسيح أنه قال: "أما علمتم أنه قيل للقديس من طلق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق؛ وأنا أقول من طلق امرأته فقد جعل لها سبيلاً إلى الزنى" فهذا تصريح بين ما أنكرته علينا وتنقصت به شرعنا، وكما جاز أن يخالف عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة؛ ولا يدل ذلك على كذبه ولا على فساد شرعه؛ كذلك يجوز أن يخالف شرعنا شرع عيسى وموسى في بعض الأحكام ولا يدل ذلك على فساده، إذ كل واحد منهم إنما يبلغ حكم الله وليس مخترعاً حكماً من قبله، ثم قد تختلف الأحكام والأوضاع بحسب ما يريده الله تعالى وبحسب ما يعلمه من اختلاف الأحوال والمصالح.

والأصل في ذلك أن الله تعالى لا حجر عليه في أفعاله؛ ولا راد لشيء من أحكامه؛ فيحل لعباده ما شاء ويحرم عليهم ما شاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾²، وهذا بين بنفسه لا يجهله إلا من كان عديم حسه.

ثم قلت: "وأنتم تقولون لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني؛ بدل أن تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنا" اسكت فض الله فاك فما أكذبك وما أجفاك؛ تتقول علينا بما لا نقول؛ وتتصرف في شرائع الأنبياء تصرف متوافق جهول؛ كما فعل أشياء عكم من قبل.

اسمع يا لكع؛ على أنك لا تحسن أن تسمع؛ اعلم أن هذا الذي ظننته بجهلك زنا ليس بزنا؛ لأن الزنا حقيقته إيلاج فرج في فرج محرم شرعاً مشتهى طبعاً، وهذه الحقيقة

1- البيت منسوب للإمام الشافعي ومنشور في ديوانه، والبعض ينفي نسبته إليه وينسبه إلى عبد الله بن معاوية، وبعضهم ينسبه إلى أبي السود الدؤلي، ونسبه الحافظ بن حجر إلى المغيرة بن حبناء في شرحه لحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن.

2- سورة الأنبياء، آية: 23.

معدومة في الذي توهمت أنه زنا، فإن قلت إن كانت هذه الحقيقة معدومة عندكم فليست معدومة عندنا فإن هذا الإيلاج محرم عندنا فهو زنا؛ قلنا لك إن كان قد ثبت تحريم ذلك عندكم فقد ثبت تحليله عندنا؛ فإن الله تعالى يحل لعبيده ما شاء¹ ويحرم² عليهم ما شاء³.

وهذا كما أحل الله لموسى من الطلاق ما حرمه على عيسى، ثم كيف يمكن لعاقل أن ينكر مثل ذلك وقد ثبت أنه أحلت في بعض الشرائع فروج وحرمت في شرع آخر، فقد ثبت أن البطن الأول من أولاد آدم أحلت لهم نكاح الأخوات؛ ثم حرمت على من بعدهم من الشرائع، وقد جاء في التوراة أن يعقوب نكح أختين راحيل وليئة⁴ وجمع بينهما وحرمهما على غيره والجمع بينهما في النكاح محرم عندكم، وقد فعل الله ذلك في أحكام آخر على ما يعرف من أحوال الشرائع واختلافها في بعض الأحكام، وإنما يتحقق هذا المعنى على اليقين من يعلم أن حقيقة الحكم الشرعي هي خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير، فعلى هذا لا معنى للحكم إلا قول الشارع افعلوا أو لا تفعلوا أو إن شئتم فافعلوا وإن شئتم فاتركوا على ما يعرف في موضعه.

ثم هذا الذي عبته علينا؛ أيها الجهول؛ له معنى صحيح في العقول؛ جار على منهاج المصالح المعقول، وذلك أن الله تعالى إنما شرع الطلاق ليتخلص الرجل من نكد المرأة وأسوها رفقا بنا ورحمة منه علينا، فقد تكون غلا قملا تضر بالرجل ضررا حقيقيا⁵ لا يمكن أن يطلع عليه أحد فلا تجبر على إزالته لكونه لا يتحقق من جهتها فجعل للرجل أنه متى شاء أن يتخلص منها ومن ضررها فعل.

وأیضا فلكون النساء في الغالب ناقصات عقل؛ فلو علمت أن الرجل لم يجعل له سبيل إلى مفارقتها لما كانت تحترمه ولبادرت⁶ إلى ضرره، فأراد الشارع أن يجعل للرجل سببا يحترم لأجله وهو الطلاق، فإن المرأة إذا علمت أنها إن بالغت في ضرر زوجها طلقها امتنعت من ضرره في الأكثر.

1- في ط: "يشاء".

2- في خ/م: "يجمع".

3- في ط: "يشاء".

4- في خ/م: "ليا".

5- في ط: "حقبا".

6- في ط: "بادرت".

فإن عورضنا وقيل لنا فيلزم على ذلك أن تطلق المرأة نفسها متى شاءت؛ فإن الرجل قد يضر بها ضررا لا يطلع عليه أحد، فإن راعيتهم وجود الضرر وتوقعه في حق الزوج فلم لم تراعه في حق الزوجة كذلك، فنقول: إنما لم نراعه في حق المرأة؛ لأننا لو جعلنا للمرأة أن تطلق نفسها متى شاءت لما استقرت امرأة عند زوجها في غالب الأمر، لأنهن ناقصات عقل فلا يؤمن عليهن غلبة شهواتهن على عقولهن.

وان فتح هذا الباب طرأ منه من الضرر ما لا ينسد؛ ولا يتدارك فسد هذا الباب في حق النساء لهذه الحكمة، وفتح في حق الرجال ليزول عن أعناقهم غل الضرر والنقمة والله أعلم.

وأما ما عبته¹ أيضا من أن المطلقة ثلاثا لا تحل إلا بعد زوج، فذلك أيضا له معنى معقول مناسب؛ وذلك أن الطلاق وإن كان الله قد أباحه لنا فهو من قبيل المكروه من غير سبب من حيث التقاطع والتدابير المنهي عنهما، ولأجل هذا قال نبينا عليه السلام: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" فأطلق عليه لفظ البغض مشعرا بالكراهة؛ وأطلق لفظ الحلال مشعرا بجوازه فحصل لنا من مفهومه أنه يجوز على كراهة.

فإذا تقرر أنه مكروه من الوجه الذي ذكرناه؛ فينبغي ألا يفعل، ثم إن فعل ولا بد منه فلا يكثر منه؛ ثم إن كثر منه [فلا]² يزداد على المرتين، فإن تعداها³ عوقب بأنه لا تحل له إلا بعد زوج، فكانت الحكمة في ذلك أن الزوج إذا علم أنه إذا أكثر من هذا المكروه -الذي هو الطلاق- عوقب بتقويت زوجته عليه وتملكها غيره؛ امتنع من تكثير المكروه الذي هو الطلاق، ثم لا يظن الجاهل بنا أننا نجبر الزوج الثاني على طلاقها حتى يرجع إليها الأول حاشى لله، وإنما الزوج الثاني يملك منها ما يملكه الأول فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها.

ثم إن طلقها اعتدت منه؛ وجاز للأول أن يتزوجها تزويجا مستأنفا إن شاء، ولا يجوز عندنا أن يتزوجها الثاني ليحللها للزوج الأول؛ فإن فعل كان نكاحه فاسدا؛ وهو الذي نسميه المحلل؛ وهو الذي قال فيه النبي: "لعن الله المحلل والمحلل له"، فإن سماه مسم تيسا فعلى جهة الذم لفعله.

1- في ط: "عبته".

2- ساقطة من خ/م.

3- في ط: "تعداها".

فإذا تقرر هذا المعنى الذي لا يمنعه العقل؛ ولا تنافيه مكارم الأخلاق؛ بل هو على منهاجها؛ وعلى سنتها؛ فكيف ينبغي لعاقل منصف غير متوابع ولا متعسف أن يقول علينا أنا نقول: لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني، ولو كنت يا هذا من أهل العقل الذين تبرؤوا عن السفه والجهل لما كنت تشبه نكاحا على وفق شريعة صحيحة بحسب دلالة أدلتها القاطعة، مع أن هذا النكاح وقع بولي ومهر وشهود وإعلان بنكاح الزنا الذي ليس فيه ولي ولا مهر ولا شهود ولا إعلان، وإنما يقع الزنا مخالفا للشرائع عريا عن الشهود والولي مستورا فهذا تشبيه يدل على عناد وتمويه.

ثم قلت: "بدل أن تنهوا عن الزنا تأمروا به؛ وهو عندكم فريضة التياس" هذا التشنيع باطل؛ وقول غبي جاهل؛ وتهويل ليس وراءه حاصل؛ وقول الزور والأباطيل قصد به قائله استئزال العوام؛ وليكره لهم دين الإسلام: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾¹ ولقد صدق الله عبده وأنجز وعده ﴿وَمَنْ أَوفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾².

اعلم -يا هذا المفترى الكذاب والمشنع المرتاب- أن العقلاء لا يرضون بما فعلت؛ ولا يأتون بمثل ما به أتيت، وذلك أنك جهلت شرعنا؛ وكذبت عليه؛ وعميت عليك مقاصده؛ فنسبت الزور والفحش إليه، وإنما كان ينبغي لك؛ لو كنت على سنن العقلاء أهل السياسة الفضلاء؛ أن تبحث عن أدلة صحة هذه الشريعة؛ وعن صدق الذي جاء به، فإن كانت أدلتها صحيحة وجب عليك أن تقبلها جملة؛ ولا ترد منها شيئا³؛ وتكون واحدا ممن التزمها؛ وإن لم تظهر لك صحة أدلتها، فناظر أهلها في تلك الأدلة؛ ولا تتعدها إلى غيرها؛ وباحثهم فيها مشافهة فإن المخبر ليس كالمعاين، فلو لم يقدروا على أن يحتجوا لدينهم؛ ولا أن يقيموا دليلا على صحة شرعهم وجب عليك رد تلك الشريعة من أولها؛ وهذا دأب الموفقين لا الكذابين المشنعين.

ثم قلت: "وأنا أريد قطع ذنب التيس وأن نجعله في ذقنه ليلوح استه لمرة صرصر الشمال وحمارة قيظ هجير الجنوب".

1- سورة الصف، آية: 8.

2- سورة التوبة، آية: 111.

3- في ط: "شيء".

يا هذا التيس وأي ذنب ساطر للتيس، أنظن أنك تتفصح وتستعير؛ وأنت لا في العير ولا في النفير، وكيف تظن السلامة من الحمق والبؤس بمن يجهل كيفية أذنا ب التيس؛ أم كيف يبالي بتفصحه وجعاجعه، وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من جهل عدد أصابعه، ولولا أن شرعنا منع من السباب ولا يليق ذلك بأولى المروءات والآداب لأقذعتك سباً¹ ولأوجعتك عتبا ومع هذا.

نجا بك لومك منجى الذباب حمته مقاديره أن ينالاً
لا أسببكم فاستم بسبي إن سبي من الرجال الكريم
ثم قلت: وهذا جواب كلامك انتصافاً منك كما يقول قرآنك ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه".

يا هذا؛ شأنك يحار فيه التحرير؛ وجهلك يتعجب منه² الصغير والكبير، كيف لا وكلامك هذا يشهد عليك بجهلك بإنجيلك؛ وبمخالفتك حكمه وشرع رسولك، كيف يحل لك في شرعك أن تنتصف ممن ظلمك وتشتم من شتمك؛ وإنجيلك يقول لك: "لا تكافئوا أحداً بسيئة ولكم؛ من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى، ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضاً رداءك"³ فهذا إنجيلك يشهد عليك بأنك لست على شرعه؛ بل رددت حكمه وعملت على رفضه⁴.

وإذا كان شأنك هذا مع كتابك؛ فكيف يرتجي فلاحك من ليس من أحبابك، ثم العجب العجائب تركت كتابك والعمل به؛ ثم أخذت تعمل بكتاب لا تصدق بأصله، فهذا يعلم من حالك أنك لست تريد أن تتبع الحق؛ ولا أن تبحث عنه؛ ولكنك اتبعت هواك فأضلك وأطعت الشيطان فأزلك، ثم من أدل دليل على جهلك ومغالطتك أنك أوهمت أنك تعرف القرآن؛ وأنت تحتج علينا به؛ ثم ذكرت ما ليس بقرآن حيث قلت: "ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه" وهذا ليس بقرآن وإن كان يشهد لمعناه⁵ القرآن.

1- في خ/م: "سبياً".

2- في ط: "منك".

3- متى 5: 1.

4- في خ/م: "رفعه".

5- في ط: "بمعناه".

وليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط، بل بلفظه المخصوص ومعناه وأسلوبه الذي أعجز الأولين والآخرين، فعلى هذا المعنى أن تترجم بلسان آخر أو عبر عن معناه بغير لفظه وأسلوبه خرج عن كونه قرآناً فأفهم وما أدراك تحسن.

ثم قلت: "فانصر أنت معالك لأنك قلت بالسفه والطعن في ديننا وقلت¹ الكذب على مسيحنًا".

انظر هذا الكلام الفصيح الجهالة على قائله تلوح فلقد عدم هذا الكلام الانتظام والارتباط فوجب له لأجل ذلك الإلغاء والإسقاط.

وأما ما ذكرت من تسفيه دينك والطعن عليه فذلك واجب على العقلاء، إذ قد تبين بدليل العقل الذي لا يشك فيه أنكم قد تمذهبتم² بكل مقالة شنعاء وقد بينا ذلك فيما تقدم.

ثم إن الطعن على دينكم ليس طعنا على دين المسيح، فإنكم لم تتدينوا بدينه؛ ولا عرفتم حقيقة يقينه؛ بل تخرصتم عليه بالأباطيل؛ وقبلتم عليه قول كل متوآق جاهل، فما لكم وللانتساب للمسيح وهو مبرأ عن كل قبيح؛ بل هو ساخط عليكم وبراء إلى الله منكم، وقد بينا ذلك فيما تقدم؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى بمزيد يبطل قولكم فيه ويهدم.

وأما ما نسبت إلينا من الكذب على المسيح والسب له فذلك والله شيء لا نفعله؛ ولا يرضى بذلك متدين ولا عاقل، وكيف يجوز هذا علينا ونحن نكفر من سبه أو سب أمه عليهما الصلاة والسلام، وهذا عندنا أصل من أصول عقائدنا، وذلك أن الله تعالى أخذ علينا من الميثاق أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل ولا نفرق بين أحد منهم، وهو عندنا من أكرم الرسل؛ فكيف نسبه أو نكذب عليه وفي فعل ذلك خروج عن دين الإسلام؛ وتمسك بفعل الجهال الطغام، بل أنتم الذين كذبتم عليه ونسبتم ما تحيله العقول إليه؛ وهو يتبرأ من ذلك ويتصل مما افترت عليه هنالك، ثم أضفت³ مع ذلك من العيب والتقصيص على الله تعالى ما يعلم على الضرورة والقطع أنه محال؛ فنحن وإياك على المثل السائر "رمتي بدائها وانسلت".

1- في خ/م: "قلت".

2- في خ/م: "تمذهبتم".

3- في خ/م: "أضفت".

ثم قلت: "واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم؛ فإنني أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم؛ ويكل ما نعرف من الأقاويل التي لا تقدرُونَ على إنكارها".

لولا أن السب منهى عنه على الإطلاق؛ وليس من مكارم الأخلاق؛ لأكثرت من سبك ولأوغلت في لومك وعتبك، ولو كان ذلك لما كذبت ولا افترت؛ وإنما كنت أفعل ذلك لأظهر بذلك باطل تمويهك ومغالطة تهويلك؛ ومن أين لك أن تعرف ديننا وأي طريق يوصلك إليه؛ وبأي لسان تتمكن منه وبأي فهم¹ تتوصل إلى معناه.

ها أنت لا تعرف دينك الذي نشأت عليه؛ فكيف بك أن تعرف ما لم تفهم منه حرفا؛ ولا سمعته على وجهه، اللهم إلا أن تقولت بما ليس لك به علم كما قد فعلت في فريضة التياس فلا يعدم أحقق مخرق ما يقول.

وأما إن ذكر شريعتنا من يعرفها، فالعقول السليمة تقبلها بنفس ما تسمعها لشدة ارتباطها وحسن نظامها؛ وليست كشرية من يعتقد إلها آخر مع الله ويعتقد في الله ما يستحيل عليه وينسب إلى الأنبياء ما يتبرؤون منه ويتحكمون² بأهواء جهالهم في دين الله. وسنعتقد بأثر³ هذا -إن شاء الله- بابا نبين فيه جملا من أحكامهم، وفيها يتبين أنكم لا تستدرون فيها إلى مستند؛ وأنكم اخترعتم فيها من الجهالات ما لم يقل به أحد.

ثم قلت لأنك قلت في المسيح عثا⁴ وأوطار وأنك سبيت الحاكم عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة.

وكم من عائب قولا صحيحا وأفته من الفهم السقيم⁵.

لتعلم يا هذا؛ أنني وقفت على الكتاب الذي جاويناك بعض أصحابنا، وتأملت هذا الموضع الذي لم تفهمه فعلمت أن الخطأ من قبل فهمك لا من قبل الكاتب، وذلك أن لفظ ما كتب به إليك في هذا الموضع: "شجرتنا نبوية فروعها قرشية ثمرتها هاشمية شجرتك غطاء وأوضار ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾"⁶ هذا نصه:

1- في خ/م: "مبهم".

2- في ط: "يتحكمون".

3- في ط: "أثر".

4- في ط: "عث".

5- البيت لأبي الطيب المتنبّي.

6- سورة إبراهيم، آية: 26.

”وكان ينبغي لك أن تفهمه¹ لو كنت منصفًا، فإن هذا الكلام إنما جرى مجرى المثل، وإنما أراد بقوله² بشجرتنا نبوية أن أصل اعتقادنا أن محمدًا نبي ورسول ليس بإله واعتقادكم أنتم أن عيسى إله وليس بنبي وهذا قول باطل واعتقاد فاسد، ولذلك عبر عن أصل هذا الاعتقاد بالشجرة، ثم قال إنها غشاء وأوضار فالمسيب المذموم إنما هو اعتقادكم في عيسى لا عيسى حاشى وكلا، فهكذا ينبغي أن تفهم الكلام ولا تبادر لأجل الجهل باللام، فالملوم على كل حال هو الجاهل الذي ليس يفهم ولا عاقل وحين وقفت على كلامك هذا هممت أن لا أكاتبك لكونك قليل الإنصاف كثير الجهل والانحراف.

ولقد أعرف أنك إذا وقفت على كتابي هذا لا تفهمه، ومع ذلك فتبادر إلى رده مكابرة ومجاهرة؛ وتتناوله بالرد والتقبيح³ ويكل قول ليس بصحيح، وقد حكمت بيني العقلاء المتدينين الفضلاء الذين يعترفون بالحق حيث كان؛ ولا يعرجون في قبوله على إنسان.

وأما قولك: ”الحاكم عليك وعلى كل⁴ الأمم“، فقول ليس بصحيح ولا أمم؛ وإنما الحاكم على كل الأمم وكل المخلوقات الذي أوجدها بعد أن لم تكن ثم يعدمها كأن لم تكن ثم يعيدها كأنها ما برحت ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾⁵ الآية.

وأما قولك: ”ستلقاه حاكمًا ليس يطلب بيته“⁶، فقد نسبتموه إلى الجور؛ فإنه إذا لم تقم بيته على المحكوم عليه عندنا وعندكم ونفذ الحاكم الحكم نسب إلى الجور، فإذا قامت البيته زال عنه توهم الجور وظهر معيار العدل، وعند سماع هذا يتحقق معنى المثل المعروف عدو عاقل خير من صديق جاهل، فإن العدو العاقل يذعه⁷ عنك عقله والصديق الجاهل يريد نفعك فيضرك، وأنت بجهلك أردت أن تعظم المسيح فنقصته وأن تمدحه فذمته فعل السفیه الأحمق الجاهل.

1- في ط: ”تفهمه“.

2- في ط سقطت ”بقوله“.

3- في ط: ”القبيح“.

4- في ط: ”جميع“.

5- سورة المائدة، آية: 17.

6- في ط: ”يطلب عليك بيته“.

7- في خ/م: ”يزعمك“.

وأنا أقول: ستلقونه بين يدي الله¹ فإن اعترفتم بقولكم فيه جوزيتم على ذلك بجزءاً سترونه عياناً، وإن أنكرتم قولكم فيه يقول الله لجوارحكم أنطقى فتشهد عليكم بأقوالكم² وأفعالكم، فهكذا يظهر العدل ويعلم كل مكلف أنه محاسب بما عمل من خير أو شر ومجزى عليه.

ومما يدل على أن الله تعالى إنما يأخذ بالبينات يوم القيامة؛ أنه قد ثبت على لسان من دلت المعجزة على صدقه أن الله وكل بنا كراماً كاتبين يكتبون ما نفعل؛ فهم الشهود العدول الذي ليس لطاعن عليهم ما يقول؛ وستقدم فتعلم.

ثم العجب من جرأتك أنك سببت خليل ريك حيث قلت: "رشح الجلد المدبوغ في قصرية هاجر" هذا لإبراهيم ذم صريح صدر من جاهل وقح³، هنا يرد عليك قولك: كيف قلت ما لا تعلم؛ وكيف تجرمت في خليل الرحمن أن تتكلم؛ وستلقاه يناضل عنه الله. ثم من ريك هذه⁴ الاستعارة أن الذي ذممت به إسماعيل يلزم منه ذم إسحق، والذي ذممت به هاجر يلزم منه ذم سارة⁵، فإن الجلد الذي رشح في قصرية هاجر هو الذي رشح في قصرية سارة، وأصل النطفة التي كان منها إسماعيل هو بعينه الذي كانت منه نطفة إسحق، وهذا كله ذم لإبراهيم ولعن، فقد حاق بك ويمن قال بقولك لعنة الله التي قال فيها لإبراهيم في التوراة: "والعن لاعنيك"⁶، ثم أعجب من ذلك كله اعتذارك عن قبيح ما أتيت حيث قلت: "لما بحث إلى أولاً كتاب بالسفه والسب⁷ رددت له الجواب بأمه هاجر".

فكأنك قلت لما سببتني أنت أسبب أنا هاجر التي إذا سبت تعدى سبها⁸ إلى سيدها إبراهيم، ثم إنك صرحت بسب إبراهيم فلزمك على ذلك سب إسحق وأمه سارة، فأنت في هذه الفعلة بمنزلة من سبه رجل في وجهه فأخذ المسبوب ينكل الساب بأن يسب أبا نفسه أعني نفس المسبوب، وهذا ما لا يرضى به عاقل ولا متدين جاهل.

1- في ط: "تعالى".

2- في خ/م: "أقوالهم".

3- في ط: "وقبيح".

4- في ط: "سقطت هذه".

5- في خ/م: "صار".

6- التكوين 12: 3.

7- في خ/م: "العبث".

8- في خ/م: "سبها".

ثم قلت بعد ذلك ممهداً¹ لفدرك القبيح ما قلت هنالك ولم تقل فيها عشر ما قال الله عنها² في التوراة وعن ابنها، وهذا القول منك يوهم أن الله تعالى ذمها وابنها في التوراة؛ وهذا على الله وعلى كتابه كذب صراح وكفر براح، ثم ذكرت بعض قصه هاجر مع إبراهيم؛ ولم تسقها بكما لها لئلا تفتضح ويظهر³ كذبك وخزيك.

وها أنا أذكر قصة هاجر مع سارة كما حكاها كتاب التوراة؛ حتى يتبين للواقف على هذا الكتاب أن الله تعالى أثى على هاجر وابنها؛ ومدحها وما ذمها؛ بل أخبر بنبوتهما أو صديقتها؛ ونبوة ابنها إسماعيل بحول الله.

قال في التوراة: "إن سارة امرأة إبراهيم لم تكن تلد له؛ وكانت له أمة مصرية اسمها⁴ هاجر، فقالت سارة لإبراهيم: إن الرب قد حرمني الولد فادخل على أمتي؛ وابن بها لعلني أرزق⁵ بولد منها، فسمع إبراهيم قول سارة فأطاعها⁶، فانطلقت سارة امرأة إبراهيم بهاجر أمتها المصرية، وذلك بعدما سكن إبراهيم أرض كنعان عشر سنين، فأدخلتها على إبراهيم زوجها؛ فدخل إبراهيم على هاجر، فحبلت، فلما رأت أنها قد حبلت استسفت وزرت بسيدها وهانت في عينها، فقالت سارة: يا إبراهيم أنت صاحب ظلامتي، أنا وضعت أمتي في حضنك فلما حملت هنت عليها؛ يحكم الرب بيني وبينك، فقال إبراهيم لسارة أمراته: هذه أمتك مسلمة⁷ في يديك فاصنعي فيها ما أحببت، وحسن في عينيك وسرك ووافقك. فأهانته سارة سيدتها فهربت منها، فلقىها ملاك الرب على عين ماء في البرية في طريق جرار فقال لها: يا هاجر أمة سارة من أين لك أقبلت وأين تريدين؟ فقالت: أنا هاربة من سارة سيدتي، فقال لها ملك⁸ الرب: انطلقني إلى سيدتك وتعبدني لها، ثم قال لها ملك⁹ الرب عن قول الرب: أنا مكثرت زرعك ومنميه حتى لا يحصوا من

1- في ط: "عهد".

2- في ط: سقطت "عنها".

3- في ط: "تظهر".

4- في ط: "يقال اسمها".

5- في خ/م: "انفزا".

6- في ط: "وأطاعها".

7- في ط: سقطت "مسلمة".

8- في ط: "ملاك".

9- في ط: "ملاك".

كثرتهم، ثم قال لك الرب: إنك حبلى وستلدن ابنا وتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب قد عرف ذلتك وخضوعك، ويكون ابنك هذا وحشيا من الناس يده على كل ويد كل به، وسيحل على جميع حدود إخوته، فدعت اسم الرب الذي كلمها، فقالت: أنت الله ذو الوحي والرؤيا¹. هذا ذكر الله لهاجر وابنها في السفر الأول من² التوراة في الإصحاح الثالث عشر³ منها⁴.

وقال⁵: أبصرت سارة ابن هاجر المصرية المولود لإبراهيم يستهزئ، فقالت لإبراهيم: أخرج هذه الأمة وابنها لأن هذا⁶ لا يرث مع ابني إسحق. فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه فقال الله لإبراهيم: [لا يشقن عليك حال]⁷ الصبي وأمتك⁸ أطع⁸ سارة في جميع ما تقول لك لأن نسلك إنما يذكر بإسحق، وابن الأمة أجعله أباً لشعب كثير لأنه ذريتك. ففدا إبراهيم باكرا فأخذ خبزاً وإداوة⁹ فأعطاه¹⁰ هاجر، وحملها الصبي والطعام [فأرسلها وأنطلقت]¹¹، وتاهت في بركة بئر شبع ونفذ الماء من الأداة¹²، فألقت الصبي تحت شجرة من شجر الشيخ¹³ وانطلقت، فجلست قبالة تباعدت عنه كرمية سهم لأنها قالت: لا أعاين موت الصبي فجلست إزاء ورفعت صوتها وبكت، فسمع الرب صوت الصبي فدعا ملاك الرب من السماء هاجر وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الرب قد سمع صوت الصبي حيث هو، قومي فاحملي الصبي وشدي به يديك لأنني أجعله رئيساً لشعب عظيم، فأجلى الله عن بصرها فرأت بئر ماء فانطلقت فمألت الإداوة

1- التكوين 16: 1-

2- في ط: "في".

3- في ط: "السادس".

4- في ط: أضيفت "وذكرها أيضا في الإصحاح الحادي والعشرين".

5- في ط: "وقالت التوراة".

6- في ط: أضيفت "ابن الأمة".

7- في ط: "لا تشقن لحال".

8- في خ/م: "أطلع".

9- في خ/م: "إداوة".

10- في ط: "فأعطاه".

11- في ط: "وأرسلها فانطلقت".

12- في خ/م: "الإداوة".

13- في خ/م: "الشيخ".

وسقت¹ الغلام فكان الله مع الغلام فشب الغلام وسكن برية فاران.

فأخبرنا - يا أيها الكاذب على كتاب الله المفتى على رسل الله- من أين استجزت سب الأنبياء والكذب على الله ذي الآلاء؟ أي إنجيلك قرأته؟ أم عن الحواريين بلغته؟ حاشا وكلا بل بتوافقك اختلقته²، ثم من أعظم مباهتتك وأفحش جراتك ومغالطتك أنك أوهمت بقولك ولم تقل فيها- تعني في هاجر- عشر ما قال الله فيها في التوراة وفي ابنها تشعر بأن الله ذمها وابنها في التوراة في عدة مواضع.

وهذه التوراة قد تلوتها عليك وأنهيتها إليك، فإذا بالتوراة تخبر بأن هاجر نبية أو صديقة مباركة؛ أوحى الله إليها وكلمها ويشرها بنبوة ولدها إسماعيل، بل قد مدح الله إسماعيل وأخبر عنه بما لم يخبر به عن إسحق حيث قال فيه: "يده على كل ويد كل به وسيحل على جميع حدود إخوته".

وهذا الكلام يبشر بل يفصح ويخبر بنبوة نبينا محمد، فإن إسماعيل لم يقل الله تعالى فيه يده على كل يد³ وسيحل على جميع حدود إخوته إلا لأجل حفيده محمد، فإن الله تعالى قد بعثه بدعوة جميع الخلق إلى الله بني إسرائيل ومن دونهم ومن فوقهم، فكل من بلغته دعوته وجب عليه الدخول في دينه.

ثم إن الله تعالى قد أظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وهذا كله وفاء بوعد الله تعالى لنبيه إبراهيم حيث قال له⁴ في التوراة: "وقد استجبت لك في إسماعيل وباركته⁵ وكثرته وأنميته جدا جدا؛ يولد له اثني عشر عظيما؛ وأجعل له رئيسا عظيما لشعب⁶ عظيم".

فانظر أيها العاقل كيف قال الله في إسماعيل "يده على كل ويد كل به وسيحل على جميع حدود إخوته" ولم يقل مثل⁷ هذا في إسحق، وإنما قال فيه "يكون رئيسا على شعوب كثيرة وملوك الشعوب من نسله"، وبين الكلامين فرق ظاهر عند العاقل الفهم المنصف،

1- في ط: "واسقت".

2- في خ/م: "أخدتقته".

3- في ط: أضيفت "ويد كل به".

4- في ط: "قال في التوراة".

5- في خ/م: "وبركته".

6- في ط: "بشعب".

7- في خ/م: "مثل" مكررة.

وكذلك قال في إسماعيل: "باركته"¹ وكثرته وأنميته جدا ولم يقل مثل هذا القول في إسحق، وإن كان قد قال فيه أباركه² وأثبت عهدي له؛ وهذا الذي وعد الله به إسحق وعد به إسماعيل؛ وزاد زيادة عظيمة يعرفها من مساق كلام التوراة من كان عارفا بمجاري كلام الله³ فيها؛ وكان مع ذلك عاقلا منصفًا.

وسننبه على سر تحت قوله جدا جدا⁴ في القسم الثاني من هذا الباب.

فأما هاجر فقد جاء في التوراة في حقها ما لم يجرى في حق سارة، وذلك أن ملاك الرب كلمها عن الله وأبلغها أمره مرتين أو أكثر فهي⁵ نبية أو صديقة، وفي أي موضع من التوراة جاء أن سارة نبية وأن الله أرسل إليها ملكا ليبلغها أمره ونهيه كما فعل بهاجر؟

ولا شك أن من آتاه الله النبوة هو أفضل ممن لم يؤته إياها، ولا يظن الجاهل أن هذا الكلام غض من منصب سارة رضي الله عنها بل هي صديقة مباركة، وكل له مقام معلوم والحق أحق أن يتبع.

ثم الذي يفرض منه العجب أنكم تعتقدون النبوة لمريم عليها السلام، وليس لنبوتها في التوراة ولا في الإنجيل ذكر يدل على نبوتها ولا في كتب الأنبياء المتقدمين على زمان المسيح، ثم تتكرونها نبوة هاجر وتذمونها مع أنه قد جاءت نبوتها ومدحها في التوراة صريحا، وهذا كله مما يدل على جهلكم وقلة توفيقكم وأنكم تتحكمون في الشرائع الإلهية بأوهامكم.

وأما قولك: "فاعلم"⁶ كيف قطع الله ورث إسماعيل وأمه في قوله لا يرثك هذا، اسكت يا جهول فلست تعرف ما تقول، فما كان أجمل بك أن لو سترت عارك ولم تبد عوارك، كيف تتحكم بما لا تعرف ولا تفهم، ها أنت قد حرقت لفظ التوراة وغيرته وليس كما ذكرته "كدابك"⁷ من أم الحويرث قبلها.

1- في خ/م: "بركته".

2- في خ/م: "أبركه".

3- في ط: "تعالى".

4- في خ/م: سقطت "جدا" الثانية.

5- في ط: "فاذن هي".

6- في ط: "واعلم".

7- في ط: "كذبتك"، وفي خ/م: "عريقك" والصحيح "كدابك"، فالقول لامرئ القيس في معلقته قفا نبك، حيث يقول:

كدابك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

وانما لفظ التوراة: أن سارة قالت لإبراهيم أخرج هذه الأمة وابنها لأن هذا ابن الأمة لا يرث مع ابني إسحق، فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه، فأين هذا من النص الذي ذكرت، فيظهر لي أنك له اختلقت.

وهذا الذي ذكره الله في التوراة بزعمكم إنما هو حكاية عن قول سارة وليس حكاية عن الله، لو¹ سلمنا أنه حكاية عن الله لما كان فيه دليل على ما زعمت وهو أن الله تعالى لم يجعل النبوة في نسل إسماعيل وأن الله قطعها عنه، بل مفهومه وظاهره أن الذي منعه الله لإسماعيل إنما هو ميراثه² في إبراهيم وهو حظه في ماله وأعطاه إسحق؛ وهذا السر عجيب³ يعز من يتبته لأمثاله، ولو كنت له محلا وأهلا لذكرناه لك فلسنا ممن يعلق الدر في أعناق الخنازير⁴، وكذلك في كون إسماعيل مخلوقا من نطفة إبراهيم في رحم هاجر مع كونها أمة وقد كان الله تعالى قادرا على أن يخلقه في رحم حرة.

وكذلك لأي معنى أخرجت هاجر على تلك الحال حتى استقرت هاجر مع إسماعيل بمكة، وهذه كلها أسرار معلومة عند من نور الله بصيرته وحسن سريرته وأصلح عقيدته ونيته، فإن كنت تريد أن تظفر بأمثال هذه الأسرار فعجل إلى الله الفرار ولا تلهينك الدعة⁵ والقرار، وإلا فأنت أسوأ حالا من الثور والحمار ومع ذلك فأجل الله آت وكل ما هو آت قريب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾⁶.

وأما قولك حاكيا عن الله أنه قال لإبراهيم: "ياسحق يتسمى نسلك" ولم يقل بإسماعيل يتسمى فلم يقل في التوراة: "يتسمى" وإنما قال: "يذكر"⁷ ثم قطعت الكلام هنا⁸ وسكت عما بعده، ولو ذكرته لتبين أنك مبطل في كلامك، وذلك أنه ذكر بعد هذا الكلام "وابن الأمة فإني أجعله أبا لشعب كثير لأنه ذريتك" وقد تقدم ما قال الله فيه وأنه مفضل

1- في ط: "ولو".

2- في ط: "ميراث".

3- في ط: "نجيب".

4- تشبيه مقتبس من مثل ورد في إنجيل متى 7: 6 على لسان المسيح.

5- في خ/م: "الرعة".

6- سورة الشعراء، آية: 227.

7- التكوين 21: 12-13.

8- في ط: "عنا".

على إسحق وإن كانت أمه أمة، وإنما قال الله لإبراهيم لأن نسلك إنا يذكر بإسحق بقرب زمان الأنبياء المنتسبين إليه وكثرة عددهم والله أعلم.

ثم لو سلمنا أنه جاء في التوراة يتسمى كما ذكرت؛ لكان معنى ذلك أن الله يسمى ذرية إسحق باسم ابنه يعقوب الذي سماه الله إسرائيل؛ ثم غلب عرف الاستعمال على ذرية إسحق فقيل عليهم بنو إسرائيل، وغاية ما في هذا إعلام الله تعالى بأنهم يسمون باسمه أو باسم ولده وهذا أمر قريب وخطب يسير، وإنما كان يكون لك في هذا متمسك لغرضك الفاسد لو قال النبوة في ولد إسحق وليست في ولد إسماعيل، ولم يقل هكذا وإنما قال ما قد أسمعتك والذي به أخبرتك.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي¹

وأما قولك:

فتسلسلت منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم: ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾².

يا هذا؛ قد أعيبك من جهلك³؛ وسخفت في قولك؛ حيث تركت ما قالت التوراة في نسله وعظيم حرمة وطوله؛ وذكرت ما يدل على جهلك وكثرة تواقعك وقلة فضلك، ولأي شيء لم تذكر في نسله ما قال الله فيه في كتاب التوراة حيث قال فيه وفي نسله: "باركته"⁴ وكثرته وأنميته جدا جدا يولد له اثني عشرة عظيما، وأجعله رئيسا عظيما لشعب عظيم. فأنت يا جاهل قد صغرت ما عظم الله؛ وذممت ما مدح الله فحاق عليك لذلك غضب الله، فبادر لإنقاذ نفسك قبل حلول رمسك وندمك على ما فرط لك في أمسك، فهذا أنا قد نصحتك ورسولنا يقول لك قد أبلغتك.

1- في خ/م: "أنادي". البيت اشتهر به الشاعر الفارس عمرو بن معدى كرب بن ربيعة الزبيدي، الذي عاش بين 525 642 م، وأورده الشاعر في قصيدة له يقول فيها:

ألا غدرت بنو أعلى قديما	وأنعم إنها ودق المزداد
ومن يشرب بماء العبل يغدر	على ما كان من حمى وراذ
وكنتم أعبدا أولاد غيل	بني آمرن على الفساد
لقد أسمعت لو ناديت حيا	ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نار نفخت بها أضاءت	ولكن أنت تنفخ في رماد

2- سورة التوبة، آية: 97.

3- في ط: "أغيببت في".

4- في خ/م: "بركته".

ثم الذين قال فيهم قرآننا: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾¹ إنما أراد بهم قوما معينين وطائفة مخصوصين من أعراب البادية أهل جفاء وغلظة ردوا الحق بعد ظهوره وعاندوه حين وضوحه كما فعل أشياءكم من قبل.

ثم لا تظن أن قول الله تعالى الأعراب أشد كفرا ونفاقا أنه أراد منكم لأنكم أشد الناس كفرا وأعظم العقلاء عنادا، وقد بينا ذلك فيما تقدم، وإنما أراد الله بهذا² المعنى وهو أعلم أن أعراب البادية أشد كفرا ممن كفر من عرب الحاضرة، فلا تدخلون أنتم معهم تحت أفعال إلا كما يقال العسل أحلى من الخل.

ثم إن جاز ذم شعب أو قبيلة -لأن بعضهم كفر أو فسق- فأشد الناس كفرا ونفاقا بنو إسرائيل لكونهم عبدوا العجل والأصنام على ما هو المعروف من أحوالهم، فالكافرون من أجدادكم على الحقيقة أشد الكافرين كفرا وأسوأهم طريقة.

وأما قولك: والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح حقيقة الإيمان، نحن والحمد لله أهل الهداية والهدى المؤمنين بشريعة المسيح المصطفى المحققون أنكم لستم على شيء منها بل على الضلالة والردى، وقد بينا ذلك فيما تقدم بالبراهين القاطعة.

وبعد هذا نعقبها بالدلالات الصاعدة بحول الله وقوته، وقد نجز ما أردنا تتبعه على هذا السائل الجاهل بدينه الغافل، ولو ذكرنا كل ما فيه من الفساد لخرج الكلام عن الضبط.

وبعد الفراغ منه نتكلم على ما وعدنا به من الكلام في النبوات، ونذكر ما فيها من المباحثات بعون الله وتوفيقه.

1- سورة التوبة، آية: 97.

2- في ط: "لهذا".

القسم الثاني

في النبوات وإثبات نبوة محمد

[عليه من ربنا أفضل الصلوات وفيه مقدمتان وفصول]¹

المقدمة الأولى

غرض هذه المقدمة أن نبين فيها معنى النبوة والرسالة والمعجزة وشروطها ووجه دلالتها، فنقول لفظ النبوة والرسالة والمعجزة وشروطها ووجه دلالتها؛ فنقول لفظ النبي والنبوة وما تصرف منه راجع إلى النبأ وهو الخبر؛ تقول نبأت وأنبأت بمعنى أخبرت وخبرت وهذا مع همز² لفظ نبئ بـيّن.

وكذلك هو مع تسهيله على أصح الأقوال؛ فإنه قد يكون أصل شيء من الألفاظ الهمز ثم يخفف الاسم منه كما قالوا خابية وهو من خبات؛ هذا أصح ما قيل في اشتقاق هذا اللفظ؛ فإذا تقرر هذا فنبيّ على أصل الوضع وزنه فعيل وفعيل تأتي³ في الكلام بمعنىين: أحدهما فعيل بمعنى فاعل كما قيل رحيم بمعنى راحم وسميع بمعنى سامع، والثاني فعيل بمعنى مفعول كما قيل رجيم بمعنى مرجوم وخضيب بمعنى مخضوب⁴؛ فعلى هذا يصح في نبي أن يكون بمعنى مخبر⁵ وبمعنى مخبر⁶.

فعلى أصل الاشتقاق ووضع العرب كل من أخبر بشيء أو أخبر بشيء فهو نبي.

وعلى المتعارف بين المتشرعين إنما يطلقون اسم النبي على من كان مخبرا عن الله؛ فإذا أن يكلمه الله مشافهة وإما بواسطة ملك⁷.

1- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

2- في ط: سقطت كلمة "همز".

3- في ط: "يأتي".

4- في ط: "خصيب بمعنى مخضوب".

5- وردت بالتشكيل في خ/م.

6- وردت بالتشكيل في خ/م.

7- في ط: "ملاك".

وهذا هو عرف المتشرعين في النبوة وإلى هذا يرجع معناها، فالنبي عند عقلاء أهل الشرائع إنما هو حيوان ناطق مائت كامل في نوعه؛ مخبر عن الله تعالى بحكم إما¹ مشافهة وإما بواسطة ملك أو ما تنزل منزلته.

فقولنا: "حيوان ناطق"؛ أردنا به أن² إنسانا باق على أصل إنسانيته؛ لا يمتاز عن غيره من نوع الإنسان بوصف حقيقي [وإن إمتاز]³؛ بأوصاف عرضية عن غيره كالعلوم الخاصة بهم وصفات الكمال التي خصهم الله بها؛ فذلك لا يخرجهم عن كونه إنسانا، ولأجل هذا المعنى كانت الرسل تقول لقومها: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وكذلك قال الصادق المصدق⁴: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾⁵ فجعل الفصل بينه وبين نوعه ما خص به من الوحي.

وقولنا: "مائت"؛ تنبيه مآله⁶ لئلا يغفلوا في بعضهم جاهلون؛ كما فعلت النصارى فينسبونهم إلى ما لا يليق بمن يموت.

وقولنا: "كامل"؛ أعني بذلك أن الأنبياء مجبولون على أتم صفات نوع الإنسان؛ وذلك معلوم من أوصافهم وإن كانوا متفاوتين في ذلك.

وقولنا: "مخبر عن الله"؛ هذا القيد هو خاصته التي تفصله عن غيره من نوعه؛ فإن لم يكن كذلك لم يقل عليه أنه نبي.

وقولنا: "إما مشافهة وإما بواسطة ملك"⁷؛ بحرر ممن يبلغه خير الله تعالى على السنة رسله؛ فإنه ليس بنبي ولا يقال عليه بحكم العرف إنه نبي، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال نبي على كل متشرع سمع من رسوله خيرا عن الله؛ وهذا لم يقله أحد.

وقولنا: "أو ما تنزل منزلته"؛ نريد به أن الأنبياء قد يتلقون الوحي على وجوه منها أن يكلمه الله مشافهة، ومنها أن يرسل إليه ملكا يخبره عن الله، ومنها أنه يلقي إليه الوحي

1- في ط: "أو".

2- في خ/م: "أنه" والصحيح أن، ولا رفع كلمة "إنسان" بعد أنه.

3- تكررت في خ/م.

4- في ط: "المصدق".

5- سورة الكهف، آية: 110.

6- في ط: "تنبيه على مآله".

7- في ط: "ملاك".

في النوم، ومنها أن الله¹ يقذف في روعه ويلهمه إلهاما حتى لا يشك أن الأمر كذلك ويقطع به.

فإذا تقرر أن حقيقة النبوة ما ذكرناه؛ وأن فضله الخاص به هو ما تحصل له من الأخبار عن الله، فذلك الخبر أن أمر النبي بتبليغه لغيره فذلك النبي هو الذي يقال عليه رسول، والرسالة هو الكلام المبلغ عن الله؛ فلأجل هذا يصح أن يقال كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا.

إذ الرسالة نبوة وزيادة، وهذا بين بنفسه، فإذا تقرر ذلك فهذا البشر² الذي يدعي أن الله أرسله إلينا لا بد أن يكون صادقا؛ وذلك لا نعرفه بغير دليل فلا بد من دليل.

والدليل المتحدى به هو المعجزات، ولا بد من النظر في حقيقتها وفي شروطها وفي وجه دلالتها.

فأما المعجزة: فلفظ مأخوذ من الإعجاز؛ وذلك أنك تقول عجز فلان عن كذا عجزا إذا لم يقدر عليه ولم يقم به، وأعجزته إعجازا إذا جعلته يعجز؛ وتقول أعجزني الشيء إذا فاتك ولم تقدر عليه.

وكلها راجعة إلى أن العاجز عن الشيء هو الذي لا يتمكن من الشيء ولا يقدر عليه، ثم في تسمية هذه الأدلة التي تدل على صدق الأنبياء معجزات تجوز، وذلك أن المعجز على التحقيق إنما هو خالق العجز؛ وهذه الأسباب التي يقع العجز عندها تسمى معجزة بالتوسع؛ وذلك من تسمية الشيء باسم غيره إذا جاوره³ أو كان منه بسبب.

هذا شرح لفظ المعجزة.

فأما حقيقتها فهو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة.

إنما قلنا: "أمر" ولم نقل "فعل" ليشتمل بذلك على الفعل الخارق للعادة والمنع من الفعل المعتاد، فلو قال "نبي" آتني أنه لا يقدر أحد أن يتكلم اليوم فكان ذلك لكان ذلك دليلا على صدقه؛ ويكون ذلك معجزة له مع أنه ليس إتيانا بفعل عريق؛ وإنما هو منع من

1- في ط: "تعالى".

2- في ط: "البشري".

3- في ط: "جاوزه".

فعل معتاد، وإنما قلنا: "مقرون بالتحدي" لئلا يتخذ الكاذب معجزة من تقدمه حجة لنفسه؛ ولتتميز عن الكرامة وما في معناها، وإنما قلنا: [مقرونا بالتحدي لئلا يتخذ الكاذب معجزة من تقدمه حجة لنفسه ولتتميز عن الكرامة وما في معناه، وإنما قلنا:]¹ مع عدم المعارضة لتتميز عن السحر والشعوذة.

وإذا حققت النظر فيما ذكرناه في حد المعجزة علمت شروطها، لكن ينبغي لك أن تعرف أن المعجزة لا تكون دليلاً إلا في حق من علم وجود الباري تعالى؛ وأنه قادر عالم مريد موصوف بصفات الكمال حتى يتأتى منه الإرسال والتصديق والتكليف، وإذا لم يعرف الناظر هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ولم يفد² العلم بالتصديق للنبي. وأما وجه دلالتها:

فهو أن المشاهد للمعجزة المتحدى بها إذا علمها وعلم شروطها علم على الضرورة أن الله تعالى قصد بذلك المعجز تصديق المدعي، ويتبين هذا بمثال؛ وذلك أنه لو فرضنا ملكاً عظيماً اجتمع له أهل مملكته في مجلسه؛ وأهل المملكة مصفون لما يأمرهم به ذلك الملك؛ فقام رجل بين يديه³ وقال: إني رسول هذا الملك إليكم؛ وقد أمرني أن أبلغكم أمره ونهيه وأنا صادق في قلبي هذا، ثم يقول: يا أيها الملك إن كنت صادقاً فيما أقوله عنك فخالف عادتك، وقم عن سريرك قياماً تخالف به المعتاد من فعلك، فإذا فعل الملك ذلك عند تحدي المدعي؛ فإن أهل المجلس يضطرون إلى العلم بأن الملك قصد ذلك الفعل تصديقه ولا يعترضهم في ذلك ريب ولا توقف، فتزلت إذا⁴ تلك الأفعال بتلك الشروط منزلة قوله صدقت أنا أرسلتك؛ وهذا بين بنفسه عند كل موفق منصف معلوم على القطع.

فإذا تقرر ذلك؛ فمهما ادعى شخص الرسالة واستدل عليها بمثل ما ذكرناه؛ كان محققاً في دعواه صادقاً في قوله، لا يجوز لعاقل أن يتخلف عن متابعتها سواء ادعى عموم رسالته أو خصوصها، ورسولنا محمد قد ادعى عموم رسالته؛ واستدل على صدقه بالمعجزات على الشروط التي ذكرناها، فهو صادق ولا يجوز لعاقل بلغه أمره أن يتخلف عن متابعتها وتصديقه.

1- ما كتب بين المعقوفتين ساقط في ط.

2- في خ/م: "تفردة".

3- في ط: "من بين يديه".

4- في ط: "إذن".

وسنذكر إن شاء الله بعض ما أمكن ذكره من معجزاته، فإنه قد أيد بمعجزات كثيرة؛ حتى إذا جمعت وتتبع علم منها أن الله تعالى قد جمع له أكثر معجزات الأنبياء قبله؛ وخصه بمعجزات لم يشاركه فيها غيره منهم، وستقف إن شاء الله على أكثر ذلك. فهذه المقدمة الأولى.

وأما المقدمة الثانية¹: فالغرض منها أن نبين² فيها أن عيسى عليه السلام ظهرت المعجزات على يديه؛ وتحدى بها الخلق ليؤمنوا أنه رسول الله لا ليؤمنوا بأنه إله، وأن النصراني غير عالمين بمعجزات عيسى عليه السلام إذ لم تتواتر³ عندهم، فنقول وبالله التوفيق:

إن النصراني غايتهم أن يسندوا معجزات عيسى عليه السلام لما في أيديهم من الإنجيل، وهو لم يتواتر نقله ولا أمن التحريف والغلط عليه⁴ على ما تقرر قبل، وإذا كان هذا فكل ما في أيديهم من الأخبار عنه في الإنجيل لا يفيد⁵ العلم القطعي؛ وغاية ذلك أن يفيد⁶ غلبة ظن، والظن في الاعتقاد بمنزلة الشك بل هو شك؛ فإذا⁷ هم من معجزات عيسى في شك وهم لا يشعرون بذلك الإفك.

ومما يدل على أنهم من كتابهم وشرعهم على غير علم؛ ما استفاض في كتب التواريخ⁸ عندنا وعندهم، وذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله⁹ دعا بني إسرائيل للإيمان فأجابهم من شاء الله منهم، فلما رفعه الله تعالى استحلّ الناس كلامه بعد ذلك حتى بلغ عدلاء¹⁰ بني إسرائيل سبع مائة رجل، فكانوا يجاهدون في بني إسرائيل ويدعون إلى

1- في ط: "ورد العنوان التالي: المقدمة الثانية".

2- في ط: "تبيين".

3- في ط: "تتواتر".

4- في ط: "فيه".

5- في ط: "تفيد".

6- في ط: "تفيد".

7- في ط: "إذن".

8- لا شك أن المؤلف يقصد بالإضافة إلى سفر الأعمال رسائل بولس وبعض الرسائل الأبوكريفا من العهد الجديد التي لم تعد مقبولة اليوم من طرف الكنيسة.

9- في ط: "تعالى".

10- في ط: "عدد".

الإيمان، فقام بولش اليهودي - وكان هو الملك في بني إسرائيل - فحشد عليهم الأجناد؛ وخرج عليه؛ وقاتلهم فهزهم؛ وأخرجهم من بلاد الشام حتى انتهى فلهم¹ إلى الدروب فأعجزوه، فقال بولش الملك لجنوده: إن كلام هؤلاء مستحلى، وقد قدموا على عدوكم، وسيرجعونهم في ملتهم، فيكثرون علينا فيخرجون إلينا ويخرجوننا من بلاد الشام، ولكني أرى لكم رأيا، قالوا: وما هو؟ قال: تعاهدوني على كل شيء كان خيرا أو شرا، ففعلوا، فترك ملكه ثم لبس لباسهم، وخرج إليهم ليضلهم، حتى انتهى إلى عسكرهم؛ فأخذوه وقالوا: الحمد لله الذي أخذك أمكنا منك. فقال لهم: أجمعوا رؤوسكم فإنه لم يبلغ مني حمقي أن آتيكم وإلا ومعني برهان، فأبلغوه رؤوسهم. فقالوا: مالك؟ فقال: إني لقيني المسيح منصرف في عنكم فأخذ سمعي وبصري وعقلي؛ فلم أسمع ولم أبصر ولم أعقل؛ ثم كشف عني؛ فأعطيت الله عهدا أن أدخل في أمركم؛ فأتييت لأقيم فيكم وأعلمكم التوراة وأحكامها، فصدقوه؛ فأمرهم أن يبنوا له بيتا ويفرشونه² رمادا ليعبد الله فيه بزعمه ويعلمهم التوراة.

ففعلوا وعلمهم ما شاء الله ثم أغلق الباب دونهم³، فأطافوا به وقالوا: نخشى أن يكون رأى شيئا يكرهه ثم ففتح بعد يوم، فقالوا: أرايت شيئا تكرهه؟ قال⁴: لا ولكني رأيت رأيا وأعرضه عليكم فإن كان صوابا فخذوه؛ وإن كان خطأ فردوني عنه. قالوا: هات. قال: هل رأيتم سارحة تسرح إلا من عند ربها وتخرج إلا من حيث تؤمر به؟ قالوا: لا، قال: فإنني رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج إنما تجيء من ها هنا، وما أوجب ذلك إلا وهو أحق الوجوه أن يصل إليه، قالوا: صدقت⁵، فردهم عن قبلتهم.

ثم أغلق الباب بعد ذلك بيومين، ففزعوا أشد من الأول؛ وأطافوا به ففتح، فقالوا: أرايت شيئا تكرهه؟ قال: لا ولكني رأيت رأيا، قالوا: هات، قال: أستم تزعمون أن الرجل إذا أهدى إلى الرجل الهدية وأكرمه بالكرامة فردها شق ذلك عليه، وأن الله تعالى سخر لكم ما في الأرض وجعل ما في السماء لكم كرامة؛ فالله أحق أن لا ترد عليه كرامته.

1- هكذا وردت بالتشكيل في خ/م، والفل القوم المنهزمون.

2- في ط: "ويفرشوه".

3- في ط: "دونه".

4- في خ/م: "قالوا".

5- في خ/م: سقطت كلمة "صدقت".

فما بال بعض الأشياء حلال وبعضها حرام؛ ما بين البقرة إلى الفيل حلال، قالوا: صدقت.

ثم أغلق بعد ذلك ثلاثاً؛ ففزعوا أشد¹ من الثانية؛ فلما فتح لهم قال لهم: إنني رأيت رايًا، قالوا: هات، قال: ليخرج² كل من في البيت إلا يعقوب ونسطور وملكون والمؤمن³.

ففعّلوا، فقال: هل علمتم أحدا من الإنس خلق من الطين خلقا فصار⁴ نفسا؟ قالوا: لا، قال: فهل علمتم أن أحدا من الإنس أبرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى؟ قالوا: لا، قال: هل علمتم أن أحدا من الإنس ينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؟ قالوا: لا، قال: فأني أزعّم أن الله تعالى تجلّى لنا ثم احتجب. فقال: بعضهم صدقت، وقال: بعضهم لا؛ ولكنه ثلاثة والد وولد وروح القدس، وقال: بعضهم الله وولده، وقال بعضهم هو الله تجسم لنا.

فافترقوا على أربع فرق؛ فأما يعقوب فأخذ بقول بولس إن الله هو المسيح وأنه كان ثم تجسم؛ وبه أخذت شيعته وهم اليعقوبية، وأما نسطور فقال المسيح ابن الله على جهة الرحمة؛ وبه أخذت شيعته وهم النسطورية، إلا أن شيعته لم تعتقد أنه سمي ابنا على جهة الرحمة بل على ما تقدم، وأما ملكون فقال إن الله ثلاثة⁵ أقانيم، فقام المؤمن وقال لهم: عليكم لعنة الله؛ والله ما حاول هذا إلا إفسادكم؛ ونحن أصحاب المسيح قبله؛ وقد رأينا عيسى وسمعنا منه؛ ونقلنا عنه؛ والله ما حاول هذا إلا ضلالتكم وفسادكم.

فقال بولس للذين اتبعوه: قوموا بنا نقاتل هذا المؤمن ونقتله هو وأصحابه؛ وإلا أفسد عليكم دينكم. فخرج المؤمن إلى قومه؛ وقال لهم⁶: أليس تعلمون أن المسيح عبد الله ورسوله؛ وكذا قال لكم، قالوا: بلى، قال: فإن هذا الملعون قد أضل هؤلاء القوم فركبوا في أثرهم.

فقاتلهم فهزم المؤمن وأصحابه وكان أقلهم تبعا، فخرج مع قومه إلى الشام فأسرتهم

1- في ط: "أمثل".

2- في ط: "لنخرج".

3- هذه القصة واردة في كتاب: الفاصل بين الحق والباطل، مطبعة الموسوعات مصر الطبعة الثالثة، 1321هـ، ص: 57-58.

4- في ط: "خلقاً فجعله فصار".

5- في ط وردت الإضافة التالية: "وبه أخذت شيعته وهم الملكية الذين قالوا إن الله ثلاثة بين كلمة ثلاثة وكلمة أقانيم".

6- في ط: سقطت "لهم".

اليهود، فأخبروهم الخير؛ وقالوا: إنما خرجنا إليكم لنؤمن في بلادكم؛ ومالنا في الدنيا من حاجة إنما نلزم الكهوف والصوامع؛ ونسيح في الأرض فخلوا عنهم.

ثم إن قوما من أولئك الذين كفروا فعلوا مثل ما فعل قوم المؤمن، اتخذوا الصوامع وساحوا وأظهروا البدعة؛ فهو قول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾¹ يعني: التوحيد، اختلفوا فيه إلا فرقة المؤمن وفيهم نزلت: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾² بالجهة وظهور محمد، وكان هرب المؤمنين منهم إلى جزيرة العرب، فأدرك النبي منهم ثلاثون راهبا، فأمنوا به وصدقوه وتوفاهم الله على الإسلام.

كان هذا -والله أعلم- بعد المسيح بأربعين سنة أو نحوها، ثم لم يزل أمر المؤمن وأصحابه خفيا، وغيرهم من الفرق يختلفون³ ويتهارجون، ولم تستقر⁴ لهم قدم إلى مدة قسطنطين قيصر الملك ابن هيلاني⁵؛ وذلك بعد رفع المسيح بمائتين وثلاثة وثلاثين سنة.

وذلك أنه كثر عدوه وكاد ملكه يذهب باختلاف رعاياه عليه وضعفهم وكسلهم عن نصرته، فرام حملهم على شريعة ينظم بها سلوكهم ويؤلف بها متفرقهم، فاستشار من لديه من أهل النظر؛ فوقع اختيارهم على أن يتعبد القوم بطلب دم ليكون ذلك أقوى لارتباطهم معه وأوكد لجدهم في نصره، فوجدوا اليهود يزعمون أن في بعض تواريخهم خبرا عن رجل منهم وفيهم⁶ هم أن ينسخ حكم التوراة؛ وينفرد بالتأويل فيها، فعمدوا إليه -وهو في نفر ممن اتبعه- وظفروا بواحد منهم، وشهد لديهم رجل واحد أنه ذلك المطلوب؛ فصلبوه؛ وما عندهم تحقيق لكونه ذلك المطلوب بعينه إلا فقدهم إياه من حينئذ.

فعند ذلك عمد قسطنطين إلى من ينسب إلى دين المسيح؛ فوجدهم قد اختلفت آراؤهم ومزجت أديانهم، فاستخرج ما بقى من رسم الشريعة المنسوبة للمسيح؛ وجمع

1- سورة الحديد، آية: 27.

2- سورة الصف، آية 14.

3- في ط: "مختلفون".

4- في ط: "يستقر".

5- في ط: "هيلانة".

6- في ط سقطت كلمة: "وفيهم".

عليها وزراءه، فأثبت ما شاء منها وتحكم فيها باختياره حسب ما رآه موافقا له بالصلوبية لتعبد قومه بطلب دم والقول بترك الختان لأنه شأن قومه؛ ثم أكد ذلك وشده بمنامة اختلقها؛ وادعى أنه أوحى إليه فيها .

وذلك أول شيء أظهره من هذا الأمر بجمع¹ أنصاره ورعاياه من الروم؛ وذلك على رأس سبع سنين من مدة ملكه، وقال لهم إنه كان يرى في منامه آتيا آتاه؛ فقال: له بهذا الرشم² تغلب؛ وعرض عليه هيئة صليب³ فأعظمت ذلك العامة؛ وانفعلت لما سمعت منه، ثم بعث إلى امرأة في ذلك الزمان يقال لها "الأنه"⁴ كاهنة، وكانت ذات جأش وقوة، فشهدت له أنها رأت مثل ما رأى؛ فقوى تصديق العامة لذلك .

وفي هذا كله لا يعلمون لذلك الرشم⁵ تأويلا، ولا كان قسطنطين كشف لهم شيئا من أمره؛ فخرج بهم إلى عدوه؛ ووعظ قومه؛ وهول عليهم أمر الرشم⁶، فحصل له كل ما أراد من جد القوم واجتهادهم معه، فلما عادوا إلى أوطانهم بعد الظفر بعدوهم سألوه عن تأويل ذلك الرشم⁷ وألحوا عليه فيه، فقال لهم: قد أوحى إلي في نومي أنه كأن الله تبارك وتعالى هبط من السماء إلى الأرض؛ فصلبته اليهود فهالهم ذلك كثيرا مع ما حصل عندهم لهم⁸ من تصديقه؛ وعظم عليهم الخطب فيه؛ فانقادوا إلى قسطنطين انقيادا حسنا؛ وصح⁹ منهم ما أراد؛ وشرع لهم هذه الشرائع التي بأيديهم اليوم أو أكثرها .

وقد ظهر لجماعة من أهل العلم بأحوال الأمم وبنوازل الأزمان أن هذا الشخص - الذي تعظمه النصارى وتصفه بالإلهية - لم يكن لهم¹⁰ وجود في العالم، ولكن قسطنطين ابتدع ذلك كله؛ واتفق مع نفر من اليهود من أحبارهم على أن يبدل لهم ما شاؤوا من متاع

1- في ط: "فجمع".

2- في ط: "الرسم".

3-3- في ط: "الصليب".

4- في ط: "الأنه".

5- في ط: "الرسم".

6- في ط: "الرسم".

7- في ط: "الرسم".

8- في ط سقطت كلمة "لهم".

9- في ط: "وصح له منهم".

10- في ط: "له".

الدنيا¹، ويشهدون له عند قومه بأن ذلك الشخص كان عند اليهود فصلبته، ففعلوا وكتبوا من أخباره شيئاً، فتلقت ذلك النصارى وقبلوه ودانوا به، وعلله أكثر الإنجيل الذي بأيديهم اليوم.

ولتعلم أن هذه الأخبار -التي ذكرناها- لا يمكنهم إنكار جملتها، وإن أنكروا بعض تفاصيلها؛ لكون هذه القصص معروفة على الجملة عندهم؛ فإنهم لا يقدرّون على جحد معارضة بولس اليهودي، وإجلاؤهم من الشام، ودخول بولس في دينهم، وكذلك ملك قسطنطين مما لا ينكرون إشهاره لكتبهم، ثم لو قدرنا أن هذه الوقائع لم تعلم صحتها ولا كذبها فشرعهم قابل لأمثالها، فإن معظم معتمدتهم في أمور دياناتهم إنما هو الإنجيل، ونقله غير متواتر؛ لاسيما والأحداث عندهم في أكثر الأحيان بمنامات يدعونها؛ يجعلونها أصولاً يعملون² عليها ويمحافل يجتمعون فيها، فيتحكمون بأرائهم ولا يستندون لشيء من كتبهم ولا لشيء من كلام أنبيائهم، وإن شئت أن ترى هذا عياناً فانظر كتب اجتماعاتهم ومحافلهم؛ فإنهم ينحشدون لمواضع مخصوصة في أحيان مخصوصة؛ ويخترعون فيها أحكاماً وأموراً لا مستند لها³ ولا أصل إلا بالتحريم على المأكّل والتحكم في العامة بفارغ الأقاويل، وسنبين ذلك إذا ذكرنا جملاً من أحكامهم؛ وإذا كان هذا مبنى شريعتهم فكيف يوثق بشيء من ترهاتهم؟

فإذا تقرر ذلك؛ فلتعلم أن اتخاذهم المسيح إلهاً إنما سببه ما سبق ذكره، ولا يقدرّون على أن ينسبوا شيئاً من ذلك إلى عيسى عليه السلام؛ بل قد نقلوا عنه في إنجيلهم ما يدل دلالة قاطعة من حيث اللفظ على أنه إنما ادعى النبوة؛ وعليها استدل بمعجزاته وفي دعواه النبوة كذبه اليهود.

ونحن الآن نسرد بعض ما وقع في إنجيلهم من دعواه الرسالة بحول الله سبحانه. من ذلك ما جاء في الإنجيل عنه أنه قال حين خرج من السامرية ولحق بجلجال: "أنه لم يكرم أحداً من الأنبياء في وطنه"⁴.

1- في ط: "يبدل لهم من متاع الدنيا ما شاؤا".

2- في ط: "يعملون".

3- في ط: "لهم".

4- يوحنا 4: 44.

وفي إنجيل لوقا: "أنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقبلونني"¹، وهذا نص لا يقبل التأويل في أنه إنما ادعى النبوة المعلومة.

وفي إنجيل ماركس أن رجلاً أقبل إلى المسيح وقال له: "أيها المعلم الصالح أي خير أعمل لأنال الحياة الدائمة؟ فقال له المسيح: لم قلت لي صالحاً إنما الصالح الله وحده، وقد عرفت الشروط وذلك ألا تسرق ولا تزني ولا تشهد بالزور ولا تخون وأكرم أباك وأمك"².

وفي إنجيل يوحنا أن اليهود لما أرادت التقبض³ عليه؛ وعلم بذلك رفع بصره إلى السماء وقال: "قد دنا الوقت يا إلهي فشرفني لديك؛ واجعل لي سبيلاً إلى أن أملك كل ما⁴ ملكتي الحياة الباقية، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلهاً واحداً وبالمسيح الذي بعثت؛ فقد عظمتك على أهل الأرض واحتملت ما أمرتني به فشرفني لديك"⁵.

وفي إنجيل متى أنه قال لتلاميذه: "لا تتسبوا أباكم على الأرض؛ فإن أباكم الذي في السماء وحده ولا تدعوا معلمين؛ فإن معلمكم المسيح وحده"⁶.

فقوله: "لا تتسبوا أباكم على الأرض"، أي: لا تقولوا أنه على الأرض؛ ولكنه في السماء؛ ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى فقال: "ولا تدعوا معلمين؛ فإن معلمكم المسيح وحده" فها هو قد سمى نفسه معلماً في الأرض؛ وشهد أن إلهكم⁷ في السماء واحد؛ ونهاهم أن ينسبوه للإلهية⁸.

وفي إنجيل لوقا؛ أنه حين أحيا الميت بباب مدينة "نايم"⁹ حين أشفق لأمه لشدة حزنها عليه؛ قالوا: "إن هذا النبي لعظيم وإن الله قد تفقد أمته"¹⁰ ولم يقولوا إن هذا إله عظيم.

1- لوقا 4: 24.

2- مرقس 10: 17-19.

3- في ط: "القبض".

4- في ط: "من".

5- يوحنا 17: 1-5.

6- متى 29: 9-10.

7- في ط: "إلههم".

8- في ط: "لإلهية".

9- في ط: "ناين" وهو الاسم المذكور في إنجيل لوقا 7: 11.

10- لوقا 7: 16.

وفي إنجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود: "ليس أقدر أفعّل¹ من ذاتي شيئا لكني أحكم بما أسمع؛ لأنني لست أنفذ إرادتي بل إرادة الذي بعثني"².

وفي إنجيله أيضا أنه: "أعلن صوته في البيت وقال لليهود: قد عرفتموني وموضعي³؛ فلم آت من ذاتي؛ ولكن بعثني الحق؛ وأنتم تجهلون؛ فإن قلت إنني أجهله كنت كاذبا مثلكم؛ وأنا أعلم أنني منه وهو بعثني"⁴.

فانظر كيف أخبر عن نفسه؛ أنه معلوم عند اليهود؛ وأخبر عن الله أن اليهود لا تعرفه، وقال إنه لم يأت من ذاته؛ ولكن الله بعثه؛ وهكذا كانت دعوة من قبله من الأنبياء عليهم السلام؛ وحاشاهم أن ينتسبوا إلى ما ينفرد به ذو الجلال والإكرام.

وفي الإنجيل أيضا أنه قال لليهود -بعد خطاب⁵ طويل مذكور في الإنجيل حين قالوا له إنما أبونا إبراهيم- فقال: "إن كنتم بني إبراهيم فاحفظوا أثره؛ ولا تريدوا قتلي على أني رجل وديت⁶ إليكم الحق الذي سمعه من الله، غير أنكم تقفون أثر آبائكم، قالوا: لسنا أولاد زنا، إنما نحن أبناء الله، فقال: لو كان الله أباكم لحفظتموني؛ لأنني رسول منه خرجت مقبلا ولم أقبل من ذاتي؛ ولكن هو⁷ بعثني لكنكم لا تقبلون وصيتي؛ وتعجزون عن سماع كلامي؛ إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته"⁸ إلى كلام كثير.

وفيه أيضا: "أنه كان يمشي يوما فأحاطت به اليهود؛ وقالوا: إلى متى تخفي أمرك إن كنت المسيح المنتظر؛ فأعلمنا بذلك"⁹.

ولم تقل له: إن كنت إلها لأنه لم تعلم من دعواه ذلك؛ ولا اختلاف عند اليهود أن الذي ينتظرونه إنما هو إنسان نبي؛ ليس بإنسان إله كما تزعمون.

1- في ط: "لست أقدر أن أفعّل".

2- يوحنا 5: 30.

3- في ط: "موضعي".

4- يوحنا 8: 42.

5- في خ/م: "خطب".

6- في ط: "أديت".

7- في ط: "وهو".

8- يوحنا 8: 39-41.

9- يوحنا 10: 24.

وفي الإنجيل أيضا عنه: "أن اليهود أرادوا التقبض¹ عليه؛ فبعثوا لذلك الأعوان؛ وأن رجعوا إلى قوادهم؛ فقالوا لهم: لم لم تأخذوه؟ قالوا: ما سمعنا آدميا أنصف منه، فقالت اليهود: وأنتم أيضا مخدوعون؛ أترون أنه آمن به أحد من القواد أو من رؤساء أهل الكتاب؟ إنما آمن به من الجماعة من يجهل الكتاب، فقال لهم نقوذومش²: أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه؟ فقالوا له: اكشف الكتب ترى أنه لا يجيء من جلعال نبي³."

فما قالت اليهود ذلك إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبي فقط ولو علمت من دعواه الإلهية لقاتله⁵ يومئذ.

ومثل هذا كثير في إنجيلهم لو ذهبت أذكره لطال أمره.

وقد تقدم من كلام يشعيا⁶ أن الله⁷ قال في المسيح: "هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي ارتضت به نفسي"⁸.

ومن كلام عاموص⁹ النبي أن الله قال على لسانه: "ثلاثة ذنوب أقبل لبني إسرائيل والرابعة لا أقبلها"¹⁰ بيعهم الرجل الصالح.

ولم يقل بيعهم إياي ولا قال بيعهم إلها متساويا معي، فهذا المبيع لا يخلو أما أن يكون هو المسيح كما تزعمون؛ فقولوا فيه كما قال الله أنه رجل صالح؛ ولا تقولوا إنه إله معبود، وأما أن يكون المبيع غيره فهو الذي شبه لليهود فابتاعوه وصلبوه؛ ويلزمكم إنكار صلوية المسيح وهو كفر عندكم، وقد كررنا هذا المعنى في هذا الكتاب مرارا؛ لكون النصراني على اختلاف فرقهم يعتقدون له الإلهية على اختلاف في كيفية ذلك كما تقدم.

1- في ط: "القبض".

2- في ط: "نيقوديموس".

3- في ط: "لا يجيء نبي من جلعال".

4- يوحنا 7: 45-52.

5- في ط: "لقاتلته".

6- في ط: "إشعيا".

7- في ط: "تعالى".

8- إشعيا 42: 1.

9- في ط: "عاموس".

10- في ط: "أقبلها".

وحتى لقد ذهبت طائفة منهم إلى مقالة لم يسمع قط في أكناف العالم وأطرافه من اجترأ على التفوه بها؛ ونحن نستغفر الله قبل حكايتها؛ ونتبرأ إلى الله من مذاهبهم الفاسدة ومن القائل بها؛ وذلك أنى وقفت على رسالة بعض الأقسمة كان بطليطلة نسبة من القوط قال فيها هبط الله بذاته من السماء والتحم ببطن مريم.

ثم قال: "فهو¹ الإله التام والإنسان التام؛ ومن تمام رحمته على الناس أنه رضي بهرق دمه عليهم في خشبة الصليب، فمكن اليهود أعداءه من نفسه ليتم سخطه عليهم؛ فأخذوه وصلبوه؛ وغار دمه في إصبعة لأنه لو وقع منه شيء في الأرض ليبست إلا شيء وقع فيها فنبت² في موضعه النوار؛ لأنه لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم الذي ظلمه واستهان بقدره، فلم يرد الله الانتقام منه لاعتلاء منزلة السيد وسقوط منزلة العبد، أراد أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله؛ فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح الذي هو إله مساو معه.

فانظر توافق هذا القائل؛ واستخفافه بحق الله تعالى؛ وجهله وتناقضه وحمقه، فوالله لو حكي مثل هذا القول السخيف عن مجنون أو موسوس لما كان يعذر بقوله؛ ولبودر بضربه وقتله حتى لا يجترأ على مثله، ونحن نرى بأكثر المجانين والموسوسين أن يقولوا بهذا المذهب الفث الهجين؛ أو ينتحلوا ركافة هذا الدين السقيم؛ إلا أن يكون مستغرقاً في الوسوسة والجنون؛ فالحمق أنواع والجنون فنون.

وعند الوقوف على هذه المذاهب القبيحة والأوهام؛ يتبين فضل دين الإسلام ويتحقق معنى قول النبي عليه السلام: "إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم حتى ينفذه فيهم".

وفي مثل هذا يضرب³ المثل: "إذا جاء الجبن⁴ صم الأذن وعمى العين والحمد لله الذي أعادنا من هذه الرذائل؛ وتفضل علينا بدين الحنفية⁵ الذي خص بكل الفضائل التي يقبلها بفطرته الأولى كل عاقل؛ ويستحسنها كل ذكي فاضل.

1- في ط: "وهو".

2- في ط: "فبيست".

3- في ط: "الضرب".

4- في ط: "البين".

5- في ط: "الحنفية".

فقد تحصل من هاتين المقدمتين معنى النبوة وبيان شروطها، وأن عيسى عليه السلام نبي ورسول؛ إذ قد كملت فيه شروط الرسالة وأنه ليس باله، وأن النصارى ليسوا عالمين بشيء من أحوال المسيح ولا من معجزاته على اليقين والتفصيل.

وغايتهم أن يعلموا أموراً جمالية لكثرة تكرار هذا المعنى عليهم.

ثم تلك الأخبار -التي يتحدثون بها عن المسيح وتكرر عليهم- لو كلفوا أن يسندوا شيئاً منها لغير الإنجيل -مما¹ ينقل متواتراً- لما استطاعوا شيئاً من ذلك ولا وجدوا إليه سبيلاً.

ومما يؤيد هذا المعنى ويوضحه أن اليهود كانوا رهطه وكفلته وعندهم نشأ؛ وهم يخالفونكم في كثير مما تسبون إليه ولا يوافقونكم على نقلها.

ومن ذلك أن اليهود تزعم² أنهم حين أخذوه حبسوه في السجن أربعين يوماً، وقالوا ما كان ينبغي لنا أن نحبسه أكثر من ثلاثة أيام؛ إلا أنه كان يعضده أحد قواد الروم لأنه كان يداخله بصناعة الطب.

وفي إنجيلكم أنه أخذ صبح يوم الجمعة وصلب في الساعة التاسعة من اليوم بعينه³.

وكذلك تزعم اليهود كلهم أنه لم يظهر له معجزة؛ ولا بدت لهم منه آية؛ غير أنه طار يوماً؛ وقد هموا بأخذه فطار على أثره أحد منهم؛ فعلاه في طيرانه وتوله؛ فسقط إلى الأرض بزعمهم.

ومواضع كثيرة من إنجيلكم تدل على ما قالته اليهود من أنه لم يأت بآية.

فمن ذلك: "أن اليهود قالت له: ما آيتك التي ترينا ونؤمن بك؟ وأنت تعلم أن آبائنا قد أكلوا المن والسلوى في المفاز؟ فقال: إن كان أطعمكم موسى خبزاً بالمفاز؛ فأنا أطعمكم خبزاً سماوياً يريد نعيم الآخرة"⁴، فلو عرفت اليهود له معجزة لما قالت ذلك؛ ثم لم يجبهن على قولهم بمعجزة ولا آية.

1- في ط: "كما".

2- في خ/م: "توزع".

3- مرقس 15.

4- يوحنا 6: 30-32.

وفي إنجيلكم: "أن اليهود جاءوا يسألونه آية ففقدفهم وقال: إن القبيلة الفاجرة الخبيثة تطلب آية ولا تعطى ذلك"¹.

وفيه أيضا: أنهم كانوا يقولون له وهو على الخشبة بظنكم "إن كنت المسيح فأنزل نفسك نؤمن بك"²؛ يطلبون منه بذلك آية فلم يفعل. ومثل هذا كثير فيه.

ثم إن اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره، فمنهم من يقول: إنه كان رجلا منهم يعرفون أباه وأمه؛ وينسبونه لزانية³ وحاشى لله كذبوا، ويسمون أباه للزانية البنديرا الرومي؛ وأمه مريم⁴ الماشطة كذبوا لعنهم الله، ويزعمون أن زوجها يوسف ابن يهودا⁵ وجد البنديرا عنها على فراشها؛ وتشعر بذلك فهجرها وأنكر ابنها، ومنهم من [يتبرأ عن هذا القول]⁶؛ وينكره ويقول: إنما أبوه يوسف بن يهوذا الذي كان زوجا لمريم.

[وإنجيلكم⁷ أول من نبه على هذا المعنى وأشار إليه، ومكن اليهود من هذه الفرية والكذب حيث نسب ليوسف ثم ستره بأن قال خطيب مريم، ولقد كان مؤلف الإنجيل في غنى عن هذه النسبة؛ فإن فيها من الشناعة أن نسب المسيح لغير أبيه؛ ومكن اليهود من الافتراء على أمه وقول الفحش فيه]⁸.

ثم إن اليهود لعنهم الله أطلقت⁹ على إطلاق الزنى¹⁰ عليه ثم اختلفوا في سببه¹¹، فمنهم من قال ما تقدم؛ ومنهم من ذكر سببا¹² آخر؛ وهو أنهم زعموا أنه كان يوما مع

1- متى 12: 38-39.

2- لوقا 23: 35.

3- في خ/م: "لزنية".

4- في ط: "مريم".

5- في ط سقطت "ابن يهودا".

6- في ط ما كتب بين معقوفتين جاء مكانه: "يقول إنه لم يتولد من غير أب".

7- المقصود إنجيل متى الإصحاح الأول حيث ذكر نسب المسيح.

8- ما كتب بين المعقوفتين سقط من ط.

9- في ط: "أطبقت".

10- في ط: "الذم".

11- في ط: "سبه".

12- في ط: "سبا".

معلمه يهشوع¹ بن برخيا وسائر التلاميذ في سفر فنزلوا موضعا، وجاءت امرأة من أهله وجعلت تبالغ في كرامتهم، فقال يهشوع²: ما أحسن هذه المرأة؛ يريد فعلها؛ فقال عيسى بزعمهم لعنهم الله: لولا عمش في عينيها، فصاح يهشوع³ وقال له: ما ممزاج⁴، ترجمته يا زنيم أترني بالنظر؛ وغضب عليه غضبا شديدا⁵، وعاد إلى بيت المقدس وحرم باسمه؛ ولعنه في أربع مائة قرن، فقالوا حينئذ⁶ لحق بزعمهم ببعض قواد الروم وداخله بصناعة الطب؛ فقوى لذلك بزعمهم على اليهود -وهم يومئذ في ذمة قيصر تباريوش-، وجعل يخالف حكم التوراة؛ ويستدرك عليها؛ ويعرض عن بعضها إلى أن كان من أمره ما كان.

ومنهم من يقول: إن ذلك إنما أطلق عليه لأنه كان يوما يلعب الصبيان في صغره بالكرة؛ ف وقعت له بين جماعة من مشايخ اليهود؛ فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم حياء من المشايخ؛ فقوى عيسى وتخطى رقابهم وأخذها، فقالوا له: ما نظنك إلا زنيما، فأ مضيت عليه هذه الشتيمة.

وكذلك يختلف في صنعة أبيه؛ الذي تقولون أنتم فيه خطيب أمه؛ فمنهم من يقول: يوسف النجار؛ وبعضهم يقول: إنما هو الحداد، وكذلك تختلفون أنتم في اسم أبيه؛ فبعضكم يقول يوسف بن يعقوب؛ وبعضكم يقول يوسف بن ألي⁷، وكذلك اختلفتم أنتم في آبائه وفي عددهم؛ فمنكم من يقلل ومنكم من يكثر على ما تقدم، فهذا الاختلاف الكثير والاضطراب البين الشهير يدل على أنكم واليهود في شك منه، وأنه لم يثبت عندكم خبر متواتر عنه وإنما هي ظنون كاذبة وأوهام راتبة، وسنبين مداخل الشك والأوهام عليهم في قولهم بصلوبيته؛ ونبين أن اليهود والنصارى في قولهم بصلبه كاذبون وأنهم ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾⁸ فلولوا أن من الله [بفضله علينا]⁹ وعليكم معاشر النصارى؛ بل¹⁰

1- في ط: "يهشوع".

2- في ط: "يهشوع".

3- في ط: "يهشوع".

4- في ط: "ممزاج".

5- في خ/م: "شيدا".

6- في ط: "قالو فحينئذ".

7- في ط: "هالي".

8- سورة التوبة، آية: 45.

9- في ط: "علينا بفضل الله علينا".

10- في ط: "بأن".

بعث إلى الجميع سيد المرسلين لبقى الجميع من أمر عيسى حيارى.

فنزّه الله المسيح وأمه على لسان نبيه مما قالت اليهود فيهما من الأقوال الوخيمة؛ ونسبوه لهما¹ من الهجاء والشتيمة، وكما شهد ببراءة المسيح وأمه مما نسبته اليهود إليهما؛ كذلك شهد ببراءتهما مما نسبتموهما أنتم إليه وتقولتموه عليهما.

وذلك أن منكم طائفة يقولون إن مريم إله؛ وقد أطبقتم على أن المسيح إله وابن الإله، ونبينا عليه السلام يقول مخبراً عن الله سبحانه² ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾³ فإذا سمع القائل قوله فيهما علم بعقله أن ذلك القول هو الحق، وإن كان ممن طالع الزبور علم أن دعاء داوود مستجاب ومقالة⁴ صدق، وذلك أن في الزبور أن الله تعالى قال لداوود سيولد لك ولد أدعى له أبا ويدعى لي ابناً فقال: اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنه بشر.

فاعتبر قول داوود حين أفزره ذلك وراعه؛ كيف دعا إلى الله أن يبعث جاعل السنة الذي يعلم الناس أن ذلك الولد المدعو إنما هو بشر.

وكذلك قال المسيح على ما حكاه إنجيلكم اللهم ابعث البارقليط ليعلم الناس أن ابن الإنسان بشر.

والبارقليط بالرومية هو محمد بالعربية.

فلما ضللتهم وتوهتهم بذلك؛ وراغمتهم أدلة العقول وكلام الأنبياء المنقول؛ بعث الله جاعل السنة وكاشف الغمة محمداً؛ فأعلم الناس أنه بشر ليس ياله ولا ابن إله؛ فقال مبلفاً عن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾⁵ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

1- في ط: "لها".

2- في ط: "وتعالى".

3- سورة المائدة، آية: 75.

4- في ط: "مقالة".

إِنَّهَا وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ¹ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُنْبِئُكَ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾² إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا³.

ونذكر الآن هنا خبر النجاشي ليكون منهجة للعاقل ومردعة للجاهل.

وذلك أن الله تعالى لما بعث محمداً، اتبعه جماعة ممن نور الله قلبه وشرح للإسلام صدره؛ وذلك في أول الأمر؛ فآمنوا به والتزموا شرعه وأحكامه، فكان كفار قريش والمخالفون لهم في أديانهم يؤذونهم ويعذبونهم؛ يرومون بذلك ردهم عن دينهم كما قد فعل بأتباع الأنبياء قبلهم، فلما اشتد عليهم الأمر شكوا ذلك لرسول الله؛ فأمرهم أن يهاجروا إلى أرض الحبشة؛ ووعدهم بأن يجعل الله من أمرهم فرجاً؛ وأخبرهم أن بها ملكاً عظيماً لا يظلم عنده أحد، ففعلوا فقدموا على النجاشي؛ واسمه أصحمة؛ وكان على صميم دين النصرانية. فلما قدموا عليه استقر بهم المنزل ووجدوه خير منزل، فأقاموا هنالك دينهم؛ واغتبط النجاشي بصحبتهم وهم بجواره، فلما رأى كفار قريش أن قد وجدوا بأرض النجاشي أمناً ودعة وجهوا اثنين منهم؛ وأصبحوهما هدايا جليلة إلى النجاشي وأقسته وطلبوا منه ومن أساقفته أن يسلمهم لهما.

فلما قدما أرض النجاشي دفعا لأقسته هداياهم؛ وطلبوا منهم أن يعينوهما على ردهم معهما وإسلامهم لقومهما، ثم دفعا للنجاشي هديته؛ وقالوا له: أيها الملك قد ضوا إلى بلدك منا غلمان سفهاء؛ فارقوا³ دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم، فغضب النجاشي ثم قال: لا والله لا أسلمهم إليهما أبداً، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي لا أسلمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم.

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فجاءوا؛ وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله؛ فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل⁴.

1- سورة التوبة، آية: 30-31.

2- سورة مريم، آية: 92-93.

3- في خ/م: "فارقوا".

4- في ط: "الملل كافة".

فكلمه جعفر بن أبي طالب فقال: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام؛ ونأكل الميتة؛ ونأتي الفواحش؛ ونقطع الأرحام؛ ونسيء الجوار؛ ويأكل القوي الضعيف؛ فكنا على هذا حتى بعث الله إلينا رسولا نعرفه ونعرف نسبه وأمانته وصدقه وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده؛ ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث؛ وأداء الأمانة؛ وصلة الرحم؛ وحسن الجوار؛ والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش؛ وأكل مال اليتيم؛ وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

وعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به عن الله، فعدى¹ علينا قومنا فعذبونا²؛ وفتنونا عن ديننا ليردونا³ إلى عبادة الأوثان؛ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك؛ واخترناك على من سواك؛ ورجبنا في جوارك؛ ورجونا ألا نظلم عندك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال: اقرأه.

فقرأ عليه جعفر صدرا من "كهيعص" فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضوا لحاهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا أكاد.

فلما خرجا⁴ من عنده وقد يتسا من مرادهما، قال أحدهما وهو عمرو بن العاص: لآتينه عنهم غدا بما يهلكهم لأجله، ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم ليسألهم، قالوا: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا كائننا في ذلك ما كان.

1- في خ/م: "فعدا".

2- في ط: "وعذبونا".

3- في خ/م: "ليردنا".

4- في خ/م: "خرجنا".

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قال فضرب النجاشي بيده إلى الأرض؛ فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فتاخرت بطارفته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله؛ فاذهبوا¹ فأنتم شيوم؛ ترجمته آمنون.

فهذا قول أهل العلم من قبلكم العارفين بشريعتكم؛ وما عدا ذلك فشجرته غشاء واوضار ﴿أَجْتِئْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾².

وسياتي إن شاء الله تعالى قول هرقل إثر هذا الباب إن شاء الله تعالى.

1- في ط: "اذهبوا".

2- سورة إبراهيم، آية: 26.

الباب الرابع

في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم
وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم
إلا محض أغراضهم وأهوائهم

هذا الباب يشتمل على صدروفتين:

الصدر، وفيه فصلان.

والفن الثاني (فيه فصلان)¹

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

الفصل الأول

[ليست النصرى على شيء]¹

اعلم أيها العاقل -وفقك الله- أن النصرى أضعف الناس عقولا، وأقلهم فطنة وتحصيلا، فهم لذلك يعتقدون في الله المحالات، وينكرون الضروريات، ويستندون في أحكامهم إلى الخرافات، فتارة يستندون قضاياهم إلى منامة رأوها، أو خارقة² سمعوها وما وعوها، وأخرى يتحكم³ فيها من متقسس جاهل، بمحض الجهل والهوى والأباطل، من غير أن يستدل على جواز شيء مما يريد أن يفعل من الأفاعيل، لا بتوراة ولا بإنجيل، بل قد يعرض عن نصوص الكتابين ويتأولهما تأويل منسلخ عن الملتين⁴، وربما تنزل بهم عظام النوازل، فيجتمعون لها في المحافل، فيتحكمون بأهوائهم ويقولون فيها بأرائهم، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ﴿أَفِرَّاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾⁵.

ونحن نبين ذلك ونستدل عليه -إن شاء الله تعالى- على طريقة الإنصاف من غير اعتساف. فاما كونهم يعتقدون في الله المحالات وينكرون الضروريات، فقد بيناه فيما تقدم، فمن أراد أن يعرف ذلك فليعد نظرا هنالك.

وأما كونهم يستندون في أحكامهم إلى الترهات والمنامات، فيدل عليه ما حكيناه فيما تقدم من خبر بولش، فإنه احتال عليهم حتى صرفهم عن دين المسيح، وقولهم من المذاهب والآراء كل قبيح، فصرفهم عن قبلتهم، وأحل لهم ما حرم عليهم، وفرق جماعتهم، وشتت كلمتهم، فتم له كل مكر على كل غبي غمر⁶، وقد قدمت حديثه في باب النبوات على الوفاء، وكذلك خبر قسطنطين ابن هيلاني⁷، فإنه لما رأى ملكه يختل ونظامه لا يستقيم

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- في ط: "خرافة".

3- في ط: "تحكم".

4- في ط: "الملتين".

5- سورة الأنعام، آية: 140

6- في خ/م: "عمر".

7- في ط: "هيلانة".

ولا يتحصل، باختلاف رعيته عليه، وقلة انقيادهم إليه، جمع وزراؤه وشاورهم فاجتمع رأيهم أن يتعبد القوم بطلب دم، وأن يشرع لهم شريعة ينسبها للمسيح، فكتب لهم ما بأيديهم من الإنجيل أو أكثره، وتعبدهم بالصلوبية، وشرع لهم ترك الختان، وغير ذلك من الأحكام التي وافقته وجاءت على اختياره، وأكد ذلك بمنامة رآها، ذكر فيها أمر الصليب، فتم له مراده فيهم، وخبره معروف عندهم وعند غيرهم، وقد قدمت بعضه في باب النبوات أيضا.

وأما كونهم يحكمون بأرائهم وأهوائهم، فيدل على ذلك ما أودعوا¹ كتب محافلهم، وما عليه الآن معظم عملهم، ومن طالع تلك الكتب، قضى من جهلهم وجراتهم على الله كل عجب، فإن قالوا: إنما نحكم بالمصالح، وهي عندنا أصل راجح. قلنا لهم: إن كانت المصالح عندكم أصلا تعولون عليه، وتسندون أحكامكم إليه، فمن الذي أصلها لكم، فإن كنتم أصلتموها لأنفسكم، فقد تحكمتم في الأصل والفرع. ثم يلزمكم من هذا القول، الاستغناء عن الشرائع، وأن ما شرع الله من الأحكام في التوراة، عبث لا معنى له ولا فائدة، إذا في النظر في المصالح غنى عنها.

وان كان الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح، فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم، وإذا لم تستدلوا على ذلك، فدعواكم باطلة وحجتكم داحضة.

ثم نقول لهم: هب أن الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح، فهل شرعوا العمل بالمصالح كيف ما كانت المصلحة مطلقا، أو عينوا لكم نوعا من المصالح؟ فإن كانوا قد عينوا، فينبغي لكم ألا تتعدوا ما عين لكم الأنبياء، فما بالكم تسترسلون استرسال من يحكم بهواه، ولا يخاف الله ولا يخشاه.

وان كانوا أطلقوا لكم القول بالمصالح، وقالوا لكم: مهما ظهرت لكم مصلحة كائنة ما كانت، فاعملوا بمقتضاها. فكان يلزم على هذا، إسقاط كثير من أحكام التوراة بالمصالح والرأي، كما فعل بولس حيث قال لهم: هل رأيتم سارحة تسرح من عند ربها، ولا تخرج إلا من حيث تؤمر به، قال فإني رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج إنما تجيء من ها هنا -يعني الشرق- وما أوجب ذلك إلا وهو أحق الوجوه أن يصلى إليه. قالوا له صدقت.

1- في ط: "أودعوه".

فردهم عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال جهة الشرق بهذا¹ الهذيان. ثم قال لهم بعد زمان: رأيت رأيا، قالوا: هات. قال لهم: أستم تزعمون أن الرجل إذا أهدى إلى الرجل هدية وأكرمه بالكرامة فردها، شق ذلك عليه؟ وأن الله سخر لكم ما في الأرض، وجعل ما في السماء لكم كرامة، فالله أحق ألا ترد عليه كرامته، فما بال بعض الأشياء حلال، وبعضها حرام، ما بين البقة إلى الفيل حلال. قالوا: صدقت.

وهذا محض الجراءة² على الله، والإفتراء على شرائع الله، ولم يصرق قط أحد من المتشرعين إلى مثله. ويلزم عليه أن يكون كل من أراد أن يشرع شرعا شرعه، فيكون العقلاء كلهم شارعين، ويستغنى عن رسل رب العالمين، وهذا غاية الكفر والضلال، وهو لازم على مذهب أولئك الجاهل، فقد ظهر من هذا الفصل، أنهم لا يستندون إلى شيء وأنهم ليسوا على شيء³.

1- في ط: "لهذا".

2- في ط: "الجرأة".

3- في ط: زيد قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

الفصل الثاني

[خروج النصارى على تعاليم التوراة والإنجيل]¹

أريد أن أبين في هذا الفصل، أنهم يخالفون كتبهم ولا يعملون بمقتضاها، بل يتركون العمل بها ابتداء ويقولون: تأولناها .

وذلك أن الله تعالى، حرم في التوراة أكل الميتة، والدم والخنزير، والنطيحة والموقودة، والمنخنقة والقردة، والشحوم التي لا تختلط باللحم، والأرانب والأسد، والدب واللب، والفرس والحمار والبغل²، وكل دابة ليست مشقوقة الحافر، ومن الطير البازي والعقاب، وكل طير يبغى بالمخالب، ومن حيوان الماء كل³ حوت ليس له سفانق⁴.

ومنع حرث الثور مع الحمار، وحمل الخيل على الحمير، والحمير على الخيل⁵، وطبخ الجدي في لبن أمه، وأخذ الطير في أعشاشها بفراخها، وأكل الجذارة المتلصقة رثتها، وأكل الخبز المختمر في الفصوص، ولا تقرب قربان إلا بخبز فطير، ومنع شحوم البقر، وشحم الشاة، ومنع قربان الحمام واليمام.

فهذه المذكورات كلها محرمة بنصوص التوراة التي لا تقبل التأويل، إذ قد عملت أنبياء بني إسرائيل على مقتضاها، ولم يغيروا شيئاً منها .

وكذلك عيسى عليه السلام لم يغيرها عن مقتضياتها، ولا نسخها . بل أقرها بالعمل، وأمر بمقتضاها .

وإن ادعوا نسخ شيء منها، طالبتناهم بدليل النسخ، ولا يجدون سبيلاً إلى ذلك ومع ذلك. فتركوا العمل بما أمر الله به، وارتكبوا ما نهى الله عنه .

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م .

2- في ط: "والبغل والحمار" .

3- في ط: "المأكّل" .

4- في ط: وردت بعد سفانق عبارة: "هذا وجدناه في كتبهم التي نقلنا منها، سفانق، وهو تصحيف منهم، وإنما هو سفاسق، وهي الطرائق عند العرب، ومنه قيل سفاسق السيف، وهي طرائقه وضرده. ذكره أبو عبيد في الغريب المصنف" .

5- في خ/م: "الحرماك" .

ولقد وقفت على بعض كتبهم في الفقه، فذكر هذه المحرمات مؤلفة، ثم تأولها بزعمه، وأنا الآن أذكر ما ذكر في ذلك الكتاب، ليقضي العاقل من تواقحهم وجهلهم العجب العجاب، ويعلم أنهم مفترون، ويكذبون على رب الأرباب.

قال ذلك الجاهل بعد ذكر المحرمات: فهذه أمثلة ضريت في التوراة التي هي أم الإنجيل، وأول الكتب كلها. ففسر المسيح سيدنا في الإنجيل حيث قال: "لم آت لنقض الكتاب بل لتمامه" فتمام الكتاب التأويل.

فأما [منه]¹ الميتة في التوراة، فإنما يعني² بذلك: ألا تميثوا الأحياء، ولا تغموا الحق في الشهادة، ولا ترفعوا الطعام، وتمنعوه السائل والجائع. فأما الميتة والمنخنقة، فما في أكلها غبطة لذي عقل، فمن شاء أكل ومن شاء ترك. وأما الدم، فيعني به: ألا يقتل أحد بريئا، وتهرق³ دمه. وعنى بالخنزير: الزنا والكفر بالله، إذ المعروف من الخنزير الإلتطاخ في المضايق⁴، فنهانا عن فعله، وأما أكله فما فيه منفعة ولا مضرة، فمن شاء أكله، ومن شاء تركه. وعنى بالنطيحة: ألا يتناطح ملك جبار وفقير مسكين. وعنى بالموقودة: ألا تزدرى بمن هو تحت ظلم غيرك. وعنى بالمنخنقة: ألا تخنق أحدا إذا كان لك قبله حق فتضغطه⁵. وعنى بالقردة: ألا تحاكي⁶ أحدا فتفعل كفعلها. وعنى بالدب واللب: ألا تأكل مع غيرك بالهجم والغارة. وعنى بالأرانب: ألا تفعلوا فعل الأرانب فتكونوا كقوم لوط، فإن الأرانب الذكور يأتي بعضها بعضا لكثرة شهوتها.

وعنى بالبازي، والشدائق، والعقابي وكل طير يبغى بمخلبه، ألا تقتل⁷ أحدا ولا تهريق⁸ دم أحد ولا تغلب⁹ أحدا على متاعه، ولا تحسد جارا، فتفعل كفعلها. وعنى بالدابة التي ليست مشقوقة الحافر، الكفرة الذين يعبدون الأوثان، ويسبحون لها أيام حياتهم، ولا يقسمون أيامهم مشاطرة.

1- في ط: سقطت: "منه".

2- في ط: "نعني".

3- في ط: "يهرق".

4- في ط: "المطائق".

5- في ط: "فتضايقه".

6- في خ/م: "تحكي".

7- في ط: "يقتل".

8- في ط: "يهرق".

9- في ط: "يغلب".

وعنى بالحوث الذي ليس له سقائق: الإنسان المذنب الذي يتلون في دينه وعبادته.
وعنى بحرث الثور مع الحمار: الإنسان الكافر. وعنى بحمل الخيل على الحمير،
والحمر¹ على الخيل: ألا يتزوج الكافر مؤمنة، ولا المؤمن كافرة.

وعنى بالجدي في لبن أمه: ألا تأخذ مال اليتيم ظلماً، وعنى بالملتصقة الرئة: الإنسان
الحسود الحقوق؛ الذي يوسوس الشر في صدره طول حياته، وعنى بالخبز المختمر: ألا
ينفخنا الشيطان ويهيج فينا الكبرياء، وعنى بالفطير: أن تكون أنفسنا ضامرة بلا انتفاخ.

وعنى بالحمام واليمام² المؤمنين الذين جعلوا أنفسهم لله قربانا.

قال: "فهذا هو المراد بتحريم هذه الأشياء، وأما تلك المذكورات بأعيانها فمن شاء أكلها
ومن شاء تركها.

هذا مذهب النصارى أجمعين، ولا يأباه أحد منهم إلا الأقلين. فينبغي لنا أن نوبخ
هؤلاء الجاهلين، ونعرض عليهم من الإلزامات المفحمة³ ما كانوا عنه معرضين، ونقول
لهم: ما الذي حملكم على أن حرقتم كتاب الله؟ وغيرتم شرع الله؟ فأحللتم ما حرم عليكم
من غير دليل، وصرتم إلى تأويل لم تضمكم إليه ضرورة عقل ولا معارضة قول رسول،
فيا للعجب، ما أثقب أذهانكم، وأصح أفهامكم، إذ قد فهتم من كتاب رب العالمين ما لم
يفهمه أحد من النبيين، بل قد زاد فهمكم على فهم موسى بن عمران وعيسى عليهما
السلام؛ إذ كانا قد عملا على تحريم ما فهتم أنتم تحليله من الأحكام.

وعلى ذلك عملت بنو إسرائيل مدة مديدة من الأعوام إلى زمان بولس المفسد لدين
المسيح، الذي جاءكم بمكر خالص، وكفر صريح، فتلقيتم منه هذيانه، ولم تعرفوا شأنه،
فحرقتم كتاب الله، وانحرفتم عن الدين القويم، دين المسيح، حين حرف الدين الذي لم
تروا منه أثراً ولا سمعتم له خبراً.

ثم نقول: يا معشر المحرفين لكتاب الله، أخبرونا هل كان موسى بن عمران وعيسى
ابن مريم، ومن بينهما من أنبياء بني إسرائيل، علموا من هذه الأحكام ما علمتم أنتم أم
لا؟ فإن كانوا قد علموا فما بالهم نصوا على خلاف ذلك، وحكموا بتحريم تلك الأشياء،

1- في ط: "الحمير".

2- في خ/م: "اليمام والحمام".

3- في خ/م: "المعجمة".

فلم يرو قط عن واحد منهم: أنه أكل خنزيرا ولا ميتة ولا دما ولا شيئا مما ذكر تحريمه، وأنتم تقولون هذا، وتساعدون عليه، فكيف يتمتعون من أكل ما يحل لهم، ثم يصرحون بتحريمه، فعلى هذا يلزمكم أنهم كذبوا على الله، ولبسوا في أحكام الله، إذا كانوا علموا تحليل تلك الأشياء ثم صرحوا بتحريمها والنهي عنها، وإن لم يعلموا شيئا مما علمتموه أنتم، فمن أين علمتموه أنتم؟ أشافهتكم¹ بذلك الملائكة؟ أم أرسل إليكم بذلك رسل آخر؟ أخلق² لكم بذلك علم ضروري؟ وكل ذلك لا تقدرّون على ادعائه، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله، محرفون كتاب الله، متواقحون على الله، كاذبون عليه، ومتهاونون برسله، وستقفون بين يديه ويسألكم عما افترىتم عليه، فتحيط بكم النيران، وتجركم على وجوهكم إليها ملائكة غلاظ شداد لا يطيقهم إنسان ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾³.

فتنادون إذ ذاك: يا أسقفنا بولس انظرنا، فما منا إلا متحرق⁴ عاطش، فيقال لكم: هو في أسفل سافلين، فتصيروا إليه أجمعين، فإذا اجتمعتم معه، لعن بعضكم بعضا وجعد بعضكم بعضا، ﴿وَمَاؤُنْكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّصِيرِينَ﴾⁵.

ثم نقول لهم: إن جاز أن نتاول ألفاظ الشارع، وكلماته من غير ضرورة داعية إلى ذلك، وندفع النصوص بالتحكم، بطلت الكتب كلها والألسنة، ولم يقدر واحد أن يفهم منها شيئا، إذ كل لفظ يتكلم به متكلم يمكن صرفه عن بابه، وعن موضوعه الأصلي ونصابه.

وإذا أمكن ذلك، لم تقدرّوا على أن تثبتوا نبوة عيسى على اليهود بما قدمتم، فإن نص⁶ ما عندكم من كلام الأنبياء على نبوته قول يعقوب: "لا ينقطع قضيب الملك من نسل يهوذا حتى يأتي المسيح"⁷ فيسوغ لليهودي أن يقول: إنما عنى بالملك: دينهم الذي ورثوه عن آباؤهم وأنبيائهم، ولم يعن الملك الذي هو الإمارة والولاية، وقد يسمى الدين الملك.

1- في خ/م: أشفهتكم.

2- في ط: أم خلق.

3- سورة الزمر، الآية: 60.

4- في ط: متحرق.

5- سورة العنكبوت، الآية: 25.

6- في ط: من نص.

7- سفر التكوين 49: 10.

وقد جاء في التوراة حيث قال الله تعالى لإبراهيم: "الملوك من صلبك يخرجون"¹ وإنما أراد بذلك الأنبياء وأهل الدين، ولم يرد بذلك الأمراء فقط.

وعلى هذا التأويل يحاجكم² اليهود، ويقولون لكم هذا ديننا باق لم ينقطع، فإننا نقيم التوراة وأحكامها، فلم يأت بعد المسيح، وهذا التأويل في هذا الموضع أسوغ مما تأولتم أنتم به³ أحكام التوراة.

فإن أنكرتم هذا التأويل، أنكروا تأويلكم وخطوكم⁴، وشهدوا عليكم أنكم غيرتم كتاب الله وحرثتموه، هذا ما جنى عليكم تأويلكم، إذ قد شككتكم في مسيحكم، ففي مثلكم يضرب المثل: "يداك أوكتا وفوك نفخ"

ولو شئنا⁵ لأبدينا لكم من التأويلات، وأريناكم من المناقضات، أكثر من هذا لفعلنا، ولكن منعنا من ذلك ما قدمنا، ولا يصح أن يقول قائل منهم: إن تحريم هذه المحرمات كلها، التي تثبت في التوراة، نسخ بقول عيسى في الإنجيل: "ليس ينجس المرء ما يدخل فاه، وإنما ينجسه ما يخرج من فيه"⁶ لأننا نقول: قول عيسى هذا إذا سلم مفهومه، نفى التجنيس⁷ لا نفى التحريم، إذ هما حكمان متغايران مختلفان، فإن الحكم بتحريم هذه المذكورات إنما يرجع إلى منع أكلها، ثم يجوز أن تتناول بالأخذ والإعطاء وأنواع من التصرفات، كما نقول في الحمار الأهلي والبغل، فإنه يحرم علينا أكله، ويحل لنا تصريفه في أنواع من المنافع غير الأكل، والحكم بالتجنيس إنما يرجع لمنع التناول مطلقا أعنى يمتنع فيه الأكل والتصرف.

هذا إذا كان ذلك النجس محكوما بنجاسته مطلقا، فإن حكم بنجاسته في حال دون حال، كان ذلك، وصح أن يقال عليه أيضا: نجس، مثال ذلك: أن تحكم⁸ الشرائع بأن العذرة يحرم علينا أن نصلي بها، فلا يجوز أن نصلي بها، ولا نحملها في تلك الحال،

1- سفر التكوين 17: 6.

2- في ط: "تحاجكم".

3- في ط: "به أنتم".

4- في خ/م: خطوكم.

5- في خ/م: شيئا.

6- مرقس 7: 15.

7- في خ/م: التجنيس.

8- في ط: محكم.

ويجوز لنا أن نتناولها ونحملها في غير حال الصلاة، فقد بان الفرق ما بين الحكم بالتأويل والحكم بالتحريم، ثم لو سلمنا أنهما اسمان للتحريم، لما كان لتأويلكم السخيف معنى لطيف، فلا أي معنى تأولتم وقلتم ما لا يصلح حمل اللفظ عليه؟ ولم لم تقولوا إنه منسوخ. فهذا خطأ آخر وجهل لا يبوء به إلا من كان مثلكم، فإنه جمع بين التأويل والنسخ، وهما متناقضان.

فإن معنى التأويل: أن اللفظ المؤول معمول به على وجه، ومعنى النسخ: أن المنسوخ مرفوع الحكم على كل وجه غير معمول به أصلاً.

فقد ظهر من الفصلين السابقين: أن هؤلاء القوم متحكمون بأهوائهم في دين الله، تاركون للعمل بكتاب الله وسنن رسل الله: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾¹ ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾².

وقد نجز غرضنا من الصدر فلنشرع في الفن الأول الموعود.

1- سورة الكهف، آية: 104.

2- سورة البقرة، آية: 79.

الفن الأول

شعائر الدين النصراني وطقوسه¹

غرضنا من هذا الفن: أن نجمع مسائل من قواعد أديانهم، ونبين فسادها، وأنهم ليسوا على شيء فيها، بل تركوا فيها نصوص التوراة والإنجيل، وعملوا بخلافها من غير حجة ولا دليل، ولقد كان لنا فيما قدمنا كفاية، أوصلتنا من فضيحتهم وخزيهم إلى أقصى غاية، لكننا أردنا أن نبين خطأهم وضلالهم في أكثر قواعد دينهم، حتى يتضح للناظر أنهم في جميع أحوالهم وأعمالهم مبطلون، وأنهم من كل وجه مضلون.

فنقول: اعلم أنه لو تصفح جميع ما انتحلوه من أديانهم، لوجد مبنيًا على مثل² ما تقدم من هذيانهم، لكننا نقتصر من ذلك على مسائل نباحثهم فيها، ونبين ضلالهم وتلاعبهم بدينهم³، فإذا فرغنا من هذا الغرض، ذكرنا في الفن الثاني جملة من أحكام شريعتنا، ونقتصر من ذلك على ما عابوه علينا منها.

وإنما فعلنا ذلك، لأن هذا السائل الذي حركنا إلى تأليف هذا الكتاب هددنا، بأن قال في كتابه: "إني أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم، ويكل ما نعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدر على إنكارها" فلو بصر الله هذا الجاهل المغلط بعيوبه، لكان سترها وكتمانها أعظم مطلوبه، لكن جهل فقال: وحيث وجب أن يسجد بال.

فنقول: يا هذا ألنا يقمع بالشنان؟ الآخذ⁴ بالحنيفية دين إبراهيم⁵ يدان. كلا والله، فليس مع الشمس سراج، ولا شجر المرخ من الساج، وها نحن نبتدي بالمسائل تترى إن شاء الله تعالى⁶.

1- في ط: ساقطة.

2- في ط: "ما مثل".

3- في ط: "في دينهم".

4- في خ/م: "الأحد".

5- في ط: "دين إبراهيم" ساقطة.

6- في خ/م: "تعالى" ساقطة.

مسألة في المعمودية

أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بالمعمودية، وصفتها عندهم:

أن الذي يريد أن يدخل في دينهم؛ أو النائب منهم، يتقدم¹ الأقسمة إليه² فيمنعونه من اللحم والخمر أياما، ثم يعلمونه اعتقادهم وإيمانهم، فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون، فتكلم بعقيدة إيمانهم أمامهم، ثم يغطسونه في ماء يغمروه، وقد اختلفوا هل يغطسونه مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثا، فإذا هو خرج من ذلك الماء دعا له الأسقف بالبركة، ووضع يده على رأسه.

هكذا كانت صفة معموديتهم قديما في "الأندلس". وأما اليوم، فلعلهم قد غيروا بعض أحكامها، وربما اختلفوا في بعض تلك الأحوال، وهي عندهم عبادة مؤكدة، وقاعدة ممهدة، ومن لم يقبلها عندهم فهو كافر، وليس له من ذنوبه غافر.

وقد كتب الأسقف "ليون" إلى أساقفة "صقلية" رسالة ذكر لهم فيها أمر المعمودية وفضيلتها، فقال: "المعمودية"³ هي إماتة الذنوب وقتلها، وتأويل الغطسات الثلاث: مكث المسيح في قبره ثلاثة أيام، والخروج عن الماء هو الخروج عن القبر⁴.

ومنهم من تأول في هذه الغطسات الثلاث: أنه التثليث الذي يعتقدون.

وهذا التعميد لم يجد⁵ له في التوراة ذكر، ولم⁶ يشرع الله قط لموسى، لكن كتب النصارى في الإنجيل: "أن يحيى عمد عيسى بوادي الأردن، فخرج منه روح القدس كالحمامة على الماء" وزعمت النصارى أيضا أن عيسى قال للحواريين: "إذا مررتم بالأجناس فعمدوهم على اسم الأب والابن والروح القدس"⁷ وزعموا أن "بيطر" عمد ثلاثة آلاف رجل في يوم "نيقشتان"⁸.

1- في ط: "تتقدم".

2- في ط: "منه".

3- في خ/م: "المعمودية".

4- في خ/م: "الغير".

5- في ط: "يجر".

6- في خ/م: "لا".

7- متى 28: 19.

8- في خ/م: "نيقشتان".

وهذه المسألة عندهم ظاهرة المستند، قوية المعتمد، فإنهم قد أسندوا نقلها إلى الأنبياء والحواريين كما تقدم، ولكننا مع ذلك نطالبهم فيها مطالبات تؤذن بأنهم يرجعون إلى الترهات، فنقول: سلمنا لكم جدلا ما ذكرتم من استناد المعمودية إلى ما ذكرتم، لكن لم قلتم: كما فعلها يحيى والحواريون نفعلها¹ نحن اليوم. ولعل الله تعالى خص يحيى والحواريين بعمل المعمودية، ولم يشرعها لغيرهم، فإن ادعوا أن الله شرعها لهم كما شرعها للحواريين، طالبناهم بالنص من كتبهم الذي به يجب على من دون الحواريين التعميد، ولا يجدون شيئا من ذلك أبدا.

ثم نقول لعل الحواريين ويحيى، إنما عمدوا الناس، لأن ماءهم كان مقدسا، ودعاهم متقبلا، لكون يحيى نبيا والحواريون² كذلك عندهم، وأما أنتم فليستم أنبياء، وليس ماؤكم مقدسا، فليستم مثلهم، فكان ينبغي لكم ألا تعمدوا أحدا، لكنكم وضعتم لأنفسكم شرعا بالتوهم، وزدتم فيه أمورا بالتحكم، ثم نقول: سلمنا جدلا أن المعمودية شرع لكم، فمن أين زدتم فيها العدد؟ ووضع اليد على الرأس والنفخ في الوجه؟ كما فعله بعض من مضى منكم، ولم تكفرون من لا يستعملها، ولم ينزل بشيء من ذلك سلطان، ولا حكم بذلك إنجيل ولا فرقان، لولا محض التلاعب بالأديان، والتحكم في دين الله والخذلان.

ثم نقول: هذا الماء الذي تعمدون فيه أهو مقدس أو غير مقدس؟ فإن كان مقدسا، فمن قدسه؟ فإن قلتم: إن الله قدسه، فمن أين علمتم ذلك؟ ثم إن قلتم ذلك عورضتم بنقيضه، وقيل لكم بل نجسه الله، وإن قلتم: نحن قدسناه، قلنا: فمن أنتم حتى شيئا؟ وهل يصلح أن يقدس من ليس بمقدس؟ أو يظهر من ليس بمطهر؟ بل أنتم مذنبون، تتزايد ذنوبكم في كل وقت وحين، فكيف تقدسون غيركم وأنتم لا تقدسون أنفسكم؟ فليت الفحل يهضم نفسه³.

فحصل من هذا: أن ماءكم الذي تعمدون فيه غير مقدس، ولذا كان كذلك، فلا شيء⁴ تشرطون في المعمودية أن تكون بالماء؟ وهلا عمدتم في البول فإنه ليس بنجاسة عندهم؟ ولا فرق بينه وبين الماء إذ كل واحد منهما ليس بمقدس.

1- في خ/م: "نفعله".

2- ما المعقوفتين ساقط في خ/م.

3- في خ/م: "الفحل".

4- في ط: "شرط".

ثم نقول: زعم النصارى أجمعهم، وكتبوا في كتبهم: أن يحيى عمد عيسى المسيح بوادي الأردن.

فنقول لهم: هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدسا أم لم يكن؟ فإن قلتم: أنه كان مقدسا، فلا فائدة لفعل يحيى، ولأي شيء لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد، وأنتم تقولون: أنه لما عمد نزل عليه الروح القدس مثل حمامة بيضاء. وإن كان غير مقدس، فكيف يكون من ليس بمقدس إلها أو ابن إله؟ وأنتم تزعمون بجهلكم على اختلاف أقوالكم: أنه اتحد بناسوته اللاهوت وهو في بطن أمه، وكيف يتحد اللاهوت بمن ليس بمقدس؟ وهل هذا كله منكم إلا هذيان وضرب من الخذلان تمجده القلوب والآذان؟

مسألة في غفران الأساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين واختراعهم الكفارة للعاصين

اعلم، أن هؤلاء القوم وضعوا لأنفسهم قوانين، توافقوا عليها، وارتبطوا لها، من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين شاهد من تورا ولا من إنجيل، فمن خالفها عندهم سموه خارجيا تارة، وكافرا أخرى، والخروج عن تلك القوانين هو الذنب عندهم، ثم تلك الذنوب منقسمة إلى ما لا يغفرونه، وإلى ما يغفرونه، فإذا غفروا ذنب واحد منهم أدخلوه الكنيسة وقبلوا قريانه، وإذا لم يغفروا له أبعدوه عن كنائسهم، وطردوه، وهولوا عليه، ولم يقبلوا برهانه، ولا بد للذنب المغفور من كفارة، وتلك الكفارة بحسب ما يظهر لأقستهم ويروونه موافقا لغرضهم، فتارة يوجبون عليه خدمة الكنيسة، وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذلا، وربما يبقى على ذلك أعواما عديدة، وتارة يوجبون عليه مالا، فإما¹ للمكهم وإما لهم ولكنائسهم.

ولا بد من بيان ذلك بالأمثلة على ما وجدنا في كتبهم، ولنذكر من كل مسألة مثالا، لنلا يطول الكتاب، وإنما ننقل² ألفاظهم من كتبهم، لنلا يتقول متقول علينا بالباطل، أو يظن بنا الجهل بمذهبهم، أو ينسبونا إلى الكذب في شيء مما حكيناه عنهم.

مثال القسم الأول: العابثون بالصبيان.

"العابثون بالصبيان لا يغفرون لهم بوجه، ولا يعطونهم قريانا أبدا، ولا عند وفاتهم، على هذا أجمع أساقفة طليطلة" في ولاية "الفية"³ الملك، وقالوا: دعنا هذه الفاحشة

1- في ط: "فأما".

2- في ط: "أنقل".

3- في ط: أيفة.

المنتنة أن نحكم¹ بأجمعنا : أن كل من أتى هذه الفاحشة أن يفعل به [وتركب منه]²، فإن كان راكب هذه الفاحشة أسقفا فليعزل، ويبعد إبعادا شديدا دائما، وإن كان من غيرهم، فلينكل به نكالا شديدا، ويضرب الفاعل والمفعول مائة سوط، وينفيان النفي الدائم، ولا يعطيهم أحد من الأقسى توبة، ومن أعطاها لهم وتقبل قربانهم عزل، وأبعد، ولم يعط هو أيضا توبة، وأغرموه خمسة أرطال ذهباً للملك.

هذا قانونهم الأول القديم، ولا أدري ما أحدثوه الآن، إذ الأحداث عنهم في كل زمان. ومثال الثاني: نكاح القربايات.

وذلك أن نكاحهن حرام بنص التوراة، زعموا: "فإن نكح رجل قريبته إلى سبع بطون، فإن أصر على ذلك، فلا يغفر له، ولا يعطى قربانا، وإن مات. وإن أفلح عنها حرم القربان خمسة عشر سنة" وكلفوه³ أعدادا من الصلوات ومن العبادات وربما زادوا عليه خمسا فكملاوا له عشرين سنة وربما بلغه بعضهم خمسا وعشرين وذلك بحسب ستة عندهم فإذا كان بعد ذلك قبلوا توبته وأعطوه القربان وأما المرأة فقد أبوا أن يعطوها القربان إلا عند وفاتها.

وأما الذي يأتي البهيمة:

فإن كان له زوجة لم يعط القربان إلا بعد ثلاثين سنة، وإن لم تكن له زوجة فبعد خمس وعشرين سنة.

ومثال ما يفرمون فيه الأموال:

من تزوج من غير بركة "القسيس" فإنه يغرم للملك مائة دينار، ويضرب الزوجان مائة سوط، مائة سوط.

وقد حكموا على قاتل عبده:

بحرمان القربان سنتين، وعلى قاتل العمد عبده⁴، بحرمان القربان، ويخضوعه عند الكنيسة إلى آخر وفاته.

1- في ط: "يحكم".

2- في ط عوض الجملة بين المعقوفين ب: "عقاب".

3- في ط: "وكلفوا".

4- في ط: "غير عبد".

وأما قاتل الخطأ :

فقانونهم الأول: يقضى بأن يحرم القريان سبع سنين، والقانون الثاني: يقضى بأن يحرم خمس سنين.

وعلى الجملة:

فهذاياناتهم، وتحكماتهم أكثر من أن تحصى، ومن اطلع على كتب فقهم، رأى فيها غرائب وعجائب، ومقصودنا التمثيل، وقد حصل والحمد لله. فنقول:

من وقف على هذه المواضع وأمثالها لم يشك في أن القوم يصنعون أحكاما، ويخترعونها، ويلتزمونها، ولسنا ننكر: أن الشرائع لو جاءت بمثل هذا الكفارات والتحكمات لقبلائها والتزمناها.

وانما ننكر عليهم: أن يجعلوا أنفسهم شارعين، وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين، فإنه إنما ينبغي الحكم والتحكم له، إذ له أن يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء في العبيد، وأما الأنبياء فلا يحكمون من عند أنفسهم، وانما يبلغون أحكام الله. ثم أعجب من ذلك كله¹ جراتهم على الله، واستهزاؤهم بكتاب الله، فإن هذه الذنوب التي قدمت ذكرها، قد شرع الله أحكامها في التوراة نصوصا، وبين حدودها، فجعل في أكثر تلك المواضع: القتل، ولم يحكم فيها بشيء مما اخترعوه. وليس في إنجيلهم أيضا من هذه الأحكام شيء، وعند هذا تبين: أنهم خالفوا كتب الله، وتركوا سنة رسل الله، وتحكموا في ذلك بأهوائهم، وتركوا سنن أنبيائهم فحققت عليهم لعنة الله أبد الأبد، وغضبه إلى يوم الدين.

فإن قالوا: تلك الأحكام التي في التوراة منسوخة بكتابنا، وعلى لسان مسيحنا، قلنا لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾²، بل نقول: إن عيسى عليه السلام جاء متمما لأحكام التوراة، ولم يجيء مغيرا لأحكامها، ولا ناقضا لها. وكذلك نقلتم في إنجيلكم أن عيسى قال: "إنما جئت متمما ولم آت لأنقض شريعة من قبلي"³.

وهذا خلاف ما تدعونه من النسخ، بل يقتضى هذا بحكم ظاهره أنه لا ينسخ شريعة من قبله، وانما يوضحها، ويحيى ما أميت منها، ثم لا يبعد أن يكون قد نسخ بعض أحكام

1- في مد: كله ساقطة.

2- سورة البقرة، الآية 111.

3- متى: 5: 17.

التوراة، وغاية ما يوجد له من النسخ قوله: [قد علمتم إنه "قيل للقدماء"¹]: من فارق امرأته، فليكتب لها كتاب طلاق. وأنا أقول: من فارق امرأته منكم، فقد جعل لها سبيلا إلى الزنا، ومن تزوج² مطلقة فهو فاسق.³

ثم قال أما⁴: "بلغكم أنه قيل: العين بالعين والسن بالسن، وأنا أقول لكم: لا تكافئوا أحدا بسيئة، ولكن من لطم خدك الأيمن فأعطه الآخر، ومن أراد نزع قميصك فزده ردائك"⁵.

فمثل هذا يمكن أن يقال فيه: إنه نسخ، وإذا بحث عن كتابكم كما يجب لم يوجد فيه نص⁶ من هذا على النسخ. فمن ادعى منكم أن شيئا مما ذكر في التوراة تحريمه منسوخ، فليأت بناسخ يشبه هذا القول. فإن لم تأتوا بشيء من ذلك، دل على أنكم متحكمون هنالك. مطالبة

وهي أنا نقول لهم:

لأي معنى حرمت من نكح قريبته خمسا وعشرين سنة من⁷ القران؟ وحرمتموه من نكح بهيمة ثلاثين سنة، ولو عكستم ذلك كان أشبه، فإن نكاح الأدمية القريبة أشنع⁸ من حيث أنها محرمة من نكاح بهيمة لا احترام لها، وكذلك نعكس عليهم كل ما ذكروه، حتى يتبين فساد قولهم.

ونقول لهم أيضا: لأي معنى لم تجعلوا مكان الثلاثين: ثمانية وعشرين، أو اثنين وثلاثين؟ ولأي معنى خصصتم هذا العدد دون غيره، وعند هذا يتبين بطلان تحكمهم، وفساد رأيهم. وكذلك نقول: لأي معنى شرعتم في العايب مائة سوط؟ ولم تشرعوه فيمن نكح قريبته⁹ مع أن التوراة قد أمرت بقتل كل واحد منهما، فكان ينبغي أن تسووا في

1- في ط: "عوضت الجملة بين المعقوفتين ب: "وقيل".

2- في خ/م: "زوج".

3- إنجيل متى 5: 31-32.

4- في ط، سقطت: "أما".

5- إنجيل متى 5: 38-40.

6- في خ/م: "أنص".

7- في خ/م سقطت "من".

8- في خ/م: "أسنع".

9- في خ/م: "قريبة".

الحكم بينهما، فأما أن تضربوا كل واحد منهما مائة سوط أو لا تضربوهما، فظهر من هذا أنكم تركتم حكم التوراة، ثم لم تعدلوا فيما تحكمتم به، ثم من أعظم تواقحكم أنكم سهلتم الفواحش على أنفسكم، وصعبتموها على غيركم، فحكمتم على الأسقف الذي يعبت بأن يبعد فقط، وعلى غيرهم بأن يبعدوا وينكلوا ويجلدوا إذا فعلوا تلك الفاحشة، ولو عكستم ذلك لكان أشبه، فإن التغليب على الأقسة مناسب لحالهم، فإن المعاصي تقبح في حقهم أكثر مما تقبح في حق غيرهم، فإن من كلام النبوة أن من أشد الناس عذابا عالم لم ينفعه الله بعلمه، ومن كلام الحكماء حسنات الأبرار سيئات المقربين، ثم هذا المعنى معلوم من عادة الملوك، فإنهم يعاقبون وزراءهم والوقافين على رؤوسهم، ويؤاخذونهم على أمور لا يحسن منهم أن يؤاخذوا بها سائس الدواب، بل لكل مقام مقال، ولكل عمل رجال، وكيف لا تقبح المعاصي في حق الأقسة والأساقفة وهم قد نزلوا أنفسهم منزلة الأنبياء؟ حيث شرعوا الشرائع، وتحكموا بوضعها، بل تنزلوا منزلة المكلف الغافر الذي له الخلق والأمر.

فإنهم قد قالوا للعوام: إن غفراننا لكم غفران الله، وحرماننا لكم: حرمان الله، فإذا أعطينا نحن القريان فقد قبله الله، وإذا لم نعطه لم يقبله الله، وإذا غفرنا نحن الذنب فقد غفره الله، فإن غركم الشيطان، وقد فعل، بأن تقولوا إن لنا لأجل القسيسية منزلة وحظوة، فاتركوا العمل بشريعتكم لأجل ما لكم عند الله من الفضل، ولا تحرموا على أنفسكم شيئا من الفواحش، وقد سمعنا هذا النوع عن بعض "أقسة أرغون" فعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، ثم نقول لهم: يا معشر الأساقفة الجاهلين والقسيسين المتحكمين من أنتم حتى تكونوا شارعين؟ أنتم عقاب رب العالمين؟ أحصلتم على رضاه أجمعين؟ بل ينبغي أن تتحققوا أنكم في العذاب خالدون¹، حيث كفرتم برسالة سيد المرسلين مع ما دلت عليها من الشواهد والبراهين، فلقد صدق الله وهو أصدق القائلين حيث قال، مخبرا عن الأخبار والقسيسين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ رَبِّ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۚ﴾².

1- في خ/م: "خالدين".

2- سورة المائدة، الآية: 18.

مسألة في الصلوية وقولهم فيها.

لا خلاف عند النصارى: أن إنكار صلب المسيح كفر، ومن شك فيه¹ فهو كافر، وأنا الآن أذكر كلامهم في "الصلوية" وفي معناها عندهم.

قالوا: "الكلمة هو الله، وهو مخلوق من طريق الجسم، وخالق من طريق النفس، وهو خلق جسمه، وهو خلق أمه، وأمه كانت من قبله بالناسوت، وهو كان من قبلها باللاهوت، وهو الإله التام، وهو الإنسان التام، ومن تمام رحمته على الناس: أنه رضي بهرق دمه عنهم في خشبة الصلب، فمكّن اليهود أعداءه من نفسه، ليتم سخطه عليهم، فأخذوه وصلبوه، وغار دمه في إصبغه، لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض لبيست، إلا شيء وقع فيها فنبت في موضعه النوار.

لأنه لما لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم، الذي ظلمه واستهان بحقه، فلم يرد الله الانتقام منه لاعتلاء منزلة السيد، وسقوطه منزل العبد. أراد أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح، الذي هو إله متساو معه. فصلب ابن الله الذي هو الله في الساعة التاسعة من يوم الجمعة."

هذا نص كلامهم من غير زيادة ولا نقصان.

وقال "بليون الجاثليق" في رسالته لـ "ليون الملك" كبول: "أسرتنا، لا يمكن أن تحل، إلا بأن يطلع إنسان من جنسنا وطبيعتنا، من لا تضبطه معصية الذنب على ضد آدم، ومن بدمه الطاهر يمحو² أزلات الدين³ المهلك، الذي كان حتمه الله، وقضى به منذ البدء، فتم ذلك الفعل عند انقضاء الزمان المحدود، وذلك ليتم الوعد الموعود.

مفهوم هذا الكلام: أن ذنب آدم كان في رقاب بنيهِ إلى أن قتل عيسى، وانتقم منه لأجل آدم، وحينئذ عفا عن آدم وبنيه، ولهذه الحكمة كانت صلوية المسيح عندهم. يا معشر العقلاء انظروا بعين الاعتبار جهل هؤلاء الأغمار، وجراتهم على العزيز الجبار، وقولهم بالشتيمة في الأنبياء الأخيار، فلقد ارتكبوا من المحالات، وقالوا من الأكاذيب والترهات ما

1- في خ/م: "فيها".

2- في ط: "تمحو".

3- في ط: "الريق".

لم يقله أحد من المخلوقات، ثم لم يكتفوا بهذه العظائم، حتى أضافوا لله ولأنبيائه أعظم النقائص والشتائم، فله سر في أبعاد بعض العباد: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾¹.

فهؤلاء كما قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾². واعلم، أنا لو تتبعنا تناقض هذا الكلام، وأوردنا الإلزامات عليه، لكتبنا في هذه المسألة وحدها سفرا، على أن العقلاء يعلمون فساد هذا المذهب بالضرورة، عند مجرد الوقوف عليه، ولذلك لم يصر إلى نحو هذا المذهب السخيف، والقول القبيح أحد من الأمم، لا من العرب ولا من العجم، لا في الحديث ولا في القدم، وإنما صار إليه هؤلاء النصارى الجاهل، لكونهم ليسوا من العقال، بل حظهم من العقل حظ المجانين والأطفال، فكلامهم أشبه شيء بكلام الموسوسين والمختلطين المبرسمين.

ولقد كان يقتضى ما يعلم من حالهم، الكف عن مناظرتهم³ وجدالهم، لكن سكوت النبيه ربما كان داعية لتطاول السفیه، وقد تقدم هذا الاعتذار عن هذا في أول الكتاب، ولكن مع هذا لا بد للمجانين من العزائم⁴، وتعليق الأجراس والتماائم⁵، فلنورد عليهم من الإلزامات ما يبطل تلك الترهات، ويبين تلك الأكذوبات، فنقول:

وقد ذكرنا فيما تقدم: أن أمر الصلوية إنما شرعها لهم "قسطنطين بن هيلانة" الملك. وهو الذي سنه⁶ وكتبها لهم في الإنجيل، ليوغر صدور عامته، ورعيته على اليهود، وأنه احتال عليهم بالرؤية التي اخترعها، فتم له مراده منهم، ولم يكن عنده من أمر عيسى إلا خبر جملي.

ثم اختلق لهم في شأنه أمورا تفصيلية هي محال في نفسها، لكنها مهولة على العامة الرعاع، كقولهم في الالتحام، وفي أن⁷ لاهوت المسيح: لم يتركه ألم الصلب والإهانة، وإنما أدرك ذلك لحمته، وكإطلاق لفظ الطبيعتين على لاهوته وناسوته، إلى ما عندهم من الهذيان التي هي محال بالضروريات.

1- سورة غافر، الآية: 33.

2- سورة البقرة، الآية: 18.

3- في خ/م: "مناظرهم".

4- في خ/م: "الغماائم".

5- في ط: "النماائم".

6- في ط: "سنه".

7- "أن" ساقطة في ط.

وقد قدمنا في ذلك ما يغنى عن إعادته.

واعلم، أن النصارى يدعون: أن اليهود قتلوا المسيح عيسى يقينا، وأن اليهود يدعون أنهم قتلوا رجلا ادعى نسخ التوراة، بعد أن ادعى النبوة، ولم يبق عليها شاهدا.

ونحن ندعي: أن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يقتله اليهود ولا غيرهم، بل رفعه الله إليه من غير قتل ولا موت، ونحن نبين أن الفريقين في شك منه، وغير عالين بشيء مما يدعونه في صلبه، فنقول:

إن مستند النصارى في قولهم بالصلب: إنما هو الإنجيل. وقد بينا فيما تقدم: أنه قابل للتحريف والتبديل، وقد أرينا فيه التناقض والتحريف عيانا، وأوضحنا على ذلك برهاننا مع ما قدمنا من أن نقله ليس نقلا متواترا يفيد العلم. وهذا يكفى مع أنهم ليسوا عالين بشيء مما يتضمنه، ولو سلمنا أنه متواتر يحصل بنقله العلم، لقلنا أن الأخبار التي فيه التي تتضمن الصلب لا تنص نصية قاطعة للشك على أن المصلوب هو المسيح بعينه، بل هي محتملة لأن يكون¹ المصلوب غيره، ولم تتفطن النصارى بغباوتهم لوجوه الاحتمال، ونحن نسرد نصوصهم في أناجيلهم، ونبين ذلك، ووجه الاحتمالات فيها، إن شاء الله مستعنيين به ومتوكلين عليه.

قال "مئاووش"² في إنجيله:

"وقف على المسيح يهوذا، أحد الإثني عشر، ومعه جماعة برماح وعصي، وكان معهم قواد القسيسين وأكابر بني إسرائيل، وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان من قببطه من الجماعة: فهو المراد فأحبسوه، وفي ذلك الوقت دنا يهوذا إلى ياشوا³، وقال السلام: عليك يا معلم، فقال له ياشوا: يا صديق لم أقبلت هنا، فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته"⁴ زاد "ماركش": "أنه لما قبضوا عليه، تخلى عنه التلاميذ وهربوا، فاتبعه شاب عريانا⁵، وهو ملتف في ردائه، فقبضوا عليه، فأسلم لهم الرداء، ونجا عريانا"⁶.

1- "يكون" ساقطة في ط.

2- في خ/م: "مئاوس".

3- في خ/م: "يوشا".

4- إنجيل متى 26: 47-50.

5- في خ/م: "عريان".

6- مرقس 14: 51.

زاد لوقا: "أن بلاط¹ لما أخبر أنه جلجالي، وعلم أنه من طاعة هيرودس بعثه إليه²." زاد في إنجيل "يحيى"³: "أن ياشوا تقدم لجماعة وقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري. فقال لهم ياشوا: أنا هو، وكان يهوذا المدل عليه معهم وافقا، فلما قال لهم: أنا هو، فهقروا إلى خلف فتساقطوا في الأرض، ثم دنا منهم، وقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري. فقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري. فقال لهم: ياشوا: قد قلت لكم إنني أنا هو، فإن كنتم إنما تريدونني أنا، فأطلقوا سبيل هؤلاء⁴." وذكر متى:

"أن يهوذا الدال عليه، لما أبصر ما فعل به، ندم ورد الثلاثين درهما على قواد⁵ القسيسين، وقال: أخطأت إذ سلمت⁶ دما صالحا. فقالوا له: ما علينا، أنت ترى. فألقى الدارهم في البيت، وتوجه إلى موضع خنق فيه نفسه⁷."

هذه نصوص أناجيلهم، ومستند اعتقاداتهم، ليس شيء منها يدل دلالة قاطعة على أن المصلوب هو المسيح بعينه، بل إذا اعتبر العاقل تلك الحكايات المذكورات، ولفق متفرقها⁸، وحقق النظر فيها، تقطن لموضع الأشكال، وتنبه لثار الشك فيها والاحتمال.

ونحن نبين ذلك بعون الله، فنقول: ما سردناه⁹ من أناجيلهم فيه احتمالات. منها: أن يهوذا كذب لليهود في قوله: "هو ذا"¹⁰ فإن اليهود كانت لا تعرفه، ولم تأخذه إلا بشهادته: أنه هو، ألا ترى أن يهوذا عرفهم إياه بالعلامة.

وكذلك يدل على ذلك سؤالهم عنه، وكذلك سؤال "بلاط" عن بلده، حين أخبر أنه من جلجال، يدل على أنه كان لا يعرفه.

1- وهو "بيلاطس".

2- لوقا 23: 7.

3- في ط: "يوحنا".

4- يوحنا 18: 4-8.

5- في خ/م: "مواد".

6- في خ/م: "تلت".

7- متى 27: 5.

8- في ط: "متلفها".

9- في ط: "سودناه".

10- في خ/م: "هو معودا".

فهذا كله يدل على أنهم كانوا لا يعرفونه، وإنما عولوا في تعيينه لهم على يهوذا، فإذا ثبت ذلك، فيحتمل أن يكون يهوذا إنما أشار إلى غيره، لأنه كان ندم على بيعه، كما تقدم نصه في كتبكم.

ويدل على أنه تاب من ذلك، وندم عليه، وحسنت توبته، قول عيسى له فيما زعمتم، حين سلم عليه: "يا صديق لم أقبلت؟" ولو كان مصرا على الدل عليه، وعلى ما كان هم به، لما كان يحل لعيسى أن يقول له: "يا صديق" فإنه كان يكون كافرا، ولا يمكن أن يقول للكافر: "يا صديق" فإنه كذب، لأن الكافر عدو، فيلزم هنا أحد ثلاثة أمور:

أما أن يكون يهوذا تاب في ذلك الوقت وندم على ما فرط منه، فعضا عنه، وتوبته لا تصح في تلك الحال، أعنى حال الدلالة عليه، إلا بأن يعدل عنه، ولا يدل عليه، وكذلك فعل، والله أعلم.

أو يكون عيسى كاذبا فيما قال، له حيث أخبر أنه صديق. وعيسى عليه السلام منزّه عن الكذب.

أو يكون كتابكم باطلا ومحرفاً.

فاختاروا من هذه الثلاث واحدة، وأي شيء التزمت منها فهي مبطلّة لقولكم وفاسدة. ويدل على حسن توبته وصدقها، أنه رمى بالدرهم، واعترف بالخطية، وقتل نفسه، وهذا يدل على غاية الصدق في الندم.

ومقصود هذا الكلام: أن يهوذا ندم، ولا بد على ما فرط منه، فيحتمل أن يكون دل على غيره من أصحابه، وأن ذلك الغير رضي بأن يقتل مكان المسيح، فتعرض بنفسه لليهود، فأخذوه، ورفع عيسى مكانه إلى السماء، كما رفع "آخنوخ" النبي وهو "إدريس عليه السلام" وهذا كما تقولون أنتم: أنه لما صلب وحى، اجتمع بأصحابه بجلجال، ثم رفع إلى السماء.¹

فقد توافقنا على الرفع، وأنتم تقولون أنه بعد الصلب والصفع والإهانة، ونحن نجله ونكرمه عن ذلك، ونقول: أنه رفع من غير صلب وإهانة، بل صانه الله من أن يظفر به عدواً، وأكرمه حتى أحله مكانا عليا، ولو كنتم عقلاء لجحدتم أمر الصلوبيّة، ولم تعترفوا بها، ولقبليتم قولنا فيها، ولو فعلتم ذلك، لكان أليق بكم، وأستر لجهلكم، فإنكم تريدون أن تجمعوا بين نقيضين، حيث حكمتكم عليه بأمرين محالين إلهية وصلوبية.

ومنها: أن يحتمل أن يكون المسيح في الجماعة الذين أطلق الأعوان سبيلهم، وكان المتكلم معهم غيره، ممن يريد أن يبيع نفسه من الله ويقي المسيح بها¹، فقال ذلك المتكلم: أنا المسيح فحبسوه، وخلوا سبيل غيره، فانفلت المسيح في جملتهم، ويقوى هذا الاحتمال أن يهوذا كان واقفا ناحية، ولم ينبه عليه، لكونه كان نادما لما قد تبين، وبعد ذلك رفع.

ومنها: أن أولئك الأعوان أخذوا عليه رشوة فأطلقوه، وعلى هذا يدل حديث رداء الشاب، حيث قال ماركس: "إن الشاب أسلم إليهم الرداء لما تقبضوا عليه"، وإذا جاز أن يأخذ "يهوذا الأشكريوث"²، وهو حواريه، على قتله ثلاثين درهما، جاز أن يأخذ الأعوان على إطلاقه رداء.

ومنها: أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى رفع المسيح إلى السماء، وصور لهم شيطانا أو غيره، بصورة تشبه صورته، فاعتقدوا أنه هو فصلبوه، وإلى هذا يشير سكوته، حيث سألوه فسكت ولم يجاوبهم، وفي الوقت الذي تكلم لهم نزلت تلك الصورة نفسها منزلته، وهذا كله ممكن لا يدفعه عقل، فإن الله على كل شيء قدير، ولا يدفعه أيضا نقل.

فإن كل ما نقلتموه ليس نصا قاطعا، ولا نقل نقلا متواترا، فحصل من هذا أنكم غير عالمين بصلبه، ولا موقنين بقتله.

وأما اليهود فليسوا أيضا عالمين بشيء من ذلك، إذ لا يصدقون كتابكم، وليس عندهم نقل متواتر بذلك، على التفصيل، وغايتهم: أن يعتقدوا على الجملة: أن رجلا كان فيما مضى غير بعض أحكام التوراة، فشهد عليه بذلك، فقتل. وكتابكم يدل على أنهم إنما قتلوا رجلا شهد لهم فيه "يهوذا الأشكريوث" أنه: المسيح، الذي ادعى أنه "ابن الله" فحصل من هذا: أن اليهود في شك منه، وأنكم أنتم على غير علم به، وهكذا قال كتاب الله الناطق على لسان رسوله الصادق: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾³.

1- في ط: به.

2- هو يهوذا الأسخريوطي.

3- سورة النساء، الآية: 157-158.

وحين بينا أنهم في شك من الصلوية، ينبغي أن نتبع بالنقض كلامهم المتقدم، فنقول:

أما قولهم: "من رحمته على الناس أنه رضي بهرق دمه عنهم في خشية الصلب" فتوافق لا يفوه به من له من الحياء أقل نصيب، يا عجباً كيف يجترئ أن ينطق بهذه القبائح عاقل؟ أم كيف يرضى لنفسه بمثل هذه المخازي فاضل؟ وهلا كان يرحم عباده بأن يغفر لأبيهم، ولا يحتاج إلى هذا كله؟ أو ليس كان يكون غفران الذنب أهون عليه ابتداءً، وأليق بالحكمة والرحمة والرافة من أن يعاقب من لم يجن¹؟ ثم ذلك المعاقب الذي لم يجن² الذنب ابنه، بل وهو عندكم نفسه باعتبار ما حل فيه منه، فلم يرض من عقوبة الذنب الذي جناه آدم، حتى عاقب نفسه أو ابنه، فأنتم في هذا القول الوقاح والإفك الصراح، بمنزلة رجل أخطأ عليه عبده، فبقي بعد مدة غاضباً عليه وعلى غيره من عبيده، ناوياً³ على معاقبتهم، حتى ولد لنفسه ولد فعمد إليه فقتله، بذنب العبد الذي كان أذنب، ثم لم يقنع بذلك حتى ضرب نفسه، ولأمها وأهانها على ما صنع عبده، مع أنه قد كان متمكناً من أن يغفر لعبده، ولا يفعل هذا بولده ولا بنفسه، فأى تشف يحصل له مما فعل، بل يحصل⁴ له كل ألم ونقص وخلل، مثل⁵ السفية الأحق الجاهل، بل يزيده ذلك في كربيته، ويدعو إلى دوام حزنه وحسرتة.

ويلزمكم على ذلك: أن يكون الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام، إلا بعد أن صلب المسيح. وبذلك تكذيب كتب الأنبياء فإنها تقتضى: أن آدم بكى على خطيته، ودعا الله تعالى حتى تاب عليه واجتباها، ويلزمكم أيضاً عليه: أن يكون نوح وإبراهيم وموسى وما بينهم من النبيين عصاة بذنب آدم حتى صلب عيسى، وحينئذ غفر لهم.

وقد صرح بعض "أقستكم" لعنه الله: "أن آدم وجميع ولده إلى زمان عيسى كانوا كلهم ثاوين في الجحيم بخطيئة أبيهم، حتى فداهم عيسى بهرق دمه في الخشبة، فلما صلب نزل جهنم⁶، وأخرج منها جميعهم إلا يهوذا الأشكريوث.

1- في خ/م: "يجر".

2- في خ/م: "يجز".

3- في خ/م: "بانيا".

4- في خ/م: "تحصل".

5- في خ/م: "فعل".

6- في خ/م: "الحينه".

فانظر هل يستجري مجنون موسوس على أن يقول أن نوحا وإبراهيم الخليل وموسى الكليم ومن بينهم من النبيين مثل يعقوب واسحق وغيرهما من الأبناء صلوات الله عليهم أجمعين كلهم في نار الجحيم والعذاب الأليم وفي السخط العظيم حتى صلب الإله نفسه وابنه فانظر، هل سب قط¹ الأنبياء بأقبح من هذه الشتائم؟ أو هل تجرأ أحد قط² أن يتقول³ على الله، وعلى رسله مثل هذه العظائم؟ فسبحان الحليم الذي يهلككم، والكريم الذي يرزقكم، ولكن إنما يعجل من يخاف الفوت، أو يجزع من الموت. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾⁴.

ثم يلزمكم عليه أيضا نسبة الله تعالى⁵ إلى الجور، وإلى أنه يأخذ بالذنوب غير فاعله، ويعاقب على الزور غير قائله، وهذا الإلزام⁶ يهون عليكم، إذ ليس للإله قدر عندكم، إذ قد صرحتم بأن آدم ظلمه، وأنه لا يمكنه⁷ أن ينتقم ممن ظلمه واستهان بقدره.

فيا ليت شعري، لأي شيء لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاجز عن ذلك؟ أم لأنه لا يقدر على عقاب أحد ممن هنالك؟ أم لحكمة⁸ أنه يعاقب غير الجاني؟ أم لحكمة قتل ولده في جناية عبده؟

قاتلكم الله، ما أسخف عقولكم، وما أرك فروعكم وأصولكم، ثم أعجب من ذلك أنهم يقولون: الكلمة هي الله، والله هو المسيح ثم يقولون: إنه لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاصي الذي ظلمه، وإنما انتقم من إله مثله.

فانظر إلى هذا التناقض الشنيع، كيف يعتقدونه تارة: أنه هو، فيلزم عليه أنه هو المنتقم والمنتقم منه والمعاقب والمعاقب، وتارة يعتقدون: أن الإهانة والصلب لم يحل بلاهوته، بل حل بناسوته، وناسوته ليس ياله، فيلزم على هذا القول الآخر: أنه لم ينتقم من إله مثله، وكيف ما كان، فالتناقض لهم لازم والمحال.

1- "قط" ساقطة في ط.

2- في خ/م: "قط أحد".

3- في ط: "يقول".

4- سورة الزمر: الآية 60.

5- "تعالى" ساقطة في ط.

6- "الإلزام" ساقطة في ط.

7- في ط: "يمكن".

8- في ط: "بحكمة".

وهكذا يفعل الله بالجهال أهل الضلال، ثم انظر سخف جرأتهم على الكذب، وقولهم بالمحال من غير سبب، حيث قال: "فأخذوه وصلبوه فغار دمه في أصبعه"، وهذا لم يرد منه شيء في كتبهم، بل هو من كذبهم واختراعهم.

ولو كان هذا حقا، لكان أولى بالنقل من نقلهم: جعل الصليب على عنقه، وأنه رفع إليه: إنا خل ليشريه، وكتب على خشبته بالرومية والعبرانية والعجمية: "هذا ملك اليهود"¹ فهذا ولا بد كذب وتوافق، فإن كابرنا في ذلك على عادتهم، قلنا لهم: فأتوا بالإنجيل فاقبلوه إن كنتم صادقين.

ثم انظر، كيف تناقض ذلك المتكلم على الفور في قوله: "لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض ليبست"، ثم إنه أثر ذلك قال: "إلا شيء وقع فيها نبت منه النوار"، فكيف يصح في عقل مجنون، فأحرى في عقل عاقل أن يتكلم بمثل هذا الهذيان، أو يستحل أن يتحرك له بذلك لسان، فإنه كذب فاسد متناقض، فلعمرى لو أن شيطاننا يقول على ألسنتهم، وهو يريد الإضحاك بهم، ما بلغ منهم بأكثر مما بلغوا من أنفسهم بهذا القول السفساف، الذي اتفق العقلاء على فساده واستحالته من غير خلاف.

ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء في إفحام هؤلاء الأغبياء فقال:

عجبي للمسيح بين النصارى	والى أي والى والى نسيبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	أنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما تقولون حقا	وصحيفا فأين كان أبوه
حين حل ² ابنه رهين الأعادى	أتراهم قد رضوه أم أغضبوه
فلئن كان راضيا بأذاهم ³	فاحمدوهم لأنهم عذبوه
وإذا كان ساخطا ⁴ فاتركوه	واعبدوهم ⁵ لأنهم غلبوه

فقد جعلتم أنفسكم ضحكة العقلاء، حيث ارتكبتم كل قبيحة شنعاء، وما بالنا نطول الكلام مع من تبين عارهم ومحالهم للخاص والعام، فقدر هؤلاء القوم عند العقلاء، أحقر من قلامة في قمامة، وأخس من بقعة في حقه، ولولا أن هذيانهم ومحالهم طبق الوجود، لما

1- مرقس 15: 26.

2- في خ/م: "خل".

3- في خ/م: "بأذاهم".

4- في خ/م: "شاخطا".

5- في خ/م: "اعبدوهم".

كان ينبغي أن يتكلم معهم من العقلاء موجود، فإن الكلام معهم مغل بالعقول، محوج لحكاية القبائح والفضول.

وقد قدمت في صدر الكتاب، ما يمهّد العذر، ويزيل العتاب، وأنا استغفر الله العظيم¹، الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأسأله التوبة من حكاية قبائحهم، وأسأله جزيل الأجر في إبداء فضائهم.

مسألة في تركهم الختان

لا خلاف بينهم أن عيسى عليه السلام كان مختونا، وأن الختان من أحكام التوراة وثابت فيها، وإن أنكر ذلك متوآقح جاهل، ذكرنا له نص التوراة.

قال في التوراة: "إذ حبلت امرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام كما تكون أيام حيضتها، وفي اليوم الثامن يختن الصبي وتكون² نجسة تجلس مكانها ثلاثة وثلاثين يوما"³، وهذا نص لا إشكال فيه. ثم إن النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع، تركوا العمل بذلك من غير أصل يعتمدون عليه، ولانسخ يثبت عندهم له، ومن ادعى منهم شيئا من ذلك، طالبناه بنص من الإنجيل، وليس لذلك من سبيل، غير التحكم بالقول والقييل.

وقد وجدت في كتبهم الفقهية، أنهم قالوا في تأويل حكم الختان، قولاً أتوا فيه على التوراة بالباطل والبهتان، قالوا إنما عنى بالختان، نقاوة القلوب وصفاء النية وذهاب⁴ الغلوفة، كالذي يقول الكتاب عن اليهود، إن رقابهم قاسية وقلوبهم غلف، ولذلك علمنا أن الله استقدر غلوفة القلب، وليس غلوفة اللحم، فما على الإنسان أن يختن لحمه، إذ لا منفعة له في ذلك. فمن شاء اختن ومن شاء ترك، والأحسن أن تترك الأجساد تامة، غير ناقصة كما بها خلقنا الله تعالى.

هذا نص كلامهم في كتبهم. فانظر أيها العاقل إن كنت منصفاً، ما الذي ارتكبه من العظائم، ونسبوه إلى الله ورسله من الشتائم.

فأولها: أنهم كذبوا على الله، حيث قالوا إنما أراد الله بهذه الحكم، إزالة غلوفية

1- "العظيم" ساقطة في خ/م.

2- في ط: "تكون".

3- اللاويين 12: 1-4.

4- في خ/م: "ذباب".

القلوب، ولو كان ذلك حقاً ليبينه موسى للناس، ولما جاءهم بالختان ولما فعله، ولما فعل بيحيى وعيسى، وسائر الأنبياء الذين حكموا بالتوراة، ولم يزالوا يختنون ويأمرون بالختان إلى زمان المسيح. ثم إن المسيح لم ينه عنه، ولا أمر بتركه. فهذا على الله ورسله كذب صراح وقول وقاح.

وثانيها: أنهم سفهوا أحكام الله ورسل الله، حيث قالوا: لا منفعة في ذلك. مع أن الله قد حكم به وشرعه، وبلغ ذلك أنبياءه ورسله، وعلموه الناس. فكيف يجوز على الله وعلى أنبيائه، أن يتعبدوا الناس، بحكم لا فائدة له لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهذا غاية الافتراء على الله وعلى رسله. ثم يلزمهم على ذلك، أن يكونوا عابثين في أفعالهم، وأن وجود¹ الشرائع وعدمها، بمثابة واحدة. وكذلك إرسال الرسل، وإنزال الكتب. ولا كفر أعظم من هذا.

ثم إنا نبدي فوائد الختان، حتى يظهر كذبهم وجهلهم، وتوافقهم لكل إنسان، ونقول في الختان فوائد كثيرة منها:

أولاً: أنها عبادة في بدن الإنسان، إذا فعلها أثيب، وإن تركها عوقب، على القول بوجوبه. ولا فائدة أعظم من هذا.

وثانياً: أنه لا تتأتى² مع وجود الغلفة، مبالغة في النظافة، ومع زوالها يتأتى ذلك. وثالثاً: أنه ألد في الجماع، وأسرع لمجنى شهوة الوقاع، ومع وجودها يكون أبعد للشهوة، وقد تكون الغرلة إذا طالت، مكسلة عن الإنزال.

ورابعا: أن خروج الماء الدافق من غير غلفة، وانزعاجه أشد. فإن الغلفة إذا طالت، ربما نقصت من انزعاجه وفترته. وإذا كان كذلك، وخرج الماء فاتراً، قد لا يقع في المحل الذي تتعقد³ فيه النطفة، فلا ينعقد الولد، ويكون هذا كالعزل. ومقصود الشرع في الغالب تكثير النسل.

فهذه أربع فوائد محققة، لا يتصور إنكارها. وقد لا يبعد أن يقصد الشرع جميعها، أو بعضها. فإذا⁴ قد تبين أن النصارى كذبوا على الله وجهلوا شرع الله.

وثالثها: أنهم تركوا حكم الله بالتوهم، بل بالهوى والتحكم. وتأولوا من غير حاجة

1- في خ/م: "وجد".

2- في ط: "يتأتى".

3- في ط: "ينعقد".

4- في ط: "إذن".

للتأويل، ورفعوا النص والتزليل، فهم أهل التحريف والتبديل. ثم العجب من كذبهم وظهور تناقضهم، حيث حكوا عن عيسى أنه قال: "لم آت لأنقض شريعة من قبلي وإنما أتيت لأتممها". فإن كان هذا القول حقا عندهم، فلاي شيء نقضوا شريعة من قبله حرفا حرفا، وإن كان كذبا فكفاك بذلك فسادا وخلفا.

ورابعها أنهم لما نقضوا حكم الله، فضلوا تحكمهم¹ وأهوائهم على شرع رسول الله، حيث قال والأحسن أن تترك الأجسام تامة، غير ناقصة. وهذه مبالغة في تسفيه موسى والنبيين، وفي تسفيه المسيح، فإنهم قد تركوا الأحسن، وفعلوا الأسوأ والأفسد، فاعتبر أحوالهم فما أعجبها، وجهالاتهم فما أغربها. مذمومون² وهم يتوهمون أنهم يمدحون، ويخالفون³ ويظنون أنهم يتبعون⁴. ثم مع ظهور عوراتهم لكل عاقل، يتعرضون للشريعة الصحيحة، بكل جهل وباطل، ويموهون بخرافات وترهات لا يلتفت إليها عاقل. يظنون أن دين الإسلام، كدينهم المستند إلى الترهات والأوهام، التي لا يقبلها سليم الفطرة من العوام، وسننبن أصول دين الإسلام، ومستنداتهم في أحكامهم بحول الله، في الفن الثاني من هذا الباب، إن شاء الله تعالى.

مسأله في صيامهم⁵

قال حفص بن البر منهم، في بعض كتبه وقد سأله سائل عن صيامهم فقال: أول من صام الأربعين يوما موسى ابن عمران، وبعد ذلك صامها إلياس النبي، الذي رفعه الله في عصر بني إسرائيل، ثم بعد ذلك صامها المسيح. وأما العلماء فأكملوا ثلاثة وأربعين يوما، وإنما هي عشر أيام السنة، كما قال بولس الحواري في بعض رسائله، كما تؤدون العشرات من أموالكم، فأدوا العشرات من أبدانكم، فهذا هو الصيام المفروض.

اعلم يا هذا، أن هذا القس الذي هو⁶ حفص هو من أكيسهم وأفصحهم، على أنه ليس في القوم رجل رشيد، ولا ذو عقل سديد، وإنما كان كذلك، لأنه قد ضربت عليه الجزية، ولزمه الصغار والذلة، إذ كان قد نشأ في ذمة المسلمين، وتعلم من علومهم ما فاق به

1- في ط: "بحكمهم".

2- في خ/م: يذمومون.

3- في ط: "مخالفون".

4- في ط: "متبعون".

5- في خ/م: "صياتهم".

6- هو ساقطة في خ/م.

النصارى أجمعين، ومع ذلك فإذا أخذ يتكلم في علوم النصارى وأحكامهم، تلجلج لسانه وقصر بيانه، لأنه ينزل على آرائهم الفاسدة وتحكماتهم الباردة.

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر.

[يبين¹ لك² هذا]، أن كلامه في هذا الفصل فاسد، واحتجاجة بارد³، وذلك أنه ادعى أن صوم الثلاثة والأربعين واجب، وحين أخذ يستدل على وجوبها استدل على وجوب الأربعين، ثم أخبر أن علماءهم زادوا من عند أنفسهم⁴ ثلاثة أيام.

فنقول له⁵ وهذه الثلاثة الأيام التي ادعيت وجوبها، هل علم موسى وعيسى، ومن بينهما من الأنبياء، أنها من فرض الصيام، أو لم يعلموا؟ فإن كانوا قد علموا، فلأي معنى لم يبلغوا، ولم يبينوا؟ ويلزم تعصية⁶ الأنبياء من وجهين: من حيث إنهم لم يصوموا ما هو فرض الله، ومن حيث لم يبلغوا الشرع. وذلك محال عليهم. وإن كانوا لم يعلموا وجوب هذه الأيام الثلاثة، فمن أين علم الجاهل أمثالك وجوبها، والأحكام إنما تستد إلى أقوال الأنبياء وكتبهم.

فإن قالوا: أوجبها بولس الحواري. قلنا: ذلك هو الذي أفسد عليكم أديانكم، وأعمى بصائركم وأذهانكم. ذلك هو الذي غير دين المسيح الصحيح، الذي لم تسمعوا له بخبر، ولا وقفتم منه على أثر، على ما تقدم. هو الذي صرفكم عن القبلة، وحلل لكم كل محرم كان في الملة. ولذلك كثرت أحكامه عندهم، وتداولتموها بينهم.

ويدلك على ذلك، أنك إذا سمعت له قولاً في حكم، فتكاد لا يجده⁷ إلا مغيراً للأحكام المتقدمة، مخالفاً لها. فتارة يزيد، وأخرى ينقص، وأخرى يرفع. يعرف هذا من وقف على كتبهم، وعلى ما ينقلون عنه. ثم لو سلمنا أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، لما كان ينبغي لكم أن تأخذوا بقوله، وتتركوا فعل موسى وعيسى وإلياس وقولهم.

وهل فعل ذلك إلا جهل، لا ينبغي أن يصار إليه، ولا يلتزمه أحد حكماً عليه. فإن

1- في ط: ما ورد بين المعقوفتين جاء مكانه: نبين لك يا هذا.

2- "يا" ساقطة في خ/م.

3- في خ/م "سارد".

4- في ط: "أنفسهم".

5- في ط: "لهم".

6- في ط: "معصية".

7- في ط: "تجده".

المبلغين عن الله، المبينين لشرع¹ الله، إنما هم موسى، وعيسى، ومن تنزل منزلتهم، وياتفاق منكم أن بولش ليس منزلا منزلة موسى، ولا منزلة عيسى، وغايته إذا سلم مما ذكر عنه في كتاب² التواريخ، أن يكون حواريا، لم تكثر صحبته لعيسى. بل صحبه أياما قلائل بدعواه، وليست صحبته له كصحبة متاؤوش³، ولا يحيى⁴، ولا أحد من الأحد عشر حواريا.

لو⁵ سلمنا أنه صحبه صحبتهم، فعله⁶ ارتد بعد رفع عيسى كما فعله الأشكريوث بزعمكم. ثم لو سلمنا أنه لم يرتد، فمن أين يلزم إتباع حكمه؟ ولا سيما إذا غير الأحكام المتقدمة، وحكم بخلافها. وليس بنبي ولا رسول. فإن قلتم إنه نبي، فقد قدمنا ما يكذب قولكم، ويرد عليكم زعمكم، فقد تبين من هذا، أن حفص بن البر على جلاله قدره عندهم، قبل ما كان ينبغي له أن يرد، ورد ما كان ينبغي له أن يقبل. فإنه رد فعل موسى وعيسى والياس، وقبل قول عامة الناس، فهو وهم من الأخسرين أعمالا ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾⁷.

ولو تتبعنا أحكام صيامهم لأظهرنا فيها كثيرا من هذيانهم، فلنأخذ من كل باب مسألة واحدة بحول الله وحسن عونه.

مسألة في أعيادهم المصانة

قال حفص: أما بعد، فإن الذي أردت علمه من الأعياد السبعة التي أمر القانون بصيانتها، فهي معروفة. فأول يوم منها: إذ بشر جبريل الملك مريم بإيلاد المسيح. واليوم الثاني: إذ ولد المسيح. والثالث: إذ ختن إلى ثمانية أيام. والرابع: إذ ظهر للهجين⁸. وأهدوا إليه ذهباً، ولوبانا ومرا، وهو يوم النجم. والخامس: يوم الفصح، إذ قام عن القبر.

1- في ط: "شرع".

2- في ط: "كتب".

3- في خ/م: "منا".

4- في ط: "يوحنا".

5- في ط: "ثم لو".

6- في ط: "فعله".

7- سورة الكهف، آية: 104.

8- وهم المجوس.

والسادس: إذ تخطفته السحابة، ورقى إلى السماء بمحضر الحواريين. والسابع: إذا نزل روح القدس على الحواريين، وتكلموا بجميع الألسن.

وأما غيرها من الأيام التي استشهد فيها الشهداء، ويصونها الناس، ويتصدقون فيها على المساكين والضعفاء، فواجب على كل ذي عقل، أن يصونها إما في مدينة وإما في قرية.

فنقول له ولهم: هذه الأيام المصانة عندكم، هل¹ صيانتها واجب عندكم بالشرع، أو ليس واجبا بالشرع؟ فإن قالوا: ليس بواجب بالشرع، قلنا لهم: فلأي معنى تعملونها، وتلتزمون صيانتها؟ حتى أن من كان في قرية، أو في موطن، لا ينبغي له أن يرحل عنه، حتى يتمها. فقد التزمت ما ليس بلازم، وأوجبتم ما ليس بواجب. فإن قالوا: هي واجبة بالشرع. قلنا لهم: بأي شرع وجبت؟ بشرع موسى أو شرع عيسى؟ فإن قالوا بشرع موسى كذبوا، وقلنا لهم: ﴿فَاتُوا بِالْوَرَنَةِ فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾²، ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا منها في التوراة، ولا في الإنجيل. وغايتهم أن يقولوا: ما قال عالمهم حفص: هذه أيام شريعة، لأنها اتفق فيها أمور شريفة من أحوال المسيح.

فنقول لهم: هب أنه اتفق ما تقولون. فمن أخبركم من الأنبياء، أنه إذا اتفق أمر من تلك الأمور، فافعلوا كذا، واصنعوا ذلك³ اليوم عيدا؟ أو⁴ في أي كتاب من كتبكم وجدتموه؟ ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا مما ادعوه؟ فلم يبق لهم إلا محض التحكم. ثم يلزمهم على مساق هذا، أن يبحثوا عن أيام عيسى، وعن عددها، ويتخذوا تلك الأيام أعيادا، فإن أيامه كلها ومحاضره كانت شريفة، إذ كانت أيامه لا تخلو عن كرامة يكرمه الله بها، وعن بركة من بركاته، وعن معجزة من معجزاته. فلأي معنى خصصتم تلك الأيام؟ لولا محض الهوى⁵ والتحكم الباطل، ثم نقول لهم: هل كان عيسى يعلم فضيلة هذه⁶ الأيام أو لا يعلم؟ فإن كان يعلمها، فلأي معنى لم يفعل فيها ما تفعلون. أو لأي معنى، لم يبين شرعه فيها، لو كان له فيها شرع؟ وإن لم يعلم فضيلتها، فكيف لم يعلم هو ما علمتم أنتم؟ ثم كيف يجهل شيئا علمتموه أنتم، وهو عندكم قد اتحد به علم الله؟

1- في خ/م: "هي".

2- سورة آل عمران، آية: 93.

3- في خ/م: "تلك".

4- في ط: "و".

5- في خ/م: "الهدى".

6- في ط: "تلك".

فحصل من هذا، أنها ليست فاضلة، ولا لله فيها حكم، إذ لو كانت فاضلة لله، فيها حكم لعلمها، ولو علمها لبينها. فلما لم يعلم ولم يبين، علم أنه ليس لله فيها شيء مما اخترعتموه. لكنكم تحكمتم باختراع ما جهلتم، وشرعتم ما لم يشرع لكم نبيكم. فإن قالوا: هذه أيام اتخذناها لفعل الخير، نتصدق فيها على مساكيننا، ونطعم فيها جوعانا. وهذه أفعال خير، وبهذه جاءت الشرائع كلها.

قلنا لهم: لا ننكر أن الشرائع جاءت بإعانة المساكين، لكن لم خصصتم لها أياما بالتحكم، ثم أوجبتم صيانة تلك الأيام؟ أو لأي شيء، لم تقولوا أنه ينبغي إطعام المساكين¹ أبدا، وسد خلاتهم متى ظهرت؟ ولم تحتاجوا إلى وضع أحكام بالتوهم، ولو كنتم موفقين، لسلكتم مسلك أتباع المسيح، تفعلون ما فعل، وتتركون ما ترك. ولو فعلتم ذلك لكان موافقا لتعظيمه.

ولو فرضنا عبيدين أمرهما سيدهما بالإقتداء به، وبإتباع سنته، فأخذ الواحد منهما يقفو أثر سيده في أفعاله، فلا يزيد فيها ولا ينقص منها، بل هو مواظب عليها غير خارج عنها، ولا زائد فيها، وهو مع ذلك معتقد لتعظيمه، محب له. وأخذ الآخر يزيد تارة في حكم، وينقص تارة من حكم، وهو مع ذلك معظم لسيده. فلو فرضنا أن السيد قال للأول: ما صنعت فيما أمرتك؟ فقال: له لم أزد على ما رأيته تفعل، ولا نقصت لأنني خفتك، وأيضا فإنني أحبك وأعظمك، فأحببتك وأحببت فعلك الذي رأيته تفعله، فلا شك أن العقلاء يستحسنون هذا الفعل، ويرون أن هذا العبد، في أعلى درجات العقل، والطاعة لسيده والمحبة له والتعظيم. وإن مثل هذا ينبغي للسيد أن يعتقه ويثيبه.

وأما الثاني: فإذا قال له سيده: ما فعلت فيما أمرتك؟ فيقول: فعلت ما رأيته تفعل، وما أمرتني به، إلا أنني زدت أفعالا لم تأمرني بها، ونقصت أيضا، فإنني تركت أفعالا رأيته تفعلها. فيقول له: لأي شيء زدت ما لم أمرك به، ونقصت مما رأيته فعلت؟ فلا يصح له أن يقول: لأنني عظمتك وأحببتك، فإن هذا لا يناسب تعظيمه، ولا محبته. بل يناسب بغضه وإهانته. فلا شك أن العقلاء، يحكمون أن مثل هذا العبد، لم يطع سيده في جميع ما أمره به، وأنه كاذب في تعظيمه ومحبته، وأنه مستوجب لنكال سيده.

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

وهذا المثال الأخير، هو مثالكم مع المسيح. فإنكم تدعون تعظيمه، وتخالفونه في أفعاله، وتزيدون عليه في أحكامه. فأنتم مستحقون لتوبيخه، وعقاب مرسله، وستجمعكم مع من شرع لكم هذه الأحكام نار حامية تسمى الهاوية.

مسألة في قربانهم

قال حفص: "أعلم أن الذي أردت معرفته من خبر القريان وشرحه. أن الأنبياء وبني إسرائيل، كانوا يقربون القريان على ما تحكيه التوراة: العجول والجزر والخرفان. فأما ملكي¹ صادق، فإنه أول من قرب القريان من الخبز والخمر²، وكان قسيس الله في البدء، وإليه أدى³ إبراهيم العشرات المفروضة⁴. وقد حكى داوود النبي في الزبور، خبر ملكي⁵ صادق، إذ بشر بالمسيح سيدنا، وأنزله منزلته وأحله محله، وجعله قسا في⁶ الأبد. فقال الرب: "أقسم يمينا، ليس⁷ يقدم⁸، أنت أبدا قسيس⁹ في خطة القسيسين، على رتبة ملكي¹⁰ صادق"¹¹. فأما الحواريون وأتباعهم، فإنهم فرضوا هذا القريان، الذي يقدهه الأساقفة والقساوس على المذبح، من الخمر والخبز على ما تقدم من فعل ملكي¹² صادق. وكما قال المسيح في الإنجيل: "من أكل لحمي وشرب دمي، كان في وكنت فيه وأنا"¹³ الخبز النازل من السماء فمن أكلني يحيا بي"¹⁴.

انظر ما أعجب حال هؤلاء في تركهم شرعية التوراة، في قربانهم¹⁵ وعدولهم عنها إلى

1- في خ/م: "ملك".

2- في خ/م: "الخبر".

3- في خ/م: "ودى".

4- سفر التكوين 14: 18-20.

5- في خ/م: "ملك".

6- في ط: "إلى".

7- في ط: "وليس".

8- في ط: "يندم".

9- في ط: "قسيس لي".

10- في خ/م: "ملك".

11- المزمور 110: 4.

12- في خ/م: "ملك".

13- في ط: "أما".

14- يوحنا 6: 56.

15- في ط: "القريان".

ما هو ضرب من الهذيان؛ وذلك أن الله¹ افترض القرىان في التوراة بالعجول والجزر والخرفان، كما ذكر. وعملت بذلك بنو إسرائيل من غير تغيير ولا تبدل، إلى مدة هؤلاء المغيرين لأحكام التوراة، فغيروا وبدلوا وعدلوا إلى الخبز والخمر، من غير أن ينسخ لهم عيسى شيئاً من ذلك، ولا بدله بغيره. لكنهم يكرهون العمل بأحكام التوراة، فيعدلون عنها إلى العمل بأهوائهم، مع أنهم متعبدون بأحكامها، إذ الأحكام في الإنجيل قليلة جداً. ولم يتركوا لأرائهم حتى يتحكموا بأهوائهم، ثم إنهم يتحكمون بأرائهم، فإن اتفق لهم شيء يتمسكون به كان ذلك مؤكداً لأغراضهم. وإن لم يتفق لهم ذلك، استغنوا عنه وحكموا بأغراضهم. ويبين هذا أنهم استغلوا² العجول والجزر والخرفان، لارتضاع أثمانها، لأنه³ لا يوجد فيها ما يوجد في الخمر من اللذة والطرب الداعين إلى شربها.

ولذلك عدلوا للخمر مع خفة مؤنتها، وقلة ثمنها، فإنهم أشد الناس بُخلاً. فإن قيل لهم: بأي شيء عدلتم عن قرىان التوراة؟ قالوا: لأن ملكي⁴ صادق أول من قرب الخمر والخبز، ولأن المسيح قال: من أكل لحمي وشرب دمي، كان في وأنا فيه". ولأن الحواريين فرضوا هذا القرىان.

هذا غاية ما يحتجون به، ولا بد من تتبع ذلك وبيان تحكمهم وباطلهم فنقول:

أما قولكم بفعل ملكي⁵ صادق فباطل من أوجه:

أحدها: أنه لم يكن نبياً، فإن ادعيتم أنه نبي، فلا بد من الدليل على ذلك، فعليكم إثباته. ولو سلم ذلك، لتبقى عليكم أن تثبتوا أن شرعه، شرع لكم. ولو سلم أن شرعه شرع لكم، لكان ينبغي لكم⁶ أن تعلموا أن التوراة قد نسخت ذلك الشرع، إذ قد استقر أن موسى عمل بخلافه، وكذلك الأنبياء بعده. ولو كان ذلك الحكم باقياً صحيحاً، لما كان ينبغي لموسى أن يعدل عنه، ولما جاءكم بغيره. فترككم التوراة، التي أنتم مخاطبون بأحكامها وشرعها، إلى ما لم تخاطبوا به، ولا شرع لكم، استهانة بشرع التوراة وأحكامها،

1- في ط: "الله تعالى".

2- في ط: "استغلوا".

3- في ط: "وأنه".

4- في خ/م: "ملك".

5- في خ/م: "ملك".

6- في ط: "لكم" ساقطة.

بل استخفاف بالذي أنزلها، وبالذي أنزلت عليه. فقد بطل استدلالكم بفعل ملكي¹ صادق من أوجه.

وأما استدلالكم بقول عيسى، فهذان لا يلتفت إليه، لأنه إنما أراد: من عمل بعقلي، أو تعلم من علمي، أحبته وأحبني. وما ذكره مثل محسوس، قصد به التنبية على معنى معقول، ودليل ذلك من قوله²: "أنا الخبز النازل من السماء"، إنما أراد أنه بمنزلة الخير الذي يفتدي به، لأنه قد جاء بغذاء الأرواح وبخبزها، وهذا استعارة حسنة مستعملة. وكثيرا ما يقال في الكلام: العلم والمعاني الشريفة خبز الأرواح، كما أن الطعام المعروف خبز الأشباح.

ولكلامه عليه السلام محامل³ آخر، وتأويلات جارية غير ما ذكرتم، يجوزها العقل، ولا يبعدها استعمال اللفظ. لا يخرج شيء منها إلى الهذيان، الذي صرتم إليه، الذي أفضى بكم لجهلكم، [إلى ترك حكم الله والعمل بمقتضاه]⁴. ولولا التطويل لذكرنا منها وجوها، وبهذا اللفظ وما يشبهه ضللتم حيث قلتم بالاتحاد، ولم تفهموا منه المراد، فكابرتم العقول وحرقتهم المنقول، وحملت من الشناعة والقباحة، مالا يرضى به عليم ولا جهول، وقد ذكرنا إبطال ذلك فيما تقدم.

وأما استدلالهم بفعل الحواريين، فذلك من فن الكذب عليهم أجمعين، ولو سلمنا أنه صحيح وصدق، لما كان في فعلهم حجة. مع⁵ إن كتاب الله⁶ يخالف فعلهم، بل الحجة كتاب الله، ولا يرتفع شيء من ذلك، إلا إذا بين عيسى عليه السلام أنه منسوخ، وبلفكم ذلك عنه بنص، قاطع على شروط النسخ على ما هو معروف عند أهله. بل قد أوردوا في إنجيلهم، أن عيسى قال للمبروص الذي شفاه الله⁷: "امض وأعرض نفسك على القسيسين، واهد قربانك الذي أمر به موسى في عهده"⁸.

1- في خ/م: "ملك".

2- في ط: "قوله" مكررة.

3- في ط: "عامل".

4- في ط: "إلى ترك حكم وترك العمل بمقتضاه".

5- في ط: "بل".

6- في ط: "الله تعالى".

7- في ط: "الله" ساقطة.

8- متى: 8: 4.

وهذا نص، على أن القرى عند عيسى، إنما هو الذي حكم به موسى، وهو العجول والجزور¹ والخرفان، لا كما شرعتم أنتم من الهذيان.

فقد حصل من هذا أنكم خالفتم عيسى، وقلتم عليه البهتان. وأما استدلالهم بفعل القسيسين، فأولئك المغيرون للدين، والمحرفون لكتاب رب العالمين.

كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل²
فقد ظهر من هذا، أنهم تركوا قرى التوراة لغير شيء. وأنهم على غير شيء، فعليهم لعنة كل ميت وحي.

مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالملح

قال حفص: "أما الملح الذي نقّس به الدور والبيوت. وأردت فهم ذلك، فإننا وجدنا في سير إلياس النبي، الذي رفعه الله، أن تلميذه اليسع، مكث بمدينة أريحا زماناً، فقال له أهله: إن عندنا عينا جارية، تتفجر منها مياه كثيرة مرة، لا نفع فيها، فأمر أن يؤتى إليه بإناء حديد³، فأدخل فيه الملح، وقّس به ماء العين⁴. فمن هذا السبب، صرنا نقّس الدور والبيوت بالملح المقدس، بعد ما يتلو عليه القساوس آيات من النبوة.

فنقول لهم: يا هؤلاء المتلاعبون بأديانهم، المستمرون على هذيانهم، كيف جعلتم مثل هذا دليلاً، على ثبوت حكم عليكم؟ وليس فيه دليل من وجوه كثيرة، لكننا نقتصر من ذلك، على نقطة كافية. وهي أن اليسع، لم يفعل ذلك على جهة بيان أنه حكم، وإنما فعل ذلك على جهة إظهار الكرامة والمعجزة. فإن ذلك الماء عذب وطاب، فظهرت كرامته ومعجزاته. كما ظهرت على عيسى، حين مس المبروص وبرا. وكذلك مس الأعمى فابصر، إلى غير ذلك. وقد حكيتكم في بعض أناجيلكم، أن أعمى سأل من عيسى أن يرد عليه بصره، فأخذ قطعة من طين، فجعلها في عينه فابصر. وهذا بمثابة ما فعل اليسع، فكان ينبغي لكم، أن تقدسوا دوركم بالتراب والطين. كما فعل عيسى، وهو أولى بكم. إذ هو مفضل عندكم على اليسع وغيره بزعمكم.

1- في ط: "الجزر".

2- البيت من معلقة امرئ القيس: "قفا نبك من ذكرى حبيب".

3- في ط: "جديد".

4- الملوك الثاني 2: 19 وما يليها.

ومع ذلك فتركتم الإقتداء به، واقتديتم بمن هو دونه. وذلك عكس ما كان ينبغي لكم. وهذا نتيجة جهلكم، ومن سوء فعلكم.

مسألة في تصليبهم على وجوههم في صلاتهم

قال حفص: إنما نصلب على وجوهنا، لأننا وجدنا في كتب علمائنا السالفين، أنه لما أراد ملك قسطنطينية، أن يغزو بعض أعدائه، تراءى له في السماء صورة صليب من لهب، وملك من الملائكة يخاطبه ويقول له: إن كنت تريد غلبة أعدائك، فاجعل هذه الصورة علامة تكون قدامك، فإنك غالب ظافر بها على جميع أعدائك، فأمن وفعل كما قال له الملك، وهو الذي بحث وكشف عن صليب المسيح حتى وجده مدفوناً، وعمل من المسامير التي كانت فيه لجأماً لفرسه، وزين جبينه بصليب من ذهب، فلم يزل من حينئذ أهل ملة المسيح، يستعملون هذه العلامة، لأنها علامة السبق والظفر.

هذا الذي ذكره حفص هنا، يصدق ما حكيناه عن قسطنطين فيما تقدم. فإن كذبنا منهم أحد¹ فيما ذكرناه عنه فليكذب أسقفه حفصاً.

على أن ما ذكرناه مشهور عند أهل التاريخ، الذين اعتنوا بنقل أخبار الأزمان الماضية والقرون السالفة.

وبعد هذا نقول لمن استدل على أن التصليب² مشروع لهم، من أين عرفت صدق قسطنطين فيما حكاه وقاله؟ ولعله كذب، وأراد به بذلك إصلاح رعيته وحالته، وإيفار صدور العامة على من خالفه، وذلك داخل في باب السياسات التي³ يسلكها من لم يتقيد بالشرعيات. وكثيراً ما يشاهد من الملوك مثلاً.

ثم لو سلمنا أنه صدق في رؤياه، فمن أين علم أن الذي كلمه ملك، فلعله شيطان قصد إضلالكم. وكذلك كان، حتى تعتقدوا الصلوية، التي هي أعظم كل بلية، وتحمل على العصبية. ثم لو سلمنا أنه ملك، فلاي معنى جعلتم ذلك التصليب في صلاتكم، وزدتم على ما علمكم عيسى؟

ولقد كان ينبغي لكم، أن تفعلوا في الصلاة مثل فعله، ولا تزيدوا على ذلك. ثم يلزمكم على ذلك، أن يقال لكم: لا يخلو ذلك التصليب، أن يكون حكماً من أحكام الصلاة أو لا

1- في ط: "أحد منهم".

2- في ط: "الصليب".

3- في خ/م وكذا في ط: "إلى" وهو تصحيف لأن المعنى لا يستقيم.

يكون، فإن كان حكما، ولم تتقلوه عن عيسى ولا أنه علمه لكم، فقد نسبتكم¹ عيسى إلى أنه كتم حكم الله، ولم يبلغه. وهذا محال على عيسى، وعلى كل رسول أرسله الله إلى أمة. وإن قلتم: أنه ليس بحكم، فلم تفعلون في الصلاة ما ليس بحكم شرعي. وإن قلتم: شرعه لنا أئمتنا وأساقفتنا، قلنا لكم: ومن جعل لأئمتكم أن يتحكموا في شرع الله، ويفتروا على الله، وهم مذنبون عاصون، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا عطاء ولا منعا؟

ثم نقول لهم: هذه الصلاة التي يصلب فيها على الوجه، أفضل أم الصلاة التي لا يصلب فيها؟ فإن قالوا الصلاة التي يصلب فيها، فيلزمهم² على هذا أن تكون صلاتهم أفضل من صلاة المسيح، وكفى هذا شناعة وحماقة. وإن كانت الصلاة التي لا يصلب فيها، هي الأفضل. فينبغي ألا تفعلوا مالا فضيلة فيه. وهذا كله، يبين أن هؤلاء القوم، لا يعملون على الأنبياء في أحكامهم، ولا يرجعون إلى قوانينهم، بل يعملون على أغراضهم وشهواتهم.

فلقد تمكن الشيطان منهم، فأضلهم حتى استدرجهم عن الشرائع وأزلهم.

فهذه المسائل التي ذكرناها، هي من معظم قواعدهم وأصولهم. وإذا كان عملهم في هذه القواعد، مثل ما رأيت. فناهيك بفروعهم، ولنقتصر على ما ذكرنا، إذ فيه تنبيه على ما لم نذكر، ثم إن أحوجونا إلى مزيد، تتبعنا كبار كتبهم، بأن ننقضها حرفا حرفا، ونبين فسادها لفظا لفظا.

بقيت علينا مسألة واحدة، وهي بيان اعتقاداتهم في الدار الآخرة، وعذابها ونعيمها، وبها اختتام هذا الفن، إن شاء الله³.

مسألة في قولهم في النعيم والعذاب الأخراوين

قال صاحب كتاب المسائل: لسنا ننتظر في المكافأة الإلهية، شيئا من الأرضيات الفانيات، كالذي ينتظره شيعة "ملسيان"، ولا تزويج العرائس كالذي يشتهي "جرنش" و"مركش"، ولا ما ينتسب إلى المأكول والمشروب، كالذي يسوغه "بابيه" وجماعة، ولا ننتظر⁴ أن يكون ملك المسيح في الأرض ألف سنة بعد القيامة، ليمتلك الصالحون معه

1- في خ/م: 'سبتكم'.

2- في ط: 'فيلزمكم'.

3- في ط: 'الله تعالى'.

4- في خ/م: 'ينتظر'.

متعمين كتعليم "قابوش"، الذي خيل بقيامتين: الأولى للصالحين، والثانية للكافرين، فقال إن ما بين هاتين القيامتين، [تمسك الأحباس]¹ الجاهلة بالله، في زوايا الأرض في أجسامهم، ثم يحملهم الشيطان، بعد تملك الصالحين في الأرض ألف سنة، على محاربة الصالحين الممتلكين، فيدفعهم الله عنهم، بأمطار النيران محاربا عنهم، فيموتون هكذا مع سائرهم الذين ماتوا في الكفر، ثم يحيون في لحم غير متغير للعذابات² الدائمة.

قد بين هذا المتكلم الحاكي، خبط النصارى واختلاف فرقها في هذه المسألة، بما أغنى عن البحث عن كثير من فرقهم، على أن فرقهم لا تتحصر، واختلافهم لا ينضبط، فإن اختلافهم كاختلاف المجانين إذا اجتمعوا، فكل واحد منهم يتكلم بما لا يعقل، وما لا حجة له عليه ولا معول.

لكن مذهب جماهيرهم ومعظمهم، ومن ينتسب إلى التدين منهم، أن الخلق لا بد أن يجتمعوا في القيامة، وأن عيسى يحاسبهم³، فينعم ويعذب، لكن ليس عذابا بنيران وسلاسل وأغلال، وغير ذلك مما نعتقد نحن، وليس نعيما أيضا بمأكول ومشروب والتذاذ بنكاح.

ويشبهه -والله أعلم- مذهبهم في هذه المسألة، مذهب الفلاسفة. حيث ينكرون العذاب المحسوس والنعيم، ويصرفون ذلك إلى الالتذاذ الروحاني، لكنهم لا يصرحون به، كما تصرح به الفلاسفة، إذ لا يقدرّون على تبين أغراضهم لقصورهم. ونحن نتكلم هنا مع من ينكر ذلك من المتشرعين، فإنهم قد اجتمعوا على إعادتنا كما كنا أول مرة، إذ قد اجتمعت على ذلك الشرائع كلها من غير اختلاف بينها فيه.

فنقول لمنكر ذلك: لا يخلو أن ما تنكره، إما من جهة العقل، أو من جهة الشرع. فإن قال: من جهة العقل، قلنا له: كذبت وأخطأت، فإن العقل لا يدل على استحالة ذلك، بل يدل على جوازه، إذ ليس في ذلك، إلا أن الذي خلقنا أول مرة، ومكننا أن نتنعم نعيما محسوسا، ونألم ألما محسوسا، قادر على أن يعيدنا بعد أن يفنينا كما بدأنا.

فإن الإعادة إنما هي خلق ثان، ومن قدر على الخلق الأول، قدر على الخلق الثاني. وهذا معلوم بنفسه، فهو إذن فعل ممكن في نفسه، ليس من قبيل الممتنع. والله تعالى قادر

1- في خ/م: "تمسك الأجناس".

2- في خ/م: "العذابات".

3- في ط: "محاسبهم".

على كل ممكن، فيجب وصفه بالقدرة على ذلك، فإن قالوا: إن كان في الجنة، أكل، وشراب، ونكاح، ولباس، فيلزم عليه أن يكون في الجنة غائط، وبول، وولادة، وتمزيق الثياب وتخريقها.

وكل ذلك محال أن يكون في الجنة. قلنا: هذا جهل، ولا يلزم شيء مما ذكرتم فيها، بل نقول: هناك أكل وشرب، وليس هنالك غائط ولا بول، وهذا غير منكر. إذ لا يلزم في كل طعام أن يكون له فضلة، ولو سلمنا أن تكون له فضلة، لما لزم أن يكون فضلة مستقدرة، بل قد تكون فضلات كثيرة، طيبا يتطيب به، وشرابا يشرب، مثل المسك، فإنه دم حيوان أو رجيعة، أو العسل فإنه فضل حيوان معروف، وليس شيء من ذلك مستقدرا، بل هو مستطاب مستلذ، ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا، بل هو هكذا.

وقد جاءنا على لسان الصادق، أن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، إنما هو عرق يجري من أجسادهم مثل المسك.

وأما الحمل فلا يلزم شيء منه، إذ قد نجد من النساء العواقر، وهن اللواتي لا يلدن، فكذلك نساء أهل الجنة لا يلدن ولا يحضن.

وأما اللباس فلا يتمزق ولا يفنى، وفي لباس بني إسرائيل في المفاز، دليل على بطلان ما تخيل¹ هذا السائل، فالذي يبقى الثياب إلى مدة، قادر على أن يبقياها أبد الأبد.

وهذه أمور لا ينكرها إلا كل غبي جاهل، ليس له معقول حاصل، فإذا دل العقل على جوازه، فينبغي أن يستدل على وقوع ذلك ووجوده، بكلام الصادقين صلوات الله عليهم أجمعين، فنقول لمنكر ذلك شرعا:

لا يصح لك أن تستدل على إنكارك بشيء من كلام الأنبياء، إذ لا تجده. بل سنريك نصوص كلامهم على إثباته.

منها أن من المعلوم، أن آدم عليه السلام، كان يأكل في الجنة ويشرب وينكح، فإن قالوا الجنة التي كان فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، إنما كانت في الأرض، وهي جنة عدن، التي قال فيها في التوراة: "وغرس الله فردوسا بعدن من قبل وأسكنه آدم"². وإنما كانت تلك بستانا من بساتين الدنيا، قلنا ليس في التوراة نص قاطع، يدل على

1- في ط: "يخيل".

2- التكوين 2: 15.

أن الجنة التي يرجع الناس إليها يوم الجزاء، ليست هي التي أسكن الله فيها آدم. بل التوراة محتملة لذلك وأما كتابنا فيدل على أنها هي.

ثم لو سلمنا أنها ليست هي، لحصل لنا من ذلك، دليل جواز الأكل والشرب، والنكاح في الجنة، فإنه كما جاز أن آدم، أكل وشرب فيها، كذلك يجوز أن يأكل ويشرب، وينكح في الجنة التي يرجعون إليها، وهذا بين بنفسه عند المنصف¹.

ومنها: أن في الإنجيل: "أن المسيح قال لتلاميذه ليلة أكل معهم الفصح، وقد سقاهم كأساً من الخمر، وقال لهم: إني لا أشربها معكم أبداً، حتى تشربوها معي في الملكوت، عن يمين الله"². وهذا نص لا يحتمل التأويل، إلا مع ضعف. وفيه أيضاً في قصة العازر، الذي كان مطروحاً على باب الغني، والكلاب تلحس جراح قروحه، وأن ذلك الغني، نظر إليه في الجنة متكئاً على حجر إبراهيم الخليل، فتداه الغني وهو في النار، يا أبي إبراهيم: ابعث العازر إلي بشيء من ماء، أبل به لساني"³، وهذا نص آخر أبين من الأول.

وفيه أيضاً أنه قال لليهود: "يا ثعابين بني الأفاعي كيف لكم والنجاة من عذاب النار"⁴. وفيه أيضاً أن الجماعة قالت للمسيح بكفر ناحوم⁵: "متى جئت إلى هنا يا معلم؟ فقال لهم: آمين آمين أقول لكم: [لا أواكلنكم الخبز لما رأيتم من عجائب]⁶، فارغبوا في طعام لا يفنى في الجنة الدائمة"⁷.

وفيه أيضاً، أنه قال لتلاميذه في وصية وصاهم بها: "لتطعمن ولتشرين في مائدتي في ملك الله"⁸.

وفيه أيضاً، أنه قال لليهود: "إن كان موسى أطعمكم خبزاً في المفاز، فأنا أطعمكم خبزاً سماوياً"⁹، يريد الجنة.

1- في خ/م: "المنصف".

2- متى 26: 29.

3- لوقا 16.

4- لوقا 3: 7.

5- في خ/م: "قفر ناوم".

6- في ط استبدل ما كتب بين معقوفتين ب: "تطلبوني ليس لأنكم رأيتم عجائب بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم".

7- يوحنا 6.

8- لوقا 22: 30.

9- يوحنا 6.

وقال إشعيا: "يا معشر العطاش، توجهوا إلى الماء الورد، ومن لا فضة له¹، فليذهب ويأكل² ويشرب، ويأخذ من الخبز واللبن بغير فضة ولا ثمن"³.

وهذا كثير في كتب الأنبياء، بلا شك ولا امتراء. فإن قالوا: فلاي معنى لم يصرح موسى في التوراة بذلك، وبأخبار القيامة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، وعلى سبيل التنبيه تحتل وجوها.

أحدها: لعنو بني إسرائيل وتمردهم ولكلال أفهامهم.
ثانيها: لبعو زمان ذلك.

ثالثها: ليعجل لهم جزاء أعمالهم، فإنما كانوا يهددون ويخوفون بالعقوبات العاجلة، ويوعدون باللذات العاجلة، من الملك وتكثير الرزق وخصب البلاد إلى غير ذلك.

رابعها: لأنه قد كان سبق في علم الله تعالى، أنه يرسل رسولا في آخر الزمان، ليس بعده نبي ولا رسول، يبين أمور الآخرة بيانا شافيا، وهو محمد رسول الله، وذلك لقرب القيامة من زمانه، وليحصل لنبينا من فضيلة العلم والأعلام، ما لم يحصل لأحد غيره ولتختص أمته بعلم ليس لأحد غيرها. وهذا الوجه هو أقرب الوجوه والله أعلم.

ويدل على ذلك قوله في التوراة، حين بشر بنبينا عليه السلام، وذكر كثيرا من علاماته، ومعه كتاب ناري، وقد تقدم ذكر ذلك، والدليل عليه أيضا، أنك لا تجد عند أمة من الأمم، من أخبار القيامة [وأخبار الجنة والنار والصراط والميزان والحوض وغير ذلك في⁴ أمور الآخرة ما عندهم. فالحمد لله، الذي جعل لنا كل الفضائل، وخصنا بمحمد خير نبي وفاصل.

فقد ظهر من هذا النظر أن ما انتحلوه من إنكار النعيم، والعذاب المحسوسين، باطل بشهادة العقول، وينصوص كلام الأنبياء المنقول.
وقد فرغنا في الفن الأول والحمد لله كثيرا.

1- في خ/م: فمن له فضة.

2- في ط: وليأكل.

3- إشعيا 55: 1.

4- ما بين المعوقين ساقط من ط.

الفن الثاني

محاسن دين الإسلام¹

تمهيد²

الغرض من هذا الفن، أن نبين فيه عقيدة الإسلام، وجملاً من أصول أحكامه، ومواضع من فروع دينه، أنكرتها النصراني عليه، وإنما فعلنا ذلك لغرضين:

أحدهما: أن السائل الذي حركنا لهذا الكتاب هددنا، وزعم أنه إن سب وشتم، كتب كتاباً بنص شريعتنا، ووجهه للبلاد، حتى يقف الناس عليها. فأردت أن أتولى ذكر شريعتنا، لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها جهول، لا يحسن ما ينقل، ولا ما يقول، كي يقف العقلاء عليها، وينظروا فيها، على أن شرعنا ليس بالخفي. بل قد طبق الأرض شرقاً وغرباً، وقرع من العقلاء سمعاً وقلباً، فلم يسمع بمن مجه وطرحه غير معاند، كبثه شرعنا وفضحه، فإنه جار على المنهاج المعقول، المستحسن عند أرباب العقول.

وسأبين ذلك إن شاء الله تعالى، على أني لم أتعرض لهذه السائل، ولا لأحد من ملتهم بالسب، أكثر من تبين جهلهم، وركاكة هذيانهم وقولهم، وربما أغاظوا في بعض الأقوال، لما ارتكبوا فيها من القبيح والمحال، فأطلقت عليهم اللعنة، حسب ما تقتضيه البغضاء والأحنة، وتعويلاً على ما في التوراة، من لعنتهم وركاكة شرعتهم.

فإن في التوراة: "ملعون، ملعون، من تعلق³ بالصليب" يريد بذلك من اعتقد الصليب، وادعاه وعظمه⁴. وهذا نص بلعنتهم، وموجب لبغضهم. وهذا ما نعلمه مع ديننا وواضح سيبلنا.

والغرض الثاني: أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب، نصراني أو يهودي، لم يسمع قط من ديننا تفصيلاً ولا تصريحاً، بل إنما سمع له سبا وتقييحا، فأردت أن أسرده على الجملة، ليتبين حسنه، لمن كان ذكي العقل، صحيح الفطرة. فلعل ذلك يكون سبب هداه، وجلاء عماه، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾⁵.

1- العنوان ساقط من خ/م.

2- العنوان ساقط من خ/م.

3- في ط: "يعلق".

4- في خ/م: "عظمهم".

5- سورة هود، آية: 88.

وفي هذا الفن فصلان:

[الفصل الأول: اعلم أن شريعة المسلمين مشتملة على اعتقاد بالقلوب وعمل بالجوارح
ولذلك نقسم هذا الفن إلى فصلين نذكر في أحدهما قواعد الاعتقاد وفي الثاني مسائل
من الأعمال فنقول]¹:

1- ما بين المعقوفتين استبدل في المطبوع بالمبارة التالية: " وانقسم هذا الفن إلى فصلين لأن شريعة الإسلام مشتملة على اعتقاد بالقلوب وعمل بالجوارح فالفصلين نذكر في أحدهما قواعد الاعتقاد وفي الثاني ندافع عن الاعتقاد وعن التشريع فنقول".

الفصل الأول

اعتقاد المسلمين¹

أما اعتقاد المسلمين فهو: أن كل موجود سوى الله تعالى، فهو محدث مخلوق مخترع، على معنى أنه لم يكن موجودا، ثم صار موجودا. وأن له محدثا موجودا قديما، لا يشبه شيئا من الموجودات الحادثة. بل يتعالى عن شبهها من كل وجه، فليس بجسم، ولا يحل في الأجسام، ولا جوهر، ولا يحل في الجواهر، ولا عرض، ولا تحله الأعراض، وأنه إله واحد لا شريك له في فعله، ولا نظير له في ذاته وطوله، لا تنبغي² له الصاحبة ولا الولد، ولم يكن له من خلقه كفوأ أحد، وأنه عالم قادر مريد حي، موصوف بصفات الكمال، من السمع والبصر والكلام، وغير ذلك مما يكون كمالا في حقه، وأنه منزّه عن صفات النقص والقصور، وأنه يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء، لا يفتقر إلى شيء، وإليه يفتقر كل شيء، ويبيده ملك كل جماد، وحي لا يجب عليه لمخلوق حق، وتجب حقوقه على الخلق، لا تتوجه³ عليه متى؟ ولا أين؟ ولا لم؟ ولا كيف؟ فلا يقال: متى وجد؟ ولا أين وجد؟ ولا كيف هو؟ ولا لم فعل؟ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

وإن إرسال الرسل، من أفعاله الجائزة. وأنه قد أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وكلف الخلق، وشرع لهم شرائع على السنة رسله، وأن رسله صادقون في قولهم، ومؤيدون بالمعجزات من عند ربهم، وأنهم عبيد الله ورسله، وأنهم بشر مثلنا، إلا أن الله تعالى فضلهم، بأن جعلهم واسطة بينه وبين خلقه، وأطلعهم على ما شاء من غيبه، وأنهم بلغوا عن⁴ الله ما أمروا بتبليغه، وأنهم كلهم صادقون مصدقون، لا نفرق بين أحد منهم، وأن محمدا بن عبد الله بن عبد المطلب، العربي القرشي الهاشمي، رسول من الله إلى الناس كافة، بشيرا ونذيرا. وأن الله⁵ أيده بالمعجزات على صدقه، كما فعل بالرسل من قبله.

1- العنوان ساقط من خ/م.

2- في ط: "ينبغي".

3- في ط: "يتوجه".

4- في خ/م: "من".

5- في ط: "الله تعالى".

وأن شرعه وإجابته لازمان لكل من بلغته دعوته، حيث كان من أقطار الأرض وجهاتها¹، وعلى أي دين كان من أديانها، لا يقبل ممن كفر به، يوم القيامة، ما هو عليه من دين، بل يكون مخلداً في العذاب أبداً الأبدين، كما أن المؤمن به، وبكل ما جاء به، مخلد في الجنة أبداً الأبدين.

وأن شرعه ناسخ لكل الشرائع المتقدمة، على الجملة. وهادم ما قبله من الأحكام السالفة، وأن كل ما جاء به عن الله حق، من عذاب القبر² والحشر، والنشر بعد الموت، والصراط والميزان، والحوض والمحاسبة، وشفاعة محمد لأهل الموقف³، ولأهل الكبائر من أمته خاصة.

والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وأنهما محسوسان ليسا معنويين، وأن خلود أهل الجنة سرمد، [وعذاب أهل النار الكافرين سرمد]⁴، ولا انقطاع لواحد منهما، إلى غير ذلك مما هو مفصل في الشريعة، مما يعرفه أهله ولا يسعهم جهله.

فهذه⁵ قواعد اعتقادهم⁶ مجردة عن أدلتها، ومقتضية من شواهداها، إذ ما منها قاعدة، إلا ويعضدها برهان عقلي، لا يشك فيه عاقل، ودليل سمعي، لا ينكره فاضل، ومن أراد تعرف ذلك طلبه من مواضعه. وأما مستندات أحكامهم: فهي كتاب الله وسنة رسول الله، لا يعدلون لمحة عنها، ولا يخرجون لحظة منها، إلا أن وجوه استدلالاتهم، لا يحيط بها متطفل عليها، لكثرتها ولتفاوت⁷ درجاتها.

فإن كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، لا يستدل بها⁸ من لا يعرف منظوم اللفظ ومفهومه، وفحواه ومعقوله، ويعرف من المنظوم: النص والظاهر، والمؤول والمجمل⁹، والعموم والخصوص، والاستثناء، والمطلق والمقيد، ويعرف من المفهوم: أقسامه وأحكامه¹⁰، وكذلك من الفحوى والمعقول على ما هو معروف في علم الأصول، الذي هو علم خاص

1- في خ/م: "جهاته".

2- في ط: "العذاب".

3- في ط: "الموقف عامة".

4- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

5- في ط: "وهذه".

6- في ط: "اعتقاد أهل الإسلام".

7- في ط: "نقاوة".

8- في ط: "بهما".

9- في ط: "المحمل".

10- في ط: "أحكامه وأقسامه".

بأمة محمد ﷺ، بل هو من كرامات أهل الإسلام، إذ ليس في ملة من الملل المتقدمة، من التحقيق ما عندهم. ولا اجتمع لأحد قبلهم من العلوم، مثل الذي اجتمع لهم.

ذلك بأنهم آخر الأمم، وكتابتهم آخر الكتب وأفضلها، ورسولهم آخر الرسل وأفضلهم، ولسانهم أحكم الألسنة وأفصحها، على ما² يعرفه من تصفح شريعتهم، وعرف لغتهم، ونظر إليها بعين الإنصاف، وترك طريق التعصب والاعتساف. فالحمد لله على ما أولاه، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾³.

ومما يبين للعاقل حسن شريعة الإسلام، وجمال طريقتهم⁴، أنها مبنية على مراعاة مصالح الدنيا والآخرة، وإتمام مكارم الأخلاق الحسنة.

أما بيان مصالح الآخرة: فهو أن هذا الشرع يبين وجوهها، ولم يغفل شيئا منها، بل فسرها وأوضحها غاية الوضوح، لئلا يُجهل شيء منها، فوعدهم بنعيمها، وتوعد بعذابها، بخلاف الشرائع المتقدمة، فإنها إنما كانت تتوعد على المخالفة بعقاب دنيوي⁵، كما فعل بنوا إسرائيل غير مرة، وتوعد بشواب دنيوي⁶، ولم يبين لهم شيء مما بين لنا، على ما يقتضيه نسق التوراة، إذ ليس فيها ذكر جنة ولا نار، إلا تنبيهات قليلة⁷. وكذلك الإنجيل⁸، ليس فيه شيء من ذلك إلا ما ذكرناه.

1- في ط: "ﷺ".

2- في خ/م: "من".

3- سورة الأعراف، آية: 43، في ط: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

4- في ط: "طريقتها".

5- في خ/م: "دنيوي".

6- في خ/م: "دنيوي".

7- لم ترد في الأسفار الخمسة إشارات عن الجزاء في الآخرة، ولعل هذا ما جعل الصدوقيين الذين لا يؤمنون إلا بهذه الأسفار الخمسة ينكرون البعث، وقد جاء في الإنجيل حوار لهم مع المسيح حول القيامة (متى: 22: 23-33)، ولم تتبلور عقيدة الإيمان باليوم الآخر إلا بعد السبي البابلي أيضا، إذ وجد اليهود في هذه العقيدة تعويضا ومواساة للمصائب التي حلت بهم، فلما خابت الوعود الدنيوية التي كانوا يحملون بها بصفتهن شعب الله المختار، بدأ التطلع إلى جزاء أخروي، حيث يفوز شعب الله المختار بكل النعم ويعاقب في هذا اليوم كل أعدائهم وقد جاءت إشارة عابرة إلى البعث في سفر إشعيا 19: 26، كما نص سفر دانيال 12: 62 وسفر دانيال 13 على البعث، وسفر أيوب 19: 25-27، ومزمور 15: 49، ومزمور 139: 17-18.

8- ورد ذكر جهنم في الترجمات العربية للعهد الجديد ثلاث عشرة مرة، في متى: 5: 22، متى: 5: 29، متى: 5: 30، متى: 10: 28، متى: 18: 9، متى: 23: 15، متى: 23: 33، مرقس: 9: 43، مرقس: 9: 45، مرقس: 9: 47، لوقا: 12: 5، رسالة يعقوب 3: 6، بطرس الثانية: 4.

ومع ذلك فإنه تعبدنا بعبادات محضة ذوات أفعال¹ وأركان، كالصلاة والحج وغير ذلك. وكل ركن من أركانها، فالمقصود به تعظيم الله تعالى، وخضوع له بالظاهر والباطن، حتى تؤدي كل جارة من الجوارح، حظها من تعظيم الله تعالى، مع ما ينضاف إلى ذلك من المعاني الشريفة، والأدعية الرفيعة الفصيحة، التي يعرف معانيها أهلها، حسب ما فسروه في كتبهم، وليس كما تقولون أنتم في صلاتكم: "يا أبانا الذي في السماء"².

فإن ظاهر هذا مستبشع في العرف، محال في العقل. أما استبشاعه في العرف، فإنه يقبح بالعبد أن يخاطب سيده بلفظ الأبوة. هذا مع أن معنى الأبوة جائز في حقوقنا، فكيف لا يقبح إطلاقه في حق من لا تجوز الأبوة في حقه؟ فإطلاق مثل هذه اللفظ في حق الله تعالى، ينبغي ألا يجوز ولا يطلق، وأما إحالته في العقل، فإن ظاهر قولكم: "في السماء" يفهم منه أن السماء محيطة³ به. وإن جاز ذلك، جاز أن يكون جسما، وأنتم تأبون ذلك، وهو محال في حقه تعالى⁴.

وكذلك قولكم في بقية هذا الدعاء: "وعجل لنا خبزنا الدائم، واغفر لنا كما يغفر بعضنا لبعض". فإنه لفظ مستثقل مستقبح، ومعناه مستغث مستترك، ولولا خوف التناول، لأبدينا⁵ ما يحتمل ذلك من قبيح التأويل.

فإن قلتم هكذا علمنا عيسى في الإنجيل، فقال لنا: "إذا صليتم فقولوا..". قلنا: لا نسلم أن هذا مما علمه عيسى، ولا مما جاء به، بل هو اختراع من لا يحسن ما يقول، وليس له إلى المعارف وصول.

وقد تقدم أن كتابكم قابل للتحريف والتصحيف، فهذا الذي ذكرنا ينبه على المصالح الأخروية، وأما المصالح الدنيوية، فقد بينا أن مقصود شرعنا حفظ الأديان، والنفوس، والأموال، والأنساب، والأعراض، والعقول، ولأجل ذلك شرع القتل، والديات، والعقوبات، وحرمة السرقة، والخيانة، وجميع وجوه⁶ أكل المال بالباطل، وحرمة الزنا وفعل اللوطي، وغير ذلك من الفواحش.

1- في ط: "فعال".

2- متى: 6: 9-13.

3- في ط: "محيط".

4- في ط: "تبارك وتعالى".

5- في خ/م: "لبدينا".

6- في خ/م: "وجود".

وكذلك حرم الغيبة والنميمة، والقذف والبهتان، والزور، وجميع أصناف الكذب، والغش والخداع¹، والمكر إلى غير ذلك من أنواع المفاسد.

ولأجل ذلك² حرم الخمر، فإنها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف، وبه يعرف الباري تبارك وتعالى، والسكر آفة تناقضه وتضاده. فهذه الأمور كلها محفوظة بالحدود، والزواج المشاكلة للعقوبات الثابتة عن النبي، إما بالكتاب وإما بالسنة. وليس شيء منها موضوعا بالتشهي، والتحكم كما فعلتم أنتم.

وقد بينا ذلك [بل هي مستتدة]³ للشارع، ولا نعدل عنه طرفة عين، بل نقف عند ما أمرنا⁴، وننتهي عما نهانا، ويعرف ذلك على التفصيل أهله، ومن وقف عليه من العقلاء المنصفين.

وأما مكارم الأخلاق التي تضمنها شرعنا، فلا تخفى على متأمل. وذلك أن شرعنا أمرنا بها ظاهرا وباطنا، ونهانا عن رذائلها وسفاسفها. فمن المكارم الظاهرة: النظافة والطهارة، والتزهر عن الأقدار والأوساخ، فمن النظافة، تطهير الثياب والأبدان، فإنها ينبغي أن تتزهر عن الأقدار، مثل البول والغائط، والمنى والمذى، والدم والقيح، وما شاكل ذلك.

ومن النظافة أيضا، التطيب وتحسين الهيئة، فالطيب لا يخفى على عاقل استعماله، وكذلك تحسين الهيئة⁵. ومن تحسين الهيئة قص الشارب، وإعفاء اللحية، فقص الشارب لتتأني النظافة في الأكل، إذ لا تتأتى مع طوله، إذ يدخل الشعر في الفم، وينقص⁶ الأكل ويقذره.

هذا مع ما يلحق الشارب من قذارة المخاط، إذ كان الشارب كثيرا⁷، ومع ذلك فلا يحلق عندنا كله، ويمحق رسمه، فإن ذلك مثله وتشويهه، وكذلك اللحية، إذا حلقت فينبغي أن توفر توفيراً، لا يخل بمروءة الإنسان، ولا يخرج عن عادة الناس، وخير الأمور أوساطها.

1- في خ/م: "الخدائع".

2- في ط: "ذلك أيضا".

3- في ط: "بمستتدة".

4- في ط: "أمر".

5- في خ/م: "النية".

6- في خ/م: "ينقص".

7- في ط: "كثيراً".

وأما حلق اللحية فتشويه ومثله¹، لا ينبغي لعاقل أن يفعلها بنفسه.

والعجب من جهل النصارى بالشرائع، وبما يستحسنه ذووا المروءات، فإنهم يحلقون لحاهم²، ويشوهون أنفسهم³، ويوفرون غلوفتهم التي ينبغي أن تزال، لما في إزالتها من الفوائد على ما ذكرنا، ومن النظافة المأمور بها، تقليم الأظفار، ومنتف الإبط، وحلق العانة، وغسل البراجم والمغابن بالماء، وهذا كله من شرعنا مبالغة في النظافة، ومحافظة على مكارم الأخلاق، وعلى عادة ذوي العقول والمروءات.

وأما التنزه عن الأقدار، فإنه حرم علينا الخبائث، من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والأنجاس كلها، على ما تقتضيه عادة العقلاء وذوي⁴ المروءات، وأمرنا بأكل الطيبات، واستعمال المستحسنات ونهانا عن السرف والتبذير.

ولأجل هذا، نهانا عن استعمال أواني الذهب والفضة، وعن لباس الحرير للذكور، وذلك لما فيه من التبذير والسرف.

وأیضا، فإن فيه ترفهاً، يناسب ترفه أهل الجنة ويشبهه، ولا ينبغي أن يفعل ذلك. ولأجل ذلك قال نبينا عليه السلام: "من شرب في آنية الذهب والفضة، لم يشرب بها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة"⁵.

وهذا كله لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، ولأجل ذلك قال الحكماء: "الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها"⁶. فهذه نبذة من النظافة الطاهرة، وأحكامها كثيرة، تعرف في مواضعها.

وأما النظافة الباطنة⁷، فترجع إلى التخلي عن مذموم الأخلاق، والتخلي بمحامدها⁸ ومستحسنها، وهي كثيرة فلنذكر الأخلاق المذمومة، التي يتنظف منها، وبعدها نذكر الأخلاق المحمودة، التي ينبغي الاتصاف بها.

أما الأخلاق المذمومة فكثيرة، لكن أمهاتها ما نذكره، وهي: الغضب والحسد، والبخل

1- في خ/م: "مثله".

2- في خ/م: "لحاهم".

3- في خ/م: "بأنفسهم".

4- "ذوي" ساقطة في ط.

5- ورد في صحيح مسلم حديث له معنى قريب من الحديث المذكور كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء: "وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، ح وَحَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، كِلَاهُمَا عَنْ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ أَشْعَثَ بْنِ أَبِي الشَّعْثَاءِ، بِهَذَا الْإِسْنَادِ . مِثْلَ حَدِيثِ زُهَيْرٍ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْقَسَمِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَزَادَ فِي الْحَدِيثِ وَعَنِ الشَّرْبِ فِي الْفُضَّةِ فَإِنَّهُ مَنْ شَرِبَ فِيهَا فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ . .

6- في ط: "تتعمروها".

7- في ط: "الباطنية".

8- في خ/م: "بمجاهدها".

ومهانة النفس، ودناءتها والرعونة، وحب الجاه وحب الدنيا، الذي منه كل خطيئة، والكبر والعجب والرياء، إلى غير ذلك من الأخلاق المذمومة، التي من اتصف بها كان منجس الباطن، بمثابة من كان منجس¹ الظاهر فعليه تنظيفه، إلا أن نظافة النجاسة الظاهرة بالماء، ونظافة النجاسة الباطنة بالاتصاف بالأخلاق المحمودة، التي هي التوبة من المعاصي، وحسن الصحبة مع الخلق، والنصيحة لهم، والعدل في الأمور كلها، والتواضع، وكرم النفس²، وبغض الدنيا، والزهد فيها، والإخلاص والخوف، والصبر والشكر، والصدق والتوكل، ومحبة الله تعالى، ومحبة رسله، إلى غير ذلك من الأوصاف المحمودة، التي من اتصف بها، فقد تنقى من أوصاف البشرية وتطهر الطهارة المعنوية.

فهذا أنموذج وقانون، يعرف العاقل المنصف [به حسن شريعتنا، وجمال طريقتنا، وأنها جارية على نهج العقول، ومستحسنة]³ عند من له محصول. ومن أراد أن يتبين محاسن شريعتنا على التفصيل، فلا يصل إلى ذلك إلا ببحث كثير وتطويل.

فإن وقف⁴، فأمعن النظر، واستدت منه الفكر، قضى من عجائبها كل عجب، وعلم على القطع والبيات، أنها حق من الله، من غير شك ولا ريب. وأن الذي جاء بها، لا يجوز عليه الغلط ولا الكذب.

فها نحن معشر المسلمين، قد أرصدنا شريعتنا للاستعراض، وناديننا عليها في سوق الاعتراض، لئلا يعترض أحد أو يعارض⁵، فيدفعه ناقد لقوله وحافظ. ولم نكل حكايتها إلى غبي غافل، عن مقاصد شرعنا جاهل.

وقد آن أن نذكر ما اعترض به النصارى على ديننا، ونفصل عنه إن شاء الله⁶، وعند ذلك يتبين صميم جهلهم، وسوء صنيعهم وفعلهم.

1- في ط: "متنجس".

2- في خ/م، جاءت بعد "كرم النفس" عبارة "حب الخمول"، وهي عبارة غير مناسبة لسياق الكلام.

3- في خ/م، استبدلت العبارة بين معقوفتين بالعبارة التالية: "على نهج العقول وجمال طريقتنا وأنها جارية على نهج العقول المستحسن"، وهي عبارة غير سليمة.

4- في خ/م: "وفق".

5- في خ/م: "إلا معترض أو معارض".

6- في ط: "الله تعالى".

الفصل الثاني

[دفاع عن الإسلام]¹

اعلم أن النصارى يعيبون دين الإسلام ويقبحونه عند جهاهم وعامتهم، بأمور من فروع الإسلام، لا ينبغي لمنصف أن يعيبها ولا يعيب شرعا هي فيه.

وقد كنا بينا فيما تقدم، أنه لا ينبغي أن ننبد الشرائع أو نجحدها، بما تجوزه العقول، بل يتلقى ذلك المجوز عقلا، الذي جاءت به الشرائع بالقبول، إذا علم صدق ذلك الشرع، بل ينبغي للعاقل، أن ينظر في دليل صدق ذلك الشرع. فإن وجده دليلا صحيحا، قبل منه كل ما يقول، فإنه صادق، والصادق لا يقول ما تكذبه العقول. نعم قد يقول ما يقصر العقل عن إدراكه، وليس ذلك طعنا على قول الصادق، وإنما العجز في حق العقل. فليس كل ما تأتي به الشرائع، يعرف العقل جوازه، قبل وقوعه. بل قد يكون منه ما يجهله.

وهذا بين عند الفهم المنصف، وقد كنا قررنا ذلك بأبلغ من هذا فيما تقدم.

فإذا تقرر ذلك قلنا للنصارى: كان يجب عليكم أن تنظروا في الأدلة، التي بها استدل هذا النبي على صدقه، فإذا صحت، لزمكم قبول قوله، وإن لم تصح لديكم، رددتم كلية شرعه، ولا تعترضوا ببعض ما جاء به، مما يجوزه العقل على ما تقرر.

ونحن قد أثبتنا الأدلة القاطعة على صدقه وأنواعها، فيجب عليكم أن تقبلوا شرعه، إذ قال أنا رسول الله إلى الناس كلهم، وإلى اليهود والنصارى. وقد ظهر صدقه في قوله، وإن لم تفعلوا فقد وجبت عليكم اللعنة، وحاقت بكم الطامة، ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ﴾².

ونحن نذكر إن شاء الله³، ما اعترضوا به على⁴ ديننا، ونحكي اعتراضهم كما ذكروه في كتبهم ونسبوه إلى أساقفتهم.

قال صاحب كتاب الحروف بعد أن ذكر وصية عيسى التي قال فيها: "احذروا أنبياء الكذب الذين يأتونكم بلباس الحملان"⁵ يعني سمة الأبرار وزبي العباد، وباطنهم ذئاب

1- العنوان ساقط من خ/م.

2- سورة الرعد، آية: 42.

3- في ط: "الله تعالى".

4- في خ/م: "على" ساقطة.

5- متى 17: 15.

خاطفة. قال بعد ذلك معرضا بنينا، ومستقصا لديتنا، "وقد رأينا نفاذ قوله هذا، فممن ادعى النبوة، فأظهر سمة الحملان، ثم عمل عمل الذئب، فأمر¹ بخلاف هذه الوصايا، من العداوة للناس عامة، والتحريض على قتل من خالفه، والأمر بالقصاص والانتقام. ثم أمر بالإكثار من النساء، ورخص في طلاقهن، وأحل تزويج المطلقات الفاجرات، ثم ردهن إلى الأزواج الأولين، بعد طلاق ثان، وأحل ذلك لهن من الرجل الثاني إلى الأول. ثم ما وصف الله به من الجور، والقساوة والظلم، إذ زعم أنه يهدي بعضا ويضل بعضا".

وقال القوطي الذي قدمنا ذكره: "لا فائدة في شريعتكم، لأننا نجد الأحكام الشرعية حكمين: الأول التوراي الذي هو من لطمك فالطمة"، و² الآخر الإنجيلي الذي هو: "من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى".

وأنت ترى فضل هذا على الأول، ثم لا تجد لهذين الحكمين ثالثا، إلا كان داخلا فيهما.

هذا³ ما يعترض به من ينتمي إلى النظر من أقستهم، وإن كان بعيدا عن التحقيق.

وأما عامتهم ومن لا مبالاة بهم، فقد تقولوا العظائم وجأهروا بالتواقيح والشتائم.

ونحن نجيب هذين القسين، على ما قالاه جوابا يرفع الاشتباه، ونرجو به التقرب من الإله، فنقول للأول:

أما استدلالك على رد نبوة نبينا بقول عيسى، فتجهيل للعامة، وتلبيس عليهم، فإنك أدخلته⁴ في جملة أنبياء الكذب، وقد شهد الأنبياء بصدقه، كما قدمنا. بل قد شهد كتابك بصدقه ونبوته، فإنه قد جاء فيه من قول عيسى، ما لا يمكنك إنكاره، حيث ذكر البرقليط، وأخبر أنه يأتي، ووصفه بما ينبغي له، وقد قدمنا ذلك مستوفى، فهذا منك يا هذا، جهل بكتبك، وتكذيب لأنبيائك ورسلك، وإنما الذي حذر منه عيسى وغيره من الأنبياء، إنما هم أنبياء الكذب، كما قال، ولم تزل الأنبياء يحذرون من الأنبياء الكذابين.

1- في خ/م: "فأمر".

2- في ط: "الواو" ساقطة.

3- في ط: "هذا منتهى".

4- في خ/م: "أدخلت".

ولقد أكثر من مثل هذا التحذير، نبينا عليه السلام، حتى قال: "يكون في آخر الزمان ثلاثون كذاباً¹، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، فلا رسول بعدي ولا نبي". وقد وجد بعضهم ولا بد من أن يوجد الباقي، كما قال الصادق.

وأما قولك: إن سمة نبينا سمة الحملان، وعمله عمل الذئب، فكذب صراح، وإفك وقاح، ونحن قد بينا سمته، وعمله ومنهاجه، وقد عرف حاله القريب والبعيد. بل سمته سميت الأنبياء، وعمله عملهم، ولا فرق بينه وبينهم، إلا أنه أفضلهم وأكملهم، وإنما قلنا ذلك، لأن في صحف إشعياء أنه قال: "أتت أيام الافتقادات أيام الكمال". ثم قال: "لتعلموا يا بني إسرائيل الجاهلين، أن الذي تسمونه ضالاً، هو صاحب النبوة، تفترون بذلك على كثرة ذنوبكم، وعظم فجوركم".

وإنما قلنا: إنما عنى نبينا، ولم يرد غيره. لأنه قال يا بني إسرائيل، وهذا خطاب لجميعهم، ولم يكذب² جميع بني إسرائيل بنبوة نبي، إلا نبوة محمد. إلى غير ذلك مما تقدم. وأما عيسى وغيره، فكان منهم من آمن به وصدقته على ما هو معروف.

وأما قولك: أمر بخلاف هذه الوصايا، من العداوة للناس. فكذب وتشنيع، لا يرضى به سفلة الناس، بل قد أمر بالألفة والاجتماع، والتحاب في الله، والمؤاخاة في ذاته، والتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التباغض والتدابير، والتخاذل على ما بيناه من شرعه.

وكل ذلك من حاله وحالهم معروف، بحيث لا يجهل ومشهور، بحيث لا ينكر نعم رحمته للمؤمنين، وغلظته على الكافرين.

وكذلك وصفه الله في كتبه، وعلى لسان رسله، قال الله العظيم في محكم وحيه الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾³ وكذلك كانت أحوال أصحابه، قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾⁴، وليس كما تقولونه أنتم عن أصحاب عيسى، أنه لما تقبضت اليهود عليه فروا عنه، وأنكروه وحلفوا على أنهم لم يعرفوه، فأسلموه وتركوه.

1- في خ/م: "كذابون".

2- في ط: "تكذب".

3- سورة التوبة، آية: 128.

4- سورة الفتح، آية: 29.

وقد بينا فيما تقدم ما ذكرت الأنبياء من أوصافه، وعلى أنه لم يغلظ على الكافرين حتى تمردوا على الله، وكذبوا رسالات الله، وذلك أنه أقام بين أظهرهم عشر سنين أو نيفا عليها، يدعوهم إلى الله، على سبيل الوعظ والإنذار، والتعليم والتبليغ، وإظهار الآيات والعجائب، ملينا لهم القول، ومظهرها لهم الإشفاق، وباذلا لهم النصيحة، صابرا بنفسه على ما يلقي من أذاهم، ومن سبهم، وهم مع ذلك يبالغون في ضرره، بكل ما يمكن، وكلما ألح عليهم بالإنذار، زادوا في الإضرار، حتى هموا بقتله، وطرده عن بلده وأهله.

وبعد ذلك أمره الله بالانتصار ممن ظلمه، وإخراج من أخرجه، ولذلك أنزل الله¹ عليه: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾².

وأما قوله والتحريض على قتال من خالفه، فهذا لا ينبغي أن يعاب به دين، فإن الكافر بالحق لا حرمة له، وجنابته أكبر من كل جنابة، فعقوبته ينبغي أن تكون أكبر من كل عقوبة، لا سيما بعد أن تقدم للكافرين بالأعداء، ويبلغ لهم في الإنذار، ولأجل أن الكافر لا حرمة له عند الله، يعاقبه في الدار الآخرة عقوبة لا انقطاع لها باتفاق الشرائع.

وإن جاز أن يعاب شرعنا، [من حيث أنه]³ جاء بقتال الكافرين، جاز أن يعاب شرع موسى، فإنه جاء بقتال الجبارين، على ما لا يخفى على أحد من المتشرعين، فقد لزم هذا المنكر لشرعنا، من حيث أنه شرع فيه القتال، أن ينكر ما يدين به ويعتقده من شرع موسى بن عمران، وينبغي له أن يسفه فعل يوشع⁴ بن نون، حيث أذاق الجبارين أشد القتل وأعظم الهون، ثم أعجب من ذلك جهلهم بما في كتبهم، أو مجاهرتهم بإنكارها.

وذلك أنه يجدون في كتبهم أوصاف النبي ﷺ، ويجدون فيها أنه يبعث بالقتل والسيوف، ثم ينكرون ذلك، ويباهتون فيه. وقد ذكرنا من ذلك ما فيه كفاية، ومن ذلك ما قد جاء في كتاب إشعيا، أنه أخبر عن هزيمة العرب، وقتل أشرافهم، فقال لما ذكر النبي: يدوسون الأمم كدوس البیادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون⁵. ثم قال: "وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة، وقسي موتورة من شدة الملحمة".

1- في ط: "الله تعالى".

2- سورة الحج، آية: 39.

3- في ط: "لأنه".

4- في ط: "يوشع".

5- إشعيا 21.

وكذلك قال حبقوق: "تضيء لنوره الأرض، وستنزع في قسيك إغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء"¹، وهذه² نصوص على اسمه وصفته كما تقدم.

وقد أشار إنجيلكم إلى هذا، فإنكم تزعمون أن عيسى قال لتلاميذه: "إني كنت أرسلتكم وليس معكم مزود³ ولا خف، فهل ضرركم ذلك أو نقصكم شيئا؟ قالوا: لا. قال: أما الآن، فمن لم يكن له⁴ مزود فليشتري مزودا ومن لم يكن له سيف فليبع ثيابه⁵ وليشتري سيفاً"⁶.

فأمرهم باشتراء السيوف للقتال، بعد أن كان نهاهم عن القتال، لعلمه أن محمدا يبعث بعده بالسيف، وهذا كثير بحيث لا يحتمل التأويل.

وجب⁷ من ذلك كله: أنهم قد ذكروا في إنجيلهم، أن عيسى قال لهم: "لا تحسبوا أنني قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لإصلاحهم، لكن لألقي المحاربة بينهم، إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه، والمرأة وابنتها، [حتى يصير]⁸ أعداء المرء أهل بيته"⁹.

وهذا نص، بأن عيسى إنما جاء بالمحاربة، والقاء العداوة بين الناس، وهذا عين ما أنكروه علينا، ثم قد [زادوا على]¹⁰ ذلك أنهم حكوا أنه قال: "لم آت لأصلح [بين الناس و]¹¹ لم آت لإصلاحهم" وظاهر هذا: إنما جاء بفساد أهل الأرض.

وهذا لا يصح أن يقوله عيسى عليه السلام، ولا غيره من الأنبياء، وهو من كذبهم وتحريفهم. وقد قدمنا ذلك فيما سبق. ومن العجب أنهم يقولون: أن ملة المسيح وشريعته، لم تأت بقتال، ويتمدحون بأنها لم تظهر بقتال، وإنما ظهرت بما ظهر على أيدي الحواريين من العجائب. وهم مع ذلك يعترفون بمحاربة قسطنطين، ويمقاتلته من خالفه، وأنه الذي

1- حبقوق 3: 9، لكن النص لا يوجد فيه اسم "محمد".

2- في خ/م: "وهذا".

3- في خ/م: "مزود".

4- في ط، قبل "مزود"، أضيفت: كيس فليأخذ كيساً".

5- في ط: "من ثيابه".

6- لوقا 22: 35-36.

7- في ط: "وخير".

8- في ط: ما بين المعقوفتين ساقط وجاء مكانه "و".

9- متى 10: 34-36.

10- في ط: ما بين المعقوفتين ساقط وجاء مكانه: "زاد وأعلى".

11- في ط: ما بين المعقوفتين ساقط وجاء مكانه "أهل الأرض".

تلقيت عنه الشريعة الصليبية، فإنه أرى في النوم صورة الصليب، وقيل له بهذا تنصر. ففعله واعتقده وقاتل فنصر.

وأعجب من ذلك، تلبسهم بالقتال، والإكثار منه أبد الدهر إلى اليوم. وهم مع ذلك يدعون أن القتال غير مشروع لهم، ويدمون الشريعة التي جاءت به، فهم قد ناقضت أفعالهم أقوالهم، وشهدت على كذبهم أحوالهم، ثم تقول لقسطنطين ولجماعة النصاري المقاتلين، قتالكم من خالفكم، لا يخلو إما أن يكون مشروعاً لكم، أو غير مشروع لكم. فإن كان مشروعاً لكم، فلاي معنى تخالفونا في ذلك، وتذموا شرعنا لأجله؟ وإن لم يكن مشروعاً لكم، فلاي معنى تركتم شرعكم، وفعلتم خلافة؟ وكيف حل لكم ذلك؟ فأنتم بين أمرين قبيحين، عليكم إما أن تعترفوا بأن قتال الأعداء جائز حسن، فلا تذموا شرعنا لأجله، وإما أن تعترفوا بأنه غير جائز وقبيح، فيلزمكم التناقض والسفه، والخروج عن شريعة المسيح. فأنتم على المثل السائر: أعور بأي عينيه شاء.

فإن قالوا إنما نقتصر بالقتال لأنفسنا، ونمتنع ممن يريد¹ ظلمنا. قلنا: ومن شرع لكم أن تتصرفوا ممن ظلمكم، أو تتصرفوا لأنفسكم؟ بل قد حكيتم في إنجيلكم، أنه قال لكم: احفظوا أعداءكم، واکرموا من أساء إليكم، فإن لم تحفظوا إلا إخوانكم، فما أجركم² على ذلك؟

وهذا نص، على أنه ينبغي لكم أن تستسلموا عن قاتلكم، ولا تتصرفوا ممن ظلمكم، فإن لم تفعلوا ذلك، فقد تركتم شرعكم واستهنتم بسنة نبيكم. ثم يلزمكم على ذلك، أن تعترفوا بأن شرعكم ناقص، إذ قد بين لكم نبيكم بعض المصالح، وتركها³، وهو القتال الذي استدركتموه بنظركم، من حيث كان ضرورياً ومحتاجاً إليه، وتعترفوا بكمال الشرع، الذي جاء بالقتال الذي هو شرعنا.

وعند هذا يتبين فساد قولهم: إن الحكم حكمان، لا ثالث لهما. ويفسد عيبهم علينا القصاص، وذلك أنهم يزعمون، أن حكم التوراة يقتضى القصاص، وحكم الإنجيل يقتضى العفو. ثم زعم ذلك الجاهل، أن لا حكم ثالث، ولم يشر بثالث متوسط هو أكملهما وأتمهما، وهو الحكم الفرقاني، حيث قال الله العظيم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا

1- في ط: "يريد به".

2- في ط: "أجرؤكم".

3- في ط: "وترك بعضها".

عُوقِبْتُمْ بِهِ^١ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ^٢ ١، وقال: ﴿وَلَمَنْ آتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ^٣ ٢.

ثم العجب من هؤلاء الجاهال، كيف يذمون شريعتنا ويكذبونها، من حيث أنها تضمنت القصاص، ويؤمنون بشريعة موسى، وقد صرحت بالقصاص. فيلزمهم على قولهم، أن يكذبوا بشريعة موسى، ويذمونها من ذلك الوجه.

ثم أعجب من ذلك كله، مدحهم شريعتهم، من حيث كانت مبنية على العفو والصفح، ثم مع ذلك أبوا أن يجوزوا عفو الله تعالى عن آدم، حين أكل من الشجرة. حتى قالوا: إن جميع بني آدم، كانوا مرتين بمعضية أبيهم، حتى فداهم المسيح بنفسه. بل لم يتصور عندهم، عفو الله حتى انتقم من إله^٣ مثله، تعالى الله^٤ عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فعلى هذا نقول لهم: لا يخلو العفو من أن يكون هو الأولى مطلقا، أو^٥ الانتقام هو الأفضل، أو الحالة الثالثة. فإن كان العفو هو الأولى، فلم لم يعف الله تعالى عن آدم، من غير أن يعاقبه وبنيه^٦، على ما زعمتم؟ وإن كان الانتقام هو الأولى، فلم لم ينتقم من آدم وبنيه مطلقا؟

فلم يبق على هذا، إلا أن الأولى هو الحالة الثالثة، وهو الانتقام في حال من مستحقه، والعفو في حال أخرى عن مستحق العقاب تفضلا وتكرما، حسب ما يريده الباري تعالى. وعلى هذا المنهاج السديد، والأمر الرشيد، جاءت شريعتنا. فهي كاملة متممة، والحمد لله. ثم إذا كان العفو هو الأولى والأفضل، وبه جاءت شريعتكم، فلاي معنى تتركون شريعتكم الأولى؟

فقد اعترفتم بألسنتكم، وتناقضتم بأفعالكم، وكم لكم منها وكم؟

وأما اعتراضه على شرعنا، بتحليل نكاح الكثير من النساء، فذلك مالا ينبغي أن ينكره، أحد من العقلاء، فإنه من مجوزات العقول، وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول، ثم قد ورد عن جماعة من الرسل، وقد جاءت بذلك الكتب، ألم يجيء في التوراة، أن إبراهيم

1- سورة النحل، آية 126.

2- سورة الشورى، آية: 41.

3- في خ/م: "الله".

4- في ط: "تقدس".

5- في خ/م: "هو".

6- في خ/م: "يعاقب به".

كانت له سارة¹ وهاجر؟ وكذلك ورد فيها، أن يعقوب جمع بين أختين ليثة وراحيل، وقد ثبت أيضا أن سليمان كانت له مائة امرأة أو تسعة وتسعون. بل قد روي في الإسرائيليات، أنه كان له ثلاث مائة امرأة حرة، وسبع مائة سرية².

فإن كذبتم شرعنا، لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة، فلتكذبوا بنبوة إبراهيم، ويعقوب، وسليمان، ولا فرق بين نبينا وبين هؤلاء الأنبياء، في أن كل واحد منهم، رسول الله، يبلغ حكم الله. فما لكم تنكرون ما بمثله تعترفون، وتكذبون عين ما تصدقون؟ فعل³ المعتوه الذي لا يعرف مابه يقوه.

ثم لا ينكر عاقل، حكمة الله تعالى، في شرعية كثرة النساء، إذ مقصوده بذلك، إنما هو تكثير النسل، وعمارة الدنيا بالذراري، ليكثر الصالحون، لما أراد الله بهم من الكرامة، وليكثر الطالحون، لما أراد الله بهم من الشقاوة والتعذيب، ولتفد على خلقه أحكامه، وتجري عليهم أقداره، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾⁴.

وأما اعتراضه بالطلاق، ورد المطلقات، فقد تقدم ذكره على أوضح المقالات، وأشفينا في الجواب على أحسن الغايات، فلينظره من أراد في باب النبوات.

وأما اعتراضهم، على اعتقادنا أن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فقد قدمنا فيه قولا كافيا، ولكننا مع ذلك نزيده⁵ إيضاحا فنقول:

قد قام الدليل القاطع، والبرهان الصادع، على أن الله تعالى منفرد بخلق الموجودات، ومريد لكل الحادثات، لا يخرج عن قدرته ممكن، ولا يشذ عن إرادته حادث، والهدى والضلال [من]⁶ الحوادث، فإذن، [هي مستتدة له]⁷، و[موجودة بإرادة]⁸، وتحقيق هذا البرهان يعرف في موضعه.

1- في خ/م: "سارة".

2- الملوك الأول 11.

3- في ط: "فعل".

4- سورة الأنبياء، آية: 23.

5- في ط: "نؤيده".

6- في خ/م "من" ساقطة.

7- في ط: "فهما مستندان إليه".

8- في ط: "موجودان بإرادته".

ثم نقول: لا يشك عاقل، أن الهدى والضلال وما في معناهما، أمور محدثة، وأفعال موجودة بعد أن لم تكن، وكل فعل محدث، فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة، ففاعل الهدى والضلال وخالقهما، إما أن يكون الله سبحانه، أو غيره. محال أن يكون غير الله، لاستحالة وجود خالقين، ويلزم منه امتناع الخلق، كما قدمنا حين ذكرنا دلالة التمانع، فلم يبق، إلا أن يكون الفاعل هو الله تعالى، إذ لا خالق إلا هو ولا مبدع سواه.

ثم نقول للنصارى، صلب المسيح وقتله، إما أن يكون ضلالا، وإما أن يكون هدى، ومحال أن يكون هدى، فإنكم تكفرون من فعل ذلك وتضللونهم، ولأجل ذلك الفعل، حاق الغضب واللعنة¹ على اليهود بزعمكم، فلم يبق إلا أن يكون ضلالا لهم².

وإذ³ كان كذلك، فقد لزمكم أن الله فعل الضلال، فإنكم قد صرحتم، بأن الله إنما فعل ذلك، لأجل خطية آدم، ولا من أحد من ولده، وإنما أراد أن ينتقم من إله مثله، فقد صرحتم ونصصتم على⁴ أن الله تعالى أراد الضلال وفعله، على أقبح ما سمع، وأشنع ما به يتحدث. ثم إننا لا ندري مما يكون التعجب أكثر، إن كان من ذهاب عقولكم، أو من جهلكم بكتبكم.

فأما نقص عقولكم، فإنكم تقولون أقوالا تتناقضون فيها ولا تشعرون، وتلتزمون ضروبا من المحالات، وتتكرون أمورا جائزات، كما قدمناه⁵ آنفا. ولم نزل نبين ذلك من أول كلمة من هذا الكتاب إلى آخره.

وأما جهلكم بكتبكم، فقد جاء في كتابكم نصا، هذا المعنى الذي أنكرتم⁶ علينا، وذلك أن عيسى قال حين دنا أجله: يا أبتى⁷، إنك قادر على جميع الأشياء، فرج⁸ عني هذه الكأس، ولكن لست أسألك أن تفعل مشيئتي، إلا⁹ مشيئتك¹⁰. وهذا نص على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يفعل ما يريد، وأنه أراد صلب المسيح بزعمكم، وكان ضلالا لليهود بلا شك.

1- في ط: "وحاقت اللعنة".

2- في ط: "أن يكون ضلالا".

3- في ط: "وإذا".

4- في ط: "ونصصتم أن".

5- في ط: "قدمنا".

6- في ط: "أنكرتموه".

7- في ط: "أبتاه".

8- في ط: "فرج".

9- في ط: "بل".

10- متى 26: 39.

فما لكم تخبطون، وعن كتبكم تعرضون، بل أنتم عن عقولكم مصروفون، وفي ورطة الجهل مرتبكون، وفي بحبوحة الضلال عمهون.

فلقد صدق الذي قال: اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال.

والكلام على الهدى والضلال، والطبع والختم، يستدعي تطويلاً، وشرحاً وتفصيلاً، ومن طلبه وجده، إذا ساعده التحقيق ورافقه التوفيق.

وقد حصل غرضنا من مكالمة هؤلاء، وإفحامهم والحمد لله.

وأما قوله ودعوا، أنا وصفنا الباري تعالى بالجور، والقساوة والظلم، فعلى المثل السائر: رمتي بدائها¹ وانسلت².

أما نحن، فننزه الله تعالى عن كل ما ذكر، ولا نقول بقول يؤدي إلى ذلك، وكيف يصح في حقه تعالى الظلم والجور، وهو إنما يتصرف في ملكه وملكه وخلقه. ولا يجب عليه لأحد من خلقه حق، بل هو متفضل بكل ما يفعل، وإنما يتصور الظلم والجور، في حق من تصرف في ملك غيره، أو عدل عن فعل ما وجب عليه، وهذا كله في حق الله تعالى محال.

وإنما يلزم وصفه بالظلم، والجور والقساوة، لمن قال إن آدم عصاه، ثم جعل ذنبه على جميع ولده، ثم لم يقنع بشيء من دمائهم، بل ولا من دمائهم كلهم، حتى انتقم من إله³ مثله، وأجرى دمه على خشبة الصليب، فهذا ظلم من حيث حمل الذنب من لم يفعله، وجور من حيث قتل إلهها، لأجل لقمة من شجرة أكلها غيره، وقساوة من حيث قتل ولده وحبيبه، في عبده العاصي عندكم ولم يعف.

نعمذ بالله من هذه القبائح، ومن التزام هذه الفضائح، وتتبع جهالات الجهال، إخل بعقول⁴ العقال.

على أن كلام هؤلاء القوم، لا يستحق أن يسمع، إذ ليس لهم في العقول مطمع، ولكثرة فساد كلامهم، يحار التحرير الناظر في هذيانهم، فيظل متعجباً وينشد متمثلاً.

1- في خ/م: "برأيها".

2- من أمثال العرب المشهورة، وزعموا أن سعد بن زيد مناة بن تميم كان تزوج رهم بنت الخزرج بن تميم الله بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، وكانت من أجمل الناس، فولدت له مالك ابن سعد وعوقاً، وكان ضرائرها إذا سابنها يقلن: يا عفلاء فقالت لها أمها: سابئك فأبدئيهن بعقال فسابتها بعد ذلك امرأة من ضرائرها، فقالت: يا عفلاء، فقالت ضربتها رمتي بدائها وانسلت فأرسلتها مثلاً. وينو مالك بن سعد رهم العجاج، وكانوا يقال لهم بنو العفيل.

3- في خ/م: "الله". بحق معقول

4- في ط: "بحق معقول".

تفرقت الأطباء على خدّاش¹ ... فلا يدري خدّاش² ما يصيد .
 وأنا أكرر الاستغفار من حكاية³ كلامهم، وأسأله النفع بإظهار فساد مرامهم، ومع ذلك
 فقد أصبنا منهم غرضاً، وصادفنا منهم مقتلاً . ولئن زادوا زدنا وإن عادوا عدنا .
 إن عادت⁴ العقرب عدنا لها ... وكانت النعل لها حاضرة .
 وينبغي أن نختم الكتاب، بدعاء مأثور عن رسول الله، فلعل الواقف على كتابي هذا
 يؤمن عند خاتمته، وعسى الله أن يشركنا في صالح دعوته .
 فأقول: اللهم اقسم لنا من خشيتك، ما تحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك، ما
 تبلغنا به جنتك، ومن اليقين، ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا،
 وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا
 على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا،
 ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، آمين آمين .
 والحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد سيد المرسلين، وسلام عليه وعليهم في
 العالمين، وعلى صحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .
 [نجز الكتاب المبارك]⁵ بحمد الله، وحسن عونه [وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم
 النبيّين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً]⁶ وحسن توفيقه، على يد العبد الفقير
 إلى الله تعالى، علي بن محمد بن عانبه الفيومي نسباً، والشافعي مذهباً . حامداً لله
 ومصلحاً ومسلماً على رسول الله، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، في سابع عشرين شهر
 ربيع أول سنة تسع وسبعين وثمان مائة .
 قال في أصل النسخة: وكان الفراغ منه، ضحوة سادس شهر شعبان، سنة ست
 وعشرين وسبع مائة، بدمشق المحروسة والحمد لله رب العالمين .

1- في ط: "خرّاش" . والبيت من الأمثال العربية المشهورة وورد "بخرّاش" و"بخدّاش" . وقد ذكره ابن الأثير
 في المثل السائر، والأبشهي في المستطرف في الباب الذي أفرد في الأمثال الشعرية، وذكره ابن القيم
 قائلاً: "يحكى أن بعض العرب: أرسل صائداً له على صيد فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه وعن
 يمينه وعن شماله فوقف باهتاً ينظر يميناً وشمالاً ولم يصطد شيئاً فقال: تكاثرت الأطباء على
 خراش ... فما يدري خراش ما يصيد" .

2- في ط: "خرّاش" .

3- في ط: "حكايات" .

4- في خ/م: "عادة" .

5- في خ/م: مكان العبارة بين معقوفتين فارغ.

6- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

وكان الفراغ منه أواخر يوم الخميس أواخر شهر جمادى الأولى سنة اثنين وأربعين ومائة وألف بجزيرة جربة. وأما الفراغ من نسخ أصله ضحوة سادس يوم من شعبان سنة ستة وعشرين وسبع مائة بدمشق المحروسة. ووجدت على الأصل المنتسخ منه ما صورته: "قرأته على الإمام العالم الزاهد مصنّفه -رضي الله عنه- بتاريخ مفتتح عام ثمانية وعشرين وستماية. وكتب العبد الفقير إلى الله أحمد بن يوسف السلاسي: "وجدت على الأصل أيضا: "بلغت المقابلة بالمبيضة والحمد لله وحده، وذلك على يد الفقير إلى مولاه الغني به أحمد بن عمر في العشر الأول لحرم سنة سبعة عشر وستماية والحمد لله حق حمده والصلاة على محمد نبيه وعبيده.

ووجدت أيضا على الأصل المنتسخ منه ما صورته: طالعه من أوله إلى آخره فاستطعت طلعه في موارده ومصادره وإن وجدناه البحر للمعارف زاخرا، وفجرا للحقائق باهرا، فياله من تأليف ما أبدع اختراعه، وأبرع مأخذه وأنواعه، لقد برز في حلبة السباق، وأعجز عن اللحاق، وتتحير الأبواب في فهمه، وتتفرق القلوب عن نظمه، جلا نوره ظلام الشكوك، ونهج طريقا للسلوك. وكسرت معنوياته الحقيقة مجاز الصليب، وحيرت بزئبق إكسيرا كيما الجبروت، ووعدت الواحد بنفي الشريك، ونقض التركيب، والتثليث، وسهلت منهج الحق بين ووارث زند المعارف، منار اهتداء، وقبلة اهتداء، وحجة حاسمة في الابتداء والانتها، ورفعت لجاج الأعجاج، بما بسطت من الحجاج، و افك الافك ببرهااتها في فتى تاتيدها اللاهوتي وسلطانها المؤلف حياته اسمه ويقاء رسمه على فناء الأيام وموت الآنام إلى أحرزته من الأجر وجارة من جزيل الدخر أن حج الله به ميزانه وبيض ديوانه واستخلصه خلاصة لوجهه وأمانا من توبيخه، ونجهه إنه منعم كريم ونفع به الناظر فيه ومجالسه ومن يصطفيه وكتب خادم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن أبي أحمد بن موسى بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن مغيرة بن شرحبيل.

ملحق 1

نص كتاب "تثليث الوجدانية في معرفة الله"

قال صاحب كتاب: "تثليث الوجدانية في معرفة الله".

الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها، وأمرنا بحمده، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر والتعظيم للموكنا، وأهل الرهبة من ذوي السلطان منا، فرضا له شاكرين حامدين، معظمين غير واقفين على ذاته، ولا مدركين لشيء منه، وإنما نقع على أسماء أفعاله في خليقته وتدبيره في ريوبيته.

الآن وجب علي أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق، إن كان خلقهم بقدرة وعلم وإرادة، أم خلقهم بغير هذا؟ فإذا اضطرتك المسألة إلى القول بها فإني أسألك: إن كانت أسماء لذاته؟ أو أسماء لأفعاله؟ فإن قلت: هي أسماء لذاته، فقد نقضت، وجعلتها أسماء للذات ووقعت فيما أنكرت من الجسم. وإن قلت: من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم مرید فهو التثليث الذي أمرنا القول به.

فإن قلت لم لا تقولون بسم القادر العالم¹ المرید، إذا قلتم باسم الآب والابن والروح القدس². فيتبين: آب، وابن، وروح القدس³، ثالثا.

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين إلى جميع الأجناس، قال لهم: "من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب، والابن، والروح القدس"^{4,5} وإنما خاطبنا بمثل تعاقلنا، فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال، ثم واسط، ثم آخر.

فأول القضايا: خلق الله الجميع برياً⁶ سماها: آبا، وأضافها إلى القدرة. وأضاف قضية وعظ المسيح للناس إلى العلم، وسماها: ابنا، لأن العلم لا يوقع عليه، حتى يتولد

1- في خ/م: "القادر العالم".

2- في خ/م: "القدوس".

3- في خ/م: "القدوس".

4- في خ/م: "القدوس".

5- متى 28: 19.

6- في ط: "بيد".

كلاما . وأضاف قضية فناء الدنيا¹ ومكافآت جميع أهلها² بأعمالهم إلى الإرادة، وسماها :
روح القدس³ ، الذي هو قادر عالم مريد ، أسماء⁴ للواحد الذي لا يتكرر .

إن قلت: إذ قلتم⁵ بالتثليث لأنها أسماء أفعال الله، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة،
فقولوا بها كقولكم بالتثليث، لأن عزيز وقوي وغلوب وسميع وقاهر ويصير وغفور وراضي
وساخط ومعاقب وغيرها من أسماء أفعاله، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث، قلت لك:
هذه التي ذكرناها هي أصول جميع التسمية، ومنها تتبثق، وفيها تندغم، فعزير وقوي
وغلوب وقاهر وما أشبهها أصلها القدرة، ومنها تتبثق وفيها تندغم، وغفور ورحيم
وراضي وساخط ومعاقب أصلها الإرادة، منها تتبثق وفيها تندغم؛ فإن قلت: فقديم وحي
ليست منبثقة منها، ولا مندغمة فيها، فقولوا بالتخميس . قلت لك: إن قديم وحي أسماء
ذات لا أسماء⁶ أفعال، وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحدا لنفي ضده، فقديم لنفي
محدث، وحي لنفي ميت، ورب لنفي مريوب، واله لنفي مألوه، فكل اسم من هذه: القدرة
والعلم والإرادة التي هي أسماء أفعال ثلاثة لذات واحدة لا يتكرر، وكما أنا قد فهمنا أن
نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، إن نقص منها واحد لم يتم له فعل، وإن زاد
فيها رابع لم يتفق، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة، وذلك أن الإنسان لا
يقوم له فعل دون الثلاثة؛ وذلك: القدرة والعلم والإرادة لا⁷ رابع منها، فإن عجزت معها⁸
واحدة لم يتم له بالاثنتين فعل، لأنه إن علم وأراد ولم يقدر فقد عجز، وإن قدر وعلم ولم
يريد، فلا يتم له شيء إلا بالإرادة، وإن قدر ولم يعلم، لم يتم له فعل بالجهل. فقرب لنا
الكتاب: معرفة الخالق بخلقه لهم، بمثل تعارفنا في أنفسنا، أن القدرة والعلم والإرادة
خواص قائمة هي المتمة للفعل منا، وإنما لذات واحدة. وكذلك التثليث في الله واحد .

1- في ط: "فناء جميع الدنيا".

2- في ط: "مكافأة أهلها".

3- في خ/م: "القدوس".

4- في ط: "أسماء".

5- ما بين المعقوفتين ساقط في ط.

6- في خ/م: "اسم".

7- في ط: "والإرادة لا رابع".

8- في ط: "منها".

فإن سأل سائل من المخالفين فقال: فما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق؟ وكيف يمكن أن يكون¹ الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة، مع ما ابتدأتم به من القول وإثباتكم إياه فردا لم يزل؟

قلنا لهم: إما أن تكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة، فذلك² لعمري مالا يمكن كونه، ولكننا³ نقول: أن جوهرنا قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات، جوهرات غير متباينات، ولا متفرقات في الجوهر القديم الأزلي، الذي لا يتبعض ولا يتجزأ بعينه وكماله، فلا هو ثلاثة، وجميع الثلاثة خواص هي بمعنى ما هو واحد، ولا هو واحد بمعنى ما هو ثلاثة، أعني ليس هي⁴ خاصة واحدة، بل ثلاثة خواص، فهذا مذهبنا في تثليث وحدانية الخالق.

ثم نبدأ بالقول في الاتحاد، فإن قلت فإذا كان⁵ التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض فلم⁶ بعضتموه دون الأب وروح القدس⁷؟ ولم سميتم المسيح ابنا⁸ ولم سميتموه أبا وروح القدس؟

اعلم أنها لم تفارقنا⁹ القضايا بالأفعال اختلفت أسماءها كما قدمنا فأضفت¹⁰ قضية خلق الخليقة بدءا¹¹ إلى القدرة وسميت أبا وأضفت قضية الموعدة إلى العلم المتولد كلاما وسمى ابنا وانفردت قضية الوعد باللحمة دون غيرها لأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعدة لا لخلق الخليقة لأن الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق بدءا¹² يسمى الجسم أبا وأضفت اللحمة إلى الأب ولكنه إنما اتخذ له لموعدة الخلق والوعد مضاف إلى العلم

1- في ط: "تكون".

2- في ط: "فلذلك".

3- في ط: "ولكن".

4- في ط: "هو".

5- سقطت كلمة "كان" من خ/م.

6- في خ/م: "فلما بعضتموه".

7- في خ/م: "القدوس".

8- ما بين المعقوفتين ساقك من ط.

9- في ط: "لما تعارف القضايا بالأفعال".

10- في ط: "فاختلفت قضية خلق الخليقة".

11- في ط: "بيد".

12- في ط: "بيد".

المتولد كلاما فسمى إبننا فلذلك قال الإنجيل التحمت الكلمة وسكنت فينا فأفرد الكلمة بالالتحام لأنها الواعظة بالأمر والنهي دون القدرة والإرادة فهذا أخصر¹ شرح الإتحاد .

فإن سأل سائل عن معنى الإتحاد قلنا نقول بذلك تقليدا للإنجيل والنبیین ورسـل² رب العالمين فيما نقلوا من ذلك وأعلموناه³ عن الله وفيما نص لنا عنهم بتصديق الأخبار الذي لا تكاذب فيها .

فإن قلت وكيف يجوز أن يتوحد⁴ القديم بالحادث والخالق بالمخلوق قلنا على تقليد الكتاب وعلى الجائز في العقول وذلك أنا لا نقول إن القديم في الجوهر صار حادثا ولا الحادث في الجوهر صار قديما ولكننا نقول صار الحادث إلها ولا نقول صار الإله حادثا⁵ كما نقول صارت الفحمة نارا ولا نقول صارت النار فحمة .

فإن قلت فما علة هذا الإتحاد قيل لك الإرادة⁶ وسائلك⁷ هذا كسائل يسأل فقال لم خلق الله العالم فمن الجواب له أن يقال له أراد ذلك فإن قلت أفهذا الإتحاد⁸ قديم أو حديث⁹ قيل لك قديم وحادث، فإن قلت فكيف يكون قديما وحديثا¹⁰؟ قيل لك قديم بالقوة حديث¹¹ بالفعل . وكل عنده حاضر لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان ولا يعد الأشياء بالأعداد وكل عنده مقيم حاضر¹² .

ثم نقول لمن ناظرني من نافية¹³ المسلمين: إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه

1- في خ/م: "أحصر".

2- في خ/م: "رسول".

3- في خ/م: "وأعلمونه".

4- في خ/م: "يتوحد".

5- في خ/م: "ولا إن الحديث في الجوهر صار قديما، ولكننا نقول صار الحديث إلها، ولا نقول صار الإله حديثا".

6- في خ/م: "لإرادة".

7- في خ/م: "سئلك".

8- في خ/م: "الاتخاذ".

9- في ط: حادث.

10- في ط: "حادثا".

11- في ط: "حادث".

12- في ط: "حاضر مقيم".

13- في ط: "باقية المسلمين".

تكليما فكيف كان ذلك وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من إدراكه في الدنيا والآخرة لأنه لا مفطور ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام¹.

فإن قلتم إنه كلمه بذاته فقد أوجبتم له جارحة النطق ووقعتم فيما أنكرتم² من الجسم وإن قلتم إن الله خلق له كلاما فقد أثبتتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه جوهرًا في نفسه إذ لم يكن عرضا في الله قال لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾³، وأثبتتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى وأن موسى⁴ أقر لها⁵ بالربوبية لقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁶ وقول الصدى الذي هو المتكلم له: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، فإن قلت أن الصدى لم يقل له أنا الله ولكنه في مسامع موسى أنا الله قلت لك أن الصدى هو العامل في مسامع موسى وهو المحرك له وعليه رد وإياه أجاب⁷. والدليل على أنه كان في غفلة فما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون حتى خلق له نارا أبصرها فنزع إليها فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى قال له: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ إلا أن تقولوا إن موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من إرساله إلى فرعون دون النار والكلام فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما وخبرهما لم يفد شيئا، وهذا من القول تشنيع الكذب وإذا لم يكن بد من أن موسى لم يدرك المرسل له إلا بواسطة اتخذ⁸ له يسمى باسمه فالواسط هو العامل في موسى وعنه تحمل الرسالة حتى يأتي فرعون بمصر ويقول إن الله تراءى لي بطور سيناء وبعثني إليك لترسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم مجددا الموضع الذي أقبل منه من عند الله وكان الله بمصر وفي كل مكان ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهي إلا بكلام محدود من جسم مفطور خلق الله له نارا أبصرها فنزع إليها ثم أحجب فيها صدى سمعه منها قام عنده مقام خالق فسماء إلها.

1- في خ/م: "أوهام".

2- في ط: "فيمًا أنكرتموه".

3- سورة طه، آية: 14.

4- "وأن موسى"، ساقطة من خ/م.

5- "لها" ساقطة من ط.

6- سورة الأعراف، آية: 143.

7- في خ/م: "جواب".

8- في ط: "اتحد".

فإذا لم يكن بد من الصدى فقد قال أنا الله فأسألك إن كنت تصدق الصدى أم تكذب فإنه لم يكن بدا¹ من تصديقه في قوله بالربوبية² إذ قال: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، قلنا لكم وكذلك صدق المسيح في قوله أنا الله وأنا لنرى كذا صدقه³ الحواريون ومن اتبعه من غيرهم في قوله في الربوبية كتصديق موسى للكلام والاتمار⁴ له برسالته إلى أهل مصر وقد أوجبتم أن جسم المسيح وكلامه لما خاطب⁵ بالربوبية مثل جسم النار والكلام إذا خاطب موسى بالربوبية.

فإن قلت إن موسى لم يعبد النار والكلام⁶ كما تعبد النصارى المسيح. قيل لك إن الكلام قال له اعبدني وسجد له موسى وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين فإن قال المسلم عند الإضرار إن النار والصدى واسطة ولكنها خلاف المسيح وكلامه لأن النار ليس من طبعها الكلام وأما المسيح فإنه كان إنسانا معروفا بالكلام فلا آية فيه قلنا لك إذ قد أوجبتم أن الخليفة لا تدرك الخالق إلا بجسم مخلوق يتخذه⁷ وتجعله واسطا بالواسط⁸ بينه وبين من خاطب من الأنبياء ويصير الواسطة لهم إلها فقد جامعتموه على الإقرار بواسط⁹ مخلوق بالربوبية للمسيح ووقعتم فيما أنكرتم وليس ينفعكم ملجؤكم إلى القول بأن النار والمسيح ليس آية.

وإنما أوجبتم علينا الشرك في قولنا بواسطة فإذن العقل والحق لا يعيب الواسط فكلا الواسطين بين الله والخلق. وإذا ذهبتم إلى أن النار صادقة لا يتخوف منه¹⁰ الكذب وأن المسيح يتخوف عليه الكذب فإن موسى قد أوجز في النار والكلام وإنما قطع الشك

1- في ط: "فإذا لم يكن بد".

2- في ط: "قول الربوبية".

3- في ط: "صدق".

4- في ط: "والا يتماهى وأظنها الأصح".

5- في ط: "خطب".

6- والكلام ساقط في ط.

7- في ط: "تتخذه".

8- في ط: "واسطة".

9- في ط: "بواسطة".

10- في ط: "عليها".

باليقين بآية العصا واليد الذي أدخل¹ في جيبه وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم بإقرار الموتى عند إحيائه لهم بربوبيته وإن ذهبتم إلى أن خلق النار في ذاتها أشرف فإن كل مخلوق في الدنيا هو منافع لولد آدم مسخرة لهم وكفى بقولكم في قرآنكم² إن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم وأن إبليس مسخوط عليه في الأبد لإبائته³ السجود له وقوله: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾⁴.

فإن قلتم كذبتم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئاً قلنا إنما أنكرتم علينا القول بما وجدنا في كتابنا نحن لا نعتدل⁵ بمثل هذا في الأبد فاضررناكم من كتابكم إلى القول بمثله فلما ثبت⁶ قلتم كذبتم على المسيح فلم تكذبونا وكتابنا على القول بمثل قولكم في واسطة موسى وعبادته لها وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها ثم يقول قرآنكم⁷: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾⁸.

فما تتكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطاً⁹ للوعظ أن يكون هذا المقبل مع الملائكة كما قدمه في الإنجيل حيث قال: "يقعد ابن الإنسان أعني"¹⁰ الحجاب المتخذ من نسل آدم في مجلس عظمته ويقدم¹¹ جميع الأمم بين يديه ويميزهم كما يميز الراعي الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه والمجرمين عن شماله ثم يعاتبهم ويأمر¹² كل طائفة بمثل ما قدموا في دنياهم¹³.

1- في ط: "أدخلها".

2- في خ/م: "قولكم"، وهو تصحيف.

3- في ط: "إبائته".

4- سورة الأعراف: آية: 12.

5- في خ/م: "نعتدل"، وهو تصحيف.

6- في ط: "أبيناً".

7- في خ/م: "تقول قراءتكم".

8- سورة الفجر، آية: 22.

9- في ط: "واسطة".

10- في ط: "يعني".

11- في ط: "وتقدم".

12- في ط: "ويأمن".

13- متى: 25: 31-33.

وإذا أوجبتكم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس مع إقراركم أن ريكتم قال ترون ريكتم ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر أو لم تتكروا أن يكون المسيح الذي كان واسطاً للوعظ أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾¹.

ابتداء احتجاج الثلاث ملل بعون الله:

اعلم أن أهل الملل أجمعين متكافئون² في إدعاء الإيمان حاكمون³ على كل قوم لأنفسهم بالإيمان ولغيرهم بالكفر قد غلبت عليهم في ذلك الغواية⁴ وتأديب الصبا ووصية الآباء والأجداد⁵ حتى صار ذلك طبعاً فيهم لازماً لهم فكلهم قد سهل عليهم انتقاص⁶ غيرهم وطالب عندهم⁷ دينهم بالتهنية في دنياهم عن ميعاد⁸ آخرتهم وصاروا في تدبير دنياهم ومعاشهم على خلاف ذلك لأنك تجد أهل كل ملة يزعمون أن غيرهم من الملل الحف على كل طلب معاشهم والطف⁹ في استجلاب أرزاقهم.

وأحسب أن العلة في ذلك رغبتهم في التكاثر من الدنيا وهي¹⁰ التي تدخلهم إلى التحاسد والمغايرة¹¹ فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم وأن الآخرة عندهم مهمة لبعدها عن حواسهم.

1- سورة البقرة، آية: 210.

2- في خ/م: "متكافئين"، وهو تصحيف.

3- في خ/م: "حاكمين"، وهو تصحيف.

4- في خ/م: "الغواية"، وهو تصحيف.

5- في خ/م: "الأدباء"، وهو تصحيف.

6- في خ/م: "ابتغاض"، وهو تصحيف.

7- في خ/م: "عنادهم"، وهو تصحيف.

8- في ط: "معاد".

9- في خ/م: "الأنطى"، وهو تصحيف.

10- في ط: "وهي".

11- في ط: "المغايرة".

فلذلك يزعم¹ أهل كله ملة أنهم أحق خيرا من غيرهم فلذلك قل تتأصفهم فيها وإن طال عصرهم لأن كل قوم قد قلدوا سلفهم وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم وذم غيرهم فأسقط الرجل منهم كل حاسة وأمات خواطره وأذهب فهمه بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره واستعماله إياه بما هو مدبر عنه من دنياه.

ولتجدن² الرجل من كل ملة يروم شراء خرقة يرقع بها ثوبه أو شركة لنعله فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة والغلط، ثم إذا صار إلى كشف دينه ومعاذه اكتفى فيه بتقليد سلفه ثم لا يبالي [بدليل]³ من خالف ملته وانتقص⁴ كل خارج عن دينه.

فكل يقتحم المناظرة وإن لم يحسنها ويرأها فريضة وهو لا يفهمها ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات إلا الفضول معترف فيها للفضائل لا الجدال والمناظرة وأن الجميع يدعون أمرا لا يقدر على التناصف فيه لبعده غايته [لأنهم يختلفون في الباري الذي]⁵ لا يدركونه بالحواس فيختلفون في معرفته وإنما يتعارف الناس فيما [يدرك بالحواس ويتصور]⁶ في الأوهام فينقمع العقل السليم في إجابة الحق إذا أدركه وانكشف⁷. فلذلك يجادل كل قوم عن دينهم ويفضلون أنفسهم على غيرهم ويدلك على ذلك أنك تجد الصقلي العبد الحبشي يقع مرقوقا بيد رجل من أحد الثلاث ملل فيرده إلى ملته ويورد عليه أخبار سلفه فيقبله منه كتقبل الأطفال المعذبين فيه وعلته في ذلك أنه يجد صدره خاليا من الأخبار المدونة في الكتاب⁸ فيتعلق بما أورد عليه من أخبار من علمه ويتمكن ذلك في صدره حتى يصير واحدا من أهل الملة في إدعاء الفضل لها وانتقاض⁹ أهل غيرها والطعن عليهم.

1- في خ/م: "يزعمون"، وهو تصحيف.

2- في خ/م: "وليجدن"، وهو تصحيف.

3- في خ/م: "كيف"، وهو تصحيف.

4- في ط: "وينتقص".

5- في ط: "وهو أنهم ليعتقدون في معرفة الباري تعالى لأنه".

6- في ط: "يدركونه بالحواس ويتصورونه".

7- في ط: "وانكشف له".

8- في ط: "الكتب".

9- في ط: "انتقاض".

ولو أن مجوسيا دخل بلدنا طارئا أو تاجرا فكبرت¹ عليه مجوسيته ووحش لوحده على البقاء عليها عازما على رفضها ثم طلب الخروج إلى أفضل الثلاث الملل المفسدة² عليه مجوسيته لتحرير وعمى أيتها³ أفضل فخرج⁴ إليها [إذا وجد]⁵ كل قوم يدعون لأنفسهم الإيمان ولغيرهم الكفر ثم تجدهم متكافئين في إدعاء الآيات لأن أهل كل دين يزعموه أن بينة دينهم على آيات قامت وبراهين ظهرت وما تجد عند أحدهم آية من تلك الآيات التي زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى إلى الدخول في أديانهم.

ولكن الذي كان يضمه إليه حسن نظره أن يتوقف حتى يسمع حجتهم ويستعمل عقله في دعواهم ليفهم [ما احتجاجهم من نبذ الحق]⁶ فكان يجد في دعواهم أن النصراني والمسلم مقران لليهودي بأن دينه أول وأنبياءه حق ثم يقول النصراني إن كتابي جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودي ثم يقول المسلم وكذلك جاء كتابي بعد فنسخ طاعة دين النصراني كما نسخ اليهودي فإذا كشف⁷ المجوسي اليهودي عما ادعياه أنكرهما وقال لم يأت بعد كتابي من الله كتاب ثم إذا سأل النصراني عما ادعاه المسلم أنكر أيضا وقال لم يأت [كتاب من الله بعد كتابي]⁸.

فوجب على النصراني أن يأتي بالبينة على اليهودي من الكتب التي أقر له بها فإن لم يكن فيها مسيحا منتظرا فلا حجة له عليه ولا معلق له إليه وإن كان فيها مسيحا منتظرا يرجى صلاح الحال من سببه⁹ ووافقت علاماته علامات الذي قد جاء وظهر فإذا كان فقد اختار النصراني الرسالة الأولى والثانية لنفسه وخرج اليهودي عن رضا¹⁰ المعبود بجحده الرسالة الثانية ودفعه لسنته¹¹ فيما أعقب به في عباده من الرسالة الثانية

1- في خ/م: "فكسرت"، وهو تصحيف.

2- في خ/م: "المسدة"، وهو تصحيف.

3- في ط: "آية".

4- في ط: "فيخرج".

5- في ط: "لأنه وجد".

6- في خ/م: "فاحتجاجهم من نبر الحق"، وهو تصحيف.

7- في ط: "كاشف".

8- في ط: "بعد كتابي من الله كتاب".

9- في خ/م: "سببه"، وهو تصحيف.

10- في خ/م: "رضى".

11- في ط: "سنته".

ثم يحمل المسلم البينة على النصراني من الكتب التي أقر له بها وجامعه عليها فإن لم يكن فيها محمد منتظرا¹ فلا حجة له عليه ولا مطمئن² له إليه.

وإن كان فيها محمد منتظرا ثم وافقت علاماته علامات الكتب فقد أصاب المسلم ولزم النصراني الخروج عن رضا معبوده.

قال: ومن بينة النصراني على اليهودي أن في الكتب التي أقر له بها وجامعه عليها مسيح منتظر لا يقدر على جحده لأن إنتظاره معروف فيهم وظاهر عليهم ودل على زمان مجيئه أنهم منتظرون له منذ سببت اليهود وبددت إلى اليوم فإذ قد لزم اليهود إنتظاره³ من وقت تفريقهم في الدنيا فقد وجب للنصارى أن يقولوا أنه قد جاء والدليل على أنه هو أن اليهود اختلفت من سببه فصارت فرقتين على الكفر والإيمان به فالفرقة الكافرة هم اليهود والفرقة المؤمنة هم النصارى فأمنت طائفة وكفرت طائفة والكتب أجمع مع كلامهم يحتجون بها بعضهم على بعض يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ويختلفون في تأويلها كفعالهم إلى هذه المدة والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما أن ننظر في الكتب ونستدل بها على حالة بني إسرائيل منذ كانت على الإيمان والكفر فإنهم إن كانوا على الكفر فإنه يلزمهم الذلة إذ الذلة والأسرة والفرقة علامة الكافرين وموجودة⁴ في الكتب أن الله لم يوعدهم بالثواب [في الآخرة]⁵ لبني إسرائيل على الطاعة والإيمان وإنما وعدهم في الدنيا فوعدهم عند الطاعة والإيمان بالملك والنعمة والنقمة من عدوهم والتمثير لزرعهم وفواكههم وأوعدهم عند الكفر والعصيان بالتغلب عليهم والملك والقهرة لهم من عدوهم فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة والإيمان ومستعبدين عند الكفر والعصيان قال: وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء قال النبي هوشع بن بثري⁶ عليه السلام هكذا بكلام عبراني: "كي يا ميم ربيم يا شابوا بأنا إسرائيل أن ملخ

1- في خ/م: "منتظر"، وهو تصحيف.

2- في خ/م: "معلق"، وهو تصحيف.

3- في ط: "بانتظاره".

4- في ط: "موجود".

5- ما كتب بين معقوفتين ساقط من خ/م.

6- في خ/م: "باوي". ابن بثري. وهو نبي من الأنبياء الصغار، تنبأ أيام الملوك عزريا ويوثام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا ويرعام الثاني ملك المملكة الشمالية (هو: 1). ويظن أن فترة نبواته دامت حوالي أربعين سنة، في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد عاصر هوشع سقوط السامرة سنة 722 ق.م. وكان ينتمي إلى مملكة الشمال، وإلى تلك المملكة (أي السامرة). تنبأ، وكان معاصرا لإشعيا.

وإن صار¹ تفسيره²: "إن أيا ما كثيرة يقيموا بني إسرائيل دون ملك ودون مقدم³ فإذا سئل اليهودي الجاحد إن كان لهم ملك أو مقدم فلا يكون جوابه إلا أن يقول ليس عندنا ملك ولا مقدم فيقال لهم إذ ليس عندكم ملك ولا مقدم فاسمع ما قال يعقوب الذي كان له اثني عشر ولدا الذي منهم يوسف الصديق رضي الله عنهم أجمعين إلى يوم الدين قال الفاضل يعقوب بكلام عبراني: "لو يا صور شابات مي يهودا ومحو كيك [صبان غلات غاض⁴ كى يا بوشيلو ولوا اقاهاث عميم⁵، وهذا تفسيره⁶ لا ينتقض قضيب⁷ الملك من يهودا وراسم من بين رجليه حتى يأتي المسيح وله تطوع الأمم.

فيقال له⁸ إذ ليس لكم ملك ولا مقدم فقد جاء المسيح لقول⁹ يعقوب [لا ينتقض قضيب الملك من يهودا وراسم من بين رجليه حتى يأتي المسيح فقد كمل ما قال يعقوب¹⁰] النبي إذ ليس لهم ملك.

وقال يرميا¹¹ النبي عليه السلام في الطائفة الكافرة به بكلام عبراني هكذا: "أم يا

الذي تتبأ لمملكة الجنوب (يهودا) (قابل هو: 1: 1 مع إش: 1: 1). كما أن هوشع عاصر عاموس في المملكة الشمالية وميخا في المملكة الجنوبية. وسفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار في ترتيب وضعها في الكتاب المقدس. وهو السفر الثامن والعشرون، في العهد القديم ويتألف من قسمين: ص 1-3، ثم ص 4-14. أما القسم الأول فيرجع إلى السنوات الأولى من عهد نبوءة هوشع. وهو يفسر إصحاحات القسم الثاني، التي تدور حول عدم وفاء شعب بني إسرائيل في تاريخهم الطويل (4: 1-5: 7، 6: 4-7: 16، 8: 11)، وحول ضرورة الطهارة، والاعتراف بمحبة يهوه (6: 1-3، 12: 14) (ويرمز إلى خيانة بني إسرائيل لله في الإصحاحات الثلاثة الأولى بالخيانة الزوجية.

1- سفر هوشع: 3: 4. כי ימים רבים, ישוב בני ישראל—אין מלך ואין שר.

2- في خ/م: "فسره".

3- هوشع: 3: 4، "لأن بني إسرائيل سيقعدون أيام كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وبلا ترافيم".

4- في ط: "مبين رعلاف عاد".

5- التكوين 49: 10. לֹא-יִסּוּר שִׁבְט מִיְהוּדָה، וְיָחִי קֶקֶד מִבֵּין רַגְלָיו، עַד כִּי-יָבֹא מֶלֶךְ יִשְׂרָאֵל، וְלֹא יִקְהַת עָמִים.

6- في خ/م: "فسره".

7- في ط سقطت كلمة "قضيب".

8- في ط: "لهم".

9- في ط: "كقول".

10- ما بين المعقوفتين ساقط من ط.

11- في ط: "إرميا".

عمود موشا وشموا لافاناي¹ أن نفسى² الها عم هذا شلاح معال فاناي ويا ساوها ياكى نمروا³ أناه ناسا وامرتا [لاميم مي]⁴ لما باث لما باث امى لسانى⁵ امى لا راعاب لا راعاب وخلاي⁶ حامتي⁷ بام⁸.

اسمع كلام الله على لسان رميا⁹ النبي تفسيره¹⁰: "إن وقف إلى موسى وشموا لا نرضى عن هذه الأمة أرميهم من قدامى ويخرجوا فإن قالوا أين يخرجوا فتقل لهم من الموت إلى الموت ومن الغي إلى الغي¹¹ ومن الجوع إلى الجوع ويكمل غضبي فيهم¹²."

فيهم في غضب الله بكفرهم بالمسيح الذي قد جاء.

ثم قال الله¹³ على لسان يعقوب النبي الفاضل بلسان سرياني هكذا: "ألا يا عضا عاث شلطان مرفاث¹⁴ يهودا وصفوا متانا بانوهي عاض على ما عاثرا¹⁵ ياتا ماشيحا داث لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عما¹⁶ مايا" وهذا تفسيره¹⁷: "كما قاله الله على لسان نبيه

1- في ط: "لقاني".

2- في ط: "نفسى".

3- في ط: "يمرو".

4- في ط: "لاهميم مى".

5- في ط: "تشانى".

6- في ط: "خلاى".

7- في ط: "جماتى".

8- إرميا 15: 1-2،^ك "وَيَا أَمْرَ يَهُوَه، أَلَيْ، أَمْ-يَعْمَد م'شَه وَشَمُوَئِيل لَفَنِي، أَيْنَ

نَفْسِي أَل-هَعَم هَذِهِ، شَلَح مَعَل-فَنِي، وَيَضَاو. ٢ وَهِيَ كِي-ي' أَمْرُو أَلِين،

أَنَّهُ نَضَا، وَأَمَرَتِ أَلِيَهُمْ ك' ه-أَمْرَ يَهُوَه، أَسْرَ لَمَوْت لَمَوْت وَأَسْرَ

لَحَرْب لَحَرْب، وَأَسْرَ لَحَرْب، وَأَسْرَ لَشَبِي لَشَبِي.

9- في ط: "إرميا".

10- في خ/م: "فسره".

11- في ط: "الغنى إلى الغنى".

12- إرميا 15: 1-2. ثم قال الرب لي وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب.

أطرحهم من أمامي فيخرجوا ويكون إذا قالوا لك إلى أين نخرج أنك تقول لهم هكذا قال الرب الذين

للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي.

13- في ط: "تعالى".

14- في ط: "ألا يا عضا عاث غلطان مد أفات".

15- في ط: "عاث ذا".

16- في ط: "عاما".

17- في خ/م: "فسره".

يعقوب: "لا ينتقض قضيب الملك من يهودا ورأس من أنبيائه¹ حتى أن يأتي ما شيحا الذي هو المسيح الذي له ملك² وله تطوع الأمم".

وقال الله تعالى على لسان يرميا النبي في انقطاع ملكهم بكلام عبراني هكذا: "فأضاع أدوناي يا حور أف كل كان³ إن إسرائيل"، وهذا تفسيره⁴: "قطع الله بشدة غضبه جميع دولة إسرائيل" فافهم فقد جاء المسيح وانقطع ملكهم.

وقد قال الله على لسان يرميا النبي في إثبات شريعة المسيح وإيمان الحواريين قائلا بلسان عبراني: "[من ياميم بايم نوم أدوناي واحارتي لايت وابت إسرائيل يهودا بريث حاد شالو خبريت أشير نار بي أبوثام باليوم موسى أاثام هي أرض نص ثم ميلت عابا ضميم]⁵ تفسيره، يقول الله: وأثبت لبيت إسرائيل ويهودا عهدا جديدا ليس كالعهد الذي قلت لأبائهم في اليوم الذي أخرجتهم من أرض مصر من بيت العبودية".

فبين الله بهذا الكلام إيمان الحواريين⁶ والتابعين لهم كما قال الله في موضع آخر على لسان إرميا النبي بلسان عبراني عن إيمان الحواريين قال: "أشربوا⁷ بانيم شوبابيم نوم أدوناي كي انوخى با علتى باخيم وإلا كحتى اتخيم [أحاد مي عيدا وشنايم مشباحا واهاباتى]⁸ أتخيم سيون"⁹.

1- في ط: "أبنائه".

2- في ط: "الملك".

3- في ط: "مكان".

4- في خ/م: "فسره".

5- إرميا 31: 31-32. ورد النص في ط باختلاف طفيف في بعض الحروف والكلمات، "هنا يا ميم بايم نوم يهوه واحارتي ات بت إسرائيل وايت بت يهودا بريث حارشا لو اخبريت اشير بريث ات ابو ثام بيوم هو تزيكى بيرم لهو عاييم مي ارس مصريم امير همه هفرو ات بريث وانبي بعلتي بم نام يهوه". والنص بالعبرية هو: "לֹא אֶכְבְּרִיתִי, אֲשֶׁר כְּרַתִּי אֶת-אֲבוֹתָם, בְּיוֹם הַחֲזִיקוּ בְיָדָם, לְהוֹצִיאֵם מֵאֶרֶץ מִצְרַיִם: אֲשֶׁר-הִמָּה הִפְרוּ אֶת-בְּרִיתִי, וְאֵנִי כִי בַעֲלִיתִי בָם--נָאִם-יְהוָה. כִּי זֶה אֶת הַבְּרִית אֲשֶׁר אֶכְרַת אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל אַחֲרֵי הַיָּמִים הָהֵם, נָאִם-יְהוָה, נִתְּתִי אֶת-תּוֹרַתִי בְּקֶרְבָּם, וְעַל-לִבָּם אֶכְתֹּבֶנָּה; וְהָיִיתִי לָהֶם לֹאֵל הַיִּם, וְהִמָּה יְהוָה לִי לַעֲם. ".

6- في خ/م: "الحواريون".

7- في ط: "شوبوا".

8- في ط: "أحاد معير وشنايم مشتبان واهاباتى".

9- إرميا 3: 14، "شوبو בגים שובבים נאם-יהוה، כי אנ כי בעלתי בכם ולקחתי אתכם אחד מעיר، ושנים משפחה، והבאתי אתכם، ציון

تفسيره: "ارجعوا يا أولاد اللجاجة فإني [انضريت فيكم]¹ وأخذكم واحدا من مدينة واثنين من عشيرة وأدخلكم إلى صهيون وكذلك أخذ الحواريين واحدا من مدينة واثنان من عشيرة"²، ثم قال لضيق الآية: "واناتنى³ لا خيم روعيم كلبى" تفسيره: "ونعطيكم رعاة كقلي"⁴.

[ثم قال]⁵: "وأراع أتخيم رعاء واهسكال"⁶ تفسيره⁷: "ويرعوكم المعرفة"⁸ والفهم"⁹ وكذلك جعل من الحواريين أئمة ورعاة يعلموا الناس المعرفة والفهم"¹⁰. ثم قال لضيق الآية في ألا يعمل بالمعهد البالي: "واها ياكى ترفوا"¹¹ افريتيم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناي لو يمرروا [عر دارون ريث]¹² ادوناي ولو يا عالا على لاب ولديز كا وابوا ولوا يفقوا ذوا ولو يا عا ساعود"¹³، تفسيره¹⁴: "ويكون إذا كثرتم وتنمو في الأرض في تلك الأيام يقول الله لا يقولوا"¹⁵ أبدا بتابوت عهد الله ولا يصعد على قلب ولا يذكر به ولا يعتقد ولا يعمل به أبدا"¹⁶.

-
- 1- في ط: "سدت عليكم".
 - 2- النص العربي من سفر إرميا 3: 14: "ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب لاني سدت عليكم فأخذكم واحد من المدينة واثنين من العشيرة واتي بكم إلى صهيون"
 - 3- في ط: "وناتي".
 - 4- في ط: "كقلي".
 - 5- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.
 - 6- النص العربي من إرميا 3: 15: "وننتني لكم رעים، كلبى، ورجعو أهلكم، دعه והשכיל".
 - 7- ساقطة في ط.
 - 8- في ط: "بالمعرفة".
 - 9- النص العربي إرميا 3: 15: "وأعطيكم رعاة حسب قلبي فيرعونكم بالمعرفة والفهم".
 - 10- ما بين المعقوفتين ساقطة من خ/م.
 - 11- في ط: "تربوا".
 - 12- في ط: "غر دارون بريث".
 - 13- النص العربي من سفر إرميا 3: 16: "והיה כי תרבו ופריתם בארץ בימים ההמה، באם-יהנה--ל'א-י' אמרו עוד ארון ברית-יהוה، ול'א יעלה על-לב، ול'א יזכר-בו ול'א יפק'די، ול'א יעשה עוד".
 - 14- في خ/م: "فسره".
 - 15- في ط: "تقولوا".
 - 16- النص العربي من إرميا 3: 16: "ويكون إذ تكثرون وتثمرون في الأرض في تلك الأيام يقول الرب أنهم لا يقولون بعد تابوت عهد الرب ولا يخطر على بال ولا يذكرونه ولا يتعهدونه ولا يصنع بعد".

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم.

ثم قال سليمان الفاضل: "لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين"¹.

فافهم أيها الإنسان ما هي معرفة المقدسين الذي لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا إلا أن عرفها وآمن بها.

وفي² حقيقة الإيمان قال: "من صعد إلى السماء وهبط من قبض الأرواح في كفيه من جمع الماء في ثوب"³، ثم قال بكلام عبراني: "مى هاكيم كل افس اريس [مشموا أمشم]"⁴ بنوا"⁵.

فافهم فسرهم وكن عاقلا مدبرا ترشد.

قال سليمان: "مى هاكيم كل افس اريس [مشموا أمشم]"⁶ بنوا"⁷ تفسيره: "من أقام جميع أقطار الأرض ما اسمه واسم ابنه" ثم قال لضيق الآية بالعبراني: "كل أمراث ألواه صروفا ما غين هو [لا حول ها حوسيم بوا]"⁸⁻⁹، تفسيره¹⁰: "جميع كلام الله ترس منير هو لجميع الواثقين¹¹ به"¹² فافهم.

1- سفر الأمثال 30:3.

2- ساقطة من خ/م.

3- الأمثال 30: 4. من صعد إلى السموات ونزل من جمع الريح في حفتيه من صر المياه في ثوب، ثبت جميع أطراف الأرض. ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت.

4- في ط: "ماشموا وماشم".

5- النص العبري من الأمثال 30: 4، ^٦ مي علا-شميس ويند، مي آסף-روح בחפניו מי צר-מים בשמלה--מי הקים כל-אפסי-ארץ:מה-שמوا ומה-شم-בנו، כי תדל.

6- في ط: "ماشموا وماشم".

7- النص العبري من الأمثال 30: 4، ^٦ مي علا-شميس ويند، مي آסף-روح בחפניו מי צר-מים בשמלה--מי הקים כל-אפסי-ארץ:מה-שמوا ומה-شم-בנו، כי תדל.

8- في ط: "لات سيم بو".

9- الأمثال 30: 5، النص العبري: ^{١٠} כל-אמרת אלוה צרופה: מגן הוא، לח' סים בו.

10- في خ/م: "فسره".

11- في خ/م: "الوارقين".

12- الأمثال 30: 5، والنص العبري: "كل كلمة من الله نقية ترس هو للمحتمين به".

ثم قال الله على لسان يرميا¹ النبي بكلام عبراني: "هنا ياميم بايم توم² أدوناي واكراتي ات بت إسرائيل وات بت يهوذا بریت هارشاہ زيرع آدام وزيرع مهيم³" تفسيره: "هذا يوم يأتي يقول الله ونزرع في بيت إسرائيل وبيت يهوذا نسل آدمي ونسل بهيمي"⁴.

فكان النسل الآدمي الحواريون المؤمنون بالمسيح عند إقباله والتابعين لهم وكان النسل البهيمي اليهود الجاحدين⁵ للمسيح وكذلك الحواري يحيى⁶ الذي اسمه جوانش قال من لم يؤمن⁷ ولم يتمادي في تعليم المسيح فلا إله له فأفهم ترشد.

اعلم أنني كتبت لك بالعبراني والسرياني⁸ من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التي بأيديهم وأن اليهود لا يقدرّون على إنكار حرف منها إذا احتج معهم بها بالعبراني والسرياني كما نطقت به الأنبياء رضي الله عنهم في إثبات إقبال المسيح وإيمان الحواريين⁹ والتابعين لهم وفي أطراح اليهود الملاحين الجاحدين للمسيح سيدنا فأفهم.

1- في ط: "إرميا".

2- في ط: "توم".

3- النص اختصار لما ورد في النص العبري من سفر إرميا 31: 31-34: "لَا أَكْـبَرִיתִי, אֲשֶׁר כָּרַתִי אֶת-אַבֹתֶם, בַּיּוֹם הַחֲזִיקִי בְיָדֶם, לְהוֹצִיאֵם מֵאֶרֶץ מִצְרַיִם: אֲשֶׁר-הִמָּה הִפְּרוּ אֶת-בְּרִיתִי, וְאֵנִי כִי בַעֲלַתִּי בָם--נָאֻם-יְהוָה. כִּי זֶאת הַבְּרִית אֲשֶׁר אֶכְרֹת אֶת-בֵּית יִשְׂרָאֵל אַחֲרֵי הַיָּמִים הָהֵם, נָאֻם-יְהוָה, נִתַּתִּי אֶת-תּוֹרַתִּי בְּקֶרְבָּם, וְעַל-לִבָּם אֶכְתְּבֶנָּה; וְהָיִיתִי לָהֶם לֵאלֹהִים, וְהִמָּה יְהִי-לִי לְעָם." 34-31: "כִּי אֶסְלַח לְעוֹנֵם, וְלִחַטְאֵתָם לֹא אֶזְכֹּר-עוֹד. כִּי הָאֵמַר יְהוָה, נִתַּן שְׁמִשׁ לְאֹזֹר יוֹמָם, חֶקֶת יָרֵחַ וְכּוֹכְבִּים, לְאֹזֹר לַיְלָה; רֹגַע הַיּוֹם וַיְהִי גִלְיָו, יְהוָה צְבָאוֹת שְׁמוֹ."

4- إرميا 31: 31-34. "ها ايام تاتي يقول الرب واقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا . 32 ليس كالعهد الذي قطعته مع ابائهم يوم امسكتهم بيدهم لاخرجهم من ارض مصر حين نقصوا عهدي فرفضتهم يقول الرب 33 بل هذا هو العهد الذي اقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الايام يقول الرب اجعل شريعتي في داخلهم واكتبها على قلوبهم واكون لهم الها وهم يكونون لي شعبا 34 ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد اخاه قائلين اعرفوا الرب لانهم كلهم سيعرفوني من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب.لاني اصفح عن اثمهم ولا اذكر خطيتهم بعد".

5- في خ/م: "الجاحدون".

6- في ط: "يوحنا".

7- في خ/م: "يا من".

8- في خ/م: "الرسباني".

9- في خ/م: "الحواريون".

قال: وأنت أيها الإنسان تجدوا في كتابكم في آل عمران ﴿١﴾ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾
مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴿٣﴾¹.

فأنت مقر بالتوراة والإنجيل فاثبتوا دينكم من التوراة كما اثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم شيئاً فإن قلت من كتابك شيئاً قلت لك كما قال رسولك: "البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر"²، فوجب عليك أن تثبت دينك من التوراة والإنجيل التي أنت مقر بهم وأنت مدعى أن كتابكم من الله فاثبتوه من التوراة بالعبراني ومن الإنجيل بالعجمي كما أنتم مقرون.

وقولكم وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل فإني أطلبك من الكتب التي جاءت به الرسل كما قلت فإني³ بما ادعيت وإلا يميني لأنني أنكر لك ولا نقبل لك من النبوات والروايات المرويات عن مسلم في كتابه الذي قال حدثنا سفيان عن الزهري عن قتادة عن عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة إلى الرسول فقالت له كنت لرفاعة فطلقني فتزوجت عبدالرحمن بن الزبير فتبسم الرسول ضاحكا وقال أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عبدالرحمن بن الزبير عسيلتك وفي رواية أخرى عن عائشة قالت طلق رجل امرأة ثلاثة فتزوجها رجل ثم طلقها قبل أن يدخل بها وأراد زوجها الأول أن يتزوجها فستل الرسول عن ذلك قال لا حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق الأول.

فافهم فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم لأن المسيح يقول: "لا ينبغي لرجل طلاق زوجته إلا أن تزني وإن زنت فلا يحل له مراجعتها ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى أعنى من طلقها دون سبب ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها"⁴.

1- سورة آل عمران، آية: 3-4.

2- الحديث ورد عند البيهقي في سننه، "أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أنبا أحمد بن عبيد الصفار ثنا جعفر بن محمد الفريابي ثنا الحسن بن سهل ثنا عبد الله بن إدريس ثنا بن جريج وعثمان بن الأسود عن بن أبي مليكة قل كنت قاضيا لابن الزبير على الطائف فذكر قصة المرأة قال فكتبت إلى بن عباس فكتب بن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

3- في ط: "فأنت".

4- متى 5: 32.

وأنتم تقولوا: لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزني بدل أن تنهوا عن الزنى¹ تأمروا بالزنى² وهو عندكم فريضة التياس.

وأنا أريد قطع ذنب التيس وأن نجعله في ذقنه ليلوح لسته لمعة صرصر الشمال وحمارة قيظ هجير الجنوب.

وهذا جواب كلامك انتصافا منك كما يقول قرآنك ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه فأفهم.

ثم قلت في شعرك: أراد النصارى ينصرون محالهم.

فانصر أنت محالك لأنك قلت بالسفه والطعن في ديننا وقلت الكذب على مسيحننا كيف قلت ما لم تعلم وكيف تجرات أن تتكلم واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني أبعث إلى كل بلد كتابا بنص شريعتكم ويكل ما نعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدر على إنكارها.

فأفهم لأنك قلت في المسيح: [أنه]³ غثاء وأوطار وأنك سبيت الحاكم عليك⁴ يعني جميع الأمم يوم القيامة لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة فإن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني أعرفك بشجرتك ما هي حتى تعلم من أنت وأعلم أنني لم أريد في الأول شتم أحد لكن لما بعث إلى أول كتاب بالسفه والسب رددت له الجواب بأمه هاجر ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها في التوراة⁵ فاسمع قول الله عنها وعن ابنها: رأت سارة⁶ ابن هاجر المصرية⁷ الذي ولدت لإبراهيم وهو يلعب فقالت لإبراهيم ارمي هذه الأمة وابنها أن⁸ ليس يرث هذه الأمة وابنها مع ابني إسحق فصعب على إبراهيم ما قالت له عن ابنه فقال الله لإبراهيم لا يصعب عليك بكلام سارة⁹ عن الصبي وعن أمتك وجميع ما تقول لك سارة¹⁰ اسمع من قولها فقال إبراهيم هذا كلام الله إلى قائلا لا يرثك هذا¹¹.

1- في خ/م: "الريا".

2- في خ/م: "الريا".

3- في ط سقطت كلمة "أنه".

4- في ط: "وعن ابنها".

5- في خ/م: "صارت".

6- في خ/م: "المصري".

7- في ط: "إذ".

8- في خ/م: "صارت".

9- في خ/م: "صارت".

10- تكوين 21: 13.

إن الذي يخرج من صلبك هو يرثك.

ثم قال الله لإبراهيم ياسحق يتسمى نسلك.

فافهم ترشد واعلم كيف قطع الله ورث إسماعيل وأمه في قوله: "لا يرثك هذا" ثم قال [عن إسحق الذي يخرج من صلبك وكيف قال الله]¹ لإبراهيم ياسحق يتسمى نسلك ولم يقل بإسماعيل يتسمى نسلك، فأخذ إبراهيم خبزا وجرة ماء وجعل على أكتاف الأمة وجعل إسماعيل على عنقها بالليل وأخرجها بولدها عن العمران فتناسلت² منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾³.

فافهم والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح حقيقة الإيمان ورحمة الله وبركاته كمل كلاً⁴.

1- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

2- في خ/م: "فتنسلت".

3- سورة التوبة، آية: 97.

ملحق 2

كلام صاحب الحروف

لما أفهمتنا الشواهد العقلية: أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا، قلنا: فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة، كما يقال في حد الإنسان: أنه حيوان ناطق مائت؛ إذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه: أفتوما واحدا، شخصا واحدا، ولا يسمى كل جزء وكل عرض منها أفتوما أنسيا: وذلك أن¹ اسم الأفتوم واجب للشيء المستغنى بذاته القائم بشخصه. ولا لذي الاضطراب ولا لذي الاشتباك كالأعراض. فإن الأجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها، كما أن حر النار الذي هو جزء من قوى النار لا يقوم بذاته أفتوما منفردا دون أصلية النار وضوئها. وكذلك الأعراض المشتبكة في الجوهر كالسواد والبياض وما أشبههما، لا تقوم أشخاصها مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها. فالأفتوم هو المستغنى بذاته عن أصل جوهريته كالإنسان المستغنى بخاصية إنسانه عن الناس، والشجرة عن الأشجار، والدينار عن الدينانير، فامتاع أجزاء الإنسان من القيام أشخاصا لاضطرابها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديددها إنسانا دون جسمه ونطقه، وكذلك نطفة وجسمه يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديدده إنسانا دون روحه، وذلك لاضطراب كل جزء منها إلى صاحبه في القيام بإنسانيته.

فإذا تقرر هذا، فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره، كما هو من الإنسان أو غير جوهره، فإن قلنا: هما جزءان من جوهره الزمناه ما يلزم الإنسان من الاضطراب والتأليف، لانا وجدنا أجزاء الإنسان لاضطراب بعضها إلى بعض تقصر عن احتمال أسماء الأقانيم، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلي، إذ هو يتعالى² عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض. فوجب³ أن تكون خواصه لفئاته وكماها، تسمى أقانيم قائمة بخواصها، ومستحقة أن توصف منها⁴ بجوهرية قديمة كقدمه، لا جزأين مركبين، ولا عرضين مضطرين⁵، لأنه لم يزل حيا وناطقا بكلمته.

1- في ط: "لأن".

2- في ط: "متعالى".

3- في ط: "فأوجبوا".

4- في ط: "ومستحقة الذي توصف به".

5- في ط: "منفصلين".

ومن زعم أن الحياة من الله، والنطق منه: محدثان؛ وصف الله تعالى في أزليته بالموت والجهل. وإن قلنا: إن حياته¹ ونطقه غير جوهره أزليان، فقد أشركنا مع الله في أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة، فوجب أن يكون جوهر الخالق تعالى: أقنوما، خاصا، قائما، كاملا بخاصته² لم يزل. ونطقه الذي هو كلمته أقنوما، خاصا كاملا قائما بخاصته³ لم تزل. [وروحه أعني حياته: أقنوما، خاصا، كاملا بخاصة لم يزل]⁴ فهذه ثلاثة أقانيم معروفة بمعانيها، لا متفصلة، ولا مركبة، ولا متشابكة، جوهر واحد، ذات واحدة⁵.

1- في ط: "وإن قلنا حياته".

2- في ط: "بخاصية".

3- في ط: "بخاصية".

4- ما بين المعقوفتين ساقط من خ/م.

5- في خ/م: "واحد"، وهو تصحيف.

ملحق 3

كلام صاحب المسائل

هذه الثلاثة الأقانيم متوحدة لأجل الأب، متساوية لأجل الابن، منتظمة الروح، فنؤمن أن الأب أب لأجل أنه ذو ابن، والابن ابن، لأنه ذو أب، والروح القدس منبثق، لأنه من الأب والابن، فالأب أصلية الإلهية، لأنه كما لا يخلو قط أن يكون إلهًا كذلك لم يخل¹ قط أن يكون أبًا، الذي الابن منه مولود، والذي الروح القدس منه ليس مولودًا، لأنه ليس ابنا ولا غير مولود، لأنه ليس مخلوقًا، لأنه ليس من شيء، بل إله منبثق من الأب والابن إله.

وأقنوم الأب غير أقنوم الابن، وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس، لكن التثليث المقدس ذات واحدة، إلهية واحدة، وهذا تصريح بأن الأقانيم: آلهة، وإن كان كل واحد² منها غير الآخر.

وقد ذهب "سباليش"³ إلى أن⁴ الثلاثة الأقانيم ممتزجة في أقنوم واحد، وهو عند كثير منهم مكفرا وكالمكفر. وقد ذهب "آريش" إلى أنه إلهية الأقانيم منخزلة⁵ ومتبعضة الذات، وهو عندهم مفتر خارجي.

وقال صاحب كتاب "المسائل": "لسنا نؤمن أن في التثليث شيئًا مخلوقًا أو خادما كالذي أنشأه "دنونيشيش"، أو غير معتزل كقول "أونوميش"، أو ناقص الامتتان كقول "أوتفش"، أو مقدا أو مؤخرا أو صغيرا كقول "آريش"، ولا ذا جسد كقول "مالطه" و"ترتليان"، ولا مصورا بالجسدية⁶ كقول "أريد" و"نمرشيش"، أو محجوبا بعضه عن بعض كقول "أوريان"، ولا مربيا من المخلوقات كقول "فرطنات"⁷، ولا متفرق الإرادة والعوائد كقول "مرحيون"،

1- في ط: "يخلو".

2- في ط: "وإن كان واحد"، وهو تصحيف.

3- في ط: "سباليش".

4- في خ/م: سقطت "أن".

5- في خ/م: "منخزلة".

6- في ط: "بالجسدية".

7- في ط: "فرشاط".

ولا منقلبا من ذات التثليث إلى طبيعة المخلوقات كقول "أفلاطون" و"ترتليان"، ولا منفردا في رتبة مشتركا في أخرى كقول "أوريان"، ولا ممتزجا كقول "شباليش" بدل كله كامل لأنه كله واحد، ومن واحد لا مفرد¹ كزعم "شليمانش".

1- في ط: "لا تعدد".

ملحق 4

كلام أغشتين

قال أغشتين: ما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شيء، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرًا غير حي ولا مستغن بنفسه، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمهم إلى الإقرار بأن تلك القدرة ذات علم وإرادة.

قال: "وقد رد علينا هذه المقالة "برفريش" فقال: لا نقول أنه شيء فيكون قد سميناه بالأشياء التي لا تسلم¹ من عيب، ولكننا نقول: "أنه" ولا نقول: "شيء" ثم قال: "أستم تقرون²: أن الذي قدر هو الذي علم، وأن الذي علم هو الذي أراد، فهو واحد في جميع المعاني.

وانما القدرة والعلم والإرادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق، وليست لا خالقة ولا مخلوقة، لأنه لو لم يكن الشيء المقدور لم يسم ذو³ قدرة، ولو لم يكن الشيء المعلوم لم يسم ذا علم، وكذلك القول في الإرادة، فهذه الأسماء، إنما هي أعراض وأسماء فيما بينه وبين الخلق مثل قولنا: ذو رحمة وذو حكم وذو عقاب، فلو لم يكن الخلق المرحوم لم يلزمه اسم الرحمة وكذلك غيرها.

قال "أغشتين" في جوابه عن قوله: "لا نقول أنه⁵ لكل شيء عقيب، وما لم يكن له عقيب فليس بشيء، لأن عقيب شيء لا شيء، وإذا كان إنما ينفي عنه اسم شيء، لأن الأشياء كلها له، فمثل ذلك يجب عليه في قوله: "أنه⁶ أو قوله: "كان؛ مع أنا لا نعرف شيئًا نقول فيه: "أنه⁷ إلا بعد معرفتنا إياه "شيئًا"، وحسبنا في هذا قولنا: شيء ليس كشيء من جميع الأشياء".

1- في خ/م: "تسلم".

2- في ط: "تقراون".

3- في ط: "ذو".

4- كلمة "لم" ساقطة من خ/م.

5- في ط: "أن".

6- في ط: "أن".

7- في ط: "أن".

قال: "وأما قوله: أن القدرة والعلم إنما هي أعراض لزمانه فيما بينه وبين الخلق، وأنها مثل الرحمة والحكم؛ فإننا نحتج عليه في ذلك بأن نقول: لست تتكرر أنه كان قبل الأشياء ودون الأشياء بلا ابتداء، فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبدا قادرا ؟ فإذا أقررت أنه لم يزل قادرا، فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية، فإن قلت: أنه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشيء المقدور عليه قادرا¹، وإنما يسمى قادرا بعد كون الشيء المقدور علينا؛ قلنا: أفكان يقدر على أن يقدر، أم لا ؟ فلا بد لك من أن تقول: كان يقدر. فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال.

وكذلك قولنا في العلم والإرادة؛ وقولك: يرحم ويغفر ويحكم، ليس مثل قولنا: يقدر ويعلم ويريد، لأنك لا تقول: كان أبدا يرحم، وكان أبدا يخلق. ولا بد من أن تقول: كان أبدا يقدر، وكان أبدا يعلم وكان أبدا يريد."

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة: "فنحن ما لم نصفه بالعلم والإرادة، لم نصفه بمدير ولا حي".

ثم قال: "إن قلنا عرفناه بوحديته، وعلمناه بذاته من غير نظرنا إلى فعله، الدال على قدرته وعلمه وإرادته، فقد كذبنا. لأنه لا يقدر أحد أن يقول: أنه وقع على معرفته إلا بما نظر إليه من خلقه، وتفكر فيه من حكمه، وبمعرفته بنفسه؛ وكل هذا إقرار بالثلاثة الأقسام التي ذكرنا، لأننا لما وجدنا الخلق الذي لم يقدر أن يكون بنفسه وجب الإقرار بالشيء الذي به قدر² أن يكون، وهي القدرة التي سماها علماء المجوس: الهول.

ثم لما نظرنا إلى تدبير الخلق، وجب الإقرار بالعلم والإرادة، لأن التدبير لا يكون إلا ممن يعلم ويريد فثلاثتها اسم لإله واحد، ونعت لمدير فرد، ولا تجد هي غيره ولا يجد هو غيرها؛ فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل وأمر بالإيمان به وسماه باللسان المعجمي: الآب والابن والروح القدس".

قال أغشتين: قد أجمعت الملة³ على أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما، واجتمعت

1- في ط: سقطت كلمة "قادرا".

2- في ط: "الذي قدر".

3- في ط: "أجمعت الملة"، قول أغشتين هذا "أجمعت الملل الثلاث"، يدل على أنه غير القديس أغسطين (354-430م) كما ذهب إلى ذلك حجازي السقا في تحقيقه للكتاب، لأن القديس أغسطين عاش قبل الإسلام ولا يجوز أن يذكر الإسلام، اللهم إن كان يقصد ملة غير ملة الإسلام كالديانة المانوية التي كانت منتشرة على عهده، بل هو نفسه كان مانويا قبل أن يتحول إلى المسيحية. ولقد أكد لي أنه غير القديس أغسطين الدكتور هان كونيغزفيلد في لقاء لي معه أثناء زيارته لمؤسسة دار الحديث الحسنية أيام 2010/11/30-2010/12/10، مستدلا على رأيه بكون القديس أغسطين لا توجد من بين مؤلفاته ما يذكره القرطبي هنا مثل "مصنف العالم الكائن"، ونرجو في الطبعة القادمة أن نحقق من يكون أغشتين هذا الذي يذكره القرطبي.

على أن موسى سمع صوتا يقول له: أنا ريك. فأخبرونا أتؤمنون بأن الصوت الذي سمعه موسى هو ذات الرب، وأن الرب في ذاته مسموع، أم تقولون: إن الرب أسمع موسى صوتا على ما شاء¹ من رفع وخفض، وغلظة ورقة، وأنه ابتداء الصوت متى شاء، وقطعه متى شاء، وأنهى إلى موسى من إرادته ما شاء؟

فإن قالوا: إن الصوت نفسه هو الرب، وأن الرب مدرّك بالسمع، فقد خرجوا عن مذهبهم في نفى التشبيه. وإن قالوا إن الصوت من فعل الله، وأن الله خلق الصوت على ما وافقه، وأظهر فيه من إرادته ما شاء، وأن الصوت قد كان له مبتدأ ومنتهى، وأن الله الخالق له لا مبتدأ له ولا منتهى. قيل لهم: فقد ثبت أن الصوت الذي سمعه موسى² كان مخلوقا، فكيف جاز لموسى أن يقول سمعت الله؟ فإن قالوا مقام الصوت من الله، مقام صوت الإنسان من الإنسان، وأنا نسمع صوت إنسان فنقول: سمعنا فلانا. وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله³، أن يقول سمعت الله. قيل لهم فقد أقررتم أن الصوت من فعل الله، كما أن صوت الإنسان من فعل الإنسان، ولستم تقدرّون أن تقولوا إذا سمعتم صوت رجل: سمعنا ذات المريد لذلك⁴ الصوت الذي ابتداه وخاطب به، ولكنكم تقولون سمعنا صوت فلان، وسمعنا فلانا إذ سمعتم فعله⁵، وكذلك من سمع صوت الله، وجب أن يقول: سمعنا الله. لأن الله خلق الصوت، وجعله حجابا لإرادته التي أظهرها فيه، فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب، إلا بصوت مخلوق على ما يشبهه تعارفهم، يكون حجابا فيما بينهم وبينه⁶.

والواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذي الصوت له، كما أن الصوت⁷ إنما خاطبهم عن الله. ومثل ذلك يلزمهم في كل ما يشبه التحديد مما وقع في كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم، ووصف نفسه بالعين والوجه والفم، ولا يمكن جعده، فقد رضي أن ينسب إلى نفسه مثل كلامهم، وأن يخاطبهم في مثل لغتهم، فقد ثبت أنه اتخذ التشبيه حجابا بينه وبين خلقه.

1- في ط: "يشاء".

2- كلمة "موسى" ساقطة في ط.

3- اسم الجلالة "الله" ساقطة في خ/م.

4- في ط: "صوت المريد كذلك".

5- في ط: "صوته".

6- في ط: "بينه وبينهم".

7- في خ/م: "السوط"، وهو تصحيف.

ثم قال بعد ذلك كلاما معناه: كما جاز أن يتخذ صوتا، ويجعله حجابا لإرادته حتى أظهرها فيه، كذلك يجوز أن يكون قادرا على اتخاذ أي صورة شاء، وأن يظهر لعباده في أي حلية وافقه¹، وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء، لأننا إن قلنا إنه لا يقدر أن يسمع عباده صوتا، ولا أن يظهر لهم بصورة، فقد أزلنا عنه القدرة على كل شيء.

ثم قال بعد ذلك: فعلمنا أن الحجاب مخلوق، وعلمنا أن الله خالق كل شيء، ووجب علينا إنزاله من الإكرام، بحيث أنزله الله المحتجب به. لأننا² متى لم ننزل كل شيء على ما أنزله عليه، فقد عصينا. لأننا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة، مالا نكرم الشياطين، ونكرم الصالحين مالا نكرم الفجار. وهكذا، فلا بد أن يكون شيء أعز من شيء، وشيء أقرب إلى الله من شيء، حتى يكاد شيء في العز أن يتصل بخالقه، ويكون أعز الأشياء. ويكاد شيء أيضا أن يكون في الهوان، بحيث لا يكون شيء تحته.

والواجب على العارف بالله، أن ينزل كل شيء بحيث أنزله الله، ويسميه بما سماه الله، فإن أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع، أو ظهر في صورة مرئية، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت وتلك الصورة، بما لم يخص به شيئا من المخلوقات، وأن الواجب على من سمع ذلك الصوت، أن يقول سمعت صوت الله، ومن رأى تلك الصورة، أن³ يقول رأيت صورة الله، ولهذا وجب على موسى إذ سمع صوت القائل: أنا ربك، أن يجاوبه باسم رب⁴، ويقول بأنه ربه، ووجب على آدم إذ قال: يا آدم، أن يستجيب فيقول: ما ترى⁵ يا رب. وكذلك في مخاطبته لجميع الأنبياء، لأن الصوت لم يقل: أنا صوت الله، وأنا أخاطب عن الله، وإنما الله خاطب به فقال: أنا الله. فالواجب أن نخاطب بمثل ما خاطب به.

ومثل ذلك يجب في الصورة، ومن ظهر له الله في صورته، كما ظهر لإشعياء ولدانيال⁶، فقد وجب عليه أن يسجد للصورة، وأن يخاطبها باسم الله، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتحاد⁷ لها، والاحتجاب بها، ضام له إلى عبادته فيها، لأنه قد رضي أن يرى فيها ويعبد بها.

1- في ط: "وافقته".

2- في ط: "لأنه".

3- كلمة "أن" ساقطة في ط.

4- في ط: "الرب".

5- في ط: "هأنذا".

6- في خ/م: "ولدانيقال" وهو خطأ.

7- في ط: "بالاتخاذ".

وقد علمنا أن الله خلق¹ الصوت الذي أسمعه لموسى، كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات، ولكن وجب علينا الإقرار لذلك الصوت بالربوبية، ما لم يجب لغيره، لعلمنا أن الله ولى المخاطبة بذلك، وكذلك يجب في الصورة أن يخصها² من الإكرام، بما خصها الله به.

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله، ولا أن يجاوب الصوت باسم الله، فقد قال: إنه لا يجوز أن يتخذ الله صورة، ولا أن يسمع صوتا، وإذا وجب إكرام الحجاب، بإكرام المحتجب به، فلم³ يبق علينا من الكلام شيء إلا في الحجاب الذي اتخذه منا، وهو المسيح، والاستشهاد بالتوراة والإنجيل في أمره، إلا أنا نقدم القول في ذلك بالقياس، لئلا نستشهد⁴ بالكتاب إلا فيما كان داخلا تحت الإمكان.

ثم قال: هذا وإن لم يوجبه القياس إيجاب الاضطرار، فإنه يجوز تجويز الإمكان، لأن القياس الذي فضل به الإنسان على جميع خلقه، وخاطبهم بمثل لغتهم وتشبه بهم في مخاطبتهم، وخلق كل شيء لهم ومن أجلهم، وأوجب لهم البقاء معه في رضوانه، وألا يكون دونهم أبدا، وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق، فتشبه لهم بنعت محدد، فقير ممتنع فيه، ولا بعيد أن يكون حجابهم فيما بينه وبينهم منهم⁵ ومما يشبههم، ونزوله إلى مخاطبتهم في مثل لغتهم، هو⁶ نزوله إلى الظهور لهم في مثل صورتهم، لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت.

ثم قال: شواهد الواضحة كثيرة، من ذلك قول يرميا⁷ النبي حيث يقول مناجيا الله: "يا رجاء إسرائيل ويا⁸ مخلصه من الغم، لم ستكون في المستقبل كالغريب في الأرض، أو كالمسافر يعدل إلى المبيت؟ لم ستكون في المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص"⁹. وقول إشعيا النبي حيث يقول: "إن العذراء ستحمل وتلد ولدا، ويدعى ولدها عجيبا

1- في ط: "خالق".

2- في ط: "يخصها".

3- في ط: "لم".

4- في خ/م: "نستشهد" وهو تصحيف.

5- في ط: "بينه وبلغهم منه".

6- في ط: "وهو".

7- في ط: "إرميا".

8- في ط: "يا مخلصه".

9- إرميا 14: 8-9.

مدبراً إلهياً قوياً، والدا مقبل الدهر العالم يكثر ملكه ولا يكون لسلطانه انقطاعاً ولا آخر¹، وقوله أيضاً: "من ذا يقبل خبرنا؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب؟ ثم وصف أنه ظهر ضعيفاً محتقراً وأنه هدى بنفسه إلى القتل طوعاً ووصف خبره² المسيح ظاهراً كما كان³، وقول يعقوب⁴ لبنيه حيث يقول: "لا ينقضي الملك من سبط يهوذا، ولا يزال منهم أمير حتى يأتي الذي هو مرسل، وهو يكون رجاء الأجناس"⁵ وكذلك⁶: لا ينقطع الملك منهم حتى يأتي المسيح.

هذا ملخص كلامه وزيدته في عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر، من غير أن أخرج عن لفظه إلا ألفاظاً يسيرة يتصل بها الكلام ولا تغير المعنى.

1- إشعيا 7: 14.

2- في ط: "خبر".

3- إشعيا 53: 1-12.

4- في ط: "يعقول".

5- تكوين 49: 10.

6- في ط: "وتترجم كذلك باختصار".

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- الكتاب المقدس: العهد القديم، جمعية الكتاب المقدس، الإصدار الثاني 1995م، الطبعة الأولى.
- ابن النديم الفهرست، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له يوسف علي طويل وضبط فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م.
- ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح مطبعة مدني القاهرة، 1379 هـ / 1959 م.
- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، تقديم إحسان عباس منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية 1403هـ 1983م.
- ابن حزم، الفصل في الملل...وبها مشه الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المجلد الأول دار المعرفة بيروت لبنان ط 3 1395هـ/1975م.
- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر الطبعة السادسة 1417هـ/1997 م.
- أبو حامد الفزالي، المستقصى من علم الأصول، دراسة وتحقيق حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة.
- أصول السرخسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م.
- أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي، سنة 575 هـ، فهرسة بن خير، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة دار الكتاب المصري، بيروت دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1989، المكتبة الأندلسية مجلد 9، ص (373).
- أبو الحسن العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق ودراسة أحمد عبد الحميد غراب، الرياض مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، كتاب التبيين والإشراف طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة 1893م.
- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني 440هـ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردوثة، صح عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد

الدكن الهند 1377هـ/1958م السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف
العثمانية 11، ص: 6.

- أبو حامد الغزالي، الرد الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل ضبط نصه وعلق عليه
أبو عبد الله السلفي الداني بن منير آزهوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر الدار
النموذجية المطبعة العصرية الطبعة الأولى 1420هـ/1999م.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المختار في الرد على النصارى، تحقيق محمد عبد الله
الشرقاوي دار الجيل بيروت لبنان مكتبة الزهراء القاهرة الطبعة الأولى 1411هـ/
1991م ص: 75.
- أبو محمد علي بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر
وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل بيروت لبنان الطبعة الثانية 1416هـ/1996م، الجزء
الأول ص: 59.
- أيت بلعيد أحمد، إثبات نبوة محمد، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية،
بيروت لبنان.
- البخاري، صحيح البخاري، مراجعة وضبط وفهرسة محمد علي قطب وهشام البخاري
المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الخامسة 1420هـ/1999م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر
دار إحياء الكتب العربية.
- الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة،
1966، تراثا المكتبة الأندلسية 3.
- دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها دار صادر بيروت الطبعة الخامسة
1399هـ/1979.
- الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة، سنة
النشر: 1422هـ / 2001م.
- السموال بن يحيى المغربي، بذل المجهود في إفعام اليهود قدم له وخرج نصوصه وعلق
عليه عبد الوهاب طويلة، دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت الطبعة الأولى
1410هـ/1989م.
- الشرقاوي، محمد عبد الله، بحوث في مقارنة الأديان، القاهرة، دار الفكر العربي
1410هـ/2000م.

- الطوبى المصطفى، مقالات في علم المخطوطات، تقديم شوقي بنين، الرباط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2000.
- عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية المدنية، الطبعة الأولى 1993.
- عبد العزيز بن عبد الله، الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة بن ميمون وتطور التقاليد اليهودية ضمن مجلة أكاديمية المملكة المغربية الدورة الثانية لسنة 1985م بأكادير أيام 14-16/ربيع الأول، 27-29/نونبر 1985م.
- علي بن رين الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ تحقيق وتقديم عادل نويهض منشورات دار الآفاق الجديدة الطبعة الرابعة 1402هـ/1982م.
- عمار البصري كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة، تحقيق ميشال الحايك، دار المشرق بيروت، 1977، سلسلة بحوث ودراسات5، ب. سلسلة جديدة الشرق المسيحي. النص من كتاب المسائل والأجوبة.
- القاضي أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة 1414هـ/1993م بيروت لبنان.
- القاضي عبد الجبار الهمداني، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان الجزء الأول دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان د ت.
- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل قوم نصوصه على نسختين خطيتين أمين الخولي بإشراف طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإدارة العامة للثقافة الطبعة الأولى 13800-/1960م القاهرة مطبعة دار الكتب الشركة العربية للطباعة والنشر.
- القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تقديم وتحقيق أحمد حجازي السقا دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.
- القشيري صحيح مسلم
- الماوردي أدب الدنيا والدين، بيروت دار الكتب العلمية، 1987.
- هنانو ملك "من التوراة" مجلة المجمع العربي المجلد التاسع والثلاثون الجزء الثاني أبريل 1964.



❖ **يوسف الكلام، من مواليد 16 يوليوز 1969.**

❖ **أستاذ مقارنة الأديان بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.**

❖ **حاصل على شهادة الدكتوراه من كلية الآداب بالرباط سنة 2006.**

❖ **رئيس جمعية البحوث والدراسات في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان.**

❖ **عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدراسات العقيدية ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر.**

❖ **له كتاب مطبوع بعنوان: تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقدس، دار صفحات للدراسات والنشر 2009، سوريا.**

❖ **له كتب وترجمات قيد الطبع منها: "مدخل إلى دراسة اليهودية" و"مدخل إلى دراسة المسيحية".**

❖ **له أيضا مقالات علمية عديدة منشورة بمجلات علمية محكمة منها: بحث بعنوان: "إسهامات الفكر الإسلامي في تطور حركة نقد الكتاب المقدس قراءة نقدية في تاريخ نشأة حركة الكتاب المقدس في الغرب". مجلة التأصيل السعودية، نوفمبر 2010 العدد الثاني.**

❖ **kellamyoussef@hotmail.com**



❖ **نادية الشرقاوي،** من مواليد الرباط بتاريخ: 03 يوليوز 1975،

❖ حاصلة على الدكتوراه في مقارنة الأديان من كلية الآداب بالرباط سنة 2006.

❖ عضو مؤسس لجمعية البحوث والدراسات في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان.

❖ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر.

❖ لها كتاب مطبوع بعنوان: "منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى"، دار صفحات للدراسات والنشر سنة 2010م، سوريا، وكتب أخرى قيد الطبع.

❖ لها أيضا مقالات علمية عديدة منشورة بمجلات علمية محكمة منها بحث: تفسير "يا أخت هارون" على ضوء الدراسات المقارنة في علم الأديان"، مجلة الدراسات القرآنية مركز الدراسات الإسلامية SOAS جامعة لندن.

❖ charkaouinadia@hotmail.com

إصدارات

2012-2011

صفحات للدراسات والنشر

نحو فكر حضاري متجدد

سوريّة - دمشق - ص.ب: 3397

هاتف 2213095 تليفاكس: 00963112233013

www.darsafahat.com info@darsafahat.com

(1) الله والفيزياء الحديثة، بول دافيز، ترجمة هالة العوري، 2012م.

(2) الفناء في الإنسان - كبار الصوفية، هالة العوري، 2012م.

(3) النشأة الدموية الأسرار المفقودة للماسونية، جون ج. روبنسون، ترجمة وتعليق: محمد الواكد، 2012م.

لقد استخدمت الماسونية لقرون رموزها وطقوسها الغامضة في سرية تامة، وذلك قبل أن تكشف عن وجودها في لندن في عام 1717م. ما إن أصبحت الماسونية معروفة، انتشرت في كافة أنحاء العالم، واستقطبت الملوك، والأباطرة، ورجال الدولة لكي يقسموا يمينها المقدس. استقطبت أيضاً الثوريين العظماء مثل جورج واشنطن وسام هيوستن في أمريكا، خواريز في المكسيك، وغاريبالدي في إيطاليا، وبوليفار في أميركا الجنوبية. كما أنها منعت لقرون من قبل هتلر، وموسوليني، وآية الله الخميني. ولكن من أين أتت هذه المنظمة القوية؟ ما الذي كانت تفعله في تلك القرون السرية قبل أن تخرج من سريتها إلى النور قبل أكثر من 270 سنة؟ ولماذا هذه الكراهية العمياء والهجوم الشرس الذي شنته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ضد الماسونية؟ هذه الرواية البوليسية المدهشة تجيب عن تلك الأسئلة، وتثبت أن فرسان الهيكل في بريطانيا، الذين قُروا من اعتقال وتعذيب البابا والملك، قد شكلوا جمعية سرية ذات حماية متبادلة، أطلق عليها فيما بعد اسم: الماسونية. بناء على سنوات من البحث الدقيق، هذا الكتاب يحل آخر ما تبقى من ألغاز الماسونيين - كلماتهم، ورموزهم، وألغازهم السرية التي فقدت معانيها الحقيقية في العصور القديمة. مع خلفية غنية تلقي الضوء على المعارك الدامية، وعلى الملوك الانتهازيين والباباوات الماكريين، وعلى التعذيب والاضطهاد الديني الذي مورس في القرون الوسطى، نجد أن هذا الكتاب القيم والمهم يجعلنا نلقي نظرة جديدة على تاريخ الأحداث التي أدت إلى الإصلاح البروتستانتي.

جون ج. روبنسون هو كاتب ذو اهتمام خاص في تاريخ بريطانيا في العصور الوسطى وفي الحروب الصليبية. يترأس أمانة أسرية مكرسة للبحث التاريخي والنشر. السيد روبنسون هو مدير أعمال تنفيذي، ومزارع أغنام، وجندي بحرية سابق، كما أنه عضو في أكاديمية العصور الوسطى الأمريكية، وفي منظمة المؤرخين الأمريكية، وعضو في اتحاد المراقبين الملكي في لندن. يعيش في مقاطعة كارول في كنتاكي.

(4) أصول النقد والتحليل في الكتابة التاريخية (مجموعة مقالات)، أ.د. مرتضى حسن النقيب، 2012م.

هذا كتاب عن إشكالات النقد والتحليل في العمل الكتابي الأكاديمي من وجهة نظر كمنهجية، تتضمن مقالات تعود لحقول التاريخ السياسي والنظم وعلم التاريخ لدولة الخلافة والدول التي تفرعت عنها، كتبت بموضوعية تامة، بعيدة عن التحيز أو أي هوى فكري أو عقائدي، نفعها يعود للقارئ المتخصص وطلبة الدراسات العليا أكثر مما تخدم اهتمامات وعناية القارئ العام. والأهم أن الكتاب ليس بنظرية إفتراضية في رؤية وكتابات المؤرخ بقدر ما هو تحصيل معرفي لأقوال المؤرخين عن المشكلات المنهجية والتاريخية الواردة في المصادر والمراجع واستخداماتها في العمل الكتابي الناجح. مخطوطة الكتاب تتكون من سبع مقالات متداخلة منهجياً، كلها اعتمدت التوثيق الدقيق وأحياناً التزمّت كذلك في النقل للأفكار والنصوص المستخدمة وماسواها من ادعاءات غير معتمدة، الأولى تدور حول مصنف نكت الوزراء للجارمي، أحد الصدور الكبار أيام السلاجق الأواخر والفرع الفجوري الحاكم في باميان، والثانية تناولت تطاولات الواعظ والمصنف البغدادي الشهير ابن الجوزي على مؤرخ مرو وكبير بيت السمعاني أبو سعد المروزي، والثالثة في النسب الفاطمي وإشكالاته المنهجية، فيما تناولت الرابعة حالة الإدارة الحلبية وتطورت الوزارة الأيوبية المحلية أيام مملكة الظاهر غازي والعزیز محمد وحفيده الناصر يوسف، سلطان الشام في تسميته اللاحقة، والخامسة تعالج الجهاد الذي تبناه الأتابك عماد الدين زنكي من أجل إنجاحه في التغلب على أولى الإمارات الصليبية الأربع التي قامت في بلاد الشام أيام الحملة الصليبية الأولى في 490هـ. وهناك مقالتان في الإنكليزية عن أهمية وأصالة السياسات.

(5) الذات الجمالية، أ.د. عقيل مهدي يوسف، 2012م.

(6) المعاد عند الفلاسفة المسلمين من الكندي إلى ابن رشد (مقاربة تحليلية)، د. إياد كريم الصلاحي

(7) الفن عند الفارابي، زكاء مردغاني، 2012م.

(8) إشكالية العقل والعقلانية لدى برهان غليون وعبد الله العروي، مبارك حامدي.

(9) معجم ألفاظ العقيدة الإسلامية، إعداد سائر بصمه جي، 2012م.

إن مفهوم العقيدة في اللغة مأخوذ من العقد والربط والشد بقوة، ومنه الأحكام والإبرام، والتماسك والمراساة، والإثبات؛ ومنه اليقين والجزم. أما مفهوم العقيدة اصطلاحاً فهو يطلق على الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شك. وعليه فإن دراسة ألفاظ العقيدة، ومصطلحاتها، وتحديد معانيها على مذهب أهل السنة والجماعة، وبيان مراد الطوائف بها، كل ذلك ضرورته ماسة، وأهميته لا تخفى، يحوي هذا العمل على أكثر من 950 مصطلح، والتي حاولنا أن نشمل فيها معظم مصطلحات العقيدة الإسلامية.

10) تميم البرغوثي مثيرات الأسلوب الشعري دراسة نصية في المحفزات الجمالية ومختارات شعرية، عصام شرتج، 2012م.

تمتاز القصيدة عند البرغوثي بمزاوجتها بين إيقاع شعر التفعيلة، والإيقاع العمودي الكلاسيكي، وهذه المزاوجة ساهمت في تكثيف رؤيته والتعبير عنها بطرائق جديدة مبتكرة، تؤكد شاعريته، ومهارته في صوغ لغة شعرية مثيرة، إن أبرز ما يميز شعرية البرغوثي طريقة بنائه للقصيدة، فهو يبنينا على القفلة الشاعرية الدهشة التي تتجاوز البناء السطحي الساذج، محاولاً بناء القصيدة كاملة على ركائز فنية.

تقف قصائد تميم على قضايا وجودية كبرى، وقضايا قومية كبرى، فهو شاعر شمولي الرؤية واسع المنظور، عميق الحس الإدراكي، ومرهف الأسلوب الإبداعي، يلون في أساليب قصائده تبعاً لمثيرات التشكيل وطريقة البناء، وهو ذو موهبة فذة في التقاط المشهد وتصويره بواقعية حسية حية مباشرة حيناً، وبترسيم ذهني تخيلي بعيد حيناً آخر. تمتاز قصائده بمزاوجتها بين أسلوب السؤال، والنداء، وأسلوب السرد والحوار، لخلق حركة جدلية صاخبة ضمن الدفقة الشعرية الواحد.

إن شعرية البرغوثي تركز على مثيرات الصورة الحركة، أو الصورة التقريرية ذات الزخم الانفعالي، والاحتجاج الغاضب، لهذا يطغى على قصائده إيقاع الأصوات المجهورة الحادة الصاخبة على إيقاع الأصوات المهموسة، ما يجعل نفسه الشعري نفساً حاداً عنيفاً في كثير من الحالات، خاصة في الشكل العمودي.

11) الماغوط وثورة الشعرية (بين شعرية النثر ونثرية الشعر) ومختارات شعرية، عصام شرتج، 2012م.

تمتاز قصائد محمد الماغوط بمناوشاتها التشكيلية المراوغة التي تخفي وراءها عبثاً في العقائد والشرائع والعادات؛ مما يجعلها تضج بالشكوى والألم والسخرية اللاذعة بمعالم الوجود وحركة الأشياء، وتمتاز بطابعها التجريدي رغم إيقاعها العاطفي البسيط؛ من خلال الاستعارات المفاجئة التي تعتمد المزج بين المحسوسات أو المجردات، لإثارة الحركة الذهنية صوب تداخل الموصوفات وغرابتها الإنسانية.

تكتظ قصائد الماغوط بمعجم لغوي سياسي يشي بالواقع المعاصر والتطورات السياسية المعاصرة؛ إذ نجده يستخدم مصطلحات مشتقة من حقول السياسة، وتمتاز قصائده بتنوع حقولها الدلالية، كحقول النبات والماء والاقتصاد والتجارة وحقول الزراعة وعلم الاجتماع والفلك والسياسة والطب والهندسة ويتراكم الصفات والمسميات المتباعدة، لخلق تراكيب جديدة مثيرة تشي بالمراوغة التشكيلية والحنكة الاستعارية بالمزج بين الأوصاف الحسية والمجردة والأوصاف المجردة بالحسية، مما يجعل مفردات قصائده متنوعة مستقطبة من حقول مختلفة؛ وكان معجمه الشعري موسوعة علمية متكاملة شاملة للمفردات الحياتية كلها على المستويات كافة.

12) ممدوح عدوان مدونات الفن الشعري ومختارات شعرية، عصام شرتج، 2012م.

تكشف مدونة التجربة الشعرية - عند ممدوح عدوان - عن رؤى جمالية؛ تميزت بها أمداء هذه التجربة؛ كحيازتها على مداليل التراث والتقنيات السردية الفاعلة في تحريك الحدث الشعري؛ وتكثيف مدونات القصيدة - لديه - بما في ذلك تعزيز الطاقة الدلالية والإيحائية لقصائده؛ من حيث الكثافة الشعرية والملد الانفعالي لهذه التجربة والقدرة التصويرية على مباغثة القارئ بالجدد والمتعة على الدوام؛ نظراً إلى ما تضمه هذه التجربة من فضائيات دلالية غاية في المكاشفة والمواربة التصويرية والقفزات التخيلية القادرة على بث الحدث الشعري وتعميق فاعليته الدلالية ضمن المساق النصي العام.

13) التصبص في الفكر الصهيوني، عبيد سهام مهدي، 2012م.

يعد التصبص ظاهرة مركبة متنوعة الأسباب والأوجه، فله أسباب اجتماعية، وسياسية، ونفسية، وهو ظاهرة عامة، عرفت في التيارات الفكرية المختلفة في حقب التاريخ كلها، مع التباين في أسبابها وأنماطها وصورها، حيث تختلف مكونات التصبص وطرق ممارستها.

ويبدو أن الاهتمام ببحوث التوجهات التعصبية نحو الجماعات والقوميات الأخرى قد بدأ منذ العشرينيات من القرن العشرين على يد بوجاريس، وقياسه للمسافات الاجتماعية التي يرتضيها الشخص بينه وبين أعضاء القوميات الأخرى ابتداءً من المصاهرة وانتهاءً إلى زيارة البلد أو الطرد منه.

وتتبع أهمية الدراسة التي بين أيدينا، والتي تحاول الكشف عن ماهية هذه الظاهرة ومكوناتها الفكرية والنفسية ووسائل تمييزها، فضلاً على تسليط الضوء على المهمة التي يؤديها التصبص في صياغة الشخصية اليهودية المتعصبية وتكوينها وتقصي الأثر الذي تركته ظاهرة التصبص بعد قيام الكيان الإسرائيلي على المستويين الداخلي والخارجي، وهذا كان واضحاً في الاستنتاج العالمي له على الصعيد القانوني والفكري، والذي توج باستصدار قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ذي الرقم 3379 عام 1975م.

14) فن الترجمة " بين النقل والإبداع في سرد شهرزاد"، ياسمين فيدوح، 2012م.

ما من معطيات خالصة إلا وتؤول إلى نتائج إيجابية، من باب الاستنباط، وليس من باب الحكم. ومن ثم فإنه يفترض من متقضي موضوع الترجمة، والمستفيض في بحثها، التسلح بأدوات النص، والكتابة، والقراءة، والتأويل، والأ يكون ملماً بثقافة اللغتين، المترجم منها والمترجم إليها وحسب، بل يفترض أن يكون على وعي تام بنظريات تحليل المعنى، وعلى دراية واسعة بقوانين التشكيل البلاغي، والنحوي، وأنساق التلقي لكل من اللغتين.

15) معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، د. عبد القادر فيدوح، 2012م.

الشعر جوهر الرؤيا الكشفية التي تبحث في علاقتنا بالكون، وتقرب صلتنا فيما نتخذه المعرفة البدئية بالمعرفة الوجودية؛ الأمر الذي يدفعنا إلى تعجير السؤال الناتج من القلق، المغمم بالصدى، الملعل للصمت - في طريقه الصاعد إلى السكون - بالإمكان؛ سؤال القلق المعبر عن الثبات في سبيل التحول، سؤال يفوص بكليته نحو سلم الفكر الصاعد بالمشاهدة - اللانهاية -

مشاهدة - الظاهر الخفي، مشاهدة - الإشعاع النوراني، المشاهدة المشتركة بالسعي الدائب للوصول إلى جوهر رؤيا ملكة الإبداع، المشعة ببناء بهاء جمال روحها الفياض، ونصاعة تركيبها الباهرة. ولعل هذا ما يميز القصيدة المعاصرة، في سميتها الاختراقي، إلى كل ما يمت بصلة إلى الذخيرة الباطنية بحرقة الوجد، حيث البركان الشمري لا يخمد، ولا يسكن بفيضه الكشفي، ولكنه دائم البحث عن المضمهر في الكون، والمسكوت عنه في الواقع، وهو الموقف المؤسس للوعي المتجدد، المنفني إلى تعدد زوايا الرؤيا: تجاوبا مع "كل جزئية من الكون موقف" بحسب "مواقف" التفري.

(16) مبادئ اللغة العبرية، د. مصطفى زهرار، 2012م.

يضع هذا الكتاب قواعد اللغة العبرية بين أيدي القراء والدارسين لما لهذه اللغة من روابط قرابة وثيقة باللغة العربية فهما من أصل سامي واحد، وبينهما ارتباط لغوي وثيق، فضلاً عن كونها لغة العهد القديم، مما يجعل الإمام التام بنصها الديني وتطويعها لخدمة النص القرآني وفهم أسرارها أمراً واجباً لدارسي النصوص الدينية. ولتفهم طبيعة النصوص الدينية وما قد تحتويه من مشاكل لغوية لا يستقيم إدراك الهدف منها أو شرحها دون إن تفهم اللغة التي كتبت بها فهما سليماً، وذلك من خلال الوقوف على أسرار هذه اللغة وتركيبها النحوية. أضف إلى ذلك دور اللغة العبرية في الكشف عن الكثير من غموض الألفاظ والتراكيب في نقتنا العربية وإسهامها في تصور مراحل تطورها اللغوي. فاللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة كأداة للتعبير، لأنها أول شيء يصادفنا، هي النافذة التي من خلالها نطل ومن خلالها نتسم، هي المفتاح الذهبي الذي يفتح كل الأبواب، فاللغة هي الجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الافاق، وقد عرف الانسان العالم أو حاول أن يعرفه لأول مرة يوم أن عرف اللغة.

(17) مقاربات في دراسة النص التوراتي (سفر راعوت نموذجاً)، د. مصطفى زهرار، 2012م.

إن أهمية هذا البحث تتبع من الدور الكبير الذي تلعبه الأديان على مستوى العلاقات الإنسانية.

- كيف يمكن أن نلصق التماهي الذي يصطنعه أتباع الأديان بين عقولهم وبين نصوصهم الدينية ؟

- كيف نجعل العقل يعي ثقله للنصوص ؟

- كيف نزيل من العقل أنانيته الطائفية بأن يدرك أن الطائفية في عمقها نفي للعقل واغتياال للإنسان ؟

إن النصوص التوراتية والإنجيلية والقرآنية أنتج بعض أتباعها نظريات في التطرف والكراهية أشعلت حروباً طاحنة حصدت أرواح البشر، والإشكال الأعظم هو أن جميع الأديان تدعي أنها موجهة لجميع البشر في كل الأمكنة والأزمنة.

لا نريد تقديم قراءة طائفية ولكن نريد قراءة إنسانية للدين، قراءة جديدة للنص الديني تستجيب لمصلحة هذا الإنسان وتستحضر روح ومقاصد الدين والأديان في عمومها.

وقمنا بدراسة البنية التركيبية للعهد القديم والروايات المختلفة لمضامينه وقضاياها، مبرزين نظرية المصادر داخل العهد القديم

انطلاقاً من الدراسات الغربية، مسلطين الضوء على أهم القضايا التي تناولها النقاد منذ الإرماسات الأولى لنظرية المصادر إلى تشكيلها في إطار المضامين الوثائقية، والتي شكلت مصادر النص التوراتي.

كما حاولنا إعطاء أهم ترجمات العهد القديم، موضحين الاختلافات الموجودة فيما بينها، هذا بالإضافة إلى تقسيمات العهد

القديم حسب الرؤية اليهودية، كما أشرنا إلى موقف القرآن الكريم من العهد القديم الذي نحسبه أول رائد لنقد نصوص العهد القديم.

(18) نقض كتاب تثليث الوجدانية في معرفة الله - نموذج لعلم العقيدة والكلام عند مالكية الغرب

الإسلامي، الإمام المحدث أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت656هـ) - دراسة وتحقيق وتقديم، يوسف

الكلام-نادية الشرقاوي، 2012م.

ليست الرغبة في تحقيق هذا الكتاب وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى عقد من الزمان، عندما أسسنا "جمعية الإمام ابن حزم

لطلبة الباحثين في مقارنة الأديان"، وكان من أهدافنا إعداد فهرسة لكتب المقارنة بين الأديان، وتكلفنا نحن بفهرسة الخزانة

الملكية. وأثناء القيام بهذا العمل أثار انتباهنا مخطوطة لمؤلف مجهول تحمل عنوان: "نقض تثليث الوجدانية"، فقمنا بطلبها،

فتبين أن المخطوطة هي لكتاب الإعلام بما في دين النصاري من الفساد والأوهام للقرطبي، فقمنا باقتناء الكتاب وقررنا إعادة

تحقيقه. ولا ندعي أن ما قمنا به تحقيق تام، فلأزال ينقصه الشيء الكثير ولكن لما رأينا جهداً مهماً قد بذل في هذا العمل، لم

نشأ أن نتركه يضيع، ونحرم الباحثين في هذا المجال من الإطلاع على هذه المخطوطة التي لم تعتمد في التحقيقات السابقة،

ونكتفيهم مشاق التتقل إلى الخزانة الملكية وطلبها للقراءة، فقررنا نشر هذا العمل حسب ما وصلنا إليه، أملين أن نعيد نشره

مرة أخرى في طبعة منقحة مفيدة بحول الله تعالى.

(19) يسوع المسيح خارج العهد الجديد، مدخل إلى الأدلة القديمة، روبرت هان هورست، ترجمة: وسيم عبده،

تقديم ومراجعة، د. منذر الحايك، 2012م.

لقد شغلت الباحثين لفترة طويلة قضية شخصية المسيح التاريخية ومدى تطابقها أو اختلافها مع مسيح العقيدة. وانقسموا

في تصورهم لشخصية المسيح إلى تيارات متباينة، كان منهم من يقول أنه كان من الأنبياء المنذرين بنهاية العالم، وآخرين يرون

فيه مجرد شخصية خيالية مختلفة، ومنهم من يراه حكيماً زاهداً من أتباع الفلسفة الكلية، لكن معظمهم يعتقد بأن المسيح

التاريخي هو غير مسيح العقيدة، ولأن يسوع المسيح لم يترك أي أثر مباشر، وكل ما يعبر عنه هو الأناجيل التي كتبت بعد

حياته بزمان طويل، ولم تكتبها الأسماء التي تتسبب إليها، فحتى الكنيسة الآن تستخدم عبارة "وفقاً لما نرى"، أو "وفقاً لمقرص"...

أي أنها منقولة عنهم. لذلك فإن الدراسات التي تتناول حقيقة يسوع غالباً ما تثير خلافات حادة تشمل، إضافة للباحثين،

رجال الكنيسة وعامة الناس، وتستمد هذه الخلافات إشكالياتها الخطرة لأنها تلامس بشكل مباشر قضايا أساسية من

الإيمان المسيحي. ويأتي هذا الكتاب، معتمداً على المصادر القديمة من خارج العهد الجديد، ليتناول كل تلك الإشكاليات

ويخضعها لطرائق النقد العلمي، فيخرج بنا إلى نتائج في غاية الأهمية، إن كان على مستوى عقائد الإيمان المسيحي أو على

المستوى التاريخي لشخصية يسوع المسيح.

20) السوق الدينية في الغرب، دارن أشركات، كريستوفر ج. إليسون، روناي ستارك، لورانس ر. إياناكوني ترجمة، دعر الدين عناية، 2012م.

تتوجه إلى علم الاجتماع الديني، المحكوم بالأطر النظرية الكلاسيكية، الذي طالما ساند أطروحات أفول المقدس، واكتساح العلمنة، وانحسار الدين، انتقادات جمة بشأن قصور أدواته عن الإحاطة بالواقع الديني الراهن. ومن هذا الباب، تعالج الأبحاث الواردة في هذا الكتيب الموضوع بمناهج مستجدة. في جانب من تلك الأبحاث تعالج سوق الدين في أمريكا، التي تتميز بحيويتها العالية وتحرر أنشطتها، جراء تطور مفهوم الدين المدني، فضلاً عما يتسرب إليه الدين نحو شتى أطراف النسيج الاجتماعي. كما تتابع الأبحاث، من جانب آخر، الواقع الديني الأوروبي، الذي ما فتئت مؤسسة كنسية واحدة، ذات لون كاثوليكي، أو لوثيري، أو أنجليكاني، تحتكر الفضاء في مجمل أقطاره. وقد لا تقع تلك المؤسسة بما تتمتع به من حظوة من قبل الدولة، بل تعمل جاهدة للتضييق على نظيراتها من التقاليد الدينية الأخرى. بات القول بتراجع الدين أو تمدده على المحك، جراء اختبار الوقائع ضمن اقتصاد الاعتقاد، الذي يقدر ما ينشغل بمستهلكي الدين والمزودين به، يولي الفضاء الحاضن عناية أيضاً، من حيث احتكار النشاط فيه أو تحرره. ومن هنا تقدر وتقيم مستويات الركود والحراك في الحقل الديني.

21) العبادات في الأديان السماوية (اليهودية، المسيحية، الإسلام، والمصرية والعراقية واليونانية والرومانية والهندوسية والبوذية والزرادشتية والصابئية)، عبد الرزاق رحيم صلال الموحى، ط3، 2012م. هذا الكتاب هام جداً، فكم من الناس والمثقفين يعرف كيف يصلي اليهود؟ وكيف يزكّون؟ وكيف يتطهرون؟ وإلى أين يحجّون؟ وكيف يصومون؟ وكيف يتوضّؤون؟ وما هي أعيادهم؟ وكذلك الأمر للمسيحيين، وهذه الدراسة دراسة مقارنة هامة تبين النصوص المؤقتة من التوراة والأنجيل والقرآن الكريم والسنة النبوية، ما أصاب بعض الديانات السماوية من تحريف وابتعاد عما نزل أصلاً في كتبها السماوية، حتى وصل بعضهم إلى تحليل ما حُرّم في كتبهم، وتحريم ما أحلّ، وتبديل ما ليس بيدل.

22) العبادات في الديانات القديمة المصرية والعراقية والرومانية والهندوسية والبوذية والزرادشتية والصابئية، عبد الرزاق الموحى، ط2، 2012م.

23) العبادات في الديانة المسيحية، عبد الرزاق الموحى، ط2، 2012م.

24) العبادات في الديانة اليهودية، عبد الرزاق الموحى، ط2، 2012م.

25) خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ويسون براين كي، ترجمة، محمد الواكد، ط3، 2012م. ما الهدف من الاستغلال الإعلامي الجنسي؟ هذا الكتاب غير العادي يكشف كل الطرق التي تقوم بها كل من المجلات والصحف والأقنية التلفزيونية والأفلام والموسيقى الشعبية، والتي تقوم على مبدأ الاغتصاب والاستغلال الفكري للشعب، بعد قرائته لا بد أنك ستظن، وتنتصت، وتدرك، ولكن بطريقة جديدة تماماً، لا تدعهم يضعون السّيار أمام عينيك وأذنيك وفمك وأنفك وحواسك كلها، أيها المشتري، كن حريصاً، كن حريصاً، أولاً من أن الإعلان مصمم من أجل أن يضعك في عالم الخيال، تلك هي رسالة الاستغلال الإعلامي الجنسي، ما الرموز المخفية في وسائل الإعلام الأمريكية؟ ما كيفية قيام تلك الرموز ببرمجة عقولنا الباطن وتكييفه؟ إنه كُتف مثير لعواقب الإغواء اللاشعوري؛ لأن وسائل الإعلام تكلّم كل شيء عن مخيلاتك، ومخاوفك، وعاداتك المتأصلة والعميقة، فهي تلمح إذاً كيف تستغل مشاعرك وسلوكك الشرّائي، وكيفية قيام إعلانات الحلوى بإزالة مخاوفك من زيادة الوزن. اكتشف أن مجلات مثل (بلاي جير) و (فيفا) المخصصة للنساء، هي في الواقع تستهدف الرجال، كيفية قيام إعلانات السجائر بإزالة مخاوفك من الإصابة بالسرطان، كيفية قيام الأفلام بابتكار طرق تعذيب جديدة من أجل إيلامك، ومن أجل زيادة أرباحها، كيفية قيام إعلانات الأزياء بالتوجه إلى السعافية المستترة، كيفية نجاح موسيقى الروك الشعبية السّاحق في ترويج المخدرات، كيفية قيام صور الأخبار بقولبة وصياغة أرائك، كيفية تضمين كلمة من أربعة أحرف وإخفائها في صور طعامك وفي صور ملابسك من أجل إثارة الرغبة الجنسية، كيفية قيام كل ذلك، وأكثر من ذلك كثيراً. يائزرتك، واستعبادك، ومن دون أدنى علم حمي بذلك! (صدمة مدهشة! سحر شديد!) (الأمر يتطلب أقصى درجات الحرص!).

26) كيف صنع اليهود الهولوكوست؟ نورمان فنكلشتاين، ترجمة، د. د. ماري شهرستان، ط2-2012-2007م. قال الحاخام أرنولد جاكوب فولف مدير جامعة دي يال «يبدو لي أنهم يبيعون الهولوكوست عوضاً عن أن يعلموه». إن هذا الكتاب هو في آن واحد. تشرح واتهام لصناعة الهولوكوست. إنه يؤكد أن الهولوكوست هو مقدمة إيديولوجية للهولوكوست النازي. إن إحدى أكبر القوات العسكرية وأعظمها في العالم: وحيث إن فيها انتقاصات حقوق الإنسان هائلة قدمت نفسها كبلد ضحية. وقد جنت أرباحاً وفوائد هائلة عن هذا الوضع. الضحية الذي لا مبرر له وخصوصاً الحصانة في مواجهة النقد حتى الأكثر بُعوثاً وسناداً. يقول فنكلشتاين: كان أهلي يندموني. غالباً. عندما يجدون أنني مستتكر. إلى حد كبير. تزوير واستغلال الإبادة النازية. الجواب الوحيد والأبسط هو التهم التي يستعملونها لتبرير السياسة الإجرامية لدولة (إسرائيل) ودعم الولايات المتحدة لهذه السياسة. هناك. أيضاً. دافع شخصي: إنه الحملة الحالية لصناعة الهولوكوست الهادفة إلى ابتزاز المال من أوروبا على حساب الضحايا المحتاجين للهولوكوست، وضعت استشهادهم في مستوى أخلاقي لكازينو موناكو. نورمان ج. فنكلشتاين يهودي يوضح كيف صنع اليهود الهولوكوست، وكيف يستمرونه، وكيف يخدعون به الدنيا وأوروبا وأمريكا.

27) عروية الخليج...حقائق جغرافية وقوية، أ.د. قصي منصور التركي، 2011م.

28) سيرة الملك فيصل الثاني 1935-1958 آخر ملوك العراق، طارق إبراهيم شريف، 2011م.

29) علم النفس التجريبي، د.علي عودة محمد، 2011م.

(30) **ظواهر الإنسان الخارقة وقواه الحسية الفائقة حدود العلم الحقيقية لعلم نفس الساي Psi**، د. علي شاكر الفتلاوي، 2011م.

علم نفس الساي psi في سعيه للسبر باتجاه «رحلته العلمية الشاقة» من أجل وصف وتفسير عناصر الطاقة الإنسانية الفائقة، وفهم آليات عملها قدر الإمكان، يضع الأسئلة التالية، محاولاً الإجابة عنها بماهي قدرات الإنسان الخارقة؟ ما طبيعتها؟ وما تصنيفها؟ هل يستطيع العلم - والبحث التجريبي خاصة - فك أسرار العلاقة أو الحاكمة في فعل تلك الطاقات والقدرات؟ وما علاقة الشخصية الإنسانية بقدرات الـ psi؟ وهل صحيح أن هنالك عوامل يمكن أن يفضي توافرها إلى ظهور تلك القدرات؟ وهل من حدود منطقية للعلم تقضل في ظواهر الـ psi؟ وما هو الوجه الآخر للعلم في تصديه لتلك الطاقات؟ وكيف تساعد بحوث الدماغ والتفذية الاسترجاعية الحيوية وعالم فيزياء الجزيئات في توضيح وتفسير ظواهر الساي؟ وهل من إمكانية لتأثير الفكر والعقل على الأحداث والأشياء؟ ولعل من أهداف الكتاب الرئيسية أن تثال قيم العلم وتطبيقاته في شايا الثقافة المجتمعية؛ ليكتسب المجتمع تلك القوة الثقافية الإيجابية التي تعمل رافداً مباشراً في خلق وبلورة «عقل علمي» لدى الأفراد، من خلال الدفع باتجاه ترسيخ منهج الوعي بحدود العلم الواقعية من جهة، وأفاق تلك الحدود من جهة أخرى، دون الاستسلام للأكاذيب الزائفة والمورقات غير الدقيقة، أو المشاهدات الموهومة الشائعة.

(31) **الأعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين، د. راجحة خضر عباس النعيمي، 2011م.**

الكتاب دراسة سرية لحياة الشعوب البدائية التي لا تختلف في أسلوب حياتها عن طريقة إنسان عصور ما قبل التاريخ. نشأة الأعياد في حياة الإنسان، كلمة عيد أصلها واشتقاقها حيث تناولت الباحثة الكلمة السومرية «EZEN» التي تعني العيد وأشارت إلى أنها كلمة كانت تعبر عن الفرحة والاحتفال الذي لا يرتبط بوقت محدد من أوقات السنة. وتناولت كلمة عيد باللغة الأكديّة «Esinu» وأوضحت بأنها كلمة مقبسة من الكلمة السومرية ولكنها تعني العيد الدوري الموقوت وبينت أيضاً الأسباب التي جعلت منها تعبر عن الأعياد الدورية رغم اقتباسها من الكلمة السومرية. وعرضت المعاني المختلفة التي كانت تعبر عنها كلمة عيد باللغتين السومرية والأكديّة، ثم تناولت الباحثة أنواع الأعياد والاحتفالات القديمة بعد أن قسمته إلى عدة أقسام، (أعياد القرى، أعياد المدن الكبرى). وتحدثت عن عيد أكيكو خلال الفترات السومرية والبابلية وقسمته كذلك إلى عدة أقسام، الأول يتضمن تحليل كلمة أكيكو والتي اعتبرتها تعني «استئزال المطر». وهذا يعني أن احتفالات أكيكو في بلاد وادي الرافدين ما هي إلا استمرارية لتلك الطقوس السحرية التي مارستها كثير من شعوب العالم من أجل استئزال المطر في حالة انحباسه، وأخير فقد تحدثت الباحثة عن الزواج المقدس خلال الفترات التي سبقت الألف الأول قبل الميلاد وذلك لأن الإشارات التاريخية المدللة عليها لم تربطها بشكل واضح مع احتفالات عيد أكيكو. وعرضت لشعائرها في الأدوار التاريخية المختلفة.

(32) **العصر الأيوبي، قرن من الصراعات الداخلية، د. منذر الحايك، تقديم د. سهيل زكار، 2011م.**

عندما توهب نور الدين لم تقف الأمة المشروع بفقدان القائد، فقد جاء صلاح الدين، الذي كان مسكوناً بروح سلفه، ليحقق الجزء الأكبر من مشروع التحرير، مستفيداً من الوحدة، ولكن البيت الأيوبي، الذي قام حكمه أساساً على مشروع الدولة الموحدة والجهاد للتحرير، تناسى المشروع بوفاء صلاح الدين، وغدت الشام منقسمة، لا تتوحد إلا بتحالفات شتى ضد مصر، ولم يكن صلاح الدين هو من قسم الدولة التي جهد لتوحيدها، ولكن الإقطاع العسكري، وهو النظام السائد وقتها، كان سبب التجزئة، فبوفاء السلطان تتحول الإقطاعيات إلى ممالك، لقد كانت مرحلة الانقسام الأيوبي مرحلة عقيمة على الصعد كلها، ما منح الفرنجة أعواماً طويلة أخرى، أمضوها في بلادنا، ليس لقوتهم التي ارتفعت بعد حطين، بل لضعف الكيانات السياسية الأيوبية وتخاذلها، لكن من جهة أخرى، ومع أن ملوك البيت الأيوبي تخلوا عن السياسة الهجومية للتحرير، فلا بد أن نشير إلى دفاعهم القوي في وجه الفرنجة، حيث تمكنوا من صد حملات كبرى، كان ممكناً أن تغلب وجه الشرق العربي المسلم، وعلينا أن لا نهملم كل أوزار زمانهم، فقد كانوا جزءاً من مجتمعهم بكل ما فيه من فضائل ونقائص، ومع أن الأيوبيين كانوا أكراداً في أصلهم، فقد عدوا أنفسهم عرباً بثقافتهم ودينهم، فأحبوا اللغة العربية، وقرّبوا إليهم الشعراء والأدباء، وعقدوا مجالس الفقه، وكانوا رواة، تسند إليهم بعض الأحاديث الشريفة، كما تميزوا بالبساطة، وربما النقش، فلم تعرف بلاطاتهم التقاليد الملكية، أو أهية الملك، إن تاريخ البيت الأيوبي لا يبدو واضحاً من سير ملوكه، أو تدوين أحداثه، بل يحتاج على نحو ضروري إلى دراسة العلاقات الداخلية بين ملوك البيت وسلاطينه وتحليلها، ودور الأمراء، والقوى العسكرية، وشبه العسكرية، وتأثير كل هؤلاء في تلك العلاقات، وهذه هي المزية الجديدة التي انفرد بها هذا الكتاب، والتي لم يتطرق إليها البحث سابقاً وفق علمي.

(33) **نزهة الأنام في محاسن الشام، غوطة دمشق ومنزهااتها، أبو البقاء عبد الله البدرى، تحقيق، الدكتور منذر الحايك، 2011م.**

يعد هذا الكتاب الأقدم في موضوعه، فمؤلفه أبو البقاء عبد الله بن محمد البدرى (847-894 هـ)، يتحدث عن غوطة دمشق يوم كانت جنة الدنيا. عن فاكهتها في زمن كانت فيه أنواع الصنف الواحد من الفاكهة أكثر من أن تحصى، بل إن بعض الأنواع لا يجد له المؤلف اسماً فيقول: مجهول. عن الزائر الذي شبع من الفاكهة التي تطفو على سطح النهر، والفقراء الذين يحملون مكاتلهم على رؤوسهم ويسيروا في دروب الغوطة، فيعودون وهي ممتلئة بالثمر الحلال الذي سقط عليهم. عن أزهار وثمار كانت متاحة للفني والفقير، كالنيلوفر، والتمر حنه، وقف وانظر، وورد دمشق الجوري. عن فوائد كل نوع من الثمر أو الخضراوات واستعمالاته الطبية كما قررها كبار أطباء ذلك العصر.

يتحدث عن منزهاات دمشق التي لا مثل لها: الربوة، والجيبة، وبين النهرين، والشرفين، والنيرين، والحوكير. . . عن عادات أهل دمشق في نزهااتهم واحتفالاتهم، وعن أشعارهم بكل موسم وكل فصل، بل وبكل نوع من الزهر والفاكهة والشجر. عن أهل دمشق وكيف كانوا يستعدون للشتاء. عن الثلج وتخزينه للصيف. عن قافلات دمشق، وعن صناعاتها التي اشتهرت في أرجاء العالم، وسارت بها القوافل. مع كل طرفة ونادرة وحكاية وشعر وفائدة.

(34) **منامات الوهراني وحكاياته، الشيخ ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، تحقيق، د. منذر الحايك، تقديم أ. د. سهيل زكار، 2011م.**